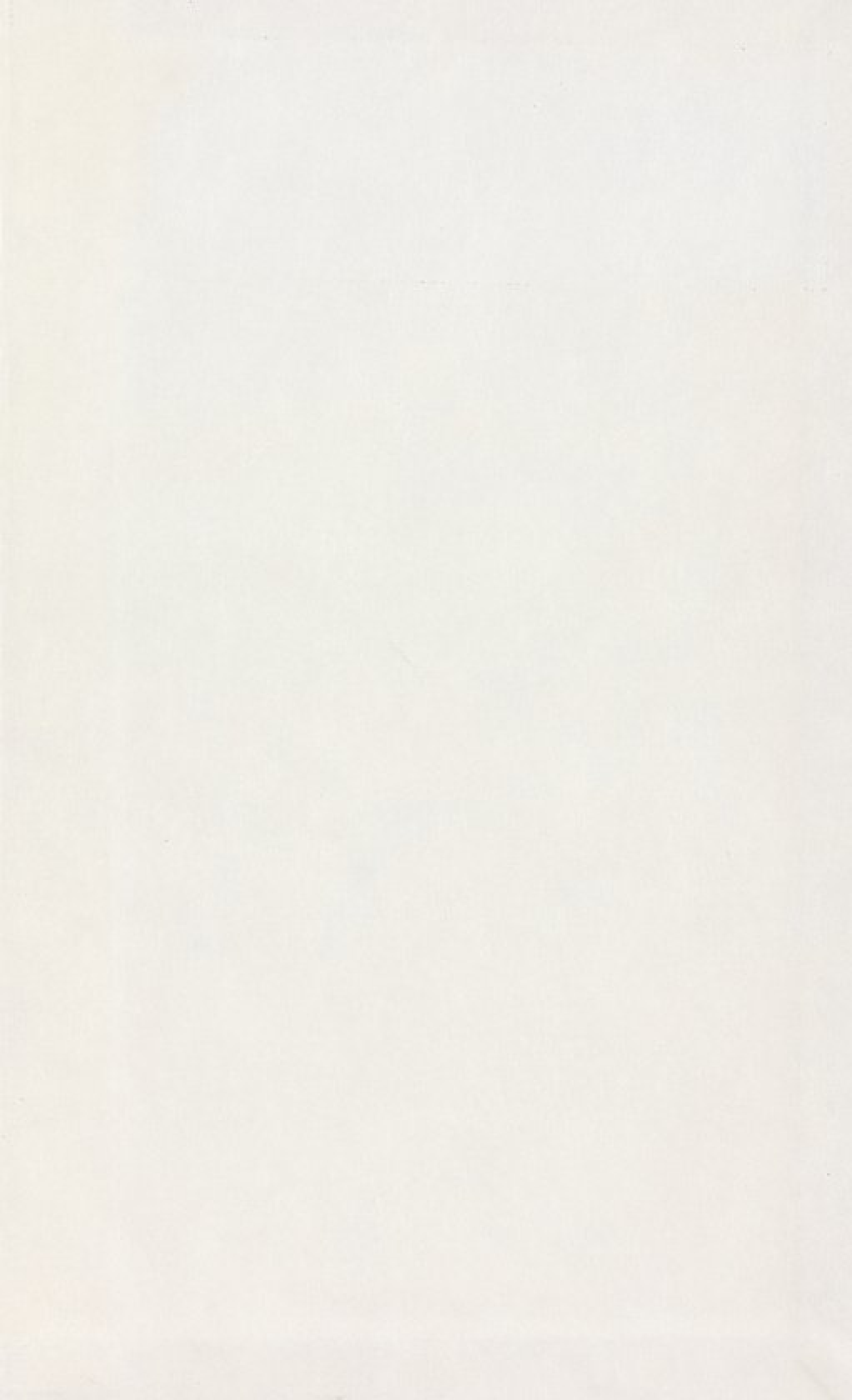
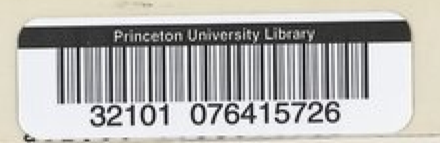
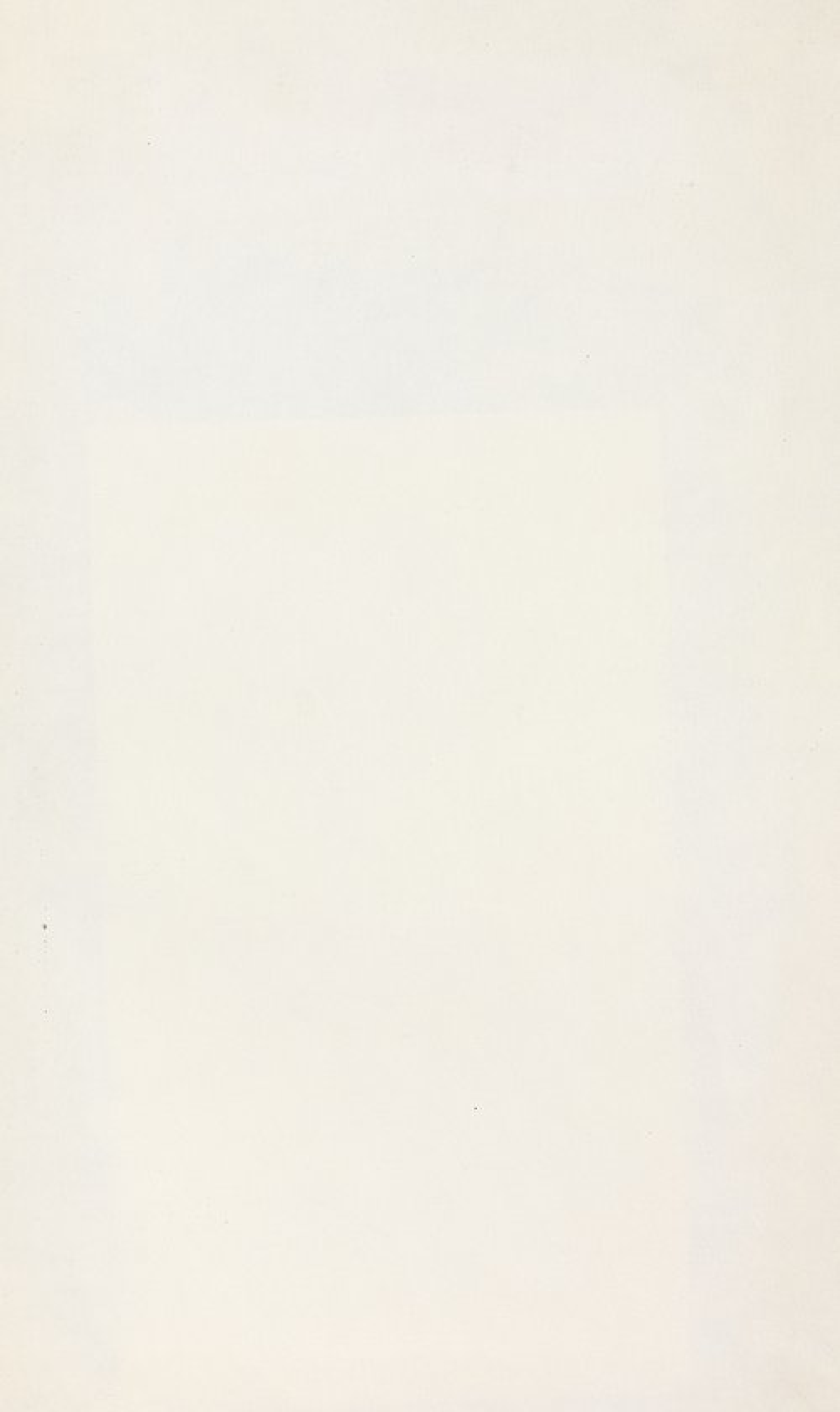
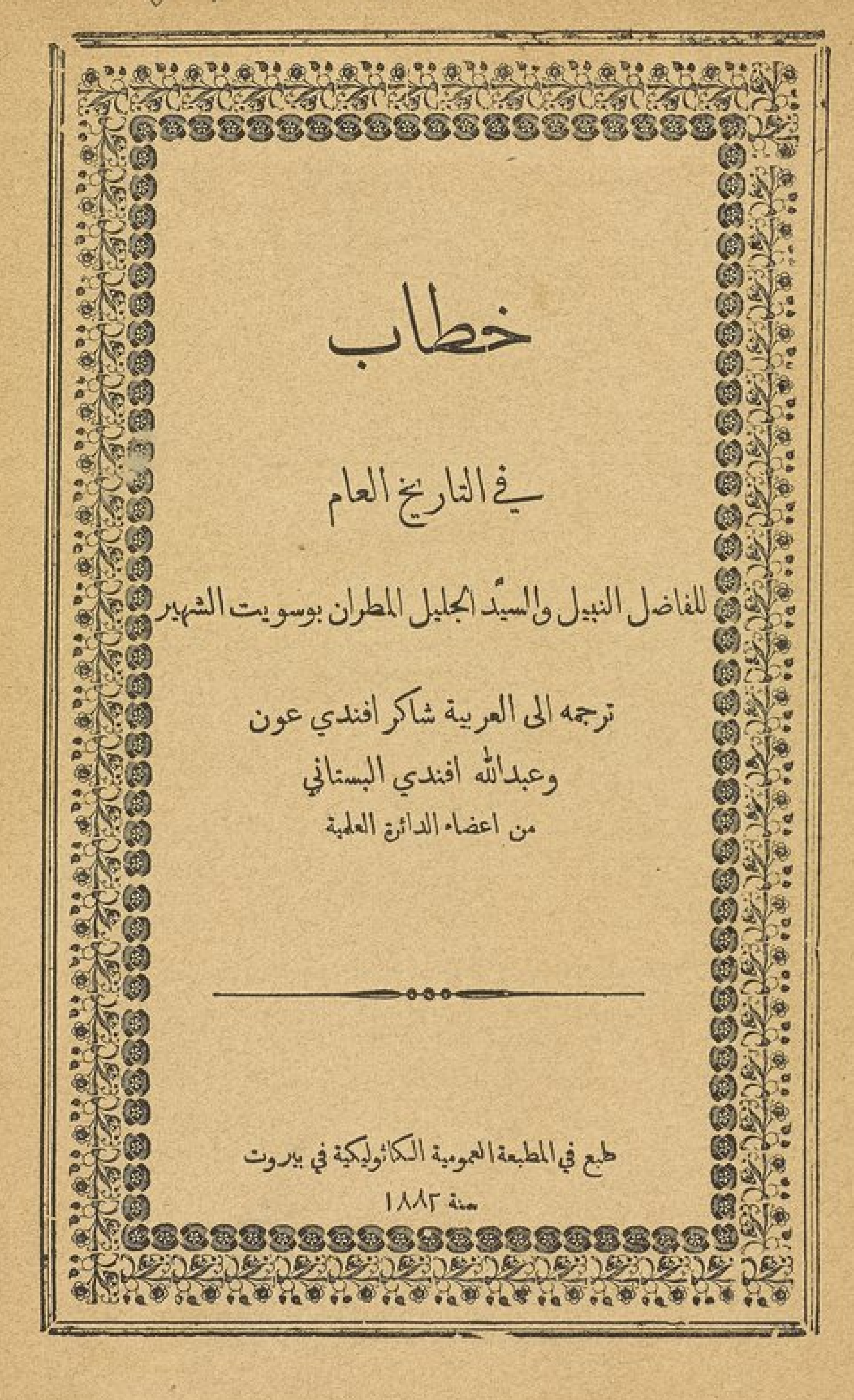





Princeton University Library
32101 076415726





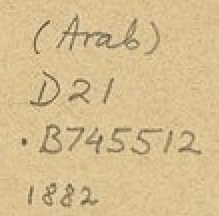
خطاب

في التاريخ العام

للفاضل النبيل والسيد الجليل المطران بوسويت الشهير

ترجمه الى العربية شاكر افندي عون
وعبدالله افندي البستاني
من اعضاء الدائرة العلمية

طبع في المطبعة العمومية الكاثوليكية في بيروت
سنة ١٨٨٢


(Arab)
D21
.B745512
1882

المقدمة

الحمد لله الذي الهم الخلف . بكتابة اعمال السلف . وجعل التاريخ تذكرةً للمتقدمين وتبصرةً للمتاخرين وبعدُ فلا يذهبُ عن ذوي الاستبصار ان فن التاريخ ذو جدواه عميم يتذرَّع بهِ المرء الى ادراك الطوارىء الغابرة ويتنكَّب بهِ عن المزلات التي التت بكثيرين الى مهاوي الضِلَّة غيرانهُ غدا عزيزًا في امصارنا يكاد لا يكون امرًا مذكورًا . مع ان علماء الغرب بسطوا لهُ من العناية مهادًا رحيبًا وأثاروا في شانهِ كل فكرةٍ وقّادة فجاءت مولفاتهم فيه صادقة الرواية يطيش سهم النقّاد لديها ويرتاح اليها كلّ بصيرٍ متشوّفٍ الى الانباء الخالية . فأدى بنا الامران نتحدّى كتبهم ونستظهر بها لدن بث الاخبار الخطيرة ولاسيما سوابق العصور وما وقع فيها من تأصُّل الشعوب وتقلبات الدول . على ان ترجمة الكتب الكبيرة تستغرق من الزمان مدىً فسيحًا وتبذل في سبيل طبعها نفقاتٌ وافرة . فبعد ان صرف الروية في امر ذلك ذو الهمة الباذخة والعزمة الراسخة من لا يعلق بهِ فتورٌ عن إذاعة العرفان في اصقاعنا العربيَّة العالم العامل والحبر الفاضل السيّد يوسف الدبس رئيس اساقفة بيروت ورئيس الدائرة العلمية ورأى ان من انفع الكتب في هذا الباب الكتاب النفيس الذي وضعهُ لولي عهد ملك الفرنسيس الحبر النبيل والسيد الجليل بوسويت الشهير اسقف مدينة (مو) اوعز الينا بترجمتهِ من الافرنسية الى العربية فتلافينا ايعازهُ بالاصاخة والرضوخ وتطفلنا على ذلك الشان رازحين تحت عبء باهظٍ لا يقوم بهِ من كان نظيرنا لشعورنا بانّا قاصرون عن توخي هذه المأثرة . ولا ريب ان هذا الكتاب كشّاف اسرار البلاغة وصائغ عسجد المعاني ابهج صياغة فلقد سلك بهِ مولفهُ المسلك الغريب وسبكهُ في قالب عجيب . فانه اوعب فيهِ بوجيز العبارة وخفية الاشارة الحوادث الدينية والمدنية من لدن آدم ابي البشر الى عهد كرلوس الاكبر . ففي الجزء الاول منه ابان ان لم يطرأ حادث في الكائنات الاّ باذن فاطر الارض والسموات . وان احتدام الحروب الرائعة وتغيير عادات الشعوب في الشوءون السياسية والادبية مما يودّي الى الغاية

التي وضعها عزّ وجل . وفي الجزء الثاني انبأنا بتواتر الحوادث الدينية ان العناية الصمدية قادت النوع الانساني من حال الى اخرى فاوصلتهم الى المسيح الذي هبط الى الارض فسنّ شريعةً ازلية بدلاً من الشريعة الموسوية . وفي الجزء الثالث اشعرنا بارتفاع الممالك وهبوطها ان العناية الالهية كانت تدبر الامور لتكون توطئةً لاذاعة الانجيل والدين المسيحي وان الممالك الكبيرة اصبحت في غنىً عن توحيد الشرائع والعادات واللسان بعد ان توطدت اركان الدين على البسيطة . وقصارى القول ان هذا الكتاب بمثابة تبصرةٍ للمتأخرين وتذكرةٍ للمتقدمين فنسأل الله ان ينفع به مطالعيه وانّا لنرجوهم ان يعاملونا بالرفق ويسدلوا على ما يعثرون من الاغلاط سجاف الستر والمعذرة فان لله العصمة وليس لغيره الكمال



خطاب

✵ في التاريخ العام ✵

* بُسِطَ لدى ولي عهد فرنسا *

مقدمــة

في غاية تاليف هذا التاريخ وتجزئتهِ الى ثلاثة اجزاء

ان التاريخ ولو قدّر انهُ غير مأجورٍ على نفعهِ لعامّة الناس فلا نُدحة للملوك ان يضربوا بينهم وبين مطالعته ستارًا . فانهم لا يعثرون على وسيلةٍ بينةٍ سواه تنشر لديهم ما طوتهُ الاهواء والاغراض وحنب الايام وحادثاتها والآراء سديدة اوخاملة . وليست مؤلفات التاريخ من سوى مألوفات اعالم الخالية . ولا تحرز الأَ ما يعود عليهم بالنفع العظيم . وان قضي لهم ان الاخبار يفتح لهم ابواب الحصافة والحكمة ليلجوا صروح الاحكام عادلين فمن اهمّ الشؤون ان لا ينبذوهُ ظهريًّا بل يقتضي ان ينسبوا الى ما عانوا منهُ في سالف الدهر ما ينهكّون فيهِ وهم منغمسون في نعيمِ احكامهم طول ايامهم المتواترة . ولا يندّ عنهم ان عكوفهم على علم التاريخ محجّة تؤدّيهم الى تعزيز ولائهم دون ان يغالوا في ترّهات الخطر المبين لدى وقوفهم على الحوادث الغابرة فذلك يصدّهم عن ولاء احوالٍ يشرفون بها على المخاطر بنفقة مرئوسيهم والثناء مجدهم الخاص الى مهاوي الانثلال . حتى اذا ما حامت طيور بصائرهم على ما كان مطويًّا من مساوىء الملوك الظاعنين ورأوا ان اطروفات الثناء عليهم كانت منظومة في اسلاك الذهان عنّت لهم بذلك عبرةٌ وخامرهم الاستحياء بسرعةٍ زاهقة سببتها المصانعة والتدليس وعلموا ان السؤدد موكولٌ اليهِ ما يترتب من الاهليّة والاستحقاق

ومن الامور التي تبعث على الاستحياء وهي التي لا تعي في دائرتها الملوك فقط بل تستغرق افراد الانسان الذين يزايلون مفاوز الخشونة ويتطرّقون الى مسالك المدنية

ان تذهب عن المرء معرفة شؤون الذين هم من طينته والعلم باحوالٍ ذات بالٍ طرأت على تواتر الايام في العالم . وان لم يقف المرء في التاريخ على مباينة الازمنة عن بعضها ركبَ متن الشطط والعثور ووهم ان البشر كانوا في عهد النواميس الطبيعية او في عهد النواميس الموسوية كما يراهم الان في عهد الشريعة الانجيلية . ولا يبعد عنهُ ان يذكر الفرس ايام كانت تغتالهم ايادي الذلة مدحورين في عهد الاسكندر العظيم مثل ان يذكرهم رافعين لواء الغنيمة والظفر في زمان قورش الملك . ويزعم ان بلاد اليونان كانت تترعرع فيها اغصان الحريَّة في ايام الملك فيلبوس المكدوني مثل ان كانت في ايام تيميستوكل وملسياد وان الرومانيين كانت الشهامة تهبُّ في هامهم ايام الامبراطورين مثل ان كانت تهبُّ في عهد القناصل وان البيعة كانت رائعة في بحبوحة الأَمن والسكينة في عهد ديوكليسيانوس مثل ان كانت في عهد الملك قسطنطين . وان فرنسا التي احتدم فيها وطيس الهيجاء الاهلية يوم كان على صهوة عرشها الملكان كارلوس التاسع وهنريكس الثالث قد تبوَّأت من الصولة مكانةً باذخة مثلما كانت في عهد الملك لويس الرابع عشر فلا ريب انها خلت في عهد هذا الملك المصور من ادران الشقاق ونهضت بهِ من حضيض الخسف الى ذرى المجد والعزَّة فاصبحت على اوربا قاطبةً مستظهرة . فيامولاي ان ما طالما استفرانهُ من التواريخ قديمةً وحديثة كان ذريعةً تقيك من تلك الغوائل . اما نحن فلن يبرح عنا ان نحيط علمك بتاريخ شعب الله الذي هو ركن الدين وعماده . وقد رسخت قدماً في معرفة تاريخ اليونان والرومان ولم نغادرك ذاهلاً عن فرنسا العظمى التي انت مندوبٌ ان توسع خطا سعادتها

وقد دار في خلدنا ان نرفع اليك خلاصة سلسلة الاعصار خيفة ان يتلبس لديك ما علمته من التاريخ بما ستعلمه منه اذ لايغيب عنك ان نسبة التاريخ الكلي بالنظر الى كل بلد وشعب كنسبة رسوم الخطط الكلية بالنظر الى الجزئية . فانك لاترى في الرسوم الجزئية سوى ما تحيط بهِ دائرة الرسم من مملكة واحدة او اقليم واحد لكنك تقف في الرسوم الكلية على معرفة اجزاء الارض بالنسبة الى مجموعها فيعود عليك ذلك بفائدة كبرى تريك مثلاً ما تكون باريس او اقليم (ايل دي فرنس) بالنسبة الى المملكة الافرنسية وما تكون هذه المملكة بالنسبة الى اوربا وما تكون اوربا بالنسبة الى البسيطة فمن ذلك دليلٌ على ان التواريخ الجزئية تدني المطالع من معرفة تسلسل الاشياء مفصّلةً

منوطة بشعب واحد . فالذي يسميك معرفة في الامور الكلية ما يكون رباطًا بين تاريخ واخر ولا يبرز ذلك الى حيز الوجود سوى تاريخ مختصر يحوي تسلسل الاجيال كلها فيرفّ عليها طائر الذهن لحةً واحدة فيكون فيه مطمح عظيم لنظرك ولاسيما اذ ترى فيهِ الاجيال الغابرة تعود اليك في برهة دانية وتعلم كيف تتعاقب الممالك ولم تعبث بالدين براثن الدثار منذ بدء العالم الى هذه الايام بعد ان تعاقبت عليهِ ممالك متفاوتة

ويلزمك ان لا تطوي كشحًا عن ان تستظهر هذين الامرين اعني الدين والحكم السياسي اللذين هما كمحور تدور عليهِ الاحوال البشرية . فكلُّ من سرَّح طِرفَ طرفهِ في هذا التاريخ الموجز وتفرّس في ما اودع من الحوادث اتضحت لهُ سلسلة الاعصار ونظام الكون ورأى ان عقلهُ يعي الامور العظمى فحسب انهُ قابضٌ على ازمّة الدنيا باسرها وتخيَّل لديهِ انهُ يجالح خطّة جيلهِ الضيقة منبعثًا الى الوقوف على كنه الاعصار الدابرة كمن يرى في الرسوم الكلية انهُ يزايل المكانة التي هي مسقط راسهِ والموضع الذي يكون فيه خالمًا فيجوب جواد فكرهِ الامصار كافة ويستقصي بحارها الزاخرة واراضيها الشاسعة ولكي تقوى حافظتهُ على معرفة المحالّ يقتضي لهُ ان يستظهر حاضرات المدائن ويعزو اليها ما يكتنفها كلاًّ حسب مسافتهِ ويعكف في تسلسل الاجيال على الاعصار الخالية ويتبرى لما اشتهر من ازمنتها الاصلية بالحادثات الكبرى فيجعلها موضوعًا ينسب اليه سائرها وذلك ما يدعى محطًا يكون للمرءِ موقفًا يتشوّف منهُ الى الطوارىء السابقة واللاحقة ويامن بذلك ان يجنف عن الجادة القويمة الى العثور في تاريخ الازمنة

اما الان فلا نقصّر الهمة عن استقصاء بعض اعصار اودعها التاريخ القديم وهي

اولاً	آدم او التكوين
ثانيًا	نوح او الطوفان
ثالثًا	دعوة ابراهيم او بداءة معاهدة الله للبشر
رابعًا	موسى او السنّة المكتتبة
خامسًا	افتتاح تروادة
سادسًا	سليمان او بناء الهيكل
سابعًا	روميلوس او تاسيس رومة
ثامنًا	قورش او انقاذ شعب الله من سبي بابل

تاسعًا　سيبيون او انخذال قرطاجنة

عاشرًا　مولد يسوع المسيح

حادي عشر　قسطنطين او سلام البيعة

ثاني عشر　كارلوس العظيم او تشييد الامبراطورية الجديدة

ولقد جعلت لك تشييد الامبراطورية الجديدة في عهد الملك كارلوس العظيم كنهاية للتاريخ القديم اذ ينجلي منهُ انقراض دولة الرومان القديمة وبناء عليهِ لم يكن من المهم الّا ان اوقفك في هذا الزمن الذي يتلقى التاريخ العام اهميتهُ بالمبرّة والكرامة وننبئك عمّا يليهِ بجزء اخر يجعلك تتدرج الى هذا العصر الشهير الذي تكلل راسهُ باعمال ابيك المأثورة . وان اقتداءك بهِ انموذجًا يوطد آمالنا على ان ننال مجدًا جديدًا . ولقد سوّل لي الخاطر بعد ان ابثّ لك من هذا التاريخ مقصدًا جليلاً ان لا اجنح عن ثلاثة اشياء يتوفر لنا منها كبير عائدة وهي . عليّ ان افري معك الاعصار التي احاط بها علمك واكشف لك بوجيز الكلام الغشاء عن حوادث خطيرة تدعوك ان تنيطها بكل من هذه الازمنة وان اعوّد ذهنك على ان يلقي الحوادث الى محالها عاكفًا على نظام الازمنة

وبما ان قصارى الامر ان افيدك بالجادّة التي تنبيك بتواتر الحقب تسلسل الامور الدينية والممالك العظيمة بعد ان طابقت الحوادث التي تختص بالدين والممالك على تسيار الاعوام انتدبتُ الى ان اعود مدققًا بنوع خاص الى كل ما ينبئنا عن حيوة الدين المستمرة وما يوصلنا الى معرفة الاسباب التي دارت بها رحى التقلبات في الدول العظمى ولا نتمكن من ذلك الّا بعد ان نتحرّى الاحوال التي تتعلق بهذين الامرين حسب مسير الاعوام الغابرة ! حتى اذا ما انبريت لمطالعة ما تروم من التاريخ قديمًا او حديثًا دانت لديك الفائدة وعرفت لكل امرٍ مقدورٍ عاقبةً كبيرة وخامرك العجب العجاب من توالي الاحكام الالهية في الامور الدينية فتقف اذ ذاك على تسلسل الاحوال البشرية وما يقتضي لتدبيرها من التبصّر والحكمة الشاهقة

الجزء الاول

في الاعصار او تسلسل الاجيال

العصر الاول

في ادم او التكوين

الاجل الاول للعالم

مشهدٌ عظيمٌ في ذا العصر تحار لدنه الفكر فان الله فطرَ فيهِ السموات والارضين بكلمتهِ السامية وبرأَ الانسان على مثالهِ (٤٠٠٤ (١) ٤٩٦٣ (٢)) ومنهُ بدا تاريخ موسى مبرزًا ايات الحكمة فيصلاً للحق وأقدمَ المورخين واقام لما سطَّر وما علَّم وما نصَّ من الناموس عمادًا قويمًا ذلك عصرٌ يعلن ان لفيف الأُناس كانوا في طيّ انسان واحداً ستنصلت منهُ المرأة وان عقد الزفاف ورباط الالفة البشرية موقوفين على ذلك وان الانسان متسلقٌ الى ذروة الكمال ما دام لصورة الله حافظًا وان الله سخَّر له الحيوانات طرًّا وان عصر الشعراء الذهبي يستودع ذكرى المبرَّة والسعادة اللتين اقصاها عن ابوينا الاولين في الفردوس نقضُ الوصية العالية وان روح الخناس الخائنة ولجت داخل الثعبان فهبط ابوانا هبوطًا لحقَ بنسلها اجمعين واقام ذو العدل العقاب عدلاً في ذرية نسل الانسان الاول واضرم نيران رجزهِ على الجنس البشري ثم وعدهم بالفداء وعداً اولاً فلم يكونوا الاَّ لينقموا من الطاغي الذميم ويعسوا عليه مستظهرين

وقد امتد بساط الارض واخذت الناس تمرح عليهِ كثيرًا وزادت جرائر العابرين فأرى قايين البكرُ الناس المحدثين دماءً مهراقةً امامهم فكان اول القاتلين (٣) (٢٨٧٥-٤٨٣٢) فشرعت الرذائل ترصد للفضائل من ذلك الوقت اضطهاداً شديدًا فانجلت من ثمَّ لدى الابصار مباينة السجايا في الاخوين فكان هابيل برًّا صدوقًا

---

(١) حسب راي بوسويت (٢) حسب كتاب يقال لهُ فنُّ تحقيق الاعوام

(٣) تكوين فصل ٤ ع ١ و٣ و٤ و٨

يعيش راعيًا للمواشي قدَّم قربانه لله فحاز من لدنه قبولاً وكان قايين غائصًا في عباب الخسَّة والدناءة اقام القربان لله فانسح عليه عناكب الاهمال مرذولاً فبعثه الحسد على الايقاع باخيهِ قتلاً فعاقبهُ الله اليًا وزأرت الشعلة في ضميرهِ وبلاً وثبورًا مستمرًا فاخذ يهيم على وجههِ تائهًا ليتوارى من غضب الجنس البشري له وانتقامه منه فشاد ذلك العتلُّ اللئيم مدينة هي اول المدائن ليلوذ بها متواريًا من حنق الجنس البشري منهُ واخترع بنوه بعض ما تدور بهِ رحى صناعتهم وحكمت فيهم الاهواء النفسيَّة عسفًا وتهافت الجنس البشري على الشر وامتلأت القلوب مكرًا غريبًا لكنما برز ثمَّة قسرًا عن ذلك الفساد اعقابٌ لشيت طابوا سريرةً واخلصوا النية لله وتخلَّص احنوخ من بين الملاء الذين لايستفقون ان يكون في حوزتهم صاعدًا من بينهم بامرٍ لايتنزَّه عن الخوارق (٣٠١٧-٢٩٧٨) وانفرز اولاد الله عن اولاد الانسان اي الذين يرضخون لاحكام الجسد عمن يرضخون لاحكام النفس بيد انهم امتزجوا فيما بعد واخذوا يعثون مسفدين فهاج عليهم الغضب من لدنهُ تعالى فاعتمد هلاكهم بحكمهِ العادل واوعز الى عبدهِ نوح ان انذرهم هلاكًا رائمًا ان لبثوا معتسفين عن السابلة القويمة (٢٤٦٨-٢٤٢٨) فلم يرعووا عن غيهم بل تصلدت قلوبهم فانزل عليهم السيل مدرارًا واغرقهم في غمرة الطوفان هالكين (٢٣٤٨-٢٣٠٨) وانقذ من ذلك نوحًا وآل بيتهِ ليكونوا ذخرًا يتولد منه جنس البشر. فذلك ما حدث مدة ١٦٥٦ سنة وتلك بداءة التواريخ طرًّا ولاحت قدرة المهيمن المتعال واتضحت حكمته الرفيعة وجودته الفائقة واصبح عفُّ الإزار مجودًا تحت اكنافهِ وحليف الارجاس مرضوضًا تحت اثقال نقمتهِ غير انهُ لم ييأس من اياب الاثيم الى التوبة . وبدا للانسان اسمى مثابة من العظمة والرفعة لدن فطرتهِ وامتاز بخلتهِ منذ دخل وليجة المفاسد وظهر جنوحهُ الى البغضاء والحسد فامتار سيف الظلم وانتشر ما كان مطويًا من الاسباب الداعية الى اصلاء نيران المظالم والفتن وبايجاز القول تبينت مبادي، الدين والآداب

وانقذ نوح مع النوع الانساني اثار الصنائع التي كان بنو الانسان يمارسونها منذ فطرتهم وهي قوام للمعاش والملاذ او التي قد اخترعوها فيما بعد فامَّا الصنائع التي كانوا يعرفونها بداءة بدءِ وهي فن الزراعة والرعاءة ولبس الكساء وربما فن البناء ايضًا فقد يلوح انهم تعلموها من الباري ولهذا لانرى بداءة هذه الفنون في ارجاء المشرق حيث

امتدت الاجناس البشرية (١)

اما خبر الطوفان العام فقد تدولته الالسن في اقطار البسيطة كلها واصبحت السفينة التي كانت ملجأ لنوح وآله تلهج بذكرها الالسنة في الشرق ولاسيما في الانحاء التي استوت عليها بعد نضوب الماء فهذه الحوادث كلها مسطرة في باطن تاريخ السنين ومروية في تقليدات الشعوب الغارطة فان الاعصار ليست عريّة من المطابقة لبعضها فما حدث من الشؤون في الاعصار الآتية ينسب الى ما طرأ في الاجيال الماضية

العصر الثاني

في الكلام عن نوح او الطوفان

(الاجل الثاني للعالم)

اخذت آجال الناس تقصر بعد الطوفان ٢٣٤٨-٢٢٠٨ وطفقوا يستبدلون امر المعيشة (٢٢٠٧-٢٢٤٧) فتخيروا لهم قوتاً جديداً بعد ان كانوا يلتهمون ثمار الحقول. ومنح الله نوحاً بعض وصايا شفاهاً وذهبت من البرية خلال الضعة فشرعوا يتشامخون خيلاء وكبراً فعلقوا يبنون لهم برجاً في بابل شاهقاً ينطحُ روق السماء فتلجلجت السنتهم متبلبلة (٢٩٠٧-٢٢٤٧) فدل ذلك البناء على استغراقهم في سبات الكبرياء وخمول آرائهم معاً. ولعبت باولاد نوح الثلاثة اكفُّ التفريق فتقاصوا في بطون الارض فاجتزأت بهم اجتزاءً أولاً. وكانوا اصولاً تفرعت منها الامم والشعوب وترطبت السنة الانام بذكرهم خالداً

اما يافث فقد امتلأت اقاصي الغرب من نسله واستمر معروفاً ما بينهم بلقب يابت الشهير. واشتهر حام وابنة كنعان ما بين المصريين والفينيقيين. ونشر العبرانيون ذكر سام اصل نشأتهم مدى الدوران

وبعد ان افترق بنو الطينة في بطاح الارض نشأ رجلٌ يقال له نمرود كان ذا خلة شرسة فاخذ يكدح في ان يفتح المدائن فكان اول الفاتحين وهكذا كان ابتداء

---

(١) تكوين ص ٢ ع ١٠ ص ٣ ع ١٧-١٨-١٩

الفتوحات ورفع لواء حكمه فوق بابل (١) حيث كان المتمردون عازمين عزماً لا يشوبه الوهن ان يبنوا ذلك البرج الذي اخطأ السهم به دون مرامهم

وقامت في ذلك الحين اعمدة نينوا العظمى وتأسست بعض ممالك قديمة كانت حقيرة في تلك الازمنة فقد كان في مصر وحدها اربع ممالك وهي تاب وتان وممفيس وتانيس التي كانت قاعدة لمصر السفلى ويمكن لنا ان نعزو الى ذلك العصر ابتداء نواميس المصريين ورفعة اهرامهم التي لم يطوها الى الان كرور الايام وابتداء نشأة المراصد الفلكية المنوطة بهم وبالكلدانيين (٢٨٩٢ـ ٢٢٣٢) ولذلك نرى ان رقبان النجوم لا يتخطى ذاك الحين وان الكلدانيين الذين ملكوا ناصية ذاك الفن وفاقوا سواهم به قد خولوا كليستين اياه ليبقيه لارسطو ذخراً

لابدَّ من ان يكون كل شيء قد ابتدأ ودليلُ ذاك انهُ لا يتلقفُ احدٌ تاريخاً قديماً الاَّ يعثر فيه سواء كان في ما عبر من الاعصار او فيما سيأتي منها على آثار بينة تدلُّ على ان العالم حادث وانهُ يرى فيه كيف تسنُّ الشرائع وتتدمث الاخلاق وتتكون الممالك وانهُ يخرج من دياجي الجهالة رويداً رويداً ويمهد لهُ الاختبار سبيلاً يجعلهُ بصيراً بالامور واحمل لعبء التدبير ويؤهله من الاستطاعة على اختراع الصنائع او تحسينها

وكلما كثر البشر فوق بساط الارض اصبحت تمتلىء رويداً رويداً فانهم كانوا من قبلُ يدوّخون قنن الجبال الراسخة ويبطنون الوهاد ويعبرون الانهار والبحار ويشيدون مواطن جديدة تقيهم من لوافح الحر ونوافح البرد فان الارض لم تكن اذ ذاك الاَّ قفراً وخلعت ثوبها السمج ورفلت ببرد هيأ لها رونقاً وجمالاً . فقد جذمت عن عاتقها الاشجار وامست مزدرعاً ومسرحاً ترتعي فيه المواشي وتربةً تقام عليها الدساكر والقرى والمدائن واخذ بنو الانسان يتعلمون ان يقتنصوا نوع الحيوان فدجنوا بعض ما اقتنصوا واستخدموه قنيةً لهم وطفقوا يصارعون الضواري ويناوون اقوياءها فنال بذلك صناديدهم اعلام الظفر وبعثهم ذلك على اختراع اسلحة ندبتهم فيما بعد الى ان يتقاتلوا بها فذاع حينئذٍ ذكر نمرود وسبق الابطال بافتتاح المغلقات فدعاه الكتاب المقدس جباراً صياداً .

وكما ان الانسان كانت لهُ الجُرأَة على اقتحام الحيوانات وتدجينها افضى به ذكاؤه

---

(١) تكوين ص ١٠ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١١

الى تحلية الثمار وتأهيل النبات واخضاع المعادن لمنفعته واستخدم رويداً رويداً من ثم الطبيعة باسرها . ولما كان من الطبع ان الوقت يدرّجه الى اختراع اشياء جمة قد ابرح تقادم الايام كثيراً منها من بالهوان ما ابقاه نوح من الصنائع الاولى لنسله كان مرعيا بكامله حيث ثوى النوع الانساني اولاً لكنما اصبحت الايام تغتاله كلما كانوا يتقاصون عن تلك الانحاء فصار من متبادر الامر اما ان يتثنوا اليها عاكفين على تعلمها او ان الذين رسخت في ادمغتهم يطرحون بها اليهم وبناء عليه نرى ان كل شيء قد تاتى من تلك الامصار التي ما برحت منقطونة . ولما كانت مبادىء الصناعة جمة ما بينهم كان الناس يقتبسون كل يوم اموراً ذات بال لم يروا لهم مندوحة عنها . وفضلاً عن ذلك فان معرفة الله وذكر التكوين لم يكونوا يسدلون عليها حجاب النسيان في بادىء الامر لكنما هوّروها في ما بعد الى وهاد الاهمال وغادروها نسياً منسيًا واخذت التقليدات تتناسى ويغشيها حجاب الظلام وقفتها خزعبلات لم ترع منها سوى تصورات سمجة فغشت الالهة وذلك ما بعث الاله الحق على دعوة ابراهيم

العصر الثالث

في دعوة ابراهيم او معاهدة الله للبشر

(الاجل الثالث للعالم)

لما رأى الله ان الشعوب كانت تجمع بهم اهواؤهم الى فيافي الجحد والانكار وانهم ركبوا مطايا الكفر والطغيان جانفين عن جادة الحق اصطفى له شعباً من بينهم متورعًا يذلل فيهم تلك الخلال السيئة وذلك بعد ان توالت على الطوفان اربعماية وست وعشرون سنة فاختار من بينهم ابراهيم خليلاً صفيًا له ليكون جرثومةً يخرج منها المؤمنون (٢٢٩٦-١٩٣١) فاوعز اليه ان يوافي ارض كنعان حيث يكرس فيها عبادته ووعده بان نسله ينمو كثيراً فيفوق نجوم السماء ورمال البحار عددًا وانه يمنحه الارض التي ولد فيها لتكون مثوى له ولسائر اخلافه من بعده واعظم من ذلك ان يسوع المسيح ياتي من ذريته فيكون بركةً علويةً تحل على الشعب الذي برح فوق بساط الارض فلاريب في ان يسوع المسيح هو الذي ابرزله ابراهيم مآثر الاكرام بشخص الحبر ملكيصادق الذي مثله واسدى اليه

عشر الغنيمة التي انتزعها من الملوك الذين ارهبتهم مخالب الظفر ومن لدنهُ وحده قد حظي بالبركة

ولا يخفى ان ابراهيم كان عظيم الشوكة غائصًا في لجة الترف ورغد العيش ومالكًا من حطام الدنيا وحذافيرها مالا يتجاوزه ذوو العروش السنيعة ومع ذلك فلم يدع لعوائد القديمة بواعث تحملهُ على اسرارها في زوايا الاهمال فلم يكن متأنقًا بالملبوس والمطعوم وكان ذا عيشة رعائية سذجًا بيد انهُ لم يكن يغادر الكرم جانبًا يوم كان يقري المتضيفين

وبعث اليه العلي ضيوفًا (٢٢٦٧ - ١٨٥٦) وانذره الملائكة بمآرب الرب فاذعن للانذار مومنًا ولاحت عليهِ سمات التقى والبرّ والامانة ونهض في عصره ايناخوس اقدم ملوك اليونان قاطبةً وشاد مملكة ارغوس .

وقد خلف ابراهيم ابنهُ اسحق وحفيده يعقوب اللذان لم يكونا الاَّ ليقتديا بامانة ذلك الاب الصدوق فانهما كانا عائشين عيشتهُ الرعائية واعاد الله عليهما المواعيد ذاتها التي وعده بها وقادهما في كل شيء كما كان يفتقدهُ برحمتهِ العلوية فبارك اسحق يعقوب الاصغر بدلاً من اخيهِ عيسو البكر (٢١٢٩-١٧٥٩) وان حسب الناس ذلك زهقًا منهُ وشططًا فانهُ قد اتم مآرب العليّ وقرر ميراث الشعبين ولم يكن ذلك الاَّ امرًا مقدورًا .

واما عيسو فقد لقب بادوم فخرج منهُ قومٌ يقال لهم الادوميون . واما يعقوب فكان برعاه الله وياخذ بيده ففاق اخاه عيسو بكل ما يجنح اليهِ فكره . وازحف عليهِ الملك ففاتلهُ قتالاً ممثلًا اسرارًا ودعاه من بعد ذلك اسرائيل فقيل لاخلافهِ اسرائيليون ونشأ منهُ اثنى عشر ابًا كانوا روساء لاثنتي عشرة قبيلةً عبرانيةً ومنهم لاوي فجاءَ لهُ اخلافٌ يقال لهم لاويون فانهم كانوا ينهمكون في خدمة الاسرار الالهية .

ومنهم يهوذا الذي نشأ منهُ النسل الملوكي ويسوع المسيح ملك الملوك وسيد السادات ويوسف الذي ارّفت عليهِ عواطف ابيهِ فانهُ ارقاه الى اعلى مكانة من الاعزاز والاكرام فوق سائر اخوته .

وعلينا ان نستلفت الانظار الى هذه المدرجة العظمى لنرى ان الحكمة الالهية ابرزت اسرارًا جديدة . فيتضح برّ يوسف وطيب سريرته وفرط حكمتهِ واذلالهُ الرذايل بحسام

ذكائهِ الثاقب واهتمامه بفاولها في خوته واحلامهُ السرية والنبوية وصيرورتهُ عرضة لحسد اخوتهِ كما كان قايين (١٧٢٨ ـ ٢٠٩٧) وبيع هذا الابي الصالح واصراره على الامانة نحو سيده . وعفافهُ الغريب الذي سبب له اضطهاداً عظيماً (١٧١٧ ـ ٢٠٩٢) وسجنهُ مغلولاً وثباتهُ ونبواتهُ وخلاصهُ العجيب من دركات السجن وتعبيره لاحلام فرعون (٢٧١٥ ـ ٢٢٠٩) واستبسالهُ والمعيشة السامية واستقامتهُ ورعاية الله له التي اتاحت له السلطة مسخرة ابان حلٍ وتبصره في ما سياتي من عواقب الامور واراؤه السديدة وقبضة في مصر السفلى على زمام السلطة المطلقة التي مكنتهُ من انقاذ ابيهِ واسرتهِ

اما بنو اسرائيل فقد نالوا الرضى والاعزاز من لدنه تعالى واتخذوا مصر موطناً لهم وقد كانت قاعدتها وقتئذٍ مدينة تنايس وكان ملوكها يلقبون بالفراعنة ٢٠٧٦ـ١٧٠٦ وبادهت المنية يعقوب ٢٠٥٩ـ١٦٨٩ وتنبأ عند احتضاره نبوة ذائعة الصيت ابان لاولاده فيها الحالة التي يتطرق اليها اخلافهم وابان ليهوذا زمن المخلص الذي ينشأ من نسلهِ فلم يمرّ على سراة يعقوب زمنٌ قصيرٌ الا اصبحوا شعباً تميد بهِ الارض فاحتدمت قلوب المصريين عليهم حسداً وبغياً وطفقوا يعاملونهم بالاساءة والجور ويطرحون الرحمة عنهم جانباً فاقام الله لهم موسى نصيراً ١٧٢٥ـ١٥٧١ واستلفت اليهِ انظار ابنة فرعون الهاماً فانقذتهُ من مياه النيل واذخرتهُ ابناً وقامت باعباء تثقيفهِ حسب حكمة المصريين وقد كان المصريون اذ ذاك يسيرون مهاجرين من ارضهم الى ارجاء مختلفة من اليونان . فقاد سيكروبس نحلةً من مصر الى هنالك بنت اثنتي عشرة مدينة او بالاحرى اثنتي عشرة قرية ١٦٤٢ـ١٥٥٦ تالفت منها مملكة اثينا فقرر فيها نواميس وطنهِ والالهة التي يؤدون لها العبادة في مصر وحدث في تسالية بعد ذلك بوجيزٍ من الزمن طوفان ديكاليون فتوسم اليونانيون انهُ الطوفان العرمرمي واتسع نطاق الحكم لهيلان بن دكاليون في جهة فيتيةٍ من بلاد تسالية فانتمى اليهِ اليونان في تلك الامصار فتلقبوا بالهيلانيين بعد ان كانوا يتقلبون بالكريك واما اللاتينيون فلم يحفلوا بذلك بل لبثوا يلقبونهم بالاسم القديم وبمقربةٍ من ذلك العصر ارتحل كادموس بن اجينور بنحلةٍ فينيقية الى بلاد اليونان آخذاً معهُ آلهة سورية وفينيقية فوطد اركان تاب في بلاد بهوسيا واما موسى فقد كان وقتئذٍ يبلغ اشدهُ مترعرعاً فما وصل الى سن الاربعين من اجلهِ نبذ وراءهُ الترف والنعيم في البلاط الملوكي واستنهضتهُ مآثر الرحمة والرأفة لبزحزح الاثقال التي

كانت تعني اخوتهُ الاسرائيليين (١٥٣١-١٦٨٥) فتصدى للاخطار الويلة رجاء ان يملصهم من تلك الحبائل المكيدة لكنهم لم يكونوا ليغنموا فرصة غيرته ويتخذوا جرأته مجناً لهم بل الجأوا عليهِ غضب فرعون فولى مدبراً من تلك الاقطار الى جهة مدين من بلاد العرب فعاذ ثمة بملاذٍ اتاحه له التخوة لانقاذ المضطهدين فهذا الرجل العظيم سواءٌ كان يعزُّ رجاؤُهُ من خلاص شعبهِ او ينتظر زمناً يندبهُ الى ذلك قد عهمك في رعاية الضأن عند حميهِ بنحو اربعين سنة الى ان رأى العليقة ملتهبة ١٤٥١-١٦٤٦ في البادية فناجاه الله الهُ ابائهِ منها وبعثهُ الى مصر ليرفع نير الجور عن اعناق اخوتهِ فظهرت حينئذٍ مبرتهُ ودماثة اخلاقهِ وجرأتهُ وعجائبهُ وصلادة قلب فرعون والرزايا الهائلة التي احطها الله عليهِ والفصح وعبور البحر الاحمر وفرعون والمصريون تلعب بهم ايدي اللجة غارقين وانقاذ شعب الله من وهاد المسكنة فائزين

العصر الرابع

في الكلام عن موسى او السنة المكتتبة

(الاجل الرابع للعالم)

برزت السنة الى حيز الوجود فبدت على ايدي موسى ساطعة وذلك بعد دعوة ابراهيم السنة الاربعماية والثلاثين وفاقاً للسنة الثمانماية والست والخمسين بعد الطوفان وللسنة التي نزح فيها الشعب العبراني من اراضي مصر ١٦٤٥-١٤٩١ فان هذا التاريخ لهامٌ جداً لانهُ الوساطة الكبرى التي تدل على كل الازمنة الغابرة منذ موسى حتى يسوع المسيح وانه ليدعى زمان السنة المكتتبة تمييزاً لهُ من زمان السنة الطبيعية الذي لم يكن فيهِ للبشر وقتئذٍ من شكيمة سوى العقل الطبيعي واحاديث آبائهم

ولما اراح الله شعبه من اعنات المصريين وجورهم واقتادهم الى الارض التي اصطفاها منتدىً يعبدونه بهِ انزل عليهم قبل ان يطئوها السنَّة التي قضيَ عليهم برعايتها وكتب مبادئها بيدهِ على لوحين سلمها لموسى فوق ذروة جبل سينا وهي الوصايا العشر التي تترتب عليها عبادة ذي العزَّة والرحموت وتتوقف عليها دائرة الهيئة الاجتماعية

والقى عليه نواميس اخرى شاد حسب منطوقها قبة العهد رمزاً الى الزمان

الذي سياتي والتابوت ومما يدل على ان العلي كان يقطنه عجائبة الخارقة التي كانت تبدو بهِ وانباؤُهُ ايضًا بمكانة هارون اخيهِ الباذخة وكهنوته العظيم وحبريته الوحيدة التي انيطت بعهدتهِ وعهدة اخلافهِ وطقوس تكريسهم وهيئة كسائهم الرمزية ووظائف الكهنة اولاد هرون ووظائف اللاويين والفرائض الدينية التي يجب عليهم حفظها ولاسيما القواعد التي تكفل بتحسين عوائد شعبه المصطفى وحُسن ادارتهم الداخلية والخارجية وقد تواطأ هو نفسه لان يكون شارعهم اما الشعب فقد استمروا يطوون البوادي والقفار وزاغوا عن محجة العدل متمرّدين فاتخذوا لهم اصنامًا يعبدونها فانذرهم الله عذابًا اليمًا معاقبًا ثمَّ عاملهم بالحسنى رحومًا معزّيًا وقد كان يتفقدهم بعنايتهِ يتفقهم رويدًا رويدًا بكل واسطةٍ تعود عليهم بالنفع العميم وبعد ان فتكت بهرون مخالب الردى تبوأ ولده ايليعازار مكانة الحبرية رصينًا ١٦٠٥-١٤٥٢ وبدا دبيب الغيرة في فؤاد فينيس بن اليعازار فوعده الله بان يكون الكهنوت في حوزة اخلافهِ وفي ذاك الحين استمرَّ المصريون ينشرون نحلانهم في جهاتٍ متغايرةٍ ولاسيما في بلاد اليونان حيث دانوس المصري سلب الملك من الملوك الذين من ذرية اينوخوس واستوى ملكًا على عرش ارغوس واما العبرانيون ففي نهاية تسيارهم في البطاح والفيافي اصلوا نيران الهيجاء واغتنموا النصرة بدعاء موسى مصليًا معتزلاً وبعد ذلك مات ذلك الفاضل النزيه ١٦٠٥-١٤٥١ وترك للاسرائيليين كامل تاريخهم فانهُ اثابهُ الله نقرَّ في تاليفهِ مدققًا واوعاه كل ما حدث منذ بدء العالم الى يوم موتهِ وقد اتمهُ من بعدهِ يشوع وخلفاؤهُ واجتزئوه الى جملة اسفار منها سفر يشوع وسفر القضاة واسفار الملوك الاربعة

اما ذلك التاريخ فقد اوعب الناموس كاملاً وقُسم الى خمسة اسفار تحوي مبادىء الدين وبعد ان اغتالته طائلة الموت زأرت مواقد الحرب في عهد يشوع ١٥٩٩-١٤٤٥ وفتح الارض المقدسة مظفرًا وقسمها الى اقسام فعثا الشعب وتمرد وعوقب وتوطد مرارًا متتابعة ولدى ذلك جدَّ عُتنيئيل في منازلة اعدائهِ فانتصر فائزًا ورفع عن شعبهِ نير العبودية الذي القاه على عواتقهم كوشان ملك ارام ١٥٥٤-١٤٠٥ وبعد ان تقادم على ذلك من الحؤول ثمانون ظهرَ اهود على عجلون ملك مواب ١٤٩٦-١٣٢٥ وفي وشك ذلك الزمن حكم في بيلوبونيزيا بيلوبس الفريجياني ابن طنطال فتسمت تلك البلاد الشهيرة من ذاك الوقت باسمهِ ١٣٢٠-١٣٢٢

وقدم الكلدانيون لملكهم باعال عبادة المحبة وهبط الاسرائيليون الذين لم يرعوا جيلاً الى حضيض العبودية فان يابين ملك كنعان ضيّق عليهم سعة الارتياح وقهرهم اذلاء منكسين ١٤١٦ـ١٤٠٥ اما النبيئة دبُورَة التي كانت قاضيةً للشعب وباراق بن ابينوعم فقد استظهرا على سيسارا قائد شعب ذلك الملك العتي واحبطا سعية مدبراً ١٢٩٦ـ١٢٨٥ وبعد ان مرّ من ذلك الآن اربعون عاماً فاز جدعون دون قتال واقتفى آثار المديانيين واعمل بهم السيف الباتر ١٢٤٩ـ١٢٤٥ وقتل ابنة ابيمالك اخوته واختلس السلطة فدانت له صاغرة ١٢٠٩ـ١٢٣٦ وكان ملكاً جائراً لا يرعى للعدل جانباً فنزعت السلطة من يمينهِ وهلك غير ماجور عليهِ واما يفتاح ١١٨٧ـ١٢٤٢ فقد خضّب انتصارهُ بهرق دمٍ لا يمحقهُ الله التوبة عنهُ الأ بسرّ الحي لا يطرق اسماعنا النبأ عنهُ ولانحنُ الى كنههِ بمتوصلين وقد طرأ في ذلك الحين اشياء كثيرة بين الوثنيين يصبو اليها السمع لانهُ على حسب تاريخ هيرودوت الذي ترجحت صحته على غيرهِ يجب ان نحصر تاريخ نينوس بن باعال وانشاءهُ الاولى لدولة اثور بخمسماية واربع عشرة سنة قبل تشييد مدينة رومية وفي عهد دبورة ١٩٦٨ـ١٢٦٧ فان هذه الدولة العظيمة الشوكة والسامية العزة قد كان مركز صولتها في نينوى المدينة التي كانت شهيرة وقديمة (١) ومد اليها الملك نينوس يدهُ فارجبها ابنيةً وزين ظاهرها . فان المورخين الذين يزعمون ان دولة الاثوريين قد استمرت الفاً وثلثماية سنة ياخذون على ذلك دليلاً قدمية المدينة واما هيرودوت فانهُ يقول ان اجلها لم يعمر اكثر من خمسماية وعشرين سنة واعتبر ذلك وقت بذوخ مكانتها وسيادة سلطنها في عهد نينوس بن باعال الذي جعل شوكتها ممتدة في اسيا العليا وقد تشيدت او تجددت مدينة صور في عهد هذا الملك الظافر واصبحت في غاية قصوى من الشهرة بسبب مهارة قاطنيها في سلك البحار وبسبب الرحّل الذين جالحوها وامتدوا في اقطار العالم . وبعد عهد ابيمالك بقليل من الزمن ١٢٢٠ـ١٢٥٢ لاحت اعمال هرقل البطل الصنديد ابن انفيتريون وبدت الحروب التي المب شرارها تازي ملك اثينا الذي احرزَ في مدينة واحدة كل الدساكر والقرى التي بناها سيكروبس وسنَّ لاثينا قوانين سادت لدى الناس شهرةً ففي عهد يفتاح بينما

(١) سفر التكوين ص ١٠ ع ١١

كانت سميراميس ارملة نينوس وولية ابنها نينياس توسع مملكة الاثوريين بكثرة فتوحاتها هبت النار المحرقة في ابنية ترواده الشهيرة التي فتحها في سالف الزمن اليونان في عهد لمومودون ملكها الثالث وهوت دائرة باليونان انفسهم واصبحت كأن لم تكن شيئاً مذكوراً وذلك في عهد بريام بن لمومودون بعد ان حاصرها اولائك اليونانيون عشر سنوات ١٢٧٠ـ١١٨٤

العصر الخامس

في الكلام عن افتتاح مدينة ترواده

(الاجل الخامس للعالم)

في نحو السنة الثلاثمائة والثاني بعد ان جلا خصّاه الله عن مصر وسنة الالف والمائة والاربع والستين ٢٠٣٨ـ١١٦٤ بعد الطوفان عبثت بترواده ايدي الدثار فاصبح طود عزّها مدكوكا هابطة هبوطاً رائعاً فكان عصر سقوطها مهماً وسبب اهميته اما ان يكون بالحادث الرائع الذي انشده الشاعران الخنتريزان اكبر شعراء اغريقيا وايطاليا او لامكانية ما نراه الى ذاك الحين انه اهمّ ما يطرأ في تلك الاحقاب التي تدعى خرافية او بطليّة فسبب تسميتها خرافية موقوف على ان الحوادث التاريخية كانت وقتئذٍ مكتنفة بالخرافات وسبب تسميتها بطلية موقوف على اولئك الذين دعاهم الشعراء اولاد الالهة وابطالاً ولم تكن ايام حياتهم قاصية عن فتوح ترواده العظمى فقد بدا في عصر لومادون ابو بريام ابطال التوازون الذهبية وهم جازون وهرقل وأورفا وكاستور وبولكس ومن كان مشهوراً من نظرائهم في ايامهم السالفة ونشأ في عصر بريام يوم ان حوصرت ترواده حصاراً نهائياً اشيل واكاممنون وميلاوس وعولوس وهكتور وسربيدون بن جوبيتار وانه بن الزهراء الذي يتخذ الرومانيون اصل نشأتهم وابطالٌ اخرون قد كانت شعوب عظيمة واقوامٌ جمة يفتخرون بانهم اليهم يعتزون فبناء عليه اصبح ذلك العصر يستأهل ان يعزى اليه احراز الحوادث ذات التحقيق والعظمة التي جرت في ايام الخزعبلات الباطلة

اما الكتاب الاقدس فقد انبأنا عمن هم اشدُّ باساً وعظمة منهم فانهُ ذكرلنا قوة

شمشون ووهنة الغربين ١١٥٢ـ١١٧٧ وعالي الحبر الاعظم الذي نال الدرجة القصوى من المبرة والنزاهة ولقد بادهته الذلة والخمول بجرائر اولاده الخاملين ١١٥٢ـ١١٧٦ وصموئيل من تدثر بدثار العدل نبيًا عف الازار مصطفىً من العليّ ليمسح الملوك ١٠٨٠ـ١٠٩٥ وشاول الملك من كان اول من دانت له الامرة على اصفياء الله ففاز مظفرًا وقدّم القرابين متعظّا لايطلب من الكهنة اذنًا يعاصي اوامر الله معتذرًا بالدين فلم يكن عذره مقبولاً فاذله الله مرذولاً . وجعله هاويًا هابطًا الى اسفل الحضيض وكودروس ملك اثينا في عصره من استمات ضحيةً عن شعبهِ فكان لهم بذلك فوزٌ وغنيمة وتنازع من بعده الملك ولداهُ ميدون ونيله فاغتنم حينئذٍ الاثينيون الفرصة والغوا السلطة الملوكية واعلنوا ان لايكون عليهم سوى جوبيتار ملكًا واقاموا لهم ولاة وازعين دعوهم اركونت وقسروهم على ان يستمروا مبرزين لهم حسابًا على كل ما يتجشمون من مهام الامر وكان اول من قبض على شكيمة الملك ميدون بن كدريس ودان الحكم لعصبيتهِ من بعده زمانًا مديدًا وتناثرت النحلات من اثينا الى انحاء اسيا الصغرى فدعيت تلك الانحاء ايونية وفي ذلك العصر نفسه كانت تمتد الرحل الاموليون فغدت من ثم اسيا الصغرى منعمةً من المدائن اليونانية وبعد ان شرب شاول كاس الحتوف ١٠٤٠ــ١٠٥٥ نهض داود فاتكاً على اريكة الملك وقد كان في باديء الامر راعيًا للضئان عجيبًا وجندل جليات الجبار صريعًا واستظهر على كل اعداء الرب فرحبت له ساحات الصولة فاتحًا فتحًا مبينًا ونبياً صالحًا ورعًا وكان اهلاً لابراز مكنونات النشيد للعزة الصمدية وقصارى الامر انه كان راضخًا لمشيئة الله كما دعاه هو نفسه وشط بعد ثذٍ مجرمًا تائبًا فاحال زيغانه لمجد الرب ١٠٣٢ــ١٠٢٤ وخلف هذا الملك الصالح الجانح الى الحرب سليمان ولده الحكيم عادلاً وراغبًا في الهدء والسكينة ١٠٠١ــ١٠١٤ فلم تخضب يداه بالدماء المهراقة ولذلك كان قمينًا بان يشيد هيكلاً لله عظيمًا ٩٩٨ــ١٠١٢

العصر السادس

في الكلام عن سليمان او اتمام بناء الهيكل

(الاجل الخامس للعالم)

ان سليمان اتم بناء الهيكل لله ١٠٠٤ ا ـــ ٩٩٢ في تشرين الثاني سنة ثلاثة الاف بعد الخليقة وفاقاً لسنة اربعماية وثماني وثمانين بعد نزوح شعب الله من مصر وان قوبل زمن التاريخ دينياً معه دنيوياً نقل ان سليمان انجز بناء الهيكل سنة مائتين وخمسين قبل تشييد رومية وسنة المائة والثمانين بعد افتتاح ترواده وسنة الالف قبل المسيح فاقام باعباء تكريسه بعظمة وورع عظيمين وكانت معجزات احكامه في اسمى مكانة من الشهرة وتناهت احكامه بالتثريب والمعائب لانه نصي النساء عاشقاً فخمدت انوار عقله وضعف قلبه وفسدت تقواهُ وتصدّى لعبادة الاوثان جاحداً فالتظى الله عليه غيظاً عادلاً ثم عامله بالرفق والرحمة كرامةً لذكر داود الصدوق عبدهِ لكنه لم يترك عقابه لنكرانه الجميل نسياً منسياً بل جزاً بعد موته مملكته على عهد ولده رحبعام فان ذلك الملك العاتي تكبر وطغى فاخسره الله عشرة اسباط اقصاهم ياربعام عن المهم وملكهم ٩٦٢ ـــ ٩٧٥ وصدهم عن الذهاب الى هيكل اورشليم ليقدموا فيه القرابين خيفة ان يؤدوا الطاعة والرضوخ لملك يهوذا ولهذا اقام لهم آلهة عجولاً من ذهب دعاها آلهة اسرائيل طمعاً في ان لا يرى الشعب ذلك امراً غريباً لكنَّ هذا الصدد حمله على ان يرعى الشريعة الموسوية التي كان يقوم بتاويلها حسب امياله وكان يحضُّ شعبه على رعاية الجانب الاوفر من الناموس نظاماً مدنياً ودينياً فكانت خمسة الاسفار لموسى مرفعة المقام مرعيّة من اولئك الاسباط الضالين المنفصلين فانتصب لذلك مملكة اسرائيل التي اصبح الكفر فيها سائداً فعثا اهلها مفسدين ونصبت لمملكة يهوذا حبائل البغضاء والشحناء واما مملكة يهوذا فقد كانت لا تنبذ الدين جانباً وان كانت تلم به كوارث الجحد والكفر الذميم ولقد كان وقتئذٍ ملوك مصر يصعدون الى اطواد العزة والشوكة فان اربعة الممالك كانت منحازة الى مملكة ثاب وقد ذهب الناس الى ان سيزوستريس الفاتح الذي ذاع صيته لدى المصريين هو اسزاك نفسه الذي قواهُ الله على ان ينيل رحبعام العقاب الرهيب لسبب كفره المفرط ٩٥٨ ـــ ٩٧١

وان ايام البرّ ابن رحبعام قد انتصر على الاسباط المنفصلين في ايام ملكه انتصارًا عظيمًا .
واما ولده آسا ٩٤٧ــــ٩٤٤ فقد كان متدينًا ورعًا ونال في الكتب المقدسة اطروفة
من الثناء على ذلك غير انه كان يثق بالاطباء يوم كان ممنواً بالامراض الملمة اكثر مما كان
يثق بنعمة الله وقد بنى عمري ملك اسرائيل في عصره مدينة السامرة ٩١٤-٩٢٤ وجعلها
مقرًا لسدته الملوكية واحتكم بعد ذلك يوشافاط ٩٠٤ــــ٩١٤ فازدهرت في عصره
ادواح الدعة والبر واستوى قسطاس العدل ومهد السبيل لسلك البحار وسادت صناعة
الحرب فتوسم آل اليهودية فيه احكامًا داودية وقد كان في عرض حكمه احاب وامرأته
ايزابل مسدلين لواء السلطة فوق اسرائيل وكادحين في انتهاك حرمة الهيئة يزوران
عن طريق الهداية الى الترهات الباطلة ويتهافتان على الكفر والجحود فضلاً عما كانا يتسننان
بعبادة باربعام الوثنية ٨٩٠ــــ٨٩٩ ففتكت بهما براثن البؤس صاغرين وهويا الى
دركات الشقاء هالكين اما الله فقد ابقى لهما في فكره عقابًا رائعًا فاراد ان يثأر نابوت
الصديق الذي قتلاه لتمنعه عن ان يبيعهما سرمدًا ارث آبائه حسبما تامره السنة الموسوية
فانذرهما بفم عبده اليا النبي عذابًا فاخذ الملك احاب يترصد سبيلاً يقيه من غائلة
الرّدى فلم يجده ذلك نفعًا فانه هلك مقتولاً ٨٩٧ــــ٨٨٨ وقد تشيدت في ذاك
الوقت مدينة قرطاجنة ٨٦٠ــــ٨٩٢ فشادتها ديدون الصورية على ضفة البحر
الرومي حيث تكون محطًا لرحال التجارة وتكون لها السيادة البحرية . ولقد عسر علينا ان
نعرف الوقت الذي به خفقت اعلام الحكم الجمهوري في تلك المدينة لكننا نعهد ان
امتزاج الصوريين والافريقيين جعلاها مثابةً سامية للاتجار والصدام واما المؤرخون
الاقدمون الذين وقفوا على إبّان بنائها وعلموا ان ذلك كان قبل اندراس تروادة العظمى
فقد يؤخذ من كلامهم ان ديدون جعلتها في غاية السعة وقوتها وان بناءها لم يكن
موقوفًا عليها . واما مملكة يهوذا فقد بادهتها الشؤون المتغايرة لان عناليا بنت احاب
وايزابل اتت الى بيت يوشافاط باوحال الكفر والفساد ٨٨٠ــــ٨٨٥ واما باربعام
فقد نبذَ وراء ظهره اعمال ابيه وتهمك في ما يقوم بعبئه حمره فحلت عليه يدُ الرب وكانت
ايام حكمه قصارًا ومات شرّ ميتةٍ ٨٧٦-٨٨٥ وقد كانت معجزات الرب في خلال
تلك العقابات جليلة الوقع بل كان اجلها مصروفًا في سبيل انقاذ الاسرائيليين الذين
كان يدعوهم الله الى التوبة فالهم عبديه ايليا واليشع ان يانياهم بالمعجزات فتنبآ وانبا

بالعجائب البينة فلم تدمث بذلك خلالهم فقد رأبها ابصارهم وعمهت عنها بصائرهم فلم يتوبوا . فان ذينك النبيين تنبأا في عهد الملك احاب وخمسة من خلفائهِ واشتهر اذ ذاك هوميروس وذاع صيت ازيود الشاعر من قبلهِ بثلاثين سنةً فاوعز الينا عن تلك العوائد القديمة والسذاجة الفائقة التي هي حرية بان تكون ذات بال ونشعر بقدمية الآثار ومن ذلك فائدة كبرى تبعثنا على اليقين بعظمة اثار الكتاب المقدس وقدميته وان اموراً رهيبة قد حدثت في مملكة يهوذا واسرائيل فان الملك ياهو قد حنق من ايزابل حنقاً بعثهُ على الايقاع بها فامر بطرحها من قنة برجٍ حالقٍ الى اسفل ٨٧٦-٨٨٤ ولم تجدها الحلل التي كانت تتبهرج بها نفعاً فانه قد امر بها ان تداس تحت سنابك خيولهِ وقتل ايضاً ملك اسرائيل المدعوّ يورام بن احاب فانقرضت كل سراة احاب وكانت السلالة الملوكية في يهوذا قد اوشكت ان تفتك بها ايدي الإبادة والانقراض لان احزيا الملك الذي ابوه يورام ملك يهوذا وامهُ عثاليا قد تضرج بدمائهِ قتيلاً في سامرة هو وسائر اخوته بحجة انه كان يمتن وثاق الاخاء بينه وبين اولاد احاب ولما تناقلت الالسن ذلك الخبر واصبح شائعاً في اورشليم ازمعت عثاليا على ان تبيد كل من تراه باقياً من بيت الملك حتى انها فتكت باولادها فتكاً ذريعاً وقد بعثها على ذلك الكلف بركوب تخت اورشليم بعد موت بنيها اما يواش ابن احزيا فقد نجا من مكائد جدتهِ بوساطة يوشابع اختهِ امرأة يوياداع رئيس الكهنة التي وارته في مخدع الرب وبتلك الوسيلة المأثورة انقذت هذا السوءر الثمين من نسل داود . وكانت عثاليا في دعة واطمئنان لانها كانت تنكر ان ايدي المنية قد اغتالته مثل اخوته . وفي تلك الايام كان ليكورك يسنُّ شرائع باهظة على مدينة لسّيديمون وقد اصابته سهام اللوم والتفنيد لانهُ جعل موضوع كل تلك الشرائع الحروب الهائلة اقتداء بمينوس الملك غير آتٍ بنظامات يترتب عليها آداب النساء بل كان يجعل الشبان في شظفٍ شديد من العيش رجاء ان ذلك يكسبهم فيما بعد قوة على الانحدار الى كل معمعةٍ رائعة وقد كنت عثاليا وقتئذٍ يخلو لها الجو في اليهودية لايتحرَّش احدٌ لمناضلتها فخالت ان عرش ملكها لا يثلُّ لانها لبثت حاكمة ست سنوات ولم يثر عليها احد لكنما الرب اعدَّ لها في هيكلهِ من يوم بالانتقام منها جزاء لنفسها بما فعلت فان يواش لما بلغ من العمر سبعة اعوام ٨٧٠-٧٧٨ رفع امرهُ يوياداع الكاهن الى بعض ظهراء الجيش الذين تجنح نفوسهم اليه واستنصر اللاويين على تنصيبهِ فوق سرير الملك فسمحهُ اذ ذاك

ملكاً في الهيكل فدانت له الرعية ووثقوا به خليفة لداود ويوشافاط ولما ذاع النبأ عنه اسرعت عناليا على تشعيث المخالفين له لكنما بدرت اليها الاكف فشدّ وثاقها وقيدت الى حيث غودرت تستقي صاب الردى الزؤام عقاباً على جرائرها المستكرهة اما يواش فاستوى بعدها على صهوة السلطة واعتصم بعرى السنّة الموسوية يرعى زمامها طالما كان يوياداع الكاهن حيّاً فبعد ان فتكت به اظفار المنية افسد المصانعون فعبد الاوثان فشق ذلك على ذكريا الحبر ابن يوياداع واراد ان يوبخه فاوعز الى يواش ان ارشقه بالحجارة رجماً ففعل ذلك نابذاً كل مبرّات ابيه ٨٤٢-٨٤٠ ولا ريب في ان تلك الجريرة تأتّى بعدها العقاب صارماً فان السريان اوسعوهُ في السنة الثانية تبريحاً واعناتاً وامتهنه الشعب وقتله آل بيته مخلفة ابنه أمَصْيَا فطأطأ له راس العرش سالكاً احسن منة ٨٢١-٨٣٩ واما مملكة ايسرائيل فقد وهن حولها وطولها لكثرة ما ارهقها عباء ملوك سوريا وما توالى عليها من الحروب الاهلية لكنها بعد ان اوشكت ان تكون طامسة نهضت في عهد الملك ياروبوعام الثاني الذي جرّ رداء السلوّ على سلفائه بتقواه ٨١٧-٨٢٥ واما عزريا اوامازياس بن أمَصْيَا فلم تكن احكامه في يهوذا باقل شوكة وصيال منة ٨٠٢-٨١٠ لكنما عراهُ بعد ذلك داء البرص منضياً واقيم عليه التثريب كما انبأنا الكتاب المقدس نظراً لركوبه في اواخر حياته متن الجرأة على ان يختلس وظائف الكهنة بتقدمته كباء البخور على المذبح العطري عالماً ان ذلك من الامور التي لا يسوغ لغير الكهنة ان يقوم باعبائها فافرز عن الناس محقراً طبقاً لما نصته شريعة موسى وان يكن ملكاً فخلفه ابنه يوتام واستوى على طود العزّ عادلاً يسوس البلاد بكل دراية ودراية وقد شرع الانبياء في عصر الملك عزريا ان يكتبوا نبواتهم اكتتاباً في اسفار خاصة ويتركونها في الهيكل رغبةً في ان تكون آثاراً قديمةً للاجيال الآتية واعظمهم هوشاع واشعيا واما النبوّات الصغيرة التي كانت تتلى شفاهاً على المسامع فقد اثبتت حسب المعتاد مع حوادث العصر في دفاتر الهيكل وتجددت في سنة ٧٧٦ العاب الالمپياك التي انشأها هرقل بعد ان كانت مطويّةً في غابر الايام ملغيةً زمناً مديداً فتأتى لنا حساب الاولمپياد باعادة القاب الالمپياك ومن ذاك الحين كان حسبان اعوام اليونانيين واليه كان انتهاء الآجال التي يصفها قرون العالم انها خرافية فان التواريخ الدنيوية كانت الى ذاك الحدّ مشوّهات بالخرافات ولم يكن لها نظام سديد ومن ثمّ

حصل شروع في قصص الحوادث التاريخية بكل تحرٍ وتدقيق واشتهرت الالعاب الاولى بانتصار كوريب وكانت اذ ذاك تجدد كل خمسة اعوام او بعد مضي اربع سنوات كاملة ولقد كان بصير الاحتفال ثمة امام اليونانيين في بادىء الامر في بيزا ثم في ايلد وكل من دانت له النصرة ظافرًا قابلة المشاهدون بتصفيق الاكف وضجيج الاستحسان يضعون على راسه اكليلا وبناء عليه كانت تلك الالعاب مرعية بعين الاعتبار لانهم كانوا يزدادون بها قوةً وتهذيبًا وفي ذاك الوقت كانت ايطاليا ترفل باثواب الخشونة والتغول وكانت للملوك اللاتينيين الذين هم من اخلاف إينه حيازة على مدينة الب واما فول فقد كانت له صولة الملك على الاثوريين وزعم الناس انه كان ابًا للملك سردانابل الذي يلقبه الشرقيون حسب عادتهم بساردان بول اي ساردان بن بول وظن ايضًا ان الملك بول اوفول الذي اعتزبه سرير الملك في نينوا تاب هو وشعبه عن سيئاتهم تنفيذًا للانذار الذي اوعز به اليهم يوناس النبي وقد حملت هذا الملك الثورة التي تعناها الملوك الاسرائيليون على ان يشنّ عليهم الغارة ٧٥٨ــ٧٧١ بيدَ ان منحيم اخمد جذوة غضبه فاقامه سردانابال على اريكة الملك فجازاه منحيم على ذلك بالف وزنة ابريزية وفي عهد ابنه سردانابال واخر ولاة لكممنون على الاثينيين اخذ هولاء الذين قد اغرتهم العادة بان يجعلوا حينًا بعد حين الى الحالة الجمهورية يوجزون الادارة الاركونية وافضى بهم الامر بعد ذاك الى ان يحصروها في عشر سنوات وكان اول من حكم على ذاك النمط شاروبس

واما روميلوس وريموس اللذان هما من ذرية ملوك الب لامهما ايليا فقد اقاما ثانية نيميتور جدهما حاكمًا على مملكة الب وهو الذي كان اخوه اميلوس قد نزع الملك من يده ومن ثم شادا اجمة رومية في عهد يوتام الذي كان وقتئذٍ متبوءًا تخت يهوذا.

العصر السابع

روميلوس او تشييد مدينة رومية

ان مدينة رومية التي كانت تروم ان تجعل العالم تحت حيازتها وتكون مقرًا للدين ترعاه حشية انها كه قد تأسست في ثالث سنة من الاولمبياد السادس وفي نحوسنة

اربعماية وثلثين بعد فتوح مدينة تروادة العظمى التي يعتقد الرومانيون انها جرثومة لاجدادهم وفي سنة سبعماية وثلاث وخمسين قبل المسيح ٧٥٤ـ٧٥٣ وان روميلوس الذي ترعرع بين الرعاة القساة القلوب مارنا على الحروب قد كرس هذه المدينة لاله الحرب الذي كان الناس يزعمون بو انه ابوه وقد حدث في حين بناء رومية طموس مملكة الاثوريين الاولى وذلك بسبب خمول رأي سردينابال ووهن قواه ٧٥٩ـ٧٤٨ لان الماديين الذين كانت تطيب نفوسهم بزئير سعير الحرب طغوا وتمردوا على ذلك الملك المخنث واصبحوا انموزجًا بامتهانه لدى الرعية وكان السبب في إثارتهم عليه ارباس واليهم فلما شعر شعبه بثورة الثائرين وتمردهم اقتدوا بهم هائجين وجاهروا بعدم الرضوخ فلما راى ذلك منهم صغرت لديه نفسه وكبر الامر عليه فذهب الى عاصمته نينوا والقى بنفسه الى النار وبخصيانه ونسائه فماتوا جمةً حريقًا فتكونت من خراب هذه الدوكة ثلاث ممالك عظيمة واما مملكة الماديين التي كانت عرضةً للتنكيل فقد القى عنها ارباس او اورباس المدعوّ لدى البعض بفول نبر الاسترقاق وبعد ان شوَّهتها النظامات الفاسدة قبض زمامها ملوكٌ اشدَّاء وفضلاً عن ذلك ففي الحال بعد حكم سردانابال ٧٤٧ـ٧٥٩ نشأت للاثوريين مملكة اخرى استمرت نينوا حاضرةً لها ومملكة اخرى لبابل فانهما لمملكتان تناقلت ذكراهما مؤلفات المورخين الدنيويين واشتهرتا في صفحات التاريخ المقدس فمملكة نينوا الثانية شاذها تجلثُ بن فلاسر وبناء على ذلك دعي حسب عادة الشرقيين تجلث فلاسر ولقب بنينوس الحديث واما مملكة بابل فقد شادها بالادان الذي يلقبهُ اليونان بلزيس لكنهُ مشهورٌ بلقب نابونصَّر ولقد كان ذائع الصيت واشتهر لدى بتوليموس والفلكيين الذين يجعلون حسبان سنيهم من عهدهِ .

ومن الامور التي ترفعت اهميتها ان ننوه ان الحسبان او تعداد الحوَول اصطلاحٌ يتخذه بنو الانسان يبتدىء في وقت موجل قد اشتهر بحوادث ذات بال حملت الناس على ان تنتبه اليه ولقد كان آحاز ملك يهوذا غائصًا في لجة الكفر والشقاء فانقلب الى وهدة الضيق والازمة الشديدة فقد ضايقه راسين ملك سوريا وفاقح بن رمليا ملك ايسرائيل بالزحف عليه فناضلاهُ شديدًا ولم يحملها على ارغام انفهِ الأ دعوةٌ من العزة الصمدية فبدلاً من ان يستنصر الله الذي اثار عليهم هذين العدوين ليعاقباه على شره التجأ الى تجلث فلاسر ملك الاثوريين الاول ٧٢٥ـ٧٤٠ فاوهن هذا الملك مملكة ايسرائيل

وطبق معاقل مملكة سوريا فاضمحلت بهِ اضمحلالاً وفي الوقت نفسه نهب مملكة يهوذا التي كانت قد استنجدتهُ ولذلك هبَّ ملوك اثور مستيقظين واهتدوا الى بلاد اسرائيل فاتحين ففتحها شلمناسر بن تجلت فلاسر وجعلها عافية دارسة ٧١٨ـــ ٧٢١ اما هوشع ملك ايسرائيل فقد كان يامل ان سيا كون اوسوء ملك ايتوبيا الذي فتح مصر ان ياخذ بيدهِ بيد انهُ ولو كان عظيم الباس والصولة فقد ضاق ذرعاً عن ان ينقذهُ من ايدي شلمناصر واما الاسباط العشرة فلما اضحت عبادة الرب في درجات التلاشي والاهمال سيقوا الى نينوا وتبددوا ايدي سبا بين الوثنيين وتواروا عن الوجوه فلم يبقَ للعيون سبيلاً لان ترى لهم اثراً او عيناً وبقي منهم عددٌ نزرٌ ظلَّ ممتزجاً باولاد يهوذا فاضحوا جميعهم قسماً صغيراً من مملكة اليهودية وفي خلال ذلك مات روميلوس ٧١٥ وقد كان ذلك الباسل الصنديد يقضي ايامهُ في مقاواة الصعاب لايقتحم نائبة الاَّ اذلها ونال بها لواء النصر ولقد كان في عرض نهافتهِ على تاجيج نيران الحروب يشيد قواعد للدين ويسن نواميس لمرئوسيهِ يتسننون بها ولما سادت السكينة وخفقت الوية السلام في عهد نيما خليفتهِ تخذ له ذريعة يتذرع بها الى تتمة اعمال روميلوس فوطد اركان الدين ودمث اخلاق الرومانيين بعد ان كانت في حالة الخشونة والتغوُّل وقد أُنشأ في ايامهِ المهاجرون الذين اتوا من قورنتيه ومن بعض مدائن اخرى في بلاد اليونان سيراكيز في جزيرة سيسيليا وكروتون وتارنت ولربما يكونون قد شادوا مدناً اخرى في انحاء ايطاليا التي لقبها رُحَّل اقدم منهم قاطنون في تلك الانحاء ببلاد يونان العظمى وفي ذاك العصر كان حزقيا افضل الملوك طراً واعدلهم بعد داود حاكماً في يهوذا فحاصره في اورشليم سنحاريب بن شلمناصار وخليفته وضيق عليهِ بجيشهِ العظيم لكنما ملك الرب اباد الجيش في ليلةٍ واحدة ٧٠٧ـ٧١٠ ولما راى حزقيا تلك النعمة التي بعث بها اليه العليّ رَضخ وعرف مقدار المنة فتعبد لله هو وشعبه بامانةٍ صادقة وسريرةٍ خالصة وبعد ان افتقدت يد الرب نفسه ٦٩٤ـ٦٩٨ نسي شعب اليهودية في عهد ابنهِ منسى الناكر الجميل خالقهم واخذوا يفسدون في الارض ويتدنسون باوحال المنكرات وزادت قبائحهم واخذ في ذلك العصر الحكم الجمهوري ينمو بين الاثينيين الذين طفقوا ينتخبون الاركونت كل سنة وكان اول من تسلم زمام ذلك المصال كرهون ٦٨٤ـ٦٨٧ وبينما كانت القبائح والكفر تمتد في اليهودية كانت شوكة ملوك الاثور بين المزمعين ان

يتقهوا منهم تعزز في عهد الملك آصرحدون بن سنحاريب وضم هذا الملك مملكة بابل الى مدينة نينوا ومدَّ شوكتهُ في اشيا الكبرى كما كانت انفًا شوكة الاثوريين ٦٨٠ـ٦٨١ اما الماديون فقد شرعوا ان يعززوا شوكتهم ويرهبوا بها المتشوفين اليها فانشأ ملكهم الاول ديجوسس الذي يزعم بعض المورخين انهُ ارفكساد المذكور في سفر يهوديت مدينة اكبتان المشهورة واقام لهُ ركنًا لمملكةٍ عظمى فاصطفاه الماديون عليهم ملكًا جزاء على ما اتاهم بهِ من الامتنان ورجاء ان يدرأ كل شغبٍ انبث بينهم من عدم النظام وقد اصبحوا وهم تحت قيادته لهم القوة على اذلال ما يجاورهم من الاعداء لكنما ملكهم كان غير رحبٍ وشوكتهم غير ممتدة واما مدينة رومية فقد كانت في ذلك الوقت مائلة الى النمو على مهلٍ في عهد توليوس اوستليوس ملكها الثالث ٦٧١ وتنكست اعلام مدينة البا بانتصار الاورياس على الكورياس وانحاز سكانها الى رومية الفائزة وتوسعت بذلك دائرتها وتقوَّت شوكتها وكان اول من ألمع الى توسيع المدينة على ذاك النمط رومبلوس فانه احاز اليها السابيتيين وكل الشعوب الذين ذللتهم ايادي الغلبة فبعد ان انضموا الى قلب المدينة لاحت على اجبنتهم سمات السرور والجذل وجعلوا ما تجشموهُ من المكائد والاعنات نسيًا منسيًا واصبحوا رعاة امناء لرومية . وكانت هذه المدينة تنظم جنودها وتحسن داخليتها كلما كانت تزداد بفتوحاتها وقد شرعت تعتصم بوثاق ذلك النظام في عهد الملك اوشليوس فان ذلك قد جرها الى ان تملك العالم قاطبةً

واما مملكة مصر فبعد ان لعبت بها ايدي الشقاق واحدقت بها النوائب من كل جانب نهضت من حضيض الخسف والخمول وتجددت قوتها في عهد الملك بسامتيك ٦٧١ـ٦٧٠ وهذا الملك الذي قام بناصرهِ اليونانيون والكاريون وطنهم في مصر وقد كانت لا تطأها ارجل الاجنبي الى ذاك الحين لكنما ذلك زال منها بعد ان تسلم حكمها هذا الملك الرصين وبسبب ذلك جعل الصلات التجارية بين المصريين واليونانيين ومن ثمَّ اصبح تاريخ مصر صادق الرواية حقًا بعد ان كان مشحونًا بالخزعبلات التي كان يفترحها الكهنة كما قال هرودوت

وقد كان ملوك الاثوريين ينمون شوكة واقتدارًا الى ان اصبحوا رعبةً وارهابًا للشرق كافة وقد ظهر على اركسفاد ملك الماديين في موقعة عظيمة ساوسريشان بن اصرحدُّون الذي رُوي عنه انهُ بختنصر المنوه عنه في سفر يهوديت ٦٥٧ـ٦٥٥ وان هذا الملك

المستولي عليه وان لم يكن ديوجيس نفسه اول من اقام اعمدة اكباتانا فمن المحتمل ان
يكون ابنه فراهورث او افراهورث الذي اقام اسوارها ولما راى ذلك الملك الاشوري
الجبار ان المنعة دانت له والفوز اصبح رقًّا يلبي مقاله سولت له نفسه على ان يفتح الارض
برمتها ٦٥٤-٦٥٦ فجدَّ يطوي الارضين الى ان وصل نهر الفرات فعبره ومخرق في
البلاد عاثيًا من الموضع الذي خرج منه الى ان وصل الى اليهودية واما اليهود ولو كانوا
في ايامهم السالفة انجوا ضدَّهم غيظ الله بكثرة جرائمهم وعبدوا الاصنام امتثالاً لفساد منسى
الملك لكنهم تابوا فيما بعد وأباهُ وبناه عليه قد ترأف عليهم الرب واظلهم تحت ستر
حمايتهِ ولذلك قد توقف بختنصر وقائد جيشه اليفانا عن الفتح بواسطة امرأة صدتهما
عن اتمام ذلك ولو كان ديجوسيس قد تنكل تحت صدمات الاثوريين فان الماديين
اصبحوا بعد موته يعرجون في سلم النجاح والتقدم في عهد خلفائه وبينا ان فراهورث ابنه
وحفيده يقمعان الفرس ويمتدان على بساط الارض فاتحين من اسيا الصغرى الى شواطي
نهر الهاليس كانت مملكة يهوذا قد شاهدت نهاية ولاء آمون الشقي ابن منسى ٦٤٠*٦٤٢
وكان يوشيا بن آمون برًّا فاضلاً صدوقًا من صغر سنه وقد اخذ وقتئذٍ يصلح الشوائب
التي اتى بها مجد الملوك اسلافهِ ٦٣٩*٦٤١ وقد انتصب انكوس مارسيوس على عرش
رومية التي ثابرت على ان تقمع بعض شعوب لاتينية: وتضمُّ اليها اعداءها لتجعلهم من
قاطنيها وتكتنفهم تحت اسوارها واما سكان مدينة فيه فقد تكبدوا خسائر جمةً في عهد
خلفاء الملك روميلوس الذي اذاقهم في ما مضى شدة الهول والنصب وقد اخذ انكوس
مارسيوس يمدّ فتوحاته في البلاد الى ان وصل الى ساحل البحر الذي يداني رومية واقام اذ
ذاك على ضفته مدينة وستي لدى مصب التيبر وفي ذاك الحين اغارنبو لاصار على مملكة
بابل ٦٢٦ بيدَ ان هذا الخائن الذي اقامه شينالادان اوساراك وسلمهُ قيادة جيشهِ امل
ان يرهق سياكسار ملك الماديين قد اتحد مع استياج بن سياكسار وقبض عليه في
نينوى وادمرها بعد ان كانت متسلطة على المشرق وذائعة الصولة في اقطار البسيطة وجلس
اذ ذاك على عرش مولاهُ . وكانت بابل ترفل برداء التيه والكبر في عهد هذا الفاتح
المطاع . ولما تكاثر الغليان والفساد في اليهودية اصبحت عرضة لما يداهمها من الغوائل
ولهذا خيف عليها من كل نائبة ملمة وسنة ٦٢٢-٦٢٤ توقف غضب الرب عن ان
يباده يهوذا نظرًا لما كان عليه يوشيا الملك من خفض الجناح وطول الاناة بيدَ ان

المفاسد فشت في عهد اولادهِ ٦٠٩-٦١٠ وبعد ان مات نبو بولصر خلفه ابنه نبو كودنصر الثاني وانهُ كان هيابًا يفوق اباهُ ترويعًا ٦٠٥-٦٠٧ ولقد تمادى باعتزاز النفس والخيلاء وحنكته الايام المرهبة التي التظى بها سعير النوائب ففتح فتوحات عظيمة شرقًا وغربًا ولقد سوّلت له الحوباء على ان كل من يطأُ الارض لابدَّ ان يكون تحت نير عبودية بابل وتمّ ذلك الوعيد والانذار فان اورشليم فتحت ابوابها له لما راته مقبلاً عليها وولجها ثلاث مرات اولاً في ابتداء ملكهِ اي في السنة الرابعة من حكم يوياقيم الملك ومن ذاك الان يجري تعداد السبعين عامًا لسبي بابل الموعز اليها في سفر ارمياء النبي وثانيًا في عهد الملك جكونياس اويوياكين بن يوياقيم ٥٩٨-٥٩٩ واخيرًا في عهد صدقيا الملك ففي هذه المرة طبق اسوار المدينة وطمس معالمها واحرق الهيكل واستاسر الملك الى بابل وسرايا الكاهن واكثر الشعب ٥٨٧-٥٨٨-٥٩٨ وقد كان اشهر هولاء الاسرى حزقيال ودانيال والفتية الثلاثة الذين لم يكن من وسع نبوكودنصر ان يجعلهم يعبدون تمثاله ولا ان يحرقهم بلهيب الاتون وكانت في ذاك الان بلاد اليونان زاهية زاهرة وحكماؤها السبعة يتأرّج ذكرهم في ارجاء الكون وكان سولون احد الحكماء السبعة يسن نواميس للاثينيين قبل اندراس اورشليم بزمانٍ قليل ٥٩٤ وقد كان يجعل للحرية ركنا هو العدل وفي ذلك الان هاجرت اول نحلةٍ من الرحل الفوسيين القاطنين بلاد ايونيا الى مرسيليا ولما تظفر تركان القديم ملك رومية وبرّح بقسمٍ عظيم من بلاد توسكان واخذ يزين حاضرة ملكهِ ويدّخر لها عماراتٍ كثيرة انقطع وربد ملكهِ ٥٧٨ وجاء في عصرهِ الغوليون وكان مقدمة طليعتهم يلوفيس فحلوا في نواحي نهر البو في ايطاليا ولقد كان في اثناء ذلك اخوه سيجو فيس قاصدًا جرمانيا وتحت قيادته نحلة كبيرة من تلك الأمة ٥٦٦ واما سرفيوس تليوس خليفة تركان القديم فقد نظم الاهلين ورتب لنفوسهم حسبانًا وعليهِ اصبحت رومية ذات نظام بينٍ كيفيت خاصٍ واما نبوكدنصر فقد حسن مدينة بابل وزينها ولا ريب في ان بابل كانت في ذاك الان تجذب اليها غناء الشرق وغنائم اورشليم بيدَ انها لم تلبث متمتعة بتلك الغضارة اياما مديدة فانها انحطت عن مقامها السامي وتهورت الى دركات الذل وقد شاهد ملكها الجبار المهاب قبل انقضاء اجلهِ خرابها الذي كان على واشك الحدوث ٥٦٢ فان ابنهُ افيلمرودك الذي مقته رعاياه لكثرة رذائله لم تدم له ايام السلطة فان نيريكليسّور صهره قتله واختلس بذلك

ملكه ٥٦٠ وقد كان في الحين ذاته بيزبستراط يتصدى لاختلاس السلطة السامية في اثينا وابثت تحت يده ثلاثين عاماً رغماً عن نوائب الدهر ورزاياه وخلفها بعد ذلك لاولاده، فلم يكن للملك نريجليصوران يتحمل شوكة الماديين التي كانت لا تبرح تمتد في الشرق ولهذا شهر عليهم الحرب وبينما كان استياج بن سياكسار الاول يتحفز للمدافعة اغتالته براثن الردى فخلفه ابنه سياكسار الثاني الذي يدعوه دانيال داريوس ملك الماديين فاخذ حينئذٍ يتخطى طرق المدافعة فاقام قورش ابن اخته مندان قائداً على جيشه ابن كمبيس ملك الفرس الذي كان وقتئذٍ خاضعاً لسلطة الماديين ٥٥٩ ولم يند عن المعرفة ان شهرة قورش التي بانت في حروب متباينة سارت بها الركبان ودوخت الاقطار والامصار في زمان جده استياج فجعلت اكثر ملوك الشرق يرزحون تحت راية الملك سياكسار وسنة ٥٤٨ قبض قورش على كرزوس ملك ليديا في عاصمته وسلبه خزينته العظيمة وبدد الذين يحالفون ملك بابل على العهود وجعل شوكته سائدة في سوريا واسيا الصغرى ٥٤٢ ثم تقدم الى بابل وفتحها ٥٣٨ واطلق لخاله سياكسار السلطة عليها ولما اصبح هذا الملك في امتنان لافعاله واماناته كافأه بان زف اليه ابنته وريثته الوحيدة وفي عهد الملك سياكسار ٥٣٦*٥٣٧ كان دانيال النبي الذي تخيره الله ليكون نبياً يحل غوامض الخفيات ذائع الصيت كما كان في عهد اسلافه فراى ان كثيرين من الملوك والممالك كعابرين السابلات امامه وراى اخيراً سبعين اسبوعاً كانت دليلاً على وقت مجيء المسيح وحالة اليهود فان تلك الاسابيع تدل على الاعوام ومحصل مجموعها اربعماية وتسعون عاماً وكان ذلك الحسبان يستعمله اليهود الذين كانوا يغادرون السنة السابعة دون شغل مثل ما كانوا لا ينهمكون في الاشغال النهار السابع وبعد ان مضت تلك الرؤيا بايام وجيزة عبثت اظافر الحمام بالملك سياكسار ٥٣٦ والملك كمبيز ابي قورش واما الملك قورش المصور فقد ضمّ مملكة الفرس التي كانت الى ذاك الحين منكورة العرفان الى مملكة الماديين التي جعلتها فتوحاتها من السعة غاية كبرى وبناء عليه اصبح قورش مستوليا على كل الشرق واقام له مملكة تستصغر عندها الممالك .

ومن الامور التي تستلفت اليها الاحداق لتسلسل الازمنة ان نعلم ان هذا الفاتح اصدر الاوامر من اول ملكه الى من هم تحت امرته ليجددوا في اورشليم الهيكل ويثنوا اليهود الى اليهودية اما الان فليس علينا الا ان نسرّح طائر الطرف في هذا الان فنراه

زمنًا اصبح حسبانه من المعوصات فيعسر جدًّا انطباق التاريخ الدنيوي فيه على التاريخ المقدس واذا حققت ودققت ياسيدي رايت ان ما اخبرتكه عن قورش يباين كثيرًا ما طالعته عن جوستان المورخ الذي لايذكر البتة مملكة الاثوريين الثانية ولا الملوك الذين تسامت شهرتهم عندهم وذاعت ذكراهم في بابل والكتاب الاقدس وقصارى الامر ان ما انباتك عنه لايطابق ما يوعز الينا هذا المورخ بشان الممالك الثلاث وهنّ مملكة الاثوريين الاولى التي انقرضت في عهد الملك سرداناباال ومملكة الماديين التي انقرضت لدى موت استياج جد قورش ومملكة الفرس التي اقامها قورش وطمسها اسكندر المكدوني ويمكن لك ان تستقرىء ما نصه ديودور واكثر مولفي اليونان واللاتين الذين تداولت ايدينا تآليفهم فانك ترى ما يروونه لا يطابق ما نص الكتاب الاقدس فيتضح لديك جليًا ان ما اجروه يقاس على ما اجراه جوستان ومن تصفح التاريخ الدنيوية وراى ما بينها وبين الكتاب الاقدس مباينة واضحة ليس له حق للدهشة من ذلك فانه اذا تحرى الامر بعين البصيرة راى ان تلك التواريخ نفسها ليس يخلو بعضها من ان يباين البعض الاخر ودليل ذلك ان اليونان رووا عن قورش روايات مختلفة وان هيرودوت ينوه عن ثلاث منها عدا تلك التي اعتمدها هو نفسه ولم يثبت في موءلفه انه تلقنها من رواة اكثر ثقة منه اقدمين وقد نبه ان قد اختلفت الروايات على موت قورش فاعتمد هيرودوت رواية زعم انها تقارن الصدق دون ان يبث لنا عنها حجة بينة واما اكزنوفون الذي دوخ بلاد الفرس مرافقًا قورش الشاب اخا ارتحششتا الملك الملقب بمنون قد تشوف الى كل اعماله قورش القديم وتلقن ترجمة حياته من تواريخ الفرس وكل ما رووا عنه ومن كان ذا خبرة في الآثار القديمة لايمالك ان يجاري القديس ايرونيموس بايثار كزينوفون الفيلسوف الحكيم العريق في مهارة النيادة على كتيزياس الذي لا ثقة برواياته التاريخية وعنه روى اكثر اليونان الذين اخذ عنهم جوستان واكثر موءرخي اللاتين ويوءثره ايضًا على هيرودوت ولو كان موءرخًا يتحرى الامور بكل ضبط واتقان وان ما حملني على ان اعتمد ان هذا التاريخ المسلسل الذي لايخلو عن مدار صدق الرواية يحوى صفة اخرى تزيده فائدة وهي انطباقه على الكتاب المقدس الذي قد ساد على كل التواريخ اليونانية لسبب قدميته وايعازه عن ارتباط الشعوب اليهودية بالشرقيين فذلك يزيده كمالاً فضلاً عما نقرر انه منبعث من

اما ثلاث الممالك الاولى فان كل ما رواه عنها اليونانيون ظهر مشتبهاً لدى اعقلها فان افلاطون لدي كلامه عن كهنة مصر يلوح ان اليونانيين يجهلون بوجهٍ عامّ الآثار القديمة وان ما كتبوه بخصوص الاثوريين لايحسبه اروسطو الاّ خزعبلات وما ذلك الاّ لانهم قد الّفوا موءخرًا ولما ارادوا ان يأتوا اهليهم الذين يميلون الى ارتياح النفوس بتاليف يتفكهون بها اعتمدوا على تواريخ ليست ثابتة النقل وعكفوا على ان ينمقوا عبارات كتاباتهم دون ان يهتموا بالمصادر الحقة التي لايشوبها ريبٌ وبهتان ·

ومما لاريبة فيه ان كيفية ترتيب الممالك الثلاث الاولى يباين واقعيّ الامر فان اليونانيين بعد ان انقضى ساردانبال والاثوريون يذكرون دولة الماديين ثم يعقبونها بدولة الفرس كأن الماديين خلفوا صولة اثور وكأن دولة فارس سمت الى ذروة السيادة عقيب ان حطمت شوكة الماديين · لكنما دخيلة الامر بعكس ذلك فقد يلوح مقررًا ان ارباس لما اثار الماديين متمردين على ساردينابال لم يستخدم من الامر الاّ ان يطلق لهم زمام العتق دون ان يخضع لهم دولة اثور· وقد ميز هيرودت نفسه بين حين استقلالهم وحين ملكهم الاول ديجوسناس وكانت فسحة الزمن بين ذينك الحينين نحوًا من اربعين عامًا حسبما قومه ارباب فن حسبان الاعوام · ومن الامور الحقة حسب رأي هذا الموءرخ العظيم ورأي كزنوفون ضاربين صفحًا عن التنويه عن غيرها ان قد كان الزمن الذي يعزى لدولة الماديين يرى في بلاد اثور ملوكٌ اشداء عظام الصولة يرهبهم الشرق طرًا وقورش الملك هو الذي قوّض بابل فاتحًا ولو قُدّر ان اكثر موءلفي اليونان واللاتين الذين تبعوهم لايذكرون ملوك بابل ولا ينسقون هذه المملكة القوية في مرتبة الممالك القوية الذين يدنون منا النبأ عنهم وان لم نعثر في تاليفهم على امرٍ هامٍّ يتعلق بهولاء الملوك المشهورين كتيجلت فلصرّ وسلمنصر وسنحريب ونبو خوذنصر والملوك الذي ينوه عنهم الكتاب الاقدس والتواريخ الشرقية فليس علينا ان نعزو ذلك الاّ الى جهل اليونان الذين يجهدون في ان يعتمدوا على الفصاحة اكثر من اعتمادهم على تحري الحقيقة في رواياتهم او ان نعزوه الى فقدان كتبهم التي ربما كانت محرّاة ومدققة

وذلك ان هيرودوت كان قد اعلن انه يبرز الى عالم الوجود تاريخًا يتعلق بمملكة الاثوريين ومع ذلك فلم نرهُ عيانًا فليس لنا به علم هل قصر عن الوصول الينا او ان

يد الفقدان قد اغتالته او الظروف لم تسمح له بتاليفه ولو قدّرنا وجود ذلك التاريخ لقدرنا انه يتضمن الكلام عن ملوك دولة الاثوريين الثانية لان احدهم سنحريب قد ذكر عنه انه كملك للاثوريين والغرب في مولفات هذا المولف المتصلة الينا وقد نقل سترابون الذي كان في عهد اوغسطوس ما يرويه مكاستين المورخ القديم والداني من عصر الاسكندر بشان فتوحات نبوخذ نصر ملك الكلدانيين المشهورة مبينًا انه عبر اوروبا ووصل اسبانيا بالاسلحة الى عواميد هرقل واما ملك اثور الذي يدعوه المولف دميان تيلغاموس فهو دون ريبة الذي يدعوه الكتاب المقدس تجلث وبرى في بتوليماوس تعداد الملوك الذين حكموا في الممالك العظام ومنهم جمٌّ غفير من الملوك الاثوريين الذين يجهل معرفتهم اليونانيون ويسهل مطابقتهم للكتاب المقدس ولو استقرانا كل ما رواه مورخوا سوريا كبروز وايدانوس ونقولا الدمشقي لضاق دوننا المقام باسهاب العبارة. فاذخر لنا ازبيوس القيصري ويوسيفوس المورخ نبذاتٍ ذات فائدة عميمة سمحت بها افكارها وافكار غيرها الذين كانت تاليفهم لم تبرح في ذاك العصر وان ما يذكرونه ينطبق على كلام الكتاب المقدس بالنظر الى الامور الشرقية القديمة ولاسيما على تواريخ الاثوريين

واذا احدقنا النظر في دولة الماديين التي يحسبها اكثر المورخين الدنيويين في المرتبة الثانية اذ يعدون الممالك العظام ويجعلونها كانها منفصلة عن دولة الفرس فاننا نرى اذ ذاك ان الكتاب المقدس يجعلها دولةً واحدة ولذلك ترى ياسيدي ان تسلسل الحوادث ذاتها يحملك على ان تستقصي هذا النمط فضلاً عن استنادك على الكتاب المقدس وان الماديين وان كانوا وصلوا الى درجات الشوكة والعظمة قبل قورش الملك فان بابل كانت لها شوكة عظيمة تسود قوةً واقتدارًا واما قورش فانه كرَّ على بل كرَّة ضافرٌ عليها الماديُّون والفرس ففتحها فتحًا مبينًا وقضت له الاقدار بان يمسي ملكًا على الشعبين بخلافة شرعية تطبيقًا لما اوعزنا اليه فيما مضى حسب ما رواه كزنوفون ولقد اتضح ان تلك المملكة العظمى التي اقام عمادها ذلك الاصيد البسول قد تاثبت باسم الامتين وبناءً على ذلك فقد اصبحت دولة الماديين ودولة الفرس امرًا واحدًا قسرًا عن مجد احشوروش الذي جعل اسم الفرس متغلبًا

وقد يسوغ لنا التنديد ان ملوك الماديين قبل ان برحوا ببابل وفتحوا مغلقاتها اتسع

نطاق حكمهم من جهة عمارات اليونان في اسيا الصغرى فذاع كما ذكرام لدى اليونانيين وعزوا اليهم الاحكام في اسيا الكبرى وايقنوا انهم الملوك كل الملوك ولم يبقوا في خزينة البال لغيرهم من ملوك الشرق زاوية

ومع ذلك فان ملوك نينوا وبابل الذين تسامت عظمتهم واصبحوا ذوي شوكة تفوق شوكة الماديين لم نرَ لهم في ما وصلنا اليه من تواريخ اليونان ذكرًا بينًا وما ذلك الا لانهم كانوا منكورين لديهم ومما يؤيد مصداق المقال ان العصر الذي خلى منذ سردينبال الى قورش نموهُ الى الماديين وحدهم . ولهذا لاتجدّ الفكرة ياسيدي حتى تقابل ما بين التاريخ الدينوي والتاريخ المقدس لان التاريخ المقدس ليس فيه شيءٌ من متعلقات الاثوريين الا كلمة مفردة ليست مقصودة ولا يعرض بذكر نينوس مؤصل دولتهم ولا باحدٍ من خلفائهِ الاُ فول . وما ذلك الا لان تاريخهم لاعلاقة له بتاريخ شعب الله واما دولة الاثوريين الثانية فليس عندنا من النباء عنها مايزيد الامر جلاءً فلا نفقه هل اليونان جهلوا امرها او البسوها رداءَ الدولة الاولى لسبب ما شطوا عنها معرفةً وعلمًا ولربَّ منتقدٍ ما قيل يستند على مؤلفي اليونان الذين سوّلت لهم النفوس على ان ينظموا الممالك الاولى الثلث حسب اهوائهم وامياهم وطفقوا يذكرون ان الماديين يخلفون الاثوريين الاقدمين دون ان يذكروا البتة الدولة الثانية التي انبأ عنها التاريخ المقدس انها مؤثلة المجد ورفيعة المثابة . واذا كان الامر على هذا النمط فيكون منا الرد على ذاك الانتقاد قائلين ان اليونانيين لم يعرفوا من ذلك التاريخ فصلاً ينيطونهُ بهذا المعنى وانهم يناقضون بما يرونهُ ما اودعهُ الكتاب المقدس وما نصهُ المؤرخون المشترعون المدققون الذين هم من اترابهم واليهم ينتمون

وبايجاز القول نحلّ هذا المشكل قائلين ان المؤرخين الدينيين كانت اعصارهم ومحالهم اقرب من سواهم من الممالك الشرقية وفضلاً عن ذلك احرزوا تاريخًا لشعب الله الذين لم يكونوا منفرزين في شؤونهم عن الممالك العظيمة وان لم يكن التاريخ المقدس مجملاً الا بهذه السمة فكفاهُ بان يقضى به على اليونان ومن قفاهم من اللاتين بالصمت مخلدا .

ومع ذلك فلو اصروا على ان يرعوا لتلك الممالك الثلث نظامًا ويحتسبوا الماديين في المرتبة الثانية ويجعلوا ملوك بابل رازحين تحت نير شوكتهم رضوخًا مقرين ان اولئك

يزحزحون عن عوائقهم بعد ماية سنة اثقال العبودية متمردين لزعوا بنوع تسلسل التاريخ المقدس ولكن هذا ليس بمطابق لما نصهُ المورخون الدنيويون العظام الذين يدنو من اجلهم التاريخ الديني الذي تكون فيه دولة الفرس والماديين في سلك واحد ومن الامور التي تؤيد المقال بان التواريخ القديمة عريَّة عن الجلاء والوضوح هو ان ملوك الشرق جرتهم العادة الى ان يتلبسوا باسماء كثيرة والقاب جمة تنسي المتشوفين اليهم اسماءهم الخاصة ولقد كان الناس يلهجون بها ويلفظونها بانواع مختلفة حسب اختلاف اللهجات وبناءً على ذلك لم يبق لتلك التواريخ الاَّ ادلة نادرة تدلُّ عليها فاصبحت في حيز الابهام ولا ريب في ان اختلاف التلفظ بتلك الالقاب ارخى سجاف الريبة وهوَّش اسماءً باسماءٍ والقابًا بالقاب ولهذا شق علينا جدًّا ان نثبت في تاريخ اليونان الملوك الذين تلقبوا باسم احشوروش وهو اسم يجهلهُ اليونانيون ويعرفهُ الشرقيون. ومن ذا الذي يخالج فكرهُ ان كياكسار هو اسم احشوروش نفسهِ فانهُ مركب من كلمة كي اي سيد ومن اكسار كلمة تدل على لقبه فاذا امتزجا معًا تحول بحسب اختلاف الترجمة الى كسيوروس او احشيوروش

وقد تلقب ثلاثة ملوك او اربعة بلفظة احشوروش وهم ملقبون بخلافها ويدلُّ على ذلك ان داريوس المادي قد كان يلقب باسباروس او احشوروش ودلائل كثيرة كانت تدلُّ على انهُ كان ملقبًا باحد هذين الاسمين

ولو لم يصر الالماع بان نبو قودونصَّر ونبو قودونصَّر ونبوقولصَّر اسماءٌ لمسمًّى واحد لشق على الذهن الوقوف على الحقيقة بيدَ ان ذلك لم يخامرهُ بهتان ولا تمويه فان لفظه نابو هي اسم مطلق لكل من الالهة التي يتعبدها الناس في بابل وقد جرت العادة بان يضيفوها الى اسماء الملوك حسب روح اللغات ويعتريها التحريف لكثرة ما يطرأُ عليها من اختلاف اللهجات فان ساراكون هو سنحريب نفسه واوزياس هو ازادباس وسيدسياس هو ماتانياس ويواكيم هو سيلم وقد ظن ان سوءاوسيا هو سياكون ملك الحبش واسرحدُّون الذي يلفظ بانواع مختلفة هكذا: إزَرْحدون اوازورحدُّون يدعوه الكوتيون اسنفرّ ويظن ان سردانبال هو الملك نفسه الذي دعاه بعض المورخين ساراك ويعرف هذا الاسم عند اليونان باسم تونوس كونكولبروس وانهُ لاسم خفيت عن المحققين حقيقتهُ . وقد نوهنا سابقًا ان سردانبال هو ساردان بن فول اوبول

ومن يعلم ان فولاً المذكور في الكتاب المقدس ليس هو الملك فلصَّر نفسه فان اسماءَ الملوك بعد ان تناقلتها اقلام المترجين اخذ التحريف يعتريها فمنهم من كان يختصر الالفاظ ومنهم من كان يطيلها ويردفها بما يقتضيه اسلوب اللغة وعلى ذلك! لا يبعد ان يكون تجلث فلصر اي تجلث بن فلصَّر احد اولاد فول الذي هو اشد من اخيه سردانبال ولذلك رعى جزءًا من المملكة التي اختلست من بيت ابيه وليس بصعبٍ علينا ان نأتي بجدولٍ عظيم يتضمن كثيرًا من الشرقيين الذين يذكر لم التاريخ اسماءَ مختلفة فتلك مزيةٌ قد الفها اللاتين فانهم قد ازالوا اسماءملوك جمة عن دائرة وضعها بان الصقوابها الالقاب والكنى الصاقًا غير مفترق وبناء عليه فقد اصبح لقب اوغسطس والافريقي علمين لقيصر او كتفيان وسيبون واصبح النيرونيون قياصرة فكل ذلك لا يعرو جانبهُ شيءٌ من الريب ولا ينال المدقق في شأنهِ نفعًا كبيرًا وبالعمري من ذا الذي يغالي في لجة الاستغراب عندما يسمع بعدد الحوءول الذي يعزوه المصريون اليهم فليس لهُ اذ ذاك الاَّ ان يتصفح تاريخ هيرودت الذي يؤكد لنا بتدقيقٍ ونحرٍ كما انف المقال ان تواريخ المصريين ليست بذات وثوقٍ الاَّ منذ زمن بسامّيتيك اي نحواً من ستماية اوسبعماية سنة قبل المسيح

ولا ريب ان من اشكلت عليهِ معرفة الزمن المعزوّ الى دولة الاثوريين الاولى ليس عليهِ الاَّ ان يعلم ان هيرودت ذهب الى انهُ محصورٌ في مدة خمسماية وعشرين سنة ووافقه على ذلك ابيون ودانيوس اليكارناس الذي تسامت معارفه في فن التاريخ وطال باعهُ في تاليفه وان استمرّ احدٌ بعد ذلك جانفًا عن دائرة الحساب السائر قصد ان يستقرىء الحوادث حادثة بعد حادثة والتواريخ التي يخالها حقةً تاريخًا بعد تاريخ فيمكن لهُ ان يغالي في الحساب السبعيني الذي غادرته البيعة حسب الاوطار والاميال لتتنبه الخواطر الى الملوك الذين دارت رحى احكامهم في نينوا والى السنين التي كانت تتألق بها بروق جولهم وطولهم والى سلالات ملوك مصر باي نوع يود تنظيمها وتاريخ بلاد الصين دون ان يتأتى لهُ جلاءٌ

وليس من دأبي ياسيدي ان اموه فيما بعد على افكارك بصعوبات حساب التاريخ الذي لا تجديك منه منفعة بيد ان الصعوبة التي طرأت لدينا هنا تبعثني على ايضاحها لانها ذات بال واما الان فبعد ان غالينا في سرد ما تقتضيهِ غايتنا المأثورة جدّت بنا

الفكرة الى ان نشني الى تسلسل الاعصار مدققين .

العصر الثامن

في قورش او عود اليهود من سبي بابل

(الاجل السادس للعالم)

ان الملك قورش لما انبرى الى رفع عماد دولة الفرس دبت الغيرة في فؤاده جاهدًا واصدر الامر الى ظهرآئه وحواشيه حسب اصطفاء العلي له لينتشل شعبه من مخالب الرق ويشيد هيكله الاقدس وقد كان ذلك في سنة ٢١٨ بعد بناء مدينة رومية وسنة ٥٣٦ قبل المسيح وسنة ٧٠ بعد سبي بابل . ولما ذاعت اوامره في الاقطار والامصار وقرعت عواقبها ابواب الاذان عاد زربابل ويشوع بن صادق عظيم الكهنة بالاسرى فشادوا الهيكل الثاني واقاموا رميم المذبح واما السمرة الذين طالما احتدمت في افئدتهم نيران الحسد عليهم فقد رغبوا في ان يضافروهم على ذلك العمل المبرور متفقين معهم بوحدة الكلمة والرأي ولذلك هرولوا الى زروبابل طالبين اليوان يوءذن لهم باسعاده على بناء الهيكل بحجة انهم يعبدون اله اسرائيل وان خلطوا بعبادته عبادة الهتهم الكذبة لكنما اولاد يهوذا ستمت منهم نفوسهم ضجرًا وعيًا وأنفوا من تلك العبادة المجتزئة فرفضوا طلبهم واقاموا عليه نكيرًا ٥٣٥ فلما تحقق ذلك لديهم ورأوا خيبة مسعاهم جدوا في احياء الختيلة والخداع ونصب حبائل المكر وتظاهروا بالعسف والجور. واما في رومة فبمقربة من ذلك الان عزم سرفيوس توليوس بعد ان اوسع اسوارها وابذخها ان يجعل الحكم فيها جمهوريًا لكنّ مسعاه اصبح حابطًا فانه قتل وهو خائض في غرب ذلك الفكر برأي ابنته واوامر صهره تركوين المتجبر ٥٣٤ فحكم حينئذٍ هذا الجائر عاتيًا واستمر طويلاً يعثو في الارض مفسدًا واما دولة الفرس فاستمرت تتقوى يومًا بعد يوم وامتدت شوكتها في الاحياء والانحاء وتعزز مصالها في قلوب الاولياء ففتحت المدائن وفضلاً عن انها رفعت لواء سطوتها فوق اقاليمها الجمة في اسيا الكبرى رضخت لشوكتها اسيا السفلى الشاسعة البرور وطأطأت لها روءوس الاعراب والسريان ومع حرص المصريين على شرائعهم رضخوا الى سننها وحافظوا على نظامها ومبادئها وكان الفتح ٥٢٥ بواسطة كمبيش

بن قورش بيد ان ذلك الملك الذميم لم يجيَ طويلاً بعد موت اخيه اسمرديس الذي قتلهُ خفيةً تيمّنًا لما بدا له في حلم ذي غموض ٥٢٢

واما اسمرديس المجوسي فقد تولى الملك حقبة بلقب اسمرديس اخي كمبيس ولما نضيَ عنه غشاء النفاق توامر على قتله سبعة من الامراء فاهرقوا دمه غير ماسوفٍ عليه واستوى واحدٌ منهم مكانه على الفرس ملكًا ٥٢١ يدعى داريوس بن هيستاسب ونص كثيرًا في تواريخه انه متفرد في الشمائل ونزاهة النفس وانهُ اوحد بني الطينة ودلائل كثيرة تدل على انه احشوروش الملك المذكور في سفر استير وقد تم في عرق ملكو الهيكل بعد ان كان السمرة ذريعةً للتقاعد عن اتمامه مرارًا كثيرة ومن ذلك الزمن تسعرت لهب البغضاء والقلى بين تينك الامتين فاخذت اورشليم والسامرة تتناظران وتترصد كل الشحناء للاخرى وفي عهد الملك داريوس نشأت الحرية في رومية واثينا ولاح مجد اليونان العظيم لدى القاصي والداني وانقذ ارموديوس واريستوجيتون الاثينيّان منبت شعبتهما من عتو هيبّارك بن بيزيسترات وجوره لكنما تصدّى لهما ظهراهه المقربون لديه واما توهما بغرار الحسام ٥١٤ واما هيبياس اخو هيبارك فقد شمر عن ساعد العزيمة ليبقى مكانة اخيه فحبط مسعاه وطرده الشعب ممتهنًا ٥٠٩ــ٥١٠ ولم تعد اذنٌ تسمع بجور آل بيزيسترات واعتسافهم . ولما تملص شعب اثينا من وثاق العبودية اقاموا تماثيل تذكارًا لمنقذيهم اللذين زحزحا عن عواتقهم اثقال المكروه وبعد ذلك ازهرت حالة الجمهورية واما هيبّاس فاذ راى ان لاامل له بالعود الى وطنهِ الاَّ باعانة الملك داريوس ترامى عليه ملتجئًا فراه على اهبة التسيار الى بلاد اليونان فاتحًا وفي الوقت الذي طرد فيه هيباس كانت رومية تتحرَّر ويتمزق عنها رداء الظلم واذ راى الناس استبداد تركوين الجبّار وما سوّلت له نفسه من البوءس والسوء كرهوا الحكم الملوكي كل الكراهية وانقاد ابنه سكستوس الى هتك الحرمة وارتكاب الفحشاء فكان ذلك علة تنفيذ دثاريته فان لكريس التي اغتصبها عراها الخجل والاستحياء وشق عليها الامر فانتحرت فاثار نجيعها وخطاب برتيوس الشعب على كل سلالتهِ وقاموا على قدمٍ وساق وتواثبوا على الملوك فطردوهم مروعين وشيدوا حكم القناصل حسب قصد سرڤيوسّ توليوس ٥٠٩ لكنما الشعب تفجرت في صدورهم ينابيع الحسد فوهنت قوى السلطة وتقلصت الشوكة ومنذ تاسست القنصلية الاولى اساء المرئوسون الظن بفلاريوس الذي

ذاع صيته بنصره المبين وقوة باسه في مساورة العدو ولكظم حنق الاهلين سن نواميس يصير بوجبها احالة الدعاوى من مجلس الندوة والقناصل الى الشعب اذا مست الجريمة احد الاهالي ليكون عليهم اقامة العقاب في حق جريرته واما الملوك المجاورون فلما سمعوا بطرد التركوينيين وجسوا من ذلك خيفة وقالوا ان هذه الفعلة امتهان لنا وخرق لحرمة نواميسنا ولذلك انبروا الى ان يكونوا لهم محامين واما بورسينا ملك الكلبزيين القاطنين اتروريا فقد استشاط من ذلك حنقاً وتقلد بالسلاح المبرّح وكرّ على رومية منتقماً ٥٠٧ ولما اصبحت المدينة على وشك الدثار واوشكت ابوابها ان تفتح للعدو نضا هو راسيوس كوكليس الضامي وهجم على الاعداء بقلب اقسى من الصخرة الصماء وقفاه الرومانيون رافعين الوية النصر واظهروا بسالة احيت لهم حريتهم بعد ان كادت تضمحل ومن الامور العجيبة ان شاباً من المدينة يدعى سفولا احرق يده بسعير النار عقاباً لها لانها لم تصب بورسنا ونالت كليله الفتاة الشهرة العظمى على ما ابدت من الجراءة الفائقة في مضمار القتال وادهشت بورسينا نفسه بفرط بسالتها فافضى به الامر حينئذٍ الى ان يدع المدينة مضروباً عليها سرادق الامان فتركها وشانها و بني تركوين واهل بيته لا نصير لهم ولا معين واما ابياس الذي تحرش للاخذ بناصره الملك داريوس فقد كان امله في النجاح وطيداً ٥٠٠ لان بلاد الفرس تحفزت لاسعاده على نوال الغنيمة فصارت من ذلك رهبة في القلوب واستنظر الناس شبوب نار محرقة في اثينا وبينما كان داريوس يتأهب لتلك الحرب الهائلة اوشكت رومية ان تهوي الى دركات الخمول هالكة بعد ان كانت دافعت عن نفسها ضد الاجانب فان الحسد الذي تاصل فيها عزز العداوة والبغضاء بين الاعيان والشعب فان سلطة القناصل الباهظة ولو دمثها فلاديوس بشر بعته فقد بقيت ثقيلة على عواتق الاهلين الذين كانوا كثيري الحرص على استقلال الحرية ولذلك نزحوا من المدينة وتوطنوا جبل افنتين ٤٩٣ فقد حاولوا ان ينصحوا لهم بالوعيد فكان ذلك عبثاً لكنما كلام منينيوس اكريبا الموثر الرائق حملهم على الانثناء لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . فالتزم حينئذٍ الاعيان ان يروا لذلك الداء دواء و يقيموا للشعب محامين ضد القناصل يدافعون عن حقوقهم ودعوا اذ ذاك الشريعة التي صار بوجبها هذا القضاء مقدسة ومن ذاك الان صار المحامون للشعب واعلن داريوس الحرب على اليونان واما صهره ماردونيوس فقد جاز اسيا متوهماً انه يقمع اليونانيين بكثرة جيوشه

فوافاه ملسياد الى سهول مرتون ومعهٔ عشرة الف محارب من الاثينين فزأرت الحرب بين الفريقين فدارت الدائرة على داريوس وأُذيق مر النكال ٤٩٠ وكانت وقتئذٍ رومية تظفر باعدائها المجاورين ولم يكن يخشى عليها الاَّ من شقاق اهلها

وكان في ذاك الوقت رجل لهُ الغيرة الصرفة لحزبه الاعيان يقال لهُ كوريُولان وهو من اعظم قادة الجيش فبدلاً من ان تؤدى لهُ الكرامة ويثاب على خدمته المخلصة لوطنه حكم عليهِ بالطرد من حزب الشعب فشق عليه ذلك جداً وعول على خراب بلاده فجند لهُ عسكراً من الفولسك ٤٨٩ وزحف على رومية واتاها بالنكبات الوبيلة واغلق عليها طرق الامان مضيقاً لكنها امهُ طلبت اليه ان يكظم عنها غيظهُ فكف عن التبريح بها ٤٨٨

واما بلاد اليونان فقد نالت السكينة عقيب موقعة مرتون لكن تلك السيادة لم تبقَ فيها مديداً فان كركساس بن داريوس وخليفته وحفيد قورش لامه اطوس عزم على ان ياخذ بثار الفرس وابيه من اليونانيين فجهز من العساكر المائلة احد عشر كرةٍ اوسبعة عشر كرةٍ على مذهب البعض من المورخين والف من البلاتيين

وزحف على اليونان وتاججت مواقد الهيجاء بعد ان سبرَ بحراً الفاً ومايتين سفينة فيها عسكرٌ كلهم قساور فصلّت الاسلحة وابرقت الاسنة وتطايرت الهامات عن المناكب وانساع الدم على الغبراء غمرةً ومسيلا اما هونيداس ملك سبرتا الذي لم يكن معهُ سوى ثلاثماية مقاتل فقد قتل من جيش الفرس عشرين الفاً في مضيق جبال الترموبيل ثم قتل ورفقاؤه طراً ٤٨٠ واما كسركساس فقد فنيت قواته البحرية باراء تيميستوكل الاثيني في تلك السنة عند جزيرة سلاميني ثم رجع عابراً بحر الهلسبون والرعبة والخشية تقنوان اثرهُ ولم يحل من ذلك الحين حولٌ الاَّ تصدى لجيشهِ الارضي ٤٧٩ عند بلاته بوزانياس ملك لاسيدبمونيا واريستيد الاثيني المدعو الصديق واعملا به وبقائدهِ ماردونيوس حدَّ الحسام وانتصرا عليه وكان ذلك وقت انبثاق الصباح ولما امسى ذلك النهار الرائع وثب يونانيوا اسيا الصغرى الذين كانوا قد القوا عن عواتقهم نير عبودية الفرس واهلكوا من فارس ثلاثين الف راجل في موقعة ميكال تحت قيادة ليونشيد

فاشاع ذلك القائد الاصيد خبراً معناه ان ماردونيوس وجيشهُ تنكلوا في بلاد اليونان وما ذلك الاَّ ليلقي الجراءة في قلوب جنوده لكنما الاقدار جعلت ذلك الخبر

صادقاً ولم يعلم ان كان علمهُ بوقوعهِ موكولاً الى تواتر الانباء او الى الصدفة الغريبة . ولدن ذلك قطع كل يونان اسيا الصغرى رباط العبودية ورفعوا فوق رؤوسهم راية الحرية ودوَّخوا الاقطار والامصار وتسلقوا على جبال الغنيمة والانتصار . وقبل ذاك الحين جرعوا القرطجنيين الاشداء وقتئذٍ صاب الذلة في صقليا صاغرين اذ بعثتهم المطامع الذاتية على ان يوسعوا نطاق سلطنتهم اجابة لما حضهم عليه الفرس فكان ذلك وسيلةً لارهاقهم والايقاع بهم بيدَ انهم قسرًا عمّا احيط بهم من النكبات كانوا لا يبرحون يجدون مقاصدهم في نوال تلك الجزيرة التي تقوي شوكتهم المجربة التي تتهافت على طلبها جمهوريتهم ولم تكن تلك الجزيرة تناط وقتئذٍ الاّ بعهدة اليونان ولم تكن محدقة الاّ لجهة الشرق والفرس ولما كانَ الفرس مستولين على جزيرة قبرص استفزَّت الغيرة بوزانياس وملصها من حبالة العبودية ٤٧٧–٤٧٦ ومن ثم قصد ان يجعل وطنه راذحًا تحت نير عبوديته فحبط بذلك مسعاه قسرًا عما وعده الملك كسركساس من النجاح وقد وقعت الخيانة في حقهِ ممن فاق الجميع بمواذتهِ فكانت صبابتهُ المفرطة علةً لموتهِ ٤٧٧–٤٧٤ وقتل ارتبان رئيس شرطة الملك كسركساس في تلك السنة عينها وامر قتله اما لان هذا الخائن ودَّ الاستواء على عرش سيدهِ او انهُ خاف قسوته الرائعة لانهُ لم ينفذ بسرعة اوامر الجائر اما ارتحشتا الملقب باليد الطويلة ابن كسركساس فقد دانت لهُ هامة الحكم ولم يلبث ان يتبوأَ سرير الخلافة الاّ بعث اليه تيميستوكل بكتاب مآله ان يوازرهُ على اليونان لانهُ كان منفياً من منبت شعبتهِ ٤٧١–٤٧٢ فتلاين الملك وتساهل في امر هذا القائد الماهر وقرَّبه اليهِ ورتّب لهُ راتبًا يقوم باودهِ ونظر اليهِ بعين الرعاية قسرًا عن اوليائهِ الحاسدين وضم الى اكناف حمايتهِ الشعب اليهودي ٤٦٧ وفي السنة العشرين من ملكهِ المشتهرة بما يعزى اليها من الحوادث المهمة اصدر امرًا الى نحميا ان يقيم اورشليم من حضيض دثارها ويرفع اسوارها ٤٥٤ وامر ارتحشتا بشان ذلك يختلف عن امر قورش لان امر قورش موعز بهِ الى اقامة الهيكل وامر ارتحشتا الى المدينة وان الاربع مائة والتسعين سنة من حساب الاسابيع تبدأ منذ صدور ذلك الامر المذكور الذي تنبأ عنه دانيال وهو مذكور في نبوته

وان هذا التاريخ المهم مركَّن على اساسٍ غير مزعزع وقد نص في تاريخ ازيبوس ان تيميستوكل صار نفيهُ في اخر سنة من الاولمپياد السادسة والسبعين وذلك يطابق سنة ٢٨٠ من تاسيس رومية وفي غيرهِ انهُ ابعد قبل ذلك الزمن بقليل من الحؤول

ولما كانت المباينة جزئية بعثتنا الظروف الزمنية على ان نعتمد تاريخ ابزيبيوس . وهذه الظروف التي اعتمدها ابزيبيوس ماخوذة من تاريخ أتوسيديد المورخ الصادق الذي قد تنزه مولفهُ من شائبة البهتان واشتهر في ثبات النقل وصدق الرواية وقد كان معاصراً لتيمستوكل فضلاً عن كونه تقريباً من ابناء اترابهِ فقد وصل الينا النبأ منهُ ان تيمستوكل بعث بكتابهِ الى ملك الفرس ارتحشستا في غرة ملكه وليس من مآرب كورنوليوس نبوس المولف القديم العظيم ان تمس الريبة احداً في ان هذا التاريخ معوَّل عليه بالاستناد على قول تيسيديد ومصداق مقالهِ ثبتهُ البراهين السديدة فان مولفاً اقدم من تيسيديد هوشارون من لمبساد الذي يذكرهُ المورخ بلوتارك تصفح المنفرون مقالهُ فرأوه منطبقاً على ما اثبتهُ في باطن تاريخهِ وبلوتارك نفسه يقول ان تواريخ الفرس اجمع تنطبق على ما ينصهُ هذان المورخان ومع هذا كلهِ فانهُ لم يستند على شيءٍ من مقالها ولم يبرز لنا ادلةً على عدم اعتماده عليها واما المورخون الذين حصروا حكم ارتحشستا ثماني او تسع سنوات بعد الحين المذكور فليسوا من ارباب ذلك العصر وليس عندهم من الحجج البينة ما يوبد اراءهم فقصارى الامر ان ابتدا حكم هذا الملك لابدَّ من ان يكون في اواخر الاولمبياد السادسة والسبعين وفي مقربة من وقت تشييد رومية ٢٨٠ وبناءً على ذلك ينتج ان السنة العشرين من حكمهِ تنطبق على اخر سنة من الاولمبيادا الحادية والثمانين ونحو ٣٠٠ سنة من تشييد رومية وفضلاً عن ذلك فان المورخين الذين حصروا قبل هذا الحين المعتمد عليه حكم ارتحشستا ليطابقوا بين المولفين قد توهموا ان اباه قد شاركه في ملكهِ لما بعث اليه تيمستوكل بتلك الرسالة وفي كل حال نرى ان تاريخنا لم يشوه بشيءٍ من البهتان والمين بل ديدنه التحري والتدقيق وصدق الرواية وهذا الركن مأسوس وما بقي من الحساب سهلٌ صنعهُ وان تسلسل الاحوال يجعلهُ لديك محسوساً وبعد ان صدر امر الملك ارتحشستا على اليهود يبنون مدينتهم ويرفعون اسوارها تأييداً لما تنبأ دانيال (١) وكان نحميا يدبر مهام ذلك العمل بحكمته وحصافة عقلهِ وقوة جنانهِ قسراً عن السمرة والعرب والعمونيين والشعب يجهد كادحاً في احياء هذا العمل المأثور وكان الياشيب الكاهن العظيم يقويهم بمثلهِ وكان الاولياء الحديثون الذي اصطفوا لان يكونوا حاكمين الشعب

---

(١) دانيال ٩ : ٢٥

قد زادوا البلبلة والاضطراب

ورومية التي تشيدت في عهد الملوك كانت في احتياج عظيم الى شرايع هامة تسير بموجبها جمهورية حسنة ولما اشتهر اليونان بسداد الاحكام اكثر من الانتصار اتخذهم الرومانيون انموذجًا لهم وطفقوا يقتدون بهم ويتعلمون حكمتهم فسيروا مبعوثين الى المدن اليونانية ولاسيما اثينا لياتوهم بشرائعها المناسبة لاحكامهم الجمهورية ٤٥٣-٤٥٢ وفي السنة الثانية ٤٥١ اقاموا عشرة ولاة اولي ابهة وصولة واطلقوا لهم السلطة ولقبوهم باسم ديسمفير فسنوا لهم شرائع كتبوها على اثني عشر لوحًا على نسق الشرائع اليونانية وقد جعلوها ركنًا للشريعة الرومانية فلما نظر اليهم الشعب ورأوا فيهم حسن الطوية وعدم الجور في نص الشرائع تركوهم يتقلدون السلطة المطلقة لكنهم لم يبقوا في دائرة العدالة بل جنفوا عن تلك السابلة وامسوا يعثون ويظلمون ٤٥٠ فكثرت حينئذٍ في رومية القلاقل والشغب وتأصلت الإحن والفساد واول ما سبب ذلك فساد ايوس كلوديوس احد هؤلاء (الديسمفير اي الولاة العشرة . واما فيرجيني فقد تصباها ايوس وانضاه شوقها وهيامها فاخذت الغيرة عليها اباها ورغب في اهلاكها فقتلها خشية ان تقتنصها حبائل الهوى ولما اهرق دم ليكراس الثانية هاج الرومانيون وازبدوا وطردوا الديسمفير بكل حقارةٍ وامتهان

وفي اثناء ما كانت تسن شرائع رومية ويهذبها ذوو الامرة في عهد الديسمفير كان عزرا العالم بشريعة الله ونحميا القابض على زمام الشعوب الآيبة الى اليهودية يصلحان الشعب ويبعثانهم على رعاية شريعة موسى تسننًا بها لانهما كانا اول من يعكف على رعايتها واول بند من اصلاحها هو ان الرجال ولاسيما الكهنة مندوبون ان يغادروا النساء الغريبات اللاءي اتخذوهنَّ قسرًا عما حرَّمتهُ الشريعة واما عزرا فقد عكف على الكتب القدسية وجعل لها اتساقًا ونقحها كل التنقيح واحرز روايات شعب الله القديمة والف منها سفري اخبار الايام واضاف اليها تاريخ عصره الذي اتمه نحميا وبكتبها ينتهي هذا التاريخ القديم الذي باشره موسى وما زال المولفون الذين اتوا فيها بعد حتى الان الذي نهضت فيه اورشليم من دثارها يتممونهُ بكل جدٍ وكدح وبينما كان عزرا ونحميا يتممان السفر الاخير من هذا التاليف العظيم كان هيرودوت الذي يدعوه المورخون الدنيويون ابا التاريخ قد شرع يكتب تاريخهُ وعلى هذا يلتقي مورخو الكتاب المقدس الآخرون باول مولف لتاريخ اليونان ولما برز هذا التاريخ الى عالم الوجود تبين ان

تاريخ شعب الله تقادم عليه خمسة عشر جيلاً من عهد ابرهيم ولقد تصفحنا تاريخ هيرودوت الذي اتصل لدينا ونقرنا في هوامشه لنرى لنا فيه نبأ عن تاريخ اليهود فحبط مسعانا وسقط سهمنا دون الغرض المرام وما ذلك الالان اليونان لم يكونوا يتهمكون الا في الفحص عن الشعوب الذين كانوا يعرفونهم بسبب الصلات الحربية او التجارية او بسبب شهرتهم . واما اليهودية فبعد ان عبثت بها ايدي اليباب كادت تكون حليفة الحيوة بعد طموسها ومع هذا فلم نستأهل ان يرنوا اليها باحداق بصائرهم وفي ذلك الزمان المشوه بشوائب الاكدار والحوادث المدلهمة اخذت اللغة العبرانية تمتزج باللغة الكلدانية التي كانت لغة بابل لما كان الشعب العبراني فيها في اغلال الاسر . ولقد كان القسم الاكبر من الشعب ينفهمها كما يظهر من تلاوة عزرا كتب الشريعة ›› امام الجماعة امام الرجال والنساء وكل ذي فهم . . .فقرأوا في سفر توراة الله مبلغين المعنى حتى فهموا القراءة ‹‹ (١) ومنذ ذاك الان اخذت تعتل حيناً بعد حين فلم تتقادم عليها اعوام كثيرة الا ولم تعد لغة سائرة لان اليهود قد تعلموا منذ سبي بابل اللغة الكلدانية وبعد ذلك بسبب اتصالاتهم مع الكلدانيين لانها كانت تضاهي لغتهم مادةً ولهجةً وبناء على ذلك بعثتهم الضرورة على ان يغيروا احرف لغتهم العبرانية وطفقوا يكتبون الالفاظ العبرانية باحرف كلدانية لسهولة تراكيب الفاظها وشيوع استعمالها فيما بينهم وقد جرى هذا التغيير دون عناء وصعوبة لتقارب مخارج احرف اللغتين ومنذ ذاك الوقت لم تتناقل اليهود الكتب المقدسة الا بالاحرف الكلدانية .

بيدَ انه وجد في ايامنا هذه خمسة اسفار موسى في ايدي السمرة مكتوبة باحرف عبرانية قديمة كالاحرف التي على النصبات (اي الايقونات) والاثار التي تنبيء عن الاجيال الدابرة وهذه الاسفار لاتختلف عما هو في ايادي اليهود الا في محل واحد يلاحظ محل العبادة لله ومع هذا فقد حكم على ذلك بالتزوير فان السمرة زعموا ان الله اوعز اليهم باقامتها على جبل غاريزايم بالقرب من السامرة وقال اليهود لابدّ من ان يكون ذلك في اورشليم

وقد يرى ايضاً بعض مباينات جزئية ويتضح ان الاباء الاقدمين الذين منهم اوسابيوس

(١) سفر نحميا ص ٨ : ٢ : ٦ : ٨

وايرونيموس طالعوا هذه الاسفار السامرية ونجد في النسخة التي تتداولها الايدي في هذا الحين كل السمات التي وسم الاباء بها النسخة التي تكلموا فيها فياسيدي انني مندوب ان افصح لك باوجز العبارة عن تاريخ السامريين واسفارهم الخمسة رجاء ان تشعر بآثار شعب الله القديمة ولذلك يقتضي ان تتذكر ان ياربعام ابان عشرة اسباط عن مملكة يهوذا ليوءلف منها مملكة اسرائيل التي حاضرتها السامرة ٩٢٤-٩١٤ وذلك في عهد رحبعام بن سليمان بعد ان اغتالت سليمان المنية ٩٧٥-٩٦٢ وكان ذلك عقابًا على آثامه . ولما قضي على هوءلاء الاسباط بالانفصال شق عليهم الامر ونبذوا جانبًا الكتب المقدسة التي كانت من عهد سليمان وداود وتقاعدوا عن تقدمة القرابين في هيكل اورشليم ولم يعبثوا باوامر ذينك الملكين اللذين احدهما هيأ الهيكل واعده والاخر شاده وكرسه

اما مدينة رومية فقد أسست ٣٢٥٠ بعد التكوين ٤٢٠٩-٣٢٥٠ وبعد ان مضى عليها ثلاث وثلاثون سنة من بنيانها اي ٣٢٧٣ بعد التكوين سيق عشرة الاسباط المنفصلون عن يهوذا اسرى الى نينوا وتشعثوا ايدي سبا بين الوثنيين

وبعث حصرڤون ملك اثور في عهده بالكوتيين (١) الى السامرة ليقطنوها ٦٧٣-٦٧٧ وقد كانوا قبلاً اثوريين فدعوا فيما بعد سامريين وقد اجتزئوا عبادتهم بين الله العليّ والاصنام ومنحهم الملك حصرڤون كاهنًا اسرائيليًا دمث سجاياهم وعلمهم عبادة اله المحل اي معرفة النواميس الموسوية لكنه لم يهبهم الا اسفار موسى التي جنحت اليها عشرة الاسباط بكل رضوخ ووقار ونكصوا عن الاسفار المقدسة الاخرى لاسباب ذكرناها انفًا. فعلى ذلك ارتضع هوءلاء الشعوب من افاويق ذاك التعليم ولبثوا يثابرون على البغضاء التي كانت كامنة في صدور عشرة الاسباط ضد اليهود . ولما لاين قورش اليهود واباح لهم ان يقيموا هيكل اورشليم ٥٣٥ تصدى لهم السمرة سرًا معارضين مشروعهم وتظاهروا علنًا انهم يرغبون في الاشتراك معهم بذلك الصنع الحميد بحجة انهم يعبدون اله اسرائيل وهم لاينفكون يوءدون العبادة والسجود لاصنامهم ولبثوا يعارضونهم ويصادمونهم لما اخذوا يرفعون اسوار مدينتهم تحت قيادة نحميا فكثرت

(١) سفر الملوك ٤ ص ١٧ : ٢٤ وعزرا ص ٤ : ٢

الشحناء بين الامتين واصبحت كل امةٍ تساور الاخرى وتنظر اليها شزرًا

وغدا اولائك الاقوام لايسلكون السابلة التي يطرقها اليهود واجتهدوا في ان لايقتدوا بهم في امر من الامور . ولذلك لم يغيروا الاحرف العبرانية باحرف كلدانية وبناء عليه بقيت خمسة اسفار موسى مكتوبة بينهم بالاحرف العبرانية القديمة كما اسلفنا في ما مضى وهرعوا الى الملك اسكندر يستاذنونهُ ببناء الهيكل على جبل غرزايم ٣٣٢ فاستأذن عليه عميدهم منسى اخو يدُّوس الكاهن الاعظم وقرشة الدخلة عن لسان القوم فحاز الطلب لدن الملك قبولاً . وقد لاح ان السمرة طفقوا يرعوون في ايامهِ عن عبادة الالهة الافاكة واصبحوا لا يباينون اليهود وقتئذٍ الا بامر واحدٍ وهو انهم لا يؤدون عبادة الله في اورشليم نفاذًا لامرهِ بل على جبل غرزايم ومن ذلك تجلو العلة التي لاجلها حرَّفوا في اسفار موسى الكلام الذي يوعز الى الجبل قصد ان يؤهوا لدى الابصار ان التقديس والتكريس ليسا منوطين باورشليم بل به . ولبثت العداوة والقلى بين الامتين فزعم السامريون ان هيكل جبل غرزايم يستأثر بذاته ولا تكون العلاقة بينهُ وبين هيكل اورشليم فكثرت المناظرة والمنازعة وبقيت تحتدم نار المشاحنة الى ان ركب متن خلافة مصر الملك بتولماوس فيلوميتور فطرحوا حينئذٍ الدعوى لدى ارباب الحل والعقد واخذت الادلة والبراهين تدور على رحاها فكسبها اليهود استنادًا على تواتر الاحوال والتقاليد البينة وصدر لهم الحكم من لدن الملك نفسه واما السمرة ففي عرض اضطهاد انتيوخوس وملوك سوريا لليهود آل بهم الامران يتحازوا اليهم فانبرى لهم يوحنا هيركان ابن سمعان وفتح بلادهم وطمس هيكلهم على جبل غرزايم ١٢٩ ق م بيد انهُ لم يمكن لهُ ان يصدهم عن ان يستمروا عابدين الله على ذاك الجبل حيث كان هيكلهم ولاان يعبدهم ربهم في هيكل اورشليم فلبثوا معتصمين بعروة تلك العبادة في عهد المسيح الذي قضى بالحكم عليهم فتئوا من ذاك الحين في محلين او ثلاثة في الشرق . فدوخ الامصار احد سواحنا فعثر بهم واتانا بنسخة من خمسة اسفار موسى تدعى سامرية فاتضحت لدينا قدميتها ومن ذلك نقف على البواعث التي حملتهم على ان يستمروا على تلك الحال وتجرع اليهود في عهد الملك ارتحششتا كووس الطانينة والامان واما سيمون بن ملسياد قايد جيوش الاثينيين فاغصب الملك ارتحششتا على ان يبرم صلحًا يخرق ناموسهُ . وقد قنط من ذاك الحين ان يظهر على اليونانيين بالارهاب والاذلال فتهافت على ان ينتهز نهزة شقاقهم . ودخيلة الامر

أن قد حدث نفور عظيم بين الاثينيين والاسيدمونيين وغرت صدور الامتين بالحسد واخذتا تقتسمان كل بلاد اليونان واوقد باريكليس الاثيني نيران الحرب في شبه جزيرة البلوبنيز ٤٣١ فاشتهر اذ ذاك تيرامني وترازيبول والسيباد والاثينيون وبعثت الغيرة برازيداس وميندار اللاسيدمونيين على ان يذودا عن الوطن فهلكا قتيلين . فاستمرت تلك الحرب تسعر موافدها سبع وعشرين سنة وكانت نتيجتها حسنة للاسيدمونيين فانهم رفلوا برداء النصر والاستظهار لان داريوس النَغِل اي البندوق ابن ارتحشستا كان يقوم بناصرهم وساور اثينا قائد جنود لاسيدمونيا البحرية ليزندر فاذاقها عذاب الهون وفتحها وغير هيئة حكومتها فشمر الفرس انهم عززوا اللاسيدمونيين وأُتيح لهم شوكةٌ عظيمة ولاسيما اذ متن وثاق اخائهم لقورش اليافع ٤٠٤ يوم تمرّد على ارتحشستا الملقب بمنون لفرط المعيتهِ فترصدوا لهم بذلك رهبةً واحترسوا من وقوع الغائلة لان قورش اليافع لما كان في وهاد السجن احتالت امهُ باديزاتيس على اخراجه منه فتملص من الاداهم والاغلال واخذ يتوقع الزمن لاخذ ثاره فامال اليه الولاة لفرط حنانهِ وتلطفهِ وطوى اسيا الصغرى وكرَّ مقاتلاً اخاه فولج مملكته هجوماً وجرحهُ بيدهِ واخذت بهِ الخيلاء كل ماخذ فاصبح شديد الخنزوانة ظاناً ان النصر طوع يمينهِ فمات قتيل الجسارة والجراءة اما عشرة الالاف من اليونانيين الذين كانوا يناضلون معهُ فابوا الى اوطانهم اياباً عجيباً اذ كان يتولى قيادتهم في غاية مسيرهم كزنوفون الفيلسوف والجهبذ المفضال والقائد الجريء الذي ألف تاريخ رجوعهم . وواصل اللاسيدمونيون الحمل على مملكة الفرس التي اذاقها اجزيلاوس صاب التاويق والارهاب في اسيا الصغرى غير انهُ التجأَ الى الاياب الى وطنه لما شعر بالشقاق السائد بين اليونانيين ٣٩٦ وفي ذلك الوقت زحف الرومانيون تحت قيادة كميل على مدينة فيي فناصبوها عشر سنوات وفتحوها بعد نجاحات متباينة وكانت تلك المدينة تضاهي رومية بالسوءدد والمجد . وبعد ان فاز كميل بالنصر المبين صوَّب اسنَّة قوتهِ على مدينة اخرى يقال لها فليسيك فعلق يضيق عليها محاصرًا فأمهُ احد معلمي الصبية مسلماً اليهِ اولاد اعيان المدينة امل ان يحظى من لدنهُ بأسمى المكانة فدبت الشهامة في راس القائد واعاده الى المدينة منكلاً مهاناً فاظهر اولو المدينة امتنانهم منهُ وسلموه نفوسهم والمدينة راضخين ٣٩٤ فلم يشأ الرومانيون ان يفوزوا غدرًا ولا يتحينوا الوقت للنصرة بواسطة ذلك الخائن اللئيم الذي خدع اولائك الاحداث السذّج ثم دخل

الغوليون السنونيون ايطاليا واحاطوا بمدينة كلو يوم ٣٩١ وحاصروها فاستظهروا على الرومانيين في معركة إليا الشهيرة ٣٩٠ واستولوا على رومية واحرقوها وبينما كان الرومانيون يدافعون عن نفوسهم في الكبيتول كان كميل المنفي منهم يصلح شوؤنهم في الخارج واستمر الغوليون متبوئين رومية سبعة اشهر ولما التجئوا الى ان يجالوا عن اترابهم ويهاجروا الى انحاء اخرى نزحوا من البلاد واصحبوا معهم المهام والغنائم . وفي اثناء الثورة التي احتدمت بين اليونان اشتهر إبامينونداس التيباني بعدله واستقامته وانتصاراته ٣٧١ ومن مبادئه المألوفة ان لا يمين ولو هزلاً . واشتهرت اعماله المأثورة في اواخر حكم الملك ممنون وتحت ادارة هذا القائد المفضال نال التهبانيون الفوز على اللسدمونيين ونكسوا شوكتهم واما ملوك مكدونيا فقد اخذت سلطتهم تبدو في عهد الملك فيلبوس ابي اسكندر الكبير ٣٥٩

اما فيلبوس ففسرًا عن تصدي ملكي الفرس له اخوس وابنه ارسيد وما بادهه من الموانع التي سببها له في اثينا ديموستينوس بفرط فصاحته وذوده الشديد عن الحرية ظهر على اليونانيين مدة عشرين سنة واثقلهم بوءسًا ودانت له السلطة المطلقة بعد ان قبض على عنان النصر في موقعة كيروني حيث تنكيس الاثينيين والمتحدين معهم ٣٣٨ واذ كان يصول على الاعداء ويجول ويتلقى صدماتهم بمجنّ تجلده جانت منه التفاتة فراى ابنه الاسكندر وهو في سن الثماني عشرة سنة يخرق صفوف التهبانيين فافترّ لذلك سرورًا وهولاء الجنود كانت بينهم الفرقة المقدسة التي تدعى جنودها الاصحاب وكان يخالج فكرها مرارًا ان تنكيلها من الامور المستحيلة . وعلى ذلك استولى فيلبوس على بلاد اليونان كافةً وكان يضافره ابنه الذي كان منتهى آماله واوطاره واخذ من ثم يصلح الشوءون ويقدم على المقاصد الحسنة ولم يهجس في بادىء الامر الاّ بتقويض اركان دولة الفرس فاغرى اليونان بان يولجوه قيادة جيشهم العام ٣٣٧ ومع ذلك فبقي دثار مملكة الفرس الى ان يقوم بعبئه الاسكندر . وفي ذاك الحين وثب على فيلبوس الملك احد خطيري المدينة وقتله في غضون حفلة زفافه ٣٣٦ وما ذلك الا لانه كان قد قضى عليه جورًا واعتسافًا وفي تلك السنة عينها ابتدر باغواس الخصي لقتل ارساس ملك الفرس ونصّب مكانته داريوس بن ارزام الملقب بقودومانوس الذي يحملنا فرط باسه على اعتقاد الراي الاحق وهو المقول به انه من السلالة الملوكية . وعلى ذلك عكف على

تبوء المملكة ملكان ذوا بسالة وهما داريوس بن ارزام واسكندر بن فيلبوس فقد كان هذان الملكان يتناظران وتغرُ صدورهما حسدًا وانجلى لدى الناس انهما لم يلدا الاّ ليتنازعا في امتلاك العالم . اما اسكندر فقد ازمع على ان يثبط قدمهُ على مملكتهِ قبل ان يكر على خصمهِ حاملاً فثار بادىء بدء اباه وقهر الشعوب الذين طغوا عليه وتمردوا واستهانوا حداثته وحطّم اليونانيين الذين سوّلت لهم نفوسهم عبثًا على ان يطرحوا عن مناكبهم نير عبوديته وجعل مدينة ثاب طامسة دارسة ٣٣٥ ولم يعرض الا عن مواخذة عترة بنذان الذي رنّت اشعاره في البلدان اليونانية ولما قوي واصبح مظفرًا بتلك المعامع الهائلة زحف على داريوس متوليًا قيادة اليونان وواقعهُ مرات ثلاثًا فاذاقهُ عرق القربة وقمعهُ مذللاً ودخل بابل وسوز فائزًا ٣٣٠ وجعل برسو بوليس حاضرة الفرس عافية دارسة وبسط فتوحاتهِ الى بلاد الهند ٣٢٧

وبعد ان فرى الفيافي ودوّخ الحواضر مدثرًا بشعار الفوز عاد الى بابل ومات فيها وهو في سن الثلاث والثلاثين سنة ٣٢٤ وزفّت في ذاك الاّن ابنة سنابلا السامري الذي تولى بلاد اليهود بامرٍ من داريوس الى منسى اخي الكاهن العظيم فاوقد شرارة الشغب بين اليهود فرغب اليه اخوهُ يادوس ومجلس اورشليم ان يطلق هذه الامرأة الغريبة فابى ذلك وانحاز الى السمرة فقفاه كثيرٌ من اليهود ليكونوا قاصين عن تلك الاحكام وعزم منسى منذ ذاك الحين على ان يبني هيكلاً بالقرب من سامرة على جبل غرزايم الذي براه السامريون مقدسًا وغدا كاهنًا فيه . ولما كان حموه متربًا الى داريوس وحائزًا من لدنه النعمة وترف العيش وعده بان يجعله مستظلاً تحت ستر حمايته غير ان الاقدار الطارئة كانت أشد عضد له لانهُ اذ بدا الاسكندر غادر سنابلا ملك الفرس واتاه بجريدةٍ من الجنود ليقوم بناصره وهو محاصرٌ صور ٣٣٢ وبناء على ذلك احسن مثواه وأناله كل ما شاء وتمنى واقيم بذلك هيكل غرزايم وقبضت مطامع منسى على غاياتها

اما اليهود الذين استمرّوا مصرّين على مواخاة الفرس فقد انفوا من اسكندر واجمعوا على ان لا يودوا له الجزية التي طلبها فزحف عليهم قاصدًا الانتقام منهم في اورشليم فشعر بذلك الحبر الاعظم والكهنة فبادروا الى لقائهِ وامامهم الشعب رافلين باثواب يقفة فكظم اذ ذاك غيظه وعاملهم بالرفق والعناية ولما استقر به وبهم المقام اسدوا لديه نبوات النبي دانيال التي تنبيء عن انتصاره فرنا اليهم بعين الرعاية ومنحهم كلما رغبوا اليهِ

فيه فانقلبوا له اوداء اصفياء كما كانوا لملوك الفرس

وفي عرض الفتوحات التي كان يقوم الاسكندر باعبائها كانت رومية شاهرة الحرب على السمنيتيين الذين يناوحونها وكانت تضيق ذرعاً عن ان تقمعهم باعظم قادتها بايروس كيرسور ٣٢٤-٣٢٦-٣٢٥-٣٢٤

وبعد ان اغتالت اسكندر براثن الردى تجزأت مملكته اجزاء وذلك لان برديكاس وبتولماوس بن لاغوس وانتيكون وسلاكوس وليزماك وأنتيباطر وابنه كساندر وكل القادة الذين تمرنوا تحت يده على اقتحام المعارك حملوا بعد موته على مملكته وقاوموها بالاسلحة وجعلوا كل سراته اي انسبائه واخيه ٣١٨ وامه ٣١٦ واولاده ٣١١ وشقائقه ٣٠٩ ضحية لمطامعهم فانساغ في ذاك الحين الدم مدراراً ولم يكن يرى الا معامع مشوهة بالدم الناصع ومواقع لم يرَ مثلها من مواقع وشعوب كثيرون من اسيا الصغرى وما يجاورها عضدتهم تلك الكوارث والبلابل على الاستقلال فبنوا المعاقل المحصنة والممالك المحسّنة مثل مملكة البون وبركام وبيتيني . ولما كانت ارضوهم خصبة ودانية القطوف اثروا واصبحوا في ما بعد ممالك قوية غنية والفت في ذاك الزمن نفسه ارمينيا عن عاتقها نير عبودية المكدونيين واصبحت مملكة عظيمة مثرية رحبة البدور والبلدان وشيد متريدات وابنه الملقب باسمه مملكة كبادوك وكانت مصر اعظم الممالك التي شيدت في تلك الاحقاب وقد اقامها بتولماوس ٣٢٣ بن لاغوس وملوكها يدعون لاغيديين وسوريا التي وطد اركانها سيلكوس ٣١٢ وملوكها يدعون السلوسيديين وكانت تخر لصولتها اقاليم في اسيا العليا اراضيها رحبة وغنية كانت من ذي قبل منحازة الى عهدة الفرس وعلى هذا نرى ان كل قاطني الشرق رضخوا لليونانيين وتعلموا لغتهم واما قادة جيوش الاسكندر فقد كانوا يعثون ويجورون على بلاد اليونان نفسها واصبحت مقدونية التي تشأت منها سلاطين الشرق فريسة لمن يتبوأ عرشها وتطارد اولاد كساندر منها فطرد ديمتريوس بوليورسيت بن انتيكونوس بيروس ملك البيروث ٢٩٤ الذي كان قد حل في قسم من هذه المملكة ٢٩٦ ثم طرده بيروس المذكور ٢٨٩-٢٨٧ فطرد بيروس ليزماك ٢٨٦ فطرد ليزماك (٢٨٢ - ٢٨١) سلاكوس الذي قتلهُ بتولماوس سيرانوس المطرود من مصر وذلك عدداً غير مكترثٍ بما افضل به عليه ٢٨٠ - ٢٨١ ولم يلبث ذاك الخاين ان تبوأ مقدونية الأ باغنه الغولبون حاملين وجندلوه قتيلاً في معركة تعناها

الفريقان ٢٨٠ - ٢٧٩ وفي اثناء الثورات الشرقية اتى الغوليون الى اسيا الصغرى يتقدمهم القايد برنوس وتوطنوا غلاسيا التي دعيت باسمهم وهجموا من ثم على مقدونية فسلبوها واوقعوا الرعبة والقشعريرة في كل بلاد اليونان ولما حملوا على هيكل دلف ٢٧٨ يغزونه رجع جيشهم القهقرى هالكين وكانت هذه الامة تتحرك من كل الجهات ولم تفز بشيء .

وقبل الحرب التي زارت في دلف بقليل من الحؤول ٢٨٣ اثار السمنيتيون والبروسيون والاتربريون الغوليين القاطنين ايطاليا بان يزحفوا على الرومانيين وبرؤوهم فانقضوا عليهم واكثروا قتلاهم وجرحاهم لكنهم لم يكتفوا بما قتلوا وتخرقوا بل تطاولوا الى قتل السفرا فاستشاط من ذلك الرومانيون واعادوا كيدهم الى نحورهم لانهم تجالدوا في مضمار الوغى وواثبوهم مواثبة الضواري ونكلوهم اي تنكيل ودخلوا اراضيهم وهاجر البعض منهم اليها وحملوا عليهم مرتين اخريين فقهروهم واغصبوا الباقين على ابرام الصلح ٢٨٢ ولما طرد غوليوا الشرق من بلاد اليونان ٢٧٨ - ٢٧٧ اغار على مقدونية دون مانع انتيكونوس غوناتاس ابن ديمتريوس بوليورسيت الذي كان حاكماً بلاد اليونان منذ ١٢ سنة دون هدء وسكينة اذ كان بيروس مشغولاً في جهة اخرى . ولما طرد بيروس من هذه المملكة حملته المطامع على ان يفتح ايطاليا وذلك بعد ان استدعاه الترنستيون لاغاثتهم ٢٨٠ لان الرومانيين ظهروا عليهم وعلى السمنيتيين فلم يكن بهم وقتئذٍ سند الا على بيروس فراع بيروس الرومانيين بافياله التي كانت ذريعة لان يولوا مدحورين وتغلب عليهم في مواقع سببت له خراباً ٢٧٩ واما القنصل فابريسيوس فاعلن الى الرومانيين ان الظهور على بيروس ليس من الامور المستحيلة وكان ذلك الملك والقنصل يتنازعان في كرم النفس منازعة اكثر منها في الاسلحة فاعاد بيروس الى القنصل الاسرى كافة دون فدية قائلاً له ان الحرب تكون بالحديد لا بالفضة وبعث فابريسيوس الى بيروس بطبيبه الخائن الذي وكل على نفسه قتل سيده الملك بالسم ٢٧٨ . ومن ذلك الوقت ذاع دين اليهود وظهر لدى جميع اليونانيين وكانوا عائشين بالرفاهية والطمأنينة حسب شرائعهم وملوك سوريا يستلفتون انظارهم اليهم ووطن كثيراً منهم في اسيا الصغرى انتيوخوس المسمى الاله حفيد سلاكوس فامتدوا من هنالك الى بلاد اليونان وتمتعوا في كل الجهات بحقوق الاهالي وحريتهم وكان قد وطنهم قبلاً في مصر بتولماوس بن

لاغوس . وفي عهد ابنه بتولماوس فيلادلفوس ٢٧٧ ترجمت كتبهم الى اللغة اليونانية وعرفت اذ ذاك هذه الترجمة بالترجمة السبعينية ومترجموها كانوا الشيوخ العلماء الذين بعثهم اليعازر الكاهن العظيم الى الملك اجابة لامرٍ صدر منه اليه . وقد زعم البعض انهم لم يترجموا الا خمسة اسفار الشريعة وان ما تبقى من الكتب القدسية ترجم الى اللغة اليونانية في عهد اليهود الذين كانوا في مصر واليونان . إذ من الممكن ان يكونوا قد نسوا لغتهم العبرانية القديمة واللغة الكلدانية التي تعلموها وقت سبي بابل . وقد اختلقوا لهم لغة جديدة ممزوجة من العبرانية واليونانية كتبت بها الترجمة السبعينية والعهد الجديد يقال لها اللغة الهلانية . ولما امتد اليهود على وجه البسيطة وتداولت انباءهم السنة البرايا شاع صيت هيكلهم في العالم كله فأمّه ملوك الشرق وقدموا فيه المحرقات والقرابين . واما الغربيون فقد كانوا يرتقبون العواقب التي تنجم من الحرب بين بيروس والرومانيين واما القنصل كبريوس فقد قمع الملك ٢٧٥ والجأه الى عبور البحر والانثناء الى بلاد الايير ولم يستكن الا زمانًا قصيرًا لانه عول على الاغارة على مقدونية رجاءان يعوض عن خسائره في ايطاليا . وحصر انيكونوس كوناتاس في تسالونيك وضيّق عليه ووضع يده على مملكته ٢٧٤ ثم نقوى انيكونوس لما كانت المطامع النفسيّة تبعث بيروس على الحمل على اللاسيدمونيين والارجيين فالتقى الملكان معًا في مدينة ارغوس حيث احزاب مختلفة استصرخوهما فدخلا المدينة من بابين مختلفين ونشأت فيها موقعة تقشعرّ منها الابدان فدنا من الملك بيروس شابٌ وجرحه في يدهِ جرحًا بليغًا ففقاه مطاردًا قصد الانتقام فرأته امُّ الشاب وهي على سطح صرحها فاهوت عليهِ حجرًا من فوق اخمدت به انفاسه ٢٧٢ ولما ملصت الظروف انيكونوس من احبولة عدوه الالد انثنى راجعًا الى مقدونية التي بقيت منوطة بعهدة سلالته عقيب تقلبات عظيمة . ومعاهدة الاثيين صدّت هذه المملكة عن سعة ارضيها وقد كانت هذه المعاهدة كمجنّ الحرية الاخير في بلاد اليونان ومنها نشأ البطلان اللذان رفعا راية السوءدد والفخر فوق اليونانيين وهما ارتوس وفيلوميين

واما الترانتونيون الذين كان بيروس يعدهم باسعاده ايام مواعيد عرقوبية استنصروا بعد موته اهل قرطاجنة . ومع هذا فقد خابت امالهم لان الرومانيين قد نكسوهم والبروسيين والسمينيين الذين كانوا يواخونهم وبعد حرب استمرّت اثنتي وسبعين سنة رضخ السمينيون للرومانيين واقتفاهم قرب ذلك الترانتونيون وكل الشعوب المجاورين

الذين لم يمكن لهم المصادمة والدفاع وعلى هذا اصبح كل الشعوب القاطنين ايطاليا يخضعون لشريعة رومية وخشيَ الغولبون الذين داهمتهم مرارًا الجيوش الرومانية ان يبدوا ثورة مرة اخرى . وبعد ان تقادم على تلك الحروب المستمرة اربع ماية وثمانون من الحوول استولى الرومانيون على ايطاليا وطفقوا يترقبون الشوون الخارجية ويعادون القرطجنيين الذين يجاورونهم لما نالوا من القوة بفتوحهم صقلية حيث كانوا ياتون ليشنوا الاغارة عليهم وعلى ايطاليا بحجة ان يقوموا بناصر الترانتيين

وكانت وقتئذٍ جمهورية قرطاجنة مستولية على ضفتي بحر الروم وشاطيء افريقيا وممتدةً في افريقية من جهة بوغاز المحيط ومتصلة بواسطة البوغاز الى شاطيء البحر من جهة اسبانيا ومالكة البحر والتجارة . وقد اغارت على جزيرتي كورسيكا وسردينيا ودافع الصقليون كل الدفاع لكنهم قاسوا بذلك عباء وقد طالما انذرت ايطاليا عذابًا ووبيلاً . وهاك علة حروبٍ مع قرطجنا نشأت قسرًا عن المعاهدة التي نكثها الفريقان ٢٦٤٠

فحرب قرطجنة الاولى علمت الرومانيين القتال في البحر ٢٦٠ وقد اقتبسوا فنًا مجهولاً ضافرهم فورًا على نوال الفوز فان القنصل دويليوس الذي جاهد اولاً في البحر متجشمًا المشاق ظفر بالاعداء فرعى ذلك المجد رغولوس وزحف على شواطيء افريقية حيث استخدم كل جيشه في سبيل مساورة الافعى الهائلة . واصبحت قرطاجنة في ازمة شديدة ولم ينقذها من غائلة تلك الحرب الهائلة الاكزانتيب اللسدموني فانه انقضَّ على القائد الروماني فقمعه واقتاده اسيرًا ٢٥٥ واما رغولوس فان سجنه اناله شرفًا اكثر منه في انتصاره وفوزه لانهُ بُعث بهِ الى رومية لكي يسعى في تبديل الاسرى وليس لهُ كفيلٌ سوى كلامهِ فلما ولج مجلس الندوة بثَّ رايًا من شانهِ الاياس لكل من يقع اسيرًا ثم انثنى ليموت بقضاء محتوم واما الاسطول الروماني فقد غرق مرتين غرقًا مرعبًا فالتجأ الرومانيون ان يغادروا سلطة البحر للقرطجنيين وبقي الانتصار زمانًا طويلاً في ريب بين الامتين واوشك الرومانيون ان يتقهقروا ويذلوا لولا ان ينظروا الى امر مستعمراتهم ويصلحوها وقد حصلوا على غنيمة النصر في معركة واحدة اتمَّ حربها القنصل لوتاسيوس ٢٤١ وأُرغم القرطجنيون على ان يودوا الجزية وأُخرجوا من صقليا وكل الجزائر التي بين صقليا وايطاليا وتسلط الرومانيون على صقليا برمتها الا ما كان يناط بعهدة ملك كان عاقدًا معهم الاخاء وهو نيرون ملك سيراكوز . وبعد ان انتهت تلك الحرب الرائعة اخذ

ذوو المناصب السنية يماطلون الجنود بدفع رواتبهم فجاشوا من ذلك وثاروا طالبين حقوقهم فاوشكت قرطاجنة اذ ذاك ان تهوي الى مهاوي التاخر واسعدهم على ذلك اغلب مدن دولتهم فاصبحت المدينة على جرف هارٍ من الدمار والويل لولا ان اميلكار وحنَّ الملقب بباركاس لم ينقذها من ذلك لانهُ وحدهُ حمل على عاتقه مشقاةَ الحرب الاخيرة مع الرومانيين ومكن آل وطنهِ من ان يفوزوا بالمتمرّدين المرة الثانية ٢٣٩

وبسبب هذه الحرب فقد القرطجنون جزيرة سردينيا فان محافظيها المتمردين فتحوا ابوابها للرومانيين . وخشيةً من ان يطرأ طارئ ونسعر حربٌ جديدة مع الرومانيين سلم القرطجنون الجزيرة اليهم قسرًا عنهم واُثقلت عليهم الجزية وسولت لهم نفوسهم على ان يحافظوا في اسبانيا على سلطتهم التي اوهنها تمرد الاهالي . ولهذا جاز اميكار تلك البلاد مصحوبًا بابنه انيبال الذي كان لهُ من الاجل تسع سنوات فمات هناك في موقعة قتيلاً ٢٢٩-٢٤٠ وفي اثناء ما اضرم نارالهيجاء تسعة اعوام بشدة البطش والبسالة كان ابنه انيبال الحديث السن يتعلم فن الحرب تحت درايتهِ وتتاجج بوساطتهِ البغضاء الدموية في فوادهِ ضد الرومانيين . وبعد موتهِ خلفه صهره ازدروبال وقبض على عنان السلطة بدراية ودراية وشاد مدينة قرطجنة الجديدة التي كانت بسبب مركزها حاملة اسبانيا على الخضوع للقرطجنيين

وكان حينئذ الرومانيون يضرمون نار الوغى على تونا ملكة الليريا التي كانت تعتدي على السفن في كل جهات البحر دون مُانع . ولما كانت الخيلاء اخذة بها كل ماخذ لكثرة الغنائم التي سلبتها من اليونان والايروت اهانت الرومانيين وقتلت سفيرهم فتناهضوا عليها حالاً وقهروها ٢٢٩ ولم يبقوا تحت سلطتها الاَّ جزءًا صغيرًا من الليريا ٢٢٨ ونزعوا من يدها جزيرة كورفو التي كانت قد اختلستها والقوا حرمتهم في بلاد اليونان بسفارةٍ بعثوها اليها رسميًا فذاعت شوكتهم مرةً اولى في تلك الامصار

وكان نجاح ازدروبال يحيي في قلوبهم الحسد واما الغوليون القاطنون ايطاليا فكانوا يصدونهم عن الاهتمام في احوال اسبانيا ولقد كان القرطجنون راتعين في بحبوحة السكينة والسلام منذ خمس واربعين سنة وكان الشبان الذين بلغوا اشدَّهم في ذاك الحين لا يفكرون في ما خسروا انفًا من الانعام والمهام ولذلك اخذوا ينظرون الى رومية بعين القلى ويهددونها عذابًا مبرحًا . اما الرومانيون فلكي يقهروا اولائك الغوليين

المجاورين المشاغبين فكروا في ان ينالوا طمانينة من جهة القرطجنيين ولذلك ابرموا عهداً مع ازدروبال واعداً اياهم انهُ لا يعبر البتة وراء نهر الايبر . واحتدمت في ذاك الحين نار الهيجاء بين الرومانيين والغوليين بحدة من النيفتين ٢٢٤ وانضم الترنزليانيون (١) الى السيزبليانيين (٢) وقامت الحرب هائجة زائرة فتكلل الرومانيون بالنصر المبين ٢٢٤ واسروا من وسط المعمعة كونكوليتانوس احد ملوك الغوليين . وملك اخر منهم يقال لهُ آنيروهستوس اخذ بهِ الكمد كل ماخذ فانتحر . فحينئذٍ عبر الرومانيون الظافرون نهر البو مرة اولى وعولوا على ان يستولوا على كل نواحي النهر التي كان الغوليون يتسلطون عليها منذ اجيال عديدة وكان النصر يرافقهم ايان رحلوا او حلّوا وفتحوا مدينة ميلان وقصارى الكلام ان اكثرية البلاد رضخت لشوكتهم

وفي ذاك الحين توفي ازدروبال ٢٢١-٢٢٠ وخلفه انيبال وهو في سن الخمس والعشرين فاجمع الكل حينئذٍ على الحرب وعزم انيبال على ان يجمع اسبانيا لا يكترث بما تنص المعاهدات السابقة فنهض الساكونتيون وشكوا امرهم للرومانيين الذين كان وثاق الاخاء شديداً بينهم ٢١٩ فسمع الرومانيون الشكوى بكل اصغاء وبعثوا بسفرا الى قرطجنة ٢١٩ واما القرطجنيون الذين كانت قد اصطلحت احوالهم فلم يعبئوا بالتسليم ولما كان الحقد على الرومانيين متأصلاً فيهم لكونهم اخذوا منهم صقليا وسردينيا وثقلوا عليهم الخراج تحينوا الوقت لاخذ الثار ولذلك لم يفز الحزب الذي كان يرغب في تسليم انيبال وكان هذا القائد الجريء يرنو الى كل امر بعين البصيرة فارسل سفراء سراً الى ايطاليا ليقرروا لهُ ميعاد الغوليين القاطنين فيها واذ كانت هذه الامة غير قادرة ان تبرم امراً بذاتها تحينت الوقت عند مرور ذاك القائد لتنهض من مهاوي حالتها التعيسة . فعبر انيبال حينئذٍ نهر الايبر وجاز جبال البيراني وكل بلاد الغوليين القاطنين وراء جبال الالب وعبر جبال الالب نفسها وحمل على ايطاليا بغتةً فاخذ الغوليون يدافعون اشد الدفاع عن حريتهم غير متقاعدين عن اكثار الجنود فتنكس الرومانيون اربع مرات وظنَّ الجميع ان دثار رومية قريب ٢١٦-٢١٧-٢١٨ وانحازت صقليا الى المظفَّر الفائز لان ابرونيموس ملك سيراكوز اعلن انهُ عدوٌّ للرومانيين ٢١٥ واكثرية

(١) الغوليون القاطنون وراء جبال الالب (٢) القاطنون جهة الالب من ايطاليا

شعوب ايطاليا اعرضوا عنهم ولاح ان لم يبق لهذه الدولة ثمالٌ ولا عضد في اسبانيا بعد ان قتل سيبيون واخوه ٢١٢ ولدى تلك الأزمة نالت رومية راية الفرج بعد اليأس ونجت من مكائد المعتدين فان ثلاثة من اعيانها وهم فابيوس مكسيموس ومرسيليوس وسيبيون الشاب قد انقذوها من مخالب العدو ونضوا عنها لفاع العار. فان فابيوس مكسيموس كان صبورًا على ملاقاة النائبات ثابت القدم عند الصدام ولم يكن يحفل بالانباء الذائعة بين البرايا فقبض على زمام القيادة وطفق يحارب انيبال بكل بسالة ونظام. ومرسيليوس حمل انيبال على ان يرفع الحصار عن مدينة نول ٢١٤ وفتح مدينة سيراكوزه ٢١٢ واقوت الجنود باعماله. واما رومية فاخذها العجب والدهشة من ذينك الباسلين فشعرت ان في سيبيون الشاب امرًا اعظم من ذلك فان آراءهُ السديدة التي عقبها نجاحهُ اثبتت ما سمع عنه انهُ من نسل الالهة وان له معهم حق المفاوضة. ولما كان في اجل الاربع والعشرين سنة عوّل على ان يذهب الى اسبانيا ٢١١ حيث قتلُ ابيه وعمهِ فناجتهُ نفسه ان يحمل على قرطجنة الجديدة كأن ذلك الهامٌ سماويٌ ٢١٠ واطبقت جنوده على المدينة ففتحوها عنوةً وكان كلٌ من براه يواخي الشعب الروماني واخلى له القرطجنيون اسبانيا مغادرينها له ٢٦٠ ولدى نزولهِ الى شواطىء افريقية طأطأ له الملوك صاغرين. ولما رأت قرطجنة ان الويتها منكسة من كل الانحاء اقشعرّت رهبةً وفاجأها الكرب ٢٠٢ فاستصرخت انيبال لياخذ بيدها ويكون لها نصيرًا فذهب استصراخها أدراج الرياح فلم يمكن له ان يذود عن آل وطنهِ. فسيبيون ظهر عليهم وابرم عليهم شروطًا ٢٠٢ فتلقب بالافريقي جزاءً لما صنع وبعد ان تغلب الرومانيون على الغوليين والافريقيين لم يبقَ شيء يرهبهم ويهيلهم ومن ذاك الحين شرعوا يحاربون دون خشية ورهبة

وفي اثناء الحرب الاولى في قرطجنة سطا تيودوت والي بكتريان على انتيوخوس الملقب بالاله ابن انتيوخوس سوتر ملك سوريا واختلس منه الف مدينة ٢٥٠-٢٥٦ واتخذ اغلب الشرقيين ذلك الصنع انموزجًا لهم. فنهض البرتيون عاتين متمردين تحت قيادة ارزاس الذي شاد مملكة امتدت على مهلٍ في كل اسيا العليا وكان ملوك سوريا ومصر لا ينهمكون الّا في ان يبيد بعضهم بعضًا بالقوة او الخداع وكانت موضوع نزاعهم دمشق واراضيها المدعوة سيلي سوريا او سوريا السفلى التي على ثغور المملكتين. وكانت

حينئذٍ ادارة الامور في اسيا منفصلة عن اوربا وفي ذاك الان كانت رياض الفلسفة زاهية زاهرة لدى اليونانيين وكان المذهبان الايطاليك والايونيك ينشأ بهما جهابذة سامون واناس لايعول عليهم دعاهم اليونان بمحيي العلم وشرع فوثاغورس يشيد في عهد الملك قورش وابنه كمبيز المذهب الايطاليك في بلاد اليونان العظمى قرب مدينة نابولي وكان تاليس الميلازياني يبث نحو ذلك العصر عينه المذهب الايونيك ونشأ من هذه المذاهب الفلاسفة الكرام وهم هرقليطس وديموقريطس وامبيدوكلس وبرمينيدس واناكزاكورس الذي ابان لدى وشك حرب البلوبونيز ان العالم فطرة روح ازلي . وبعد ذلك الان نشأ سوقراط وحصر الفلسفة في فحص السجايا الحسنة واضحى اذ ذاك ابًا للفلسفة الادبية وايد تلميذه افلاطون مذهب الاقادميا واصبح اريسطو تلميذ افلاطون ومعلم الاسكندر رئيسًا لمذهب المشاة . وفي عهد خليفة الاسكندر اصبح زنون الملقب بستيان من مدينة في جزيرة قبرس هي مسقط راسه اساس الستوسيين وان كان يسوغ ان ندعو الذين يجحدون العناية الصمدية والواجبات الانسانية فلاسفة فابيكور الايتنياني اصبح رئيس الفلاسفة الذين ينتمون اليه ويعرفون الفضيلة باللذة ويعد ابوقراط ابو الطب من الفلاسفة الكرام وانه زاهر بين اقرانه في تلك الاحيان السعيدة لدى اليونان وكان في العصر نفسه عند الرومانيين نوع اخر من الفلسفة لا يتوقف على الجدل والخطابة بل على القناعة والفاقة واشغال الحقول والحرب وبه كانوا يحوزون الفخر لهم ولوطنهم والاسم الروماني ويتغلبون على ايطاليا وقرطجنة

العصر التاسع

في سيبيون او دثار قرطجنة

رضخت قرطجنة للرومانيين سنة الخمسماية والاثنتين والخمسين بعد تشييد رومية ونحو ٢٥٠ بعد تشييد مملكة الفرس ونحو ٢٠٢ قبل المسيح فقد كان انيبال يثير خفية الاعداء طالما امكنه ولم يحجم من تمكنه الا انه بعث اخدانه الاقدمين والحديثين على تجشم النائبات السود والتهافت على الهلاك كما انه سبب الهلاك لوطنه وشخصه . فان فيلبوس ملك مقدونية الذي كان الإخاء بينه وبين القرطجنيين تنكل وداهمه

قوة القنصل فلمينيوس واصبح ملوك مقدونية تدار عليهم دوائر الضيق وانملص اليونانيون من تحت اثقال رقهم ١٩٦ وازمع الرومانيون على ابادة انيبال الذي كانوا يرهبونه حتى بعد انكساره . بيد ان هذا القائد الباسل بعد ان التجأ الى ان بولي من وطنه مدبراً أثار عليهم الشرقيين واتى باسلحتهم الى اسيا ١٩٥

واذ اخذ انيبال يبث براهين سديدة على انتيوخوس الملقب بالعظيم يحذر من شوكتهم كل الاحتذار ولم يلبث ان شهر عليهم الحرب ١٩٢ غير انه لم يعبأ بما نصح له انيبال فتقهقر براً وبحراً وأُغصب على ان يرضخ لما اوعز اليه بو ليسيوس سيبيون اخو سيبيون الافريقي وجُعلت جبال التوروس حداً . واما انيبال فبعد ان ولى مدبراً من بلاد الرومانيين تخذ بوزانياس ملك بتوني ثمالاً له فبعث اليه الرومانيون بمن سقاه سماً فاماته ١٨٢ واصبحوا رهبة في كل الارض لا يحملون على دولتهم دولة فتقاطرت اليهم الملوك واسدوا اليهم اولادهم تامينا ومكث انتيوخوس ملك سوريا الملقب بابيفان ابن انتيوخوس الاعظم زماناً مديداً في رومية مرهوناً لكن في نحو اواخر حكم اخيه البكر سيلاكوس فيلوباتور بدله الرومانيون ١٧٦ بديمتريوس ابن الملك وكان له من العمر عشر سنوات . وفي عرض ذلك اغتالت المنية سيلوكوس واختلس انتيوخوس مملكة حينئذ ١٧٥ وكان وقتئذٍ الرومانيون يفكرون في شؤون مقدونية ١٧٢ حيث الملك بيرسي كان يقلق مجاوريه ولم يكن يراعي حرمة الشروط التي القيت على ابيه فيلبوس . ولدن ذلك اصبح شعب الله تحدقه الابصار وبلم به الامتهان والاضطهاد فان انتيوخوس ابيفان كان يحكم كانه معتوه مجنون ولا ينظر الى اليهود الا شزراً وعوّل على هدم هيكلهم واتلاف شريعة موسى وكل الامة اليهودية ١٧٠-١٧١ لكنما سلطة الرومانيين صدته عن ان يتبوأ مصر فانهم كانوا يباشرون تاجيج الحرب على بيرسي الذي اشتهر بكونه سريع القصد بطيء العمل فنفر منه مواخوه لخسته وجنوده لجبانته فقبض على سلطنته القنصل بولوس اميليوس واغصبه على ان ياتي امامه صاغراً ١٦٨ واما جنسيوس ملك الليريا فقد عقد حبل المواخاة مع بيروس وعاهد على الدفاع والهجوم فلم يجده ذلك نفعاً فان قائد جنود الرومانيين نكله وتخذه من بعد ذلك اسيراً فاصبحت مملكة مقدونية ولاية من السلطنة الرومانية بعد ان استمرت مملكة مستقلة مدة سبعماية سنة ونشأ منها مدة ماتين سنة ملوك لليونان وسائر المشرق

وكان انيتوخوس الملك يزداد حنقًا وغيظًا على شعب الله ١٦٧ فظهرت اذ ذاك مقاومة كاهنٍ من نسل فينهٔ اقتفاه بالغيرة يقال لهُ متتيا وبدت اوامر التي غادرها بعد موتهِ لخلاص شعبهِ ١٦٦ . وظهر ابنه يهوذا الملقب بالمكابي على اعدائهِ الكثيري العدد ١٦٥ وسما المكابيون وتكرس الهيكل ثانية بعد ان دنّسهُ الوثنيون ١٦٤ وحكم يهوذا وبدا مجد الكهنوت المقرر ثانيةً ومات انتيوخوس ميتةً ذريعة بعد ان تاب توبة لايقابلها المهيمن بالرضوان والرحمة . فان الله كان عليهِ غضوبًا لكثرة ما كان عتلاً زنيمًا . وخلفه ابنه انتيوخوس اوباتور القاصر وكان مهذّبه استاذه ليزياس . وفي اثناء صغرهِ دخل الماجس في عقل ديمتريوس سوتر المرهون في رومية ان يتبوأ العرش الملوكي لكنما مجلس الندوة لم ينوّلهُ العود الى مملكتهِ لان السياسة الرومانية كانت تؤثر على ذلك ملكًا قاصرًا . وبقي اضطهاد شعب الله مستمرًا في عهد انتيوخوس اوباتور والنصر المبين بيد يهوذا المكابي يوتيهِ كيف شاء ١٦٣ واخذ الشقاق يحيي في مملكة سوريا ١٦٢ فان ديمتريوس فرّ مدبرًا من رومية ورضخت لهُ الرعية صاغرة وانتيوخوس القاصر قُتل هو ووصيّهُ ليزياس واما اليهود فلم يقابلوا بالاساءة في عهد ديمتريوس اقل ما كانوا يقابلون في عهد سلفائهِ . وقد الم بهِ ما الم بهم لان قواد جنوده ارهقهم يهوذا المكابي وتعلقت يد القايد نيكاتور الجبار بالهيكل الذي كان ينذره بها خرابًا يبابًا . وبعد ذلك بقليل من الزمن ضاق يهوذا ذرعًا من كثرة الاعداء فقتل وهو يدافع دفاعًا غريبًا ١٦١ فخلفه بالمنصب والشهرة اخوه يوناثان ولما ضايقهُ العدو وسدّ عليهِ ابواب النجاة لم يكل عباه وانتهز الرومانيون الزمن لينكسوا الوية ملوك سوريا فاظلوا اليهود تحت جناف باسهم وكان يهوذا قد واخاهم فاستمروا على الاخاء محافظين . ولما كان الرومانيون رهبةً للقاصي والداني كان شعب الله لايمسهم ضير ما داموا متمسكين في بطاح حمايتهم ولقد كانت سوريا تميد من كثرة الرزايا زمانًا طويلاً واقام سكان انطاكية على العرش ملكًا اسكندر بالاس الذي كان يدّعي بانه ابن انتيوخوس ايفان ١٥٤ وقد كان ملوك مصر اعداء الداء للدولة السورية ولهذا تهافتوا على ان يكون لهم ضلعٌ في الانقسام رغبة في نوال الفائدة من ذلك فانحاز بتولماوس فيلوميتور الى الملك بالاس واستعرت نيران الحرب شديدةً . فقضت الاقدار على ديمتريوس سوتر فجندل قتيلاً ١٥٠ ولم يخلفهُ للاخذ بدمهِ الا ولدان حديثا السن يقال لاحدهما ديمتريوس نيكاتور وللاخر انتيوخوس سيداتاس

وعلى هذا بقي المخلس غير مذعور ولا مرتاب وزفت اليه كلوباترا ابنة ملك مصر واما بالاس فقد ناجته نفسه انهُ فاز بكل شيء فخاض في بحر الفساد فاصبح ممقوتًا لدى كل الرعية. وفي الوقت نفسه فض فيلوميتور الدعوى المشهورة بين السامريين واليهود ١٥٠ وكان لا يبرح المنشقون المناقضون شعب الله يخازون الى اعدائه. ولكي يجعلوا انتيوخوس ابيفان يتوسم فيهم بعين الرضى كرسوا هيكلهم على جبل غرزايم لجوبيتير المضياف ١٦٧ وزيادة على ما كفروا ودنسوا طوحوا في المسئلة تطوحًا وعلقوا يبرهون بعد ذاك الحين امام الملك بتولماوس فيلوميتور في الاسكندرية ان هيكلهم لهُ حق الاوبوية على هيكل اورشليم فتبادر الفريقان الى حلبة المحاكمة وآلى كلٌّ فريق بقطع راسهِ ان لم يأتِ بالبينة الصادقة من ايات شريعة موسى على صحة الدعوى. فحصحص الحق لليهود وعوقب السامريون بقطع الرؤوس حسب العهود وسمح ذلك الملك لاونياس من نسل الكهنة بان يبني في مصر هيكل هيليو بوليس على رسم هيكل اورشليم فصدر الحكم من مجلس اورشليم ان هذا المشروع مناقض لمنطوق الشريعة

وفي ذلك الوقت كانت قرطجنة تتحرك وتجشم بكل عناءٍ ومشقة ما اثقلها به سبيون الافريقي الظافر ولهذا عزم الرومانيون على تطميسها. ومن ذلك انتشبت الحرب في قرطجنة مرة ثالثة ١٤٩ — ١٤٨ ولما اصبح ديمتريوس نكاتور يافعًا هجس في ان يتبوَّأ ثانية عرش اجدادهِ. وملاينة المخلس جعلته يتأمل بذلك فوزًا ١٤٦

ولما علم بالاس بشبوبية ديمتريوس ومآل الامر الى التضآ اضطرب من ذلك جدًّا فانتصب حموه فيلومتور مناقضًا له لان بالاس لم يدعهُ يتولىَّ على مملكته السورية وطلقته عرسهُ كلوباترا التي طالما اغراها الطمع بان تزفَّ الى عدوّهِ. ثم قتل هذا الملك جنودهُ بعد ان نفر في المعمعة ومات فيلومتور بعدهُ بقليلٍ من الحين لكثرة ما اثخن من الجروح. وبناءً على ذلك تملصت سوريا من مخالب عدوّين الدّين وقضى القدر على مدينتين عظيمتين اصبحتا عرضتين للدثار في آن واحد. فان سبيون اميليان بعد ان فتح قرطجنة الهب فيها النار فاحرقها وقرر بهذا الفوز لقب الافريقي في عائلته وابدى انه اهلٌ لان يكون وريث جده سبيون العظيم وجرى على مدينة قورنتية ما جرى على قرطجنة وتلاشت جمهورية الاثيين في الوقت نفسهِ. فان القنصل موميوس طبق اسوار هذه المدينة لانها

كانت مقر الخلاعات والزخارف اليونانية وقد كان فيها تماثيل ثمينة لا يعرف لها قيمة عند الرومانيين نقلها الى رومية . فان الرومانيين كانوا لا يفقهون فنون اليونان وصنايعهم ولقد كانوا يقنعون بمعرفة فن الحرب والسياسة والزراعة . وفي اثناء الرزايا التي كانت تلم بسوريا كان اليهود ينمون بالقوة والباس وكان كلٌّ من الحزبين يزدحم لاستمالة يوناتان اليه وكان نيكانور الظافر يعاملهم معاملة اخ ١٤٤ ولم يلبث طويلاً الا جوزي على ذلك جزاء مشكورًا . فان اليهود لما رأوا ان الشعوب ثاروا عليه اهرعوا اليه منقذينه من ايدي العصاة المتمردين فاثقل هذا الملك يوناتان بالانعام ولكنه لما علم انه ثبت في ملكه رجع الى مشرب ابائه وعلق يلقي الاذى على اليهود كالسابق . فبدت حينئذٍ البلايا والنائبات في سوريا ثانيةً فان ديودوط الملقب بتريفون اتوى على العرش الملوكي وليدًا من اولاد بالاس وسماه انتيوخوس الاله واستمرَّ له وصيًا مدة بضاعته واخذ ديمتريوس يعتو ويجور في الرعية فهاج الشعب ضدَّه ثائرين وجاهروا بالعصيان . واصبحت بلاد سوريا مضغةً في افواه الحروب الرائعة وانتهز الفرصة يوناتاس وجدد المعاهدة مع الرومانيين ١٤٤ ـ ١٤٢ وقبل ان قتله تريفون مع اولاده مخالفةً لكلامه كان النجاح يانيه كيف شاء . وخلفه اخوهُ سمعان ارصن المكابين واسعدهم طالعًا فضافره الرومانيون كما كانوا يضافرون اسلافه

واما تريفون فلم تكن خيانته للملك القاصر اقلَّ مما كانت ليوناتان فانه امات هذا الولد بواسطة احد الاطباء بحجة ان الملك الحديث مريض بالحصاة . فعلق يعالجه معالجتها فاماته ولم يكن مريضًا بذلك ابدًا . وبناءً على ذلك وضع تريفون يدهُ على قسمٍ من المملكة ورغب سمعان في ان يخنع الى ديمتريوس نيكانور الملك الشرعي ونال منه حرية وطنه التي تصدّى لخرقها تريفون المتمرد . فدافع عنها اشدَّ الدفاع ١٤٢ ثم طرد السوريين من المعقل الذي حلوا فيه في اورشليم واخرجهم من كل محال اليهودية

ولما القى عن عواتق اليهود نير عبودية الوثنيين ببسالة سمعان قلدوه الحقوق الملوكية وحافظوا عليها لنسلهِ . وقبل ديمتريوس نيكانور ذلك النظام الحديث ولدى ذلك بدت مملكة شعب الله الجديدة وولاية الاسمونيين المقترنة بالسلطة الكهنوتية وفي ذلك الحين كانت دولة البرتيين تمتد في بلاد بكتريان والهند بانتصارات الملك

ميتريدات اشهر الارزاسيديين وابسلهم . وبينما كان ميتريدات زاحفًا على شواطيء الفرات اصبح ديمتريوس نيكاتور الذي استنجد الشعوب الذين داهمهم متريدات يبني آماله على ان يخضع البرتيين الذين طالما اعتدَّهم السريان عاتين متمردين . ففاز بذلك احيانًا جمة ولما همَّ بالرجوع الى سوريا امل ان يعنيَّ تريفون نصب لهُ احد قادة جيوش متريدات فخًا فوقع فيه فلبث اسيرًا عند البرتيين ١٤١ وصدَّ عن تريفون اصحابهُ بغتة لان كبرياءَهُ اثقلتهم بوءسًا وجعلتهم لايتأسون على ارتفاع انفهِ . وفي مدة اسر ملكهم الشرعي خضع السوريون لحكم امرأتهِ كلهوبترا واولادهِ ولكنهم التجئوا الى ان يقيموا لهولاء الملوك القصَّر محاميًا . وذلك الالتزام كان منوطًا طبعًا بانتيوخوس سيدريس اخي ديمتريوس فجهدت كلهوبترا بان تجعل جميع الرعية يعترفون بهِ وقد صنعت اكثر من ذلك لانها لما شعرت ان فرهوت اخا متريدات وخليفتهُ كان يعامل نيكاتور معاملة ملك وانهُ زوجهُ بينتهِ رودوغونة اقترنت هي نفسها بانتيوخوس سيدانيس واخذت من ثمَّ تحكم بكل اصناف الاثام والجرائم فحمل انتيوخوس الملك الجديد على تريفون وانضم اليه سمعان لكنما الجائر بعد ان طرد من كل مستحكماتهِ تمم حياتهُ حسبما يستحق ١٢٩ واما انتيوخوس فلما تسلط على المملكة نسيَ حالاً خدامة سمعان وقت اصطلاء نار الحرب وقتلهُ ١٢٥ وبينما كان يحرز اليه كل قوات سوريا ليناضل اليهود خلف يوحنا هيركان ابن سمعان اباه في الحبرية وخضع كل الشعب لهُ خضوعًا كاملاً ودافع في حصار اورشليم بكل جراءَةٍ وبسالة واما الحرب التي بهمك فيها انتيوخوس ضد البرتيين رجاءَ ان يملص اخاهُ من وثاق الاسر جعلتهُ يلقي على اليهود شروطًا ليست باهظة

ولدن وشك ابرام الصلح رأى الرومانيون لهم اعداءَ الدَّاء اشدّاء يقاوون الملمات ويصادمون النائبات عدَّاهم تحتار بكثرتها الابصار ولما كان اهونوس من العبيد محتدًا اهاج العبدَى في صقلية وافضى الامر بالدولة الرومانية ان تستعمل كل قوتها لتقهرهم . وبعد ذاك الحين شبت نار الفتنة في رومية بسبب ارث اتاكوس ملك بركام الذي اقامهُ لهُ الشعب الروماني حسبما اوصى قبل موته ١٣٣ فاخذت البلابل تشب في المدينة . ومن ثم احتدمت ثورة الكريك واصبح الشغب الذي نشأ في عرض ذود طيباريوس كركوس احداعيان رومية ذريعة الى هلاكهِ وذلك بامر صدر من مجلس الندوة وكان من تولج لهذه الفعلة سيبيون نريكا واما سيبيون امبليانوس فقد كان يئن

نظام الجنود وهذا الرجل الذي كان قد هدم قرطاجنة هدم ايضًا في اسبانيا ١٣٣ مدينة نوماس التي كانت موضوع رهبة الرومانيين

واما البرتيون فلم يمكن لهم ان يصدوا انتيوخوس سيدانيس الذي دان النصر لجنوده قسرًا عن فسادهم الناشيء عن تبرج غرسيبا وبدت من يوحنا هيركان الذي كان قناهُ في تلك الحرب الرائعة مع اليهود بسالة لا تضاهيها بسالة وطفق الملك يحترم دين اليهود وعباداتهم وتاييدًا لذلك فانهُ اوقف جيشه ليكون لهم فرصة يحتفلون بها باحد اعيادهم

وقد رضخ كل شيء امام سيدانيس خضوعًا والتجأ الملك فراهورت الى ان يرجع ثغور مملكته الى اصلها القديم لكنه لم ييأس من النجاح في اموره واخذ يهجس ان اسيره ديمتريوس يكون الواسطة الكبرى لتحسين احواله امكان شن الاغارة على مملكة سوريا . وحدث في هذه الظروف لديمتريوس احوال متباينة فآونة كانوا يطلقون سبيله وآونة كانوا يحجرون عليه حسبما كان يتقوى الامل او الخوف في قلب حميه ولما مكر فراهورت انهُ لم يبقَ لهُ نجاة الا بتهمك يجريه في سوريا بواسطة ديمتريوس اطلق له عنان الحرية تمامًا

فتغايرت حينئذٍ الشؤون ١٣٠ فان سيدانيس الذي لم يكن عندهُ شيء من الجلد على احتمال المصاريف الباهظة الا بالسلب رأى الشعب ثائرين عليه طرًا قائمين على قدمٍ وساقٍ فهلك هو وجيشهُ الذي تظفر مرارًا عديدة وبعث فراهورت الى ديمتريوس يطلب اليه الحضور فكان ذلك عبثًا فان هذا الملك كان قد عاد الى المملكة ورجعت اليه امرأتهُ كلهوباترا التي لم تكن تود الا ان تكون بيدها الامرة . واما رودوغونة فقد وقعت في مهاوي النسيان واغتنم هذه الفرصة هيركان ونزع مدينة سيشيم من السامريين وطمس هيكل عريزايم وذلك بعد ما شادهُ سانابلا بمائتي سنة . ولم يكن ذلك الدثار مانعًا للسمرة عن ان يستمروا عابدين على ذاك الطود ولبثت الامتان قاطعتين رباط الالفة والاتحاد . وبعد ان مضى على ذلك الحين عامٌ ضم هيركان كل بلاد ادوم الى مملكة اليهود بانتصاراته وجعلهم يتبعون شريعة موسى ويقبلون الختان ١٢٩ واستمرَّ الرومانيون يحامون عن هيركان واغصبوا السوريين على ان يعيدوا له كل المدن التي نزعوها منهُ ١٢٨ واما ديمتريوس نيكانور فلم يرعَ طويلًا الطمأنينة والسلام

لكثرة ما كان عنده من الكبر والعسف فثار عليه الشعب قصد العصيان . ولكي يوجج نيران الفتنة اقام المصريون الذين هم اعداء للسوريين ملكاً اخر وهو اسكندر زبيبنا ابن بالاس ١٢٥ فتنكل حينئذٍ ديمتريوس وتوهمت كلهوبترا انها تنال سلطة الحكم باسم اولادها اكثر منها في عهد زوجها فقتلته ولم تحسن معاملة ابنها البكر سلاكوس الذي شاء ان يتولى السلطة بالرغم عن انها ١٢٤ واما ابنها الثاني انتيوخوس فكان قد حمل على العصاة وقهرهم ورجع مظفراً فدنت منه والدته وقدمت اليه كاساً مفعمة سماً ففطن لما استبطنت وارغمها على شربها فماتت قتيلة الجناية ١٢٠ - ١٢١ ولدى موتها تأصل النفور والشقاق بين اولادها الذين اولدتهم بزوجيها الاخوين ديمتريوس نيكاتور وانتيوخوس سيدانيس وبقيت مملكة سوريا مضطربة واهنة القوى لا تستطيع وعيد اليهود . وفتح لدى ذلك يوحنا هيركان السامرة ١٠٩ لكنه لم يمكن له ان يهدي السامريين الى الايمان الحق ثم عبثت به ايدي المنون بعد ذلك الحادث بخمس سنوات ١٠٧-١٠٤ وبقيت اليهودية ساكنة راضخة لعهد ولديه اريستوبول واسكندر جاني الذين تعاقبا بنوال السلطة بدون ان يقلقها ملوك سوريا ١٠٦ - ١٠٢ وكان الرومانيون لا يقصدون لهذه المملكة الغنية بل غادروها تتلاشى بذاتها لما كانت تمتد عساكرهم في جهة الغرب . وفي عرض الحرب التي شبت بين ديمتريوس نيكاتور وزبينا ١٢٥ كانوا قد اخذوا ينبسطون وراء جبال الالب . وسير سكستوس الذي ظهر على الغوليين الملقبين بسليانيين الى مدينة اسس مهاجرين لم يزالوا يلقبون باسمه ١٢٤ وقد كان الغوليون يدافعون عن نفوسهم بوهنٍ فان فابيوس قهر اللبروج ١٢٢ - ١٢٣ وساير الشعوب المجاورين وفي نفس تلك السنة التي فيها ارغم جريبوس امه على ان تشرب كاساً فيها سمٌ احيلت الغول التربونية الى مقاطعة رومانية ولقبت هكذا ١٢١ - ١٢٠ ولقد كانت الدولة الرومانية تمتد وتحل في كل الارضين رويداً رويداً وتخوض كل البحور المتعارفة . لكن بمقدار ما كانت هيئة الجمهورية تبدو في الخارج عظيمة لعظم فتوحاتها كانت داخليتها سيئة وذلك متاتٍ من مطامع اهليها الخارقة ومنازعاتهم المدنية لان اشرف الرومانيين واشهرهم اصبح اعظم مضرة للدولة الرومانية واني الكراك الاخوان بانقسامات لم تنتهِ الا بانتها الحكم الجمهوري واما كايوس اخو طباريوس فقد شق عليه ان يتاسى على موت اخيه العظيم بتلك الميتة الدموية فذهب هائجاً للانتقام بحماسة بعثت الناس على ان يخالوا ان روح اخيه تحركت فيه . فاخذ يدجج الاهلين بالسلاح

ضد بعضهم ولما هم على ان يوشي كل شيء مات ميتة اخيه التي كان يود لو يستمرها منتفعا
وقد كانت الرشوة سائدة في رومية فان جوكورتا ملك نوميديا ١٠٩ الذي التطخ بدماء
اخوته الذين كانوا تحت حماية الشعب الروماني دافع عن نفسه بالرشوة اكثر منها بالسلاح
١١٢-١١٦-١١٣ - ١١٤ وماريوس الذي فاز به اخيرًا لم يكن له
وسيلة للقبض على عنان الصولة والسلطة الا باثارة الشعب على الاعيان ١٠٦

وقامت العبدى مرة اخرى على قدم وساق وجاهروا بالعصيان في صقليا ١٠٢
فلم تكلف ثورتهم الثانية الرومانيين اقل دم من ثورتهم الاولى . وتغلب ماريوس على
التوتونيين والسمبريين والامم الاخرى الشمالية التي كانت قد ولجت غاليا واسبانيا وايطاليا
١٠٢ وعنت له فرصت بانتصاره ليبرز رأيًا بتجزئة الارضين ١٠٠ واما مينلوس الذي
مانع عن ذلك فقد التجأ الى ان يتقاعد عن ذاك الشأن بسبب الظروف ولم يخمد نار
الشقاق الابدم ساتورنينوس محامي الشعب وبينما كان الرومانيون يدافعون عن كبادوسيا
ضد متريدات ملك البونيين ويقمعون هذا العدو الالد لدولتهم وبلاد اليونان التي
تحرشت له ٩٤-٨٨ كانت ايطاليا التي اعتادت خوض ٨٦ المعامع بسبب ما تجشمت
من الحرب مع رومية او عليها تتمرد عليها واوشكت الدولة الرومانية ان تتلاشى ٩١
وفي الوقت نفسه كانت السلطة الرومانية تتمزق بسبب غضب ماريوس وسيلا ٨٧-٨٨
اللذين احدهما اماد الغرب والشمال رهبة والاخر ظفر باليونان واسيا واصبح سيلاينكل
وطنه الذي اثقلته اوقار الرق والعبودية ٨٢ وقد امكن له ان يغادر السلطة المطلقة
اختياريًا ٧٩ لكن لم يمكن له ان يدرأ غوائل مثاله السيء لان كلاً كان
يود التسلط

وسرتوريوس المتحزب لماريوس بكل جرأة جند عساكر في اسبانيا ٧٧-٧٤ واتحد
مع متريدات ٧٦-٧٢ فلم يمكن للقوة القسرية ان تظهر على هذا القائد البسول ولاان
تضيق عليه مذهبًا ولم يستطع بمبيوس قهر ذاك الحزب الا ببث الشقاق بين اعضائه
واما سبارتكوس القارع بالحسام في المراسح ناجته نفسه ان يتقلد السلطة المطلقة بين
الجيوش ولقد كان هذا العبد يرهق البرتوريين والقناصل مقدار ما كان متريدات
يعيي ليكولوس ٧١ وتسعرت نار الوغى بسبارتكوس واحزابه حتى اصبحت خطرًا على
الشوكة الرومانية . وتعسر على كراسوس اخمادها والجأ الامر ان يسير ضد العبدى

بمبيوس الكبير

وقد كان ليكيلوس يرفل برداء النصر في الشرق ٦٨ واجتاز الرومانيون نهر الفرات وشق على قائدهم غير المنكل من العدد اغصاب جنوده على نادبة فربضهم وكان متريدات الذي تنكس مرارًا جمة وهو غير ايسٍ من الفرج يعزّز ويتقوّى

وبدا ان حضور بمبيوس كان لابدَّ منهُ لاهماد سعير الحرب ولما أُرسل ليعني متريدات طرد من البحار القرصان الذين يدوخونها من ضفات سوريا الى عواميد هرقل ٦٧ وتبين حينئذٍ ان مجده اصبح كاملاً . وقهر هذا الملك الشديد الباس واعسف ارمينيا التي اصطفاها متريدات ملجأ وايباريا والبانيا اللتين قامتا بناصره وسوريا التي مزقت احشاءها الاحزاب الداخلية ٦٥ واليهودية ٦٣ حيث الانقسام المتسع نطاقه بين الاسمونيين لم تذر لهيركان الثاني ابن اسكندر جاني من السلطة الا خيالاً وقصارى الكلام انهُ اخضع كل الشرق . بيدَ انهُ لم يرَ محلاً يتم فيه احتفال الظفر بكل اعدائهِ الالداء لولا ان القنصل شيشرون لم يخلص المدينة من شبوب النار التي اعدها لها كاتيلا وعصابة من خطيري رومية . وقد اصبح هذا الحزب الهائل كالهبا المنفور بفصاحة شيشرون الخطيب اكثر من انكساره باسلحة انطونينوس رصيفهِ في القونصلاتو . ومع ذلك فقد بقيت الحرية في رومية مزعزعة الاركان فان بمبيوس كان متوجًا ادارة مجلس الندوة وكانت المداولات في المكالمة يدير رحاها دولاب لسانهِ

ولما فتح جوليوس قيصر غاليا وارضخ لشوكة وطنهِ هذه البلاد التي هي اكثر افادة من كل فتوحاتها ٥٩-٥٨ هان عليه بهذه الخدامة ان يشيد سلطته في وطنه ولهذا عزم اولاً ان يساوي في المجد بمبيوس ثم يفوقه . وكان اكراسوس يهجس في ان يضاهي ذينك الخطيرين في الكرامة والمجد مثلما يضاهيهما في الصولة ففكر ان غناءه الجسيم يضافره على ذلك ولهذا شهر الحرب على البرتيين دون تبصر في العاقبة ٥٤ فكان ذلك الدأب كيدًا في حلقومهِ وشرارة تهب في وطنهِ ٥٣ وامتهن الارزاسيد المظفرون الرومانيين يهزئون بما يطمعون ويندّدون في خسّة قائدهم . واما الغوائل العظمى التي سببها انكسار كرسس فلم تكن العار الذي مس الاسم الروماني بل ذلك متاتٍّ من البغضاء بين بمبيوس وقيصر ولقد كانت سلطة كراسوس حاجزًا بين الشوكتين لكنَّ ذلك لم يلبث طويلاً بعد موته فان الخصمين المستوليين على كل القوات الرومانية اصبحا مطلقي العنان

وانقطع حبل نزاعهما في معركة دموية فرفل قيصر ببرد النصر وبدت قواته في وقت واحد في مصر ٤٥ واسيا ٤٧ وموريتانيا ٤٦ واسبانيا ٤٥ ولما فاز في كل الحال اصبح متسلطاً في رومية وكل السلطنة الرومانية ٤٤ واما بروتوس وكاسيوس فسوّلت لهما انفسهما على ان يقتلاهُ ليزحزحا عن عاتق وطنهما اثقال عبوديته فقتلاه كأنه ظالم قسراً عن حلمه وحينئذٍ صوبت على رومية سهام الجور والعتو فسقطت ثانية بين ايدي مركوس انطونيوس ولبيدوس واكتوفيان القيصر الشاب حفيد جوليوس قيصر وابنه بالذخيرة واصبح هولاء العتاة الثلاثة المتعسفون عن طريق السكينة يلقون الرهبة في القلوب وهذه الحال كانت كريح زعزع تزعزع اركان السلام واجتزئوا المملكة الرومانية فتخذ قيصر ايطاليا وظهرت عليه علائم الدعة والحلم بعد ان كان انفاً عاتياً ذميماً وعلق بيدي انة سبق للاعمال السيئة بشركائهِ في السلطة وكل من بقي من الجمهوريين تلاشى هو وبروتوس وكسيوس ٤٢ ولما اباد انطونيوس وقيصر بيدوس ٣٦ تباريا في حلبة النزال واخذا يتناضلان ٣١ فامتطت حينئذٍ كل القوات الرومانية البحر فحاز قيصر النصر في معركة اكسياك ٣١ وتبددت كل قوات مصر والشرق التي كان قد استاقها انطونيوس وراءهُ فصدَّ عنه اخدانه جنوحاً ونفرت عنه كليوباترا التي لاجلها اتلف مالهُ وقوته وسلم لقيصر هيرودوس الادومي المديون له بكل شيء ٣٠ ولذلك لبث متبوءاً عرش مملكة اليهود وخضع الكل له صاغرين ففتحت له مدينة الاسكندرية ابوابها واصبحت مصر اقليماً من الدولة الرومانية ولما ايست كليوباترا من رعاية هذه المملكة انتحرت بعد انطونيوس ومدت رومية ذراعيها نحو قيصر الذي استمرَّ وحدهُ يامر وينهي في الدولة الرومانية باسم اغوسطس ولقب امبراطور ٢٧ وسنة ٢٥-٢٤ ذلل بالقرب من جبال البيراني شعوب الكنتبريين والاستوريين العتاة الجائرين وطلبت مملكة الحبش اليه ابرام الصلح ٢٢ وذعر البرتيون منه رهبةً فاعادوا اليه الوية الرومانيين التي نزعوها من كراسوس وكل الاسرى. وطلب الهنديون ان يربطوا وثاق الاخاء بينهم وبينه واذعر صليل اسلحة الرومانيين كل من وطأ الارض حتى بلاد الراثيين او الغريزيين الذين ضاقت عليهم جبالهم ولم يكن لهما ان تكون لهم مترساً يقيهم من الغوائل وخضعت له بلاد بنونيا ١٢ وارعد فرائص جرمانيا ٧ ورضخت الامم القاطنة ضفات الفزير لنواميسهِ ولما رفل ببرد الظفر براً وبحراً قفل ابواب هيكل جانوس وكان حينئذٍ كل العالم راتعين

في بحبوحة الامن والطمانينة مدة ملكه وولد اذ ذاك يسوع المسيح سنة ٧٥٢-٧٥٤ بعد تشييد رومية

العصر العاشر

في مولد يسوع المسيح

* الاجل السابع والاخير للعالم *

ها قد تطرقنا الى الازمنة المطلوبة من آبائنا وهو مأتى المسيح وهذه اللفظة مشتقة من المسح واستأهل يسوع ان يتلقب بها لانه كان كاهنًا وملكًا ونبيًا وقد تباينت آراء المورخين على وقت ميلاده بيدَ انها قد اتفقت على صحته ببضع سنين قبل حسابنا السائر واما نحن فعكفنا عليه لسهولة ماخذه اذ لا نتوقف بالفحص عن ذلك ومهما يكن من الامر فحسبنا العرفان انه ولد سنة ٤٠٠٠ او ٤٩٦٣ بعد التكوين. وذهب بعض المورخين الى ان ميلاده كان قبل ذلك بقليل من الزمن وذهب غيرهم الى انه كان بعد وذهب اخرون الى ان ميلاده كان في تلك السنة عينها . وهذا الاختلاف يتاتى من عدم التحري في تاريخ التكوين او في ميلاد المسيح وعلى كلٍّ فان نحو ذاك الحين اي السنة الالف بعد تكريس الهيكل وسنة ٧٥٤ بعد تشييد رومية تجسد يسوع المسيح ابن الله في الازلية وابن ابرهيم وداود في الزمان من كاعبٍ عذراء . وذلك العصر دعاه المورخون اعظم الاعصار لسبب هذا الحادث العظيم ولان المسيحيين كافةً يتخذونه من اجيالٍ عديدة مصدرًا لحسبان سنيهم ولاريب في ان هذا العصر في غاية الغرابة فانه موافقٌ لعود الدولة الرومانية الى السياسة الملوكية في عهد اوغسطوس

وازهرت في ذلك العصر الفنون قاطبةً وتسامى الشعر اللاتيني الى اعلى درجة من الجودة والكمال بواسطة فرجيلوس وهوراسيوس وكان الملك اوغسطس يقوبهما ويجزل اكرامهما ويوذن لهما بالدخول امامه

ومات بعد المسيح هيرودس واجتزأ اولاده مملكته من بعدهِ واستولى الرومانيون على القسم الاوفر من تلك السلطنة السنة الثامنة

وتكامل حكم اوغسطس بالسودد والمجد السنة ١٤ وخلفه طباريوس الذي تخذ

بالذخيرة ابناً له . واصبحت السلطة تتوارثها السلالة القيصرية وتجشّمت رومية مشقات عظمى لكثرة ما اعتسف طباريوس بسياسته وجار لكنما الطمانينة كانت في غير المحال في اعلى السيادة . واما جرمانيكوس ابن اخي طباريوس فقد كدح وجهد في اخماد نار الفتنة التي سعرها الجيوش المتمردون ونبذ السلطة الملوكية ظهرياً وقهر ارمينوس الجبار ووصل بفتوحاته الى ضفاف نهر الإلب ١٦ وبذلك رضي عنه الشعوب بواسطة اعماله واخلصوا له السريرة وحسد عمه البربري المتوعر الذي اماته غمّاً او سمّاً ١٩ وبعد ان مضى على حكم طباريوس اربعة حوءول ظهر يوحنا المعمدان ٣٨ واعتمد يسوع المسيح بيد هذا السابق الالهي ٤٠ واعترف الاب الازلي بابنه الحبيب بصوت سماوي . وحلّ على يسوع الروح القدس بهيئة حمامة وديعة وظهر اذ ذاك كل الثالوث الاقدس . ولما كمل السبعون اسبوعاً لدانيال النبي علق المسيح بنذر ولقد كان الاسبوع الاخير اهم الاسابيع كلها واعظمها ومازهُ دانيال عن غيره حيث كان فيه التعاهد على وشك التقرير ولان الذبائح القديمة كانت في وسطه قريبة الزوال ٨ ويمكن لنا ان ندعوه اسبوع الاسرار لان تثبيت ارسالية المسيح قد كان به . وظهرت به تعاليمه بعجائب شتى وموته ٣٢ الذي حدث في السنة الرابعة من انذاره وتوافق تلك السنة للسنة الاخيرة من اسبوع دانيال الاخير واجتزئت بموت يسوع المسيح الى جزئين

وبناء عليه لا يكون حساب الاسبوع من القضايا المشكله او بالاحرى هو مصنوعٌ طبعاً فليس علينا الا ان نضيف الى اربعماية وثلاث وخمسين سنة خلت منذ ثلثماية سنة من تشييد رومية وعشرين سنة من حكم الملك ارتحششتا الثلاثين السنة الاولى من بداءة الحساب السائر وهي التي تصل الى السنة الخامسة عشرة من ملك طباريوس ومعمودية المخلص فيكون الحاصل من مجموع هذه السنين اربعماية وثلاث وثمانين سنة ومن سبع السنوات الباقية الى تتمة الاربعماية والتسعين سنة تكون السنة الرابعة الوسطى هي التي مات فيها المسيح فعلى ذلك يكون كل ما تنبأ عنه دانيال ظاهراً في الحد المعين بكل صراحة (١) . وليس لنا من الامر ما يبعثنا على كل ذاك التنقير ولا شيء يلجئنا ان نعتمد في كل تلك الصعوبة ما اوعز اليه دانيال لان المورخين المدققين يكفيهم ان

....

(١) دانيال اسفر ٩ ص ٢٧

بروا في بضع نقاط نشأت بين الطرفين ما توهمت به حتى ان الذين يحسبون انهم اولو حجج بينة بان يحصروا بداءة حكم ارخشستا او موت المخلص قبيل ذلك او بعيدهُ لا يتلبسون في حسبانهم وان الذين يرغبون في تهويش هذا الامر الصريح بنزاع حسبانات تاريخية يتملصون من تنفرهم الذي لا يجديهم نفعًا

وهاك ما يقتضي معرفته لاجتناب الاشكال في المؤرخين الدنيويين وادراك الآثار اليهودية على قدر الحاجة . ولا عبرة بالبحث عمّا يناط بباقي حساب التاريخ . وعدم التحري في تاريخ سنة العالم وسني المسيح يبعث على عدم ادراك سنة ميلاد المسيح قبلُ او بعد . ومهما كان الامر فمن تصفح مقالنا وكانت الالمعية متوفرة فيه يفقه ان ذلك لا يعبث بتوالي المآرب الربية . ومع ذلك كن قويم السلوك ياسيدي بحساب التاريخ لئلا تشكل عليك الحادثات ودع العلماء يتنازعون فانهم في كل واد يهيمون . ولا نعبأ بمن يذهب الى ان في التواريخ الدنيوية كل عجائب المسيح ورسله . وسوف نرى ان في التواريخ حقائق شتى اكثر مما يخالون كالكسوف الذي حدث لدى موت المخلص فان الظلمة المدلهمة التي غشت رداء الارض وقت صلبهِ في رابعة النهار قد احتسبها المؤرخون الوثنيون الذين نقلوا ذلك الحادث الواجب التذكار كسوفًا اعتياديًا واما المسيحيون الغابرون الذين اذكروا ذلك الحادث العظيم امام الرومانيين فقد اعتبروهُ اعجوبةً كبرى نقلها مؤرخوهم المدققون واثبتوها في السجلات العامة وابانوا ان الشمس لا يعتريها الكسوف في السنة التي مات فيها المسيح حيث الهلال في غاية كماله . وان طرأ شيءٌ من ذلك فلا يكون الا من خوارق العادة وقد تصفحنا نفس القول في تاريخ فليمون معتوق الملك ادريانوس وقوله مبثوثٌ في العصر الذي كانت ايدي العامة تتداول تاريخه وقفاهُ بذلك تالوس المؤرخ السرياني وأُشير في تاريخ فليمون الى السنة الرابعة من مائتين واثنين من الاولمبياد بانها معتبرة كالسنة التي مات فيها المخلص

وقد نهض المسيح من القبر اليوم الثالث تتميمًا للاسرار وبدا امام تلاميذه وصعد الى السما بمشهدٍ منهم . وبعث اليهم بالروح القدس وتوطّدت حينئذٍ اركان البيعة واخذ الاضطهاد يسود ورُجم القديس اسطفانوس والقديس بولس آب الى حجر الايمان

وبعد ان مضى على ذاك الحين قليلٌ من الزمن مات طباريوس ٣٧ وادهش الناس ابنه بالذخيرة كاليغولا بخشونته وعتوه البربري وارغم الرعية على ان يعبدوه

ويضعوا تمثاله في هيكل اورشليم ٤٠ فقتله شيريهاس وانقذ العالم من هذه الآفة ٤١
ثم تولى زمام الامرة كلوديوس قسرًا عن خموله وبلهه وخرقت عرضه امرأته مسالينا التي كان يطلبها بعد امانتها ٤٨ وتأهل باكرّين بنت جيرمانيكوس ٤٩ وفتحت الرسل مجمع اورشليم ٥٠ فتكلم فيه بطرس على حسب عادته اولاً. وان الوثنيين الذين آمنوا وسعوا على المحجة القويمة تملصوا من رعاية الشريعة الموسوية بموجب نص المجمع وأُبرز الحكم باسم الروح القدس والبيعة القدسية واذاع بولس وبرنابا حكمه في الامصار والاحياء وبعثوا المومنين على ان يكونوا له راضخين وهكذا كانت هيئة المجمع الاول
وكان كلوديوس في ذاك الحين قد حرم ابنة بريتانيكوس ميراثه وتخذ نيرون بن اكرّين ابنًا له بالذخيرة فحنقت من ذلك امرأته وعاطته كاسًا من السم فمات ٤٥ فخلفه ابنه نيرون فبرّح بها واثقل على المملكة جورًا واما كوربيلون فقد جعل وحدُ ولاء نيرون مرتفعًا الى طبقات المجد والسؤدد بظهوره على البرتيين والادوميين. واخذ في ذاك الحين نيرون يوقد نيران الحرب على اليهود ٦٦ ويضطهد المسيحيين وبذلك كان امبراطورًا ولا جرته الوقاحة وصفاقة الوجه الى اضطهاد البيعة واماث في رومية الرسولين بطرس وبولس ٦٦–٦٧ ولما كان في ذاك الحين يجور على كل بني الانسان تألبت ضده القلوب من كل صقع وناد واذ علم ان مجلس الندوة قضى عليه بان يموت ذريعًا تخير الانتحار ٦٨ واصبح كل جيش يتخير له امبراطورًا وانفصم حبل الشحناء قرب رومية وزأرت فيها معامع هائلة دموية قتل بها غلبا وأُتون وفيتليوس ٦٩ واكتست الدولة المبرّحة في عهد فزبازيان جلباب الارتياح ٧٠ بعد ان كانت تصفعها اكف الاضطراب لكنما اليهود وصلوا لدى ذلك الى جرف هار من التلف وفتحت اورشليم ابوابها فاندثرت اي اندثار وابتلعتها افواه النار واصبح طيتوس بن فزبازيان وخليفته سرورًا تفترّ به ثغور العالم وتطيب به النفوس. ومضت ايامه كانها لم تكن مذكورة لانها لم تكن تمرّ في خلال الخير ثم حيي نيرون متقمصًا بجسم دوميتيان وتعزز حينئذٍ الاضطهاد ٩٣ وبعد ان أُخرج القديس يوحنا من الزيت السخنان أُقصي الى جزيرة بطموس فكتب ثمة رؤياه ٩٥ وبعد ان مضت على ذلك مدة كتب انجيله وهو معمر تسعين عامًا واتصف بعد ذلك بكونه انجيليًا ورسولاً ونبيًا واستمر اضطهاد المسيحيين منذ ذاك الوقت يذيع ويسود سواء كان يتولى السدة ملوك اصفياء ام ملوك اشقياء. فتارة كان الملوك والاولياء المبغضون المقربون يثيرون

الشعوب ويسيرون اليهم اوامر تحثهم على ذاك الاضطهاد وتارة كان الشعب يثور عليهم وينقم منهم ويرهقهم وهم صابرون. وآونة كان مجلس الندوة يبرز القضاء مبرمًا باعنات المسيحيين واذلالهم بموجب اوامر من الملوك او بحضورهم ففشا الاضطهاد واصبح عامًا حينئذٍ وانساع الدم على الارض غديرًا . وصمم الجاحدون على ان يهدموا البيعة فهاجوا وازبدوا ودبت الحدة فيهم دبيبًا مستمرًا وعلقت الاضطهادات تتوالى حينًا بعد حين . ولذلك قد حسب المؤرخون الكاثوليكيون الاضطهادات فكانت عشرًا تمت في عهد عشرة من الملوك ولم ييأس المسيحيون من نوال الارتياح طول ذاك العناء ولم تسول لهم النفوس على إثارة الثورة في غضون اتباعهم وتعنيتهم . وقد كان الكرب يمس الاساقفة وذوي القربى اكثر من سواهم وكانت كنيسة رومية معرّضة للاضطهاد اكثر من غيرها تخرق فيها ايدي الجاحدين الظالمين . فقتل من الباباوات كثيرٌ فانبثت دماهم الانجيل الطاهر الذي كانوا يبذرون به ومات دومسيانوس قتيلاً وعلقت الدولة تستكنُّ في عهد نيرفا ٩٦ ولما كان هذا الملك قد اشرف على الزوال نظرًا لما اعتراه من الهرم لم يمكن له اصلاح شؤون المملكة فرغب في ان تسود فيها الطمأنينة والسكينة . ولذلك اصطفى طراجانوس وريث ملكه وخليفةً له ٩٧ واذ كانت الدولة الرومانية مستكنة داخليتها وهي مضفية ذيول النصر خارجًا استمرَّت ترنو الى ذاك الملك العظيم بعين الاعتبار ٩٨ وان من اقواله التي تداولتها السنة القوم ان الرعية لابدَّ لها من ان تودَّ ان يتصف من مناقب الملك بما يودُّ ان يرى في الملك لو لم يكن ملكًا . وقمع الداسيين وذلل ملكهم ديسيبال ١٠١-١٠٢-١٠٦-١٠٧ واوسع فتوحاته في الشرق ١١٥-١١٦ واقام على البرتيين ملكًا وجعل الرعدة تستولي على قلوبهم اجمعين وهيبهم الى السلطنة الرومانية . ولله دره من ملك سعيد لولا ان اغتباق الخمرة وصبابته حملاهُ على ان يمتطي متن امور تطرح بالعدل جانبًا . وخلف هذا الحكم الجدير بالنفع للدولة الرومانية حكم الملك ادريانوس الذي تجاذبه طرفان من الحسنى والبوسى فرعى النظام في الفيالق ١٢٠ وبقي هو نفسهُ جنديًا عائشًا عيشة قروية ١٢٢ وخفف عن عواتق الاهلين اثقال الخراج ١٢٥ فانبعث اغصان الفنون في بلاد اليونان التي هي منهل ذلك ١٢٦ وراع البربر بالسلاح والسلطة ١٣٠ وانهض مدينة اورشليم من وهدة اليباب ودعاها باسمه ١٣٥ فلقبت حينئذٍ باليا. لكنهُ طرد منها اليهود الذين لبثوا يتمرَّدون على الدولة ويثورون فكان عليهم شديد الانتقام لا يعاملهم

بالتؤدة ولا برفق بهم . وهتك حكمة الراهي بجوره وتهافته على جهد الصبابة والغرام واصبح انطينووس المرذول المتاله علة لعاره طول حياته ١٣١ واصلح مجد لما اذخر ابنا له انطونينوس الصالح الذي تبنى مركوس اوريليوس الحكيم الفيلسوف ١٣٨ ولقد كان ذانك الملكان يرسخ فيهما خلتان حميدتان ١٦١ - ١٣٩ فان الاب لم تكن نفسه تجنح الا الى ابرام الاخاء والصلح ولم تاخذه عن الاغارة سنة الكرى اذا افضى به الامر الى ايقاد نار الوغى . وكان الابن يساور العدو في ساحة النزال وينهمك في ان يمتن ربط الصلح بين الدولة الرومانية ومنازليها فان اباه قد اوعز اليه ان يفضل انقاذ واحد من رعيته على اهراق دماء الف من اعدائه الكاشحين . ولطالما ضرّى البرتيين ١٦٢ والمركومانيين ١٦٩ واغراهم ببسالته . اما المركومانيون فهم قبل جرمانية فمنهم مركوس اوريليوس لدى موته وفضائل هذين الملكين بعثت الرومانيين على ان يتفاءلوا باسم انطونينوس . ولاجرم ان مجد هذا الاسم لم يكن خاملاً بتفنق لوسيوس فرسيوس اخي مركوس اوريليوس ورصيفه في الملك اوبفسوة لومود ابنه وخليفته ١٨٠ اما لومود فلم يستأهل ان يكون ولداً لابيه الاروعيّ فانه نبذ نعيمه غير متسنن باعماله ولذلك اقام عليه مجلس الندوة والشعب نكيراً وقد كاشحوه بالضغينة وقتلته وليته ونديماه الاصفياء ١٨٠ وخلفه برتيناكس وكان باسلاً ذائداً عن النظام الجنديّ عزيزاً ولذلك لم يتعد عن ان يكون هدفاً للثائرين الذين اقاموه على العرش الملوكي قسراً عن ميله وطرح الجنود المملكة الرومانية وفتئذ في سوق الشراء فابرى المشترع ديديوس جوليانوس ليشريها فتناله سفاريوس الافريقي انتقاماً وكيداً واخذ بدم برتيناكس وجد في السرى طاوياً بساط الارض شرقاً وغرباً ونال راية الظفر في سوريا وغاليا ١٩٧ - ١٩٤ - ١٩٥ وبريطانيا العظمى ٢٠٧ - ٢٠٩ ولقد بارى قيصر في الفوز والفتوحات لكنه لم يكن نظيره حليماً حازماً ٢٠٧ وهبّت بين اولاده قبسة الشقاق فلم يمكن له اخمادها ولما توفاه الله وثب حالاً ابنه البكر باسيان على اخيه جيتا وقتله في حجر امها جوليا ٢١٢ ولقد كان تسنّنه باسكندر تسنناً كاذباً . واستمرّ طول ايام حياته يقاسي الصروف الرزئية بتنهك حرمة السكينة قاتلاً عاثياً فمات موتاً ذريعاً . ولم يكن يعبأ بما زرع له ابوه فانه كان قد امال له قلوب الجنود والشعوب بتسمية انطونينوس فنبذ ذلك الاسم غير حافل به ولا مكترث بمجده ٢١٨

واما هيليو غابال السرياني (او الغابال ابنه او المزعوم كابنه) فقد سئمت منه النفوس

وانف منه القوم مزبلين المودة التي بعثهم عليها لقبه انطونينوس الذي سبب له الظهور على ماكرينوس . ثم جرته رذائلة الى ان يتجرع كاس الحمام وخلفه ذو قرابته اسكندر سفاريوس بن ماما فلم يبقَ لسوء بخت العالم على الارض طويلاً بل قضي عليه بعد ان حكم قليلاً . فكان موته للناس خيرًا وقد طالما انبأ انه كان يشق عليه قمع جنوده الثائرين اكثر من قمع اعدائه الكاشحين . وكما ان امة التي كانت تقوده باعماله كانت ذريعة لجدع وبذوخ مكانته كذلك كانت علة لهلاكه ٢٣٥ وقتل في عهده ارتحشستا الفارسي الباسل سيف ارتبان الذي كان اخر ملوك البرتيين وقام بناصر دولة فارس فرفع منارها مرة اخرى في الشرق ٢٢٢-٢٢٣

وفي ذاك الحين تعززت اركان البيعة الحديثة في كل الارض ولم تمتد في الشرق حيث بدت اي في فلسطين وسورية ومصر واسيا الصغرى واليونان بل انها انتشرت في ايطاليا وبين الشعوب الغالية المختلفة الاجناس وكل مقاطعات اسبانيا وافريقيا وجرمانيا وكل انحاء بريطانيا العظمى حيث لم تتطرق ايضًا اسلحة الجنود الرومانية . وامتدت الى خارج الدولة الرومانية في ارمينية وفارس والهند والبلدان البربرية كبلاد السرماتيين والداسيين والتتر والمغاربة والجيتوليين وكل الجزائر المجهولة . ولقد نمت بدماء الشهداء والقي الى ضواري الوحش اسقف انطاكية القديس اغناطيوس في عهد ترايانوس ١١٧-١١٦ واما مركوس اوريليوس فقد كان لا ينثر عن ان يحدل على المسيحيين لكثرة ما كان يرفع النميمة اليه عنهم المفسدون فعمد على محامي الدين المسيحي القديس يوستينوس الحكيم واماته قتلاً ١٦٢ وقضي بالحريق في عهد هذا الملك نفسه على القديس بوليكربوس اسقف ازمير وتلميذ القديس يوحنا وهو في سن ثمانين سنة ١٦٧ وتجشم الشهداء مصائب شتى وعذابات كثيرة في ليون وفينا ١٧٧ اقتداء باسقفهم القديس فوتان الذي كان يبلغ من العمر تسعين سنة وانتشر مجد بيعة غاليا في العالم كله . واما خليفة القديس فوتان القديس ايريناوس تلميذ بوليكربوس فقد اقتدى بسالفه ومات شهيدًا في عهد سفاريوس هو وجمّ عظيم من المومنين ٢٠٢ فكثيرًا ما كان المسيحيون يتنفسون الصعداء اتباعًا الى ان نولوا من الاضطهاد ارتياحًا وبناء على ذلك يذكر ان مرقوس اوريليوس بعد ان دوخ بلاد جرمانيا وصل بعساكره الى مفازة هيماء فاخذ الظمأ به وبجنوده كل ماخذ

فاوعز الى فرقة من المسيحيين ان استغيثوا من ربكم عسى ان ياتينا بالغيث من عنده مدرارًا فتنالوا من لدني الحسنى وتكونوا من المقربين فخرُّوا على الارض جثيًا وطفقوا يجارون الى الله فاستجاب الدعاء وغاث البادية بمطرٍ غزيرٍ شفعه بانقضاض الصاعقات المرهبات لاعدائه فارتوى الملك والجنود وبعثتهم هذه الاعجوبة على ان يلقبوا الفرقة باسم صاعقية فراف الملك بهم واوصل اليهم المسار فكانوا بهِ واثقين واوعز الى مجلس الندوة ان يرفق بالمسيحيين. واسبابٌ شتى كانت ذريعة الى توقيف الاضطهاد الى وقت ما او تلطفة لكنما السحرة الافاكون توافدوا اليهِ واخذوا ينمون تلك العجائب الى المنه وانه اهبطها باستصراخه ربه وان لم يكن ذلك بخاطر على بال الوثنيين . فاصاخ الملك لكلامهم وتوهم ان مينهم مفرغٌ في اناء اليقين ولذلك لم يتمالك ان باده المسيحيين بالاضطهاد والقلى ولبث يعنتهم طالما كان ينم الحديث اليه عنهم المفسدون وبورشون ما بينهم وبينه واستمر حقد الوثنيين عليهم محتدمًا والملك يجدل عليهم وهم بائسون ودماءهم تصبب في كل انحاء المملكة بيد انهم لم يتقاعدوا عن ادمانهم الارشاد والانذار في عرض تاو بقهم واذلالهم ففي عهد سفاريوس وبعده بقليل من الحين تلالأت في البيعة انوار ترتوليانوس الكاهن القرطجني ورعاها واثر الدفاع عنها بقلبٍ تأججت فيهِ حماسة لكنه بعد ان كانت تواخيه القلوب وتقربه المقل اصبح مرشوقًا بسهام المقت والتفنيد فان الكبرياء اضلت بصيرته عن روية الهدى فخرج من حجر الكنيسة وتخذ مونتانوس المتنبىء الدجّال مثالاً له وديدنًا لاعماله ٢٠٥ــ٢١٥ وكان في ذاك الحين قد بحث الكاهن المفضال القديس اكليمندوس الاسكندري عن آثار الوثنيين القديمة قصد ادحاضها اما اوريجانوس بن لاندوس الشهيد فقد كان وقتئذٍ عالمًا تعتزُّ به الكنيسة منذ نعومة اظفاره وعلى حقائق عظيمة يخامرها من الضلال شيٌ لا كبير ولقد كان الفيلسوف امونيوس يستهمُّ بامر الدين المسيحي فابرز له من فلسفة افلاطون ادلة وحججًا يترتّب عليها شينة واستحق رفعه الشان والكرامة من كل من يعرفه حتى من الوثنيين ايضًا . وفي ذاك الان قامت شيعٌ كثيرة منها الغنوستيكيون وتباع والنتيانوس وغيرهم من الجاحدين وتصدوا لخرق شأن البيعة والانجيل بالترهات والتقليدات الباطلة فانبرى اليهم القديس ايريناوس وعلق بقاويهم بتقليدات البيع الرسولية وسلطتها ولاسيما بالاستناد على كنيسة رومية اعظم الكنائس التي شادها القديسان الرسولان بطرس وبولس . وهاك ما قال

عنها ترتيليانوس ان البيعة راسخة الاركان لا يزعزعها المبتدعون ولا تنتكس اعلامها اذا ناوشتها المشقة او اوسفط اشهر علمائها الاحوذيين . وان لها من العادات المقدسة ما بعثت اليها الاطراء من القاصين عنها

ولقد كانت الدولة الرومانية تخبط خبط عشواء فان اسكندر بعد ان اغتالته مخالب المنون ٢٣٥ تولى قاتله الجائر مكسيمينوس في مثابته مع انه كان من اخلاف القوتيين اولي الهمجية والخشونة . واقام مجلس الندوة من الملوك اربعة بمقابلته ماتوا طرًّا مدة سنتين غير كاملتين منهم غورديانوس وابنه المقربان لدى الرومانيين ٢٣٧-٢٣٦ واما ابنهما غورديانوس اليافع فقد كانت بضاضته لا تصده ٢٣٨ عن ابراز الحكمة الخارقة التي يقصّر عنها الكهول المحنكون فاصبح مجنًّا للدولة الرومانية التي اوهنتها الانقسامات وفتكت بها ايدي الجائرين . فوثب على الفرس اعدائها ٢٤٢ ونزع من ايديهم كثيرًا مما غنموه من المهامّ منها وما سلبوه لكنه لم يجئ طويلاً فان فيلبوس العربي نازل هذا الملك الصالح وسلبه روحه ٢٥٤ ولما شعر بتولية ملكين اقامها مجلس الندوة انحاز الى صابور ملك الفرس خشية ان يعتاه وابرم معه صلحًا خرق عرضه وحمله الفحش والشين ٢٤٤-٢٤٥ وقد تقرّر ان هذا الملك هو اول الرومانيين الذين غادروا بعض اراضٍ من المملكة بموجب معاقدةٍ ومحالفة

وقد رُوي انه لما سعى على السبيل القويم جدّ في سبيل الله وتخذ الكنيسة له ثمالاً مستمسكًا بعروتها الوثقى والحقّ يقال انه طرح بالعسف جانبًا واستحال ملاذًا للمسيحيين يستنصرونه فكافحه لداسيوس الذي اهرق دمه وجدّد الاضطهاد بكل قسوةٍ . وبناء عليه اخذ العاثون يلمون بابناء الله ويضطرونهم

اما البيعة فقد كانت تمتدّ في الامصار كافة ولاسيما في غاليا بدرأ عنها الملك داس النوائب الدامسة فنذر عليه بزهوق الروح ٢٥١ فكان ذلك عليها وبلاً وثبورًا . واما غاليوس وفوليزيانوس اللذان خلفاه فلم يلهما عن الايقاع بالبيعة سوى موالاتهم للملك ولم يكن لاميليانوس امرٌ سوى بروزه فانيطت السلطة المطلقة بعهدة فاليريانوس ٢٥٣-٢٥٤ فجدّ بهِ من الهمة جادٌ واخذ يصلح شؤون المملكة بكل اقدام وجرأة وهو في حيز الهرم . لكنه لم يكن جائرًا الا على ابناء بيعة الله ٢٥٧ ونال في عهدِ البابا القديس اسطفانوس والقديس قبريانوس اسقف قرطجنا اكليلي الشهادة قسرًا عن خصامها

الذي لم يقطع من بينهما وثاق الإخاء ٢٥٨ ولم يكن ضلال القديس قبريانس الذي كان يشذُّ على معمودية الهراطقة تكبرًا بلْ بنفسه ولا بالكنيسة ٢٥٦ واستمرَّ تقليد الكرسي الرسولي مرعيًا بقوته الخاصة قسرًا عن حججه الفاسدة وحجج بعض اناس لم اهمية اخذوا يؤيدون مقاله . ولما لبث الجدل قائمًا مستمرًا نشأَ منه كبير مضرةٍ فان سباليوس قد مزج ثلاثة الاقانيم معًا . فقد ذهب الى ان العليّ له اقنومٌ واحد مثلث الاسماء ٢٥٧ فذلك تعليم تعترف البيعة بغرابته الفائقة . وابان القديس دنيسيوس اسقف اسكندرية لدى البابا سكستوس الثاني كل غيٍّ ذلك المبتدع وضلالهِ اما البابا فقد اقتفى الذي تكبّدهُ سالفه القديس اسطفانوس فبقي مجاهدًا الى ان بترَ المضطهدون راسه واخذوا يرهقون شماسهُ القديس لورنسيوس ويحملونه ما لا يستطيع عليه صبرًا . وحينئذٍ اخذ البربر يشنون الإغارة على الدولة الرومانية ٢٦٠-٢٥٨ - فان البرغونيين وشعوبًا أُخرى جرمانية والقوتيين الذين كانوا يلقبون في ما غبر بجيتيين وشعوبًا أُخرى من الشعوب الذين يقطنون شواطئ البون توكسان وراء نهر الدانوب تزاحفوا برمتهم الى اوربا واندفعوا يخترقون واغار الفرس والشيئيون الاسيويون على الناحية الشرقية منها وطفقوا يذللون الصعاب ويفسدون. وقبض وقتئذٍ الفرس على الملك فاليريانوس غدرًا واستاسروه مهانًا ذليلًا يكابد طول حياته الثبور والمشاق وسبئوا من بعد ذلك جلدهُ بعد ان مزّقوه كل ممزّقٍ واستخدموه العوبةً لايديهم علامةً للنصر وركوب متن الفلاح . اما مضافرهُ في الملك ابنهُ غليانوس فقد كان خامل الراي هيوبًا للامور يقعدُ الجبنَ عن الهيجاء فكان ذلك سببًا لانحطاطهِ الى حضيض الذلة مدحورًا ٢٦٠-٢٦١ وزاحم المملكة الرومانية ثلاثون رجلًا من الظلَمة العتاة واقتسموها قسمة ضيزى . واما مدينة تدمُر القديمة التي شادها الملك سليمان فكان قطّانُ عرشها ملكًا عسوفًا يدعى اودينات يفوق كل الظلّام الانفين عسفًا وتأويقًا فانه ضيق على البربر وعسف من ايديهم الامصار الشرقية واستوى على العرش ملكًا بحولهِ وطولهِ . ومن الامور التي تبعث على الدهشة ان امراته زنوبا كانت عاكفة على التسيار معهُ امام الجيوش وبعد ان زهقت روحهُ ترتبت عليها قيادة الجنود فاشتهرت بقوة الفواد ونزاهة النفس وفي اليقين انها كانت محرزة الجمال والعفاف والمعارف والبسالة ورنا كلوديوس الثاني ٢٦٨ الى المملكة الرومانية وقفاه اورليانوس ٢٧٠ واوسعا خطا فلاحها ونجاحها فرفلت ببرد العز بعد

ان كانت صاغرة ذليلة . وفي غضون تعنينها القوتيين والجرمانيين بانتصارات علنية كانت زنوبا الملكة الاروعية ترعى لبنيها ما فتح ابوهم من المدائن وكانت راضية عن الديانة اليهودية . فاهتمّ بولس السموزاتي بان يجعلها تستمسك عن تلك الديانة قصد ان تعتنق الدين المسيحي فاختلق لها مذهبًا على حسب الدين اليهودي فربّا بتعلق بالبحث عن اقنوم المسيح وخيّلهُ اليها انهُ انسان محض وبعد ان اسرّ تعليمهُ زمنًا نضي الغشاء عنه في مجمع انطاكية وحكم عليهِ . وقد كان اسقفًا زهوقًا في مدينة انطاكية بتهافت على القاء الشغب واماتة السكينة واما الملكة زنوبا فقد دافعت في الحرب التي اججها اورليان ٢٧٢ متوهمة انها تنال بذلك النصر والغنيمة فحبط مسعاها لان اورليان نازلها غير مستخف بها وفاز لدى قتالها بلواء الظهور عليها ٢٧٤ وفي عرض تلك الحروب المستمرة لم يطوِ كشحًا عن ان يرعى للجنود الحربية الرسوم الرومانية وابان ان ادارة فيالق كثيرة داخلاً وخارجًا دون ان تضنك الدولة موقوفة على ان الجنود لابدّ من ثبارهم على اقتفاء النظام وخشونة العيش القديمين

اما الفرنسيس فقد جدوا في ان يذيع باسهم ويخيم الرُواعُ منهم على بلاد الروم . وقد ثبت انهم ليسوا من محتدٍ واحدٍ بل انهم قُلّلُ جرمانيون كانوا يقيمون في شواطيء الرين . ومن اسمهم دليلٌ على انهم كانوا يتسكعون في بحبوحة الحرية فناصبهم اوليانوس مستظهرًا قبل ان يتبوأ سرير الملك . ولما تملك امر قومهِ نصبهم الهمّ وتجرعوا البوسى طول ايام حكمهِ ولقد تقرر انهُ كان عتلاً عاتيًا لا يمسك عن اهراق الدماء فتجهّمت لهُ الوجوه وصار الناس يكشحون لهُ بالبغضاء والشحناء وقصارى الكلام ان شدة جوره وتهمكهِ في اهراق دماء العباد بعتاهُ على ان يتجرع كاس الحمام ٢٧٥

وكل روساء الجيش الذين كانوا يحسون منهُ خيفةً ويتوهمون انهُ سيبادهم بالخطر الوبيل تألبت عليهِ قلوبهم للفتك بهِ وأُقيم عليهم كاتم اسرارهِ رئيسًا وأوقعوا بهِ فجندلوهُ قتيلاً . ولما اصبح من الغابرين تقاعد الجنود عن ان يتخيروا لهم ملكًا خشية ان يكون من ينتقونهُ احد قاتليهِ . واذ آبت لمجلس الندوة حقوق الخبرة القديم انتخب تيسيتوس ملكًا مكانهُ وفي اليقين ان هذا الملك كان شيخًا وقورًا مهوبًا لا تاخذهُ عن الفضيلة سنة . بيد انهُ اقام على الجيش من انسبائهِ رئيسًا مستكبرًا جائرًا فنفرت منه القلوب وثارت عليهِ الجيوش فازهقوا روحهُ وروح ذلك الرئيس العاتي وكان ذلك في الشهر السادس من

ملكهِ ٢٧٦ وعلى ذلك لم يجنِ من الاستواء على العرش سوى سبوع دمهِ على بساط الارض . واما اخوهُ فلوريانوس فقد همَّ بان يرث اخاه حكمًا لانهُ كان اخص ورثتهِ فانكر ذلك عليهِ الرومانيون فاماتوهُ بحد الحسام ونصبوا على السدة بروبوس الذي قسر الجيوش على ان يعيشوا طرًّا كالجنود الذين هم منخرطون بسلك النظام فعززت احكامهُ واصبحت السيادة صاغرة لولاتهِ والسلطة لامره وسلطانه فان الجرمانيين والفرنسيس تزاحفوا في قتالهِ قصد ان يدخلوا بلاد غاليا فالتقاهم الى مضمار النزال وخرق صفوفهم فحاصوا من امامهِ مدبرين فخشي البربر غربًا وشرقًا بأس الرومانيين ورعوا لهم الحرمة رهبة من الغائلة ٢٧٨–٢٨٠ ومن ثم رغب في ابرام الصلح واخذ بوائق الرعية بان الدولة ليس لها إربةٌ الى جنودٍ مجندة فبدرت من الجيوش بوادر وتخذوا كلامهُ باعثًا على الاستثارة ولما بدههم منهُ الارهاق والتذليل ثاروا عليهِ منتقمين . وبعد ان مضت على ذلك حقبةٌ من الزمن أسفوا عليه ورأوا انهم اجحفوا بهِ عمدًا وعدوانًا فاثروا من بعدهِ كاروس خليفةً لهُ وكان بطلاً صنديدًا مستميتًا لدى العراك يود الانهماك في تنظيم الجنود ٢٨٢–٢٨٣

وبعد ان استقر بهِ منصب الملك ثأر لمخلوفهِ وقمع البربر الذين كانوا قد اقتحموا بعد موت بروبوس ومضى من ثم الى الشرق ليضرب الفرس مصحوبًا بابنه الثاني نومريانوس . ووكل الى ابنه البكر كارينوس مناصبة الاعداء في ناحية الشمال وكان قد لقبهُ بقيصر (هو لقب اقرب مدرجةً للوصول الى رتبة الملك) اما الشرقيون فقد هالهم حرب كاروس جدًّا لان الشعوب القاطنين بين النهرين تطأطئوا لهُ تطأطؤ الذلاة ولم يكن للفرس الذين كان الشقاق بينهم سائدًا ان ترسخ امامهُ اقدامهم بل مزّق شملهم فتفرقوا ايادي سبا . وبينا كان يخفض نفوس المستكبرين ويسفل لديه كل طامحٍ رفيع استأثر بهِ الله بصاعقةٍ بغتةً قبل انتهاء مسيره فاصبح ابنه نمريانوس من بعدهِ رثاءهُ يواصل ببكائهِ الليل بالنهار فاوشكت مقلتاه ان تشح لكثرة هميان الدموع . لكنَّ من سبرَ الامور بمقياس البصيرة يشعر ان الغراء بالترشح الى مدارج الملك يبعث على القسوة والنفرة فان حماه أبيرَ بدلاً من ان يكتئب لاكتئابهِ ويرنو اليه بعين الرعاية والرفق اغراهُ بقتلهِ الطماع في الملك ٢٨٤ فتطيّر ديوكليسيانوس من ذلك الجلل العظيم وثأر القتيل بقتل قاتلهِ ومن ثم رتع في دست الخلافة التي كان يتمناها من صميم فوادهِ . واما

كاربنوس فقد كان هيابًا وكلاًّ تخبو نيران الحدة في فؤادهِ ولكنه لما فقه ما وصل اليه ديوكليسيانوس تقوّى وبرزَ الى مضمار القتال فاستحال بطلاً دعيسًا واحرب الحرب حينئذٍ عليه فقمعهُ وشعث عساكرهُ . واذ راى جنود عدوهِ تفللوا منهزمين قفاهم مطاردًا فتصدى لهُ اذ ذاك احد انصارهِ وقتلهُ كيدًا وانتقامًا بحجة انهُ اغتصب امراته ٢٨٥ فتملصت حينئذٍ الدولة الرومانية من وثاق اعظم الظلمة المتمردين والبغاة المفسدين

واما ديوقليسيانوس فقد تولى الامرة اما بحولهِ وطولهِ واما بتكبر فائق ولما اعتزَّ على سرير الولاءِ شمخ بانفهِ صلفًا فزحف عليهِ المكافحون داخلاً وخارجًا وقفلوا عليهِ ابواب المحيص من كل جانب فضاقت عليه عند ذاك المذاهب . واذ لم يجد للنجاح سبيلاً سوّلت لهُ النفس على اقامة مكسيميانوس امبراطورًا يسعف على تنحية الاعداءِ عن ملكهِ ٢٨٦ غيرانهُ استبقى لنفسهِ السلطان والامر فتعزَّز حينئذٍ الملكان فوق الاسرة وانتقيا لكليهما وازعين لقبا كلاًّ منهما بقيصر فكان من رشح لتلك المرتبة السامية قونسطنسيوس قلورس وغاليريوس ٢٩٢ ـ ٢٩١ وانتصبوا حينئذٍ طرًّا للدفاع عن الاوطان فلقوا من الاعداءِ عرق القربة . وثارت رومية على ديوقلسيانوس طالبةً الحرية فهاجر منها الى نيقوموديه حيث اقام سدة لعرشهِ الباذخ واغرى الرعية بان يعبدوه حسب عادة الشرقيين . وفي غضون ذاك ظهر غاليريوس على الفرس فجالوا عن مثاويهم وغادروا للرومانيين اقاليم جمةً وممالك كثيرة ٢٩٧ ـ ٣٠٢ وبعد ان رأى ان النصرة حازتها جرأتهُ اعتزَّ على قومه ورام ان يتخاز عن الرعية فامتهن لقب قيصر وعلق بوعد مكسيميانوس بالامر الوبيل واما ديوقلسيانوس فقد عراهُ داءٌ عياءٌ اوهن عقلهُ فاضطرهُ صهرهُ غاليريوس الى ان يتنحى عن العرش الملوكي فتخذ مكسيميانوس إسوةً تسنن بها . وبعد ذلك أُنيط الملك بعهدة قونسطنسيوس قلوروس وغاليريوس ٣٠٥ ـ ٣٠٤ وتخير الملكان المعتزلان قيصرين حديثين يقال لهما سفاريوس ومكسيميانوس

ونالت بلاد غاليا واسبانيا وبريطانية العظمى ترف العيش وغضارة النعيم زمانًا وجيزًا في عهد قونسطنسيوس قلوروس وكان هذا الملك لايحنف عن المحجة القويمة بل كان يراعي حرمة العدل ويعامل الرعية بجسيم العناية . وقد اتهمهُ الظهراءُ والحواشي بانهُ ثابت العزم على اسقاط بيت المال فابان لهم ان عندهُ خزائن شتى تقدمها الرعية اختياريًا لدى الاقتضاء . وكانت سائر الامصار يتجشم اهلوها مشاق الجور والعسف لكثرة

ما كان يعنيهم الملوك والقياصرة وكان اولوا المناصب السنية يكثرون طالما يكثر الملوك فزادت المظالم زيادةً جاوزت الحدّ .

وفي ابان ذلك ذهب بين الناس صيت قسطنطين الشاب ابن قونسطنسيوس قلوروس فاخذت الالسنة تلهج بالاضطراء عليه وتشوف به القوم الى سوءدد عظيم . بيدَ انه كان وقتئذٍ تحت سلطة غالبريوس فاخذ هذا الملك الذميم يطوح به الى مفاوز الخطر والهلاك فاغراهُ يومًا بمواثبة ضواري الوحش في ملعبٍ كثر فيه المتطلعون . فلم يكن لديهِ الاسترهاب من الوحوش اكثر منه من غالبريوس . فاسرع الفرّ من امامهِ مدبرًا واتى اباهُ فرآهُ مشرفًا على النزع . وفي الحين عينهِ ٣٠٦ اصبح صهر غالبريوس مكسانس بن مكسيميانوس ملكًا في رومية رغمًا عن حميهِ . فاحتدمت نيران الشقاق وتسعرت جذوة البغضاء والشحناء فعاد ذلك على الدولة بالامور الوبيلة . وقد بعث الى رومية تبعًا للعادة بصورة قسطنطين الذي خلف اباهُ فجاهر مكسانس بعدم قبولها (فقبول الصور كان دليلاً على الاقرار بسلطة الملوك الحديثين) فاخذت التأهبات الحربية تقوم عند الملكين . ومن جهة اخرى سير غالبريوس القيصر سفاريوس الى رومية للاجحاف بمكسانس فضيق عليه مذاهب النجاة واسقط عليه الرعدة والقشعريرة ٣٠٧ فتمنى اذ ذاك ان يكون له عضدٌ يقوم بناصره فاستصرخ اباهُ مكسيميانوس لياخذ بيده فبرز ذلك الشيخ الهرم المطاع من كنه حيث هو قسرًا عنه وكدح في ان يطرد حرينة ديوقلسيانوس من الحديقة التي كان يحترث ارضها في سالونية فذهب جهده في ذلك درجَ الرياح

ولما شعر الجنود بان مكسيميانوس امتطى صهوة الملك مرة اخرى شقوا عصا الطاعة لسفاريوس واتوا امامهُ صاغرين وفتك ذلك الهرم بسفاريوس . وفي الحين ذاته لما ايقن ان غالبريوس ثابت القدم في مضمار العراك زفَّ ابنته فوستا الى قسطنطين رجاءَ ان يحتازه له نصيرًا . فدرى بذلك غالبريوس فاقام ليسينيوس امبراطورًا يضافره على مقاومة العدوّ فوغر من ذلك مكسيميانوس حسدًا لانه كان متقلدًا المرتبة القيصرية التي لها حق الاولوية في الحصول على مدرجة الملك اكثر من غيرها من المناصب الرفيعة ولذلك تعسر عليه الخضوع لليسينيوس . فجاهر بالعصيان واستمرَّ مستقلاً في الشرق ولم يبق لغالبريوس من حكمه سوى الليريا التي تخذها ثمالاً وملجأ بعد ان طرد من ايطاليا . اما

الشعوب الذين تلبثوا متمكنين في الغرب فقد دانوا لمكسيميانوس وابنه مكسانس وصهره قسطنطين بيد ان مكسيميانوس لم يرغب في ان يشاركه في الملك احد اولاده او سواهم ولذلك عنّ له ان يوقع بابنه مكسانس فقصده الى رومية لينتزعها من يده ويطرده منها . فحبط بذلك مسعاه لانه اصبح مظهورًا به لا ظاهرًا ولما اضافه قسطنطين في غاليا استبر غور خلمه فرآه منطويًا على الكشاحة وجانحًا الى الغدر والخديعة وبعد ان كثر العدوان وفشا التجني عوّل مكسيميانوس على ان يحتاز ابنته فوستا امل ان يستفزها على بعلها . فعلقت تداهيه وتواريه وهو غير عالم بما استبطنت فلما بطن قسطنطين ما ازمع عليه مكسيميانوس من قتله اضجع احد خصيته في سريره تحقيقًا لذلك فوثب على الخصي مكسيميانوس وقتله فايقن اذ ذاك قسطنطين منه الغدر والوقيعة فاجهد النفس في قتله فعلم مكسيميانوس بذلك فتخير الانتحار ٣١٠ فدرى بذلك مكسانس مولوده فجد في ان يثأر اباه فعالن بالعداوة قسطنطين واحربت عليه الحرب شديدة فجند قسطنطين جيوشه وزحف على رومية ٣١٢ واكبّ على الثرى تماثيل مكسيميانوس وديوقليسيانوس فذهب قلب ديوقليسيانوس من ذلك شعاعًا واشرف من كثرة النكد والغمّ على الهلاك فمات واهن الجسم كئيبًا . واما رومية فقد جدّت في ذاك الآن ان تلاشي الدين المسيحي ولذلك اخذت تجهد في سبيل اضمحلاله فكان جهدها وسيلة لتقويته وتشييده وقد روى المؤرخون ان غاليريوس كان محندًا للابتداع واصلاً للفساد وللاضطهاد اللذين طرآ على الدين المسيحي اخيرًا . فانه قبل ان الجأ ديوقليسيانوس الى الاعتزال عن منصب الملك بسنتين بعثه على ابراز القسوة ضد المسيحيين وبذل الهمة في سبيل اعناتهم وارهاقهم وانتهاك حرمة مذهبهم ٣٠٢-٣٠٣ واما مكسيميانوس فقد كان يانف منهم كل الانفة ولذلك لم يكن ليندفع عن اذلالهم والايقاع بهم . ولقد طالما اثار عليهم اولي الامر والسائقين ومع ذلك كلهِ فلم يصل الى ما وصل اليه مكسيميانوس وغاليريوس من الخشونة والعتو فانهما كانا يتهمكان كل يوم في اختلاق ذريعة يتذرعان بها الى الاجحاف بالمسيحيين وتأويبهم وحملتهما الخلة الدنيئة على خرق عرض العذارى الابكار اللاتي لم يباده الضهد عفافهنّ اقلّ من ايمانهنّ . وجدّ كثيرًا في البحث عن الكتب القدسية قصد ازالتها واذهاب اثرها وبناء عليه لم يكن المسيحيون يجترئون على ان يدخلوها الى مساكنهم او نتداولها ايديهم ولم يتوالَ على ذلك الاضطهاد الرائع حولاً الا تعزز البغي والفساد ولبث المسيحيون يعتصمون بالصبر

مستمسكين بالعروة الوثقى . ولما راى الشعوب ان لهم في الحيوة رمقًا تدلهت قلوبهم دهشةً وتحيرًا وعلموا انهم على الحق المبين فهرعوا اليهم سرابات يتدينون بدينهم وبعد ذلك لم يبقَ لغاليريوس سبيل يمكنهُ من الظهور عليهم فعبث بهِ داء عياء القى بهِ الى التهلكة فمات تائبًا كانطيوخوس الى الله متابًا كاذبًا ٢١١ واما مكسيمينوس فقد استمر عاتي القلب يعنت المسيحيين ويبرح بهم اليمًا وارعوى قسطنطين الكبير الظافر عن غرتهِ وتاب الى بارئهِ صالحًا فتدين بدين المسيح جهارًا ٢١٢

العصر الحادي عشر

في الكلام عن قسطنطين او سلام البيعة

ان قسطنطين الملك قد جنح الى الدين المسيحي مستمسكًا بهِ سنة ثلاث مائة واثنتي عشرة من ميلاد الرب فانه لما اخذ يناصب ماكسانس في رومية قافلاً عليه ابواب المناص والمفرّ بدا له في الجو امام اعين الجميع صليبٌ نورانيٌّ مكتوبٌ عليهِ ان النصر بيدهِ مأتاهُ وشيكٌ فايقن ان ذلك عدةٌ من الله له وراهُ في الحلم ايضًا فلم يكن من بعده مسترئبًا ولما غدا بعد ليلهِ على الحرب قضى له العليُّ حسب وعدهِ فافازه بالنصر على العدو الالدّ فملّص رومية من عبودية مكسانس والبيعة من اضطهاده ولدن ذلك رفع الصليب فوق هام الشعوب كانه مترسةٌ تقي الدولة الرومانية وبنيها من غوائل الدهر وحدثانهِ ٢١٣ فلم يمضِ على ذلك حينٌ فصبر الاَّ فهفر ليسينوس المخازُ الى قسطنطين مكسيمينوس وافضى بهِ الى مقاساة الوبل والثبور فكانت نهاية اجلهِ كنهاية اجل غاليريوس فجعل للبيعة بعد ذلك امانًا وطانينة واستوثق بنوها منهُ لنفوسهم فخطرت بقسطنطين الذي لم يفتهُ ان ارتفاع الاخطار باقتحام الاخطار . ودان له الاستظهار والنصر ايان رحل وايان حل وقمع البربر بباسه وبأس اولاده . اما ليسينيوس فقد امسك الشحناء في قلبهِ وتربّص لفرصتها فاستحين واخذ يباده البيعة بالضهد الذميم فنهض اليهِ قسطنطين واذكى عليه نيران الحرب برًا وبحرًا فاذله والجاه الى ان يهوي عن سرير المملكة الرومانية ومن ثمةَ لم يلبث ان عبثت به براثن المنية ٣٢٤ .

وفي ذلك الحين التأم المجمع الاول العام في مدينة نيقية ٣٢٥ من بلاد بيثينية بامر

من الملك قسطنطين فضوى اليه ثلاثمائة وثمانية عشر اسقفاً انيط بعهدتهم امر البيعة. فحرموا اريوس الكاهن بجحده الوهية ابن الله وانشأوا قاعدة الايمان بان اجمعوا على ان الاب والابن سيّان في الجوهر. فكان كهنة البيعة الرومانية الذين بعث بهم البابا القديس سيلفستروس لهم صدر المقام في ذلك الالتئام وكان من زمرة وكلاء الكرسي الرسولي احد مؤرخي اليونان القدماء وكان المجمع منعقداً تحت رئاسة اريوس اسقف غوردو الشهير فتصاغر امامه قسطنطين راضخاً لاحكامه معتقداً انها منزلة من لدن الله. اما الاريوسيون فقد اصرّوا على غيّهم وضلالهم كتماناً وتظاهروا بالرضوخ امام الملك يصانعون ويداهنون

ومن الامور المقررة ان المملكة كانت في عهد قسطنطين رائعة في بحبوحة الامن والارتياح. وبينما كان هذا الملك يظبُ على ادامة الطمانينة سائدةً في احياء المملكة باسرها اذ دبت الفتنة والمشاحنة بين سراة قصره فان فوستا زوجته اتهمت ٣٢٦ كرسبوس ابن ضرّتها بانه جدّ في ان يعاهرها فحنق جدّاً من ذلك ابوه وطرح بالرحمة الوالدية جانباً وعامله بالقسوة اشدّ معاملة واما هي فقد بدا لدى الجميع إفكها وعلموا انها اختلقت لزوجها ذلك النبأ الفاحش اختلاقاً فلم تتقادم عليها الايام الانالت جزاء ما فعلت فانها ولجت يوماً الحمام لتستحم فقدر الله عليها ان تموت فيه خنيقةً فعار ذلك الامرُ قسطنطين فاستحيا امام القوم لذهاب مكرها وخداعها بين الخاصة والعامة بيدَ ان ذلك لم يخفض مقامه فان والدته غنّمته من الفضائل ونلته من الشرف ما ينسيه ما قرفته به فوستا طول ايامه فانها اكتشفت في خراب اورشليم القديمة عود الصليب الذي تكاثرت عجائبه والقبر المقدس وقد ازان قسطنطين وهيلانة مدينة اورشليم الحديثة التي كان قد اقامها اوريانوس والمغارة التي ولد فيها مخلص العالم وكل المحال المقدسة بهيكل حسنة. وبعد ان توالت على ذلك الحين اربعة من الحوول رم قسطنطين مدينة بيزانس ودعاها القسطنطينية وجعلها مركزاً ثانياً للدولة ٣٣٠ واما البيعة فقد كانت في عهده مضروباً عليها سرداق السلام والطمانينة لكنها لم تدم لها تلك الحال لانها كانت في بلاد فارس عرضةً لمناصبة المبتدعين. وكثيرون من بنيها استعز بهم الله مشهدين ٣٢٦ – ٣٣٦ ولما كان حريصاً على الشوؤن العظيمة مترفعاً عن الخسائس بعثه الشهامة على ان يكظم غيظ صابور ملك الفرس عن البيعة وبنيها وبدينه بدين المسيح فاصبح كانه ارتكب امراً غيرَ معلوم الفائدة لان جدّه في ذلك الشأن ذهب عبثاً

بيد انه استمر بمخلص السعي في ان يهد للمسيحيين سبيل الامان فلم يتمكن الامن ان يجعل لهم ملجأ في دائرة حكمه . واستاثرته رحمة المولى ٣٣٧ راضيًا عنه لما جدّ في سابلة البرّ والحق عفّ الازار لايشوبه وزر ولا شين ولكنه قبل ان اغتالته المنون شطر المملكة ثلاثة اجزاء بين اولاده قسطنطين وقنسطانس وقنسطانت فلم تطل مدة احكامهم حتى ذكت بينهم نيران المكافحة والفتن فان قبسة الحرب أُضرمت بين قسطنطين واخيه قنسطانت لانهما اختلفا على بعض تخوم في مملكتيهما ٣٤٠ فدارت حينئذٍ على قسطنطين الدائرة وقتل في تلك الحرب المائلة . وكما ان قنسطانت كان يكاشح اخاهُ قسطنطين ويتمنى له ما اوصله اليه كذلك كان يكاشف اخاهُ قنسطانس بالبغضاء فانه لما رآه يلمُّ بايمان نيقية ويبادي المتهافتين عليهِ بالاضطهاد والارهاب برز محاميًا وعلق بعالنه وعيدًا واغتيالاً ومع ذلك فان القديس اثناسيوس بطريرك الاسكندرية والحامي عن ايمان نيقية كان قد ضاق ذرعًا لكثرة تجشمهِ المشاق الويلة فعجبت البيعة من ذلك عجبًا عجابًا . وطرده قنسطانت من كرسي البطريركية مهانًا ممتهنًا . لكنما البابا جوليوس الاول أمر بهِ ان يعود الى مقرهِ تطبيقًا للقانون فصدّق على الامر قنسطانت فانثنى البطريرك الى ابرشيتهِ راجعًا واما ذلك الملك الصالح فلم يحيَ على الارض زمانًا طويلاً بل استعزّ بهِ الله بان قتله ماغنانس الجائر غدرًا ٣٥٠ فلما علم قنسطانس بذلك أثرَ على ان يقتله بان يثأر اخاه فنازله وضيق عليهِ كثيرًا فانتحر حينئذٍ ماغنانس ان ينتحر ٣٥٢ ولما علم الاسقف فالانسيوس الاريوسي ان عسكر ماغنانس الخاتل سينتشعثون مبددين استنادًا على ما علم من بعض اخدانهِ المخلصين اقبل على الملك واخبره ذلك مدعيًا انه استوحى الله مستصرخًا فاوحى اليهِ انه ياتي قنسطانس بالفتح المبين وفرجٍ من عندهِ قريب . فذعن له الملك غير عالمٍ انه افيكٌ مصانع وواطأهُ على تلك النبوة المائنة وتدين اذ ذاك بدين الاريوسيين واهبط الاساقفة الكاثوليكيين عن مناصبهم وصوّب سهام غيظهِ وحنقهِ على البيعة . واما البابا ليباريوس فقد اوهن تبرّمه وقناطته ثباته ٣٥٧ وقد كان اوزيوس الشيخ عضدًا للبيعة فبرّحت بهِ العذابات الموبقة فأُرغم على ان يكون جاحدًا واما مجمع ريمينية فبعد ان كان قوي العزم اذعن بالخديعة والجور ٣٥٩ ولم يكن في ذلك الحين شيءٌ يدور على محور القانون بل كان القانون ما يرتئيهِ الملك وما يرغب فيه . واما الاريوسيون الذين كانوا تائهين في تلعات الضلالة ويجعلون كل شيء طوع

اهوائهم واغراضهم فلم يكونوا في ما ابتدعوا متوافقين بل كانوا كل يوم يغيرون قاعدة ايمانهم بقاعدة اخرى تصبو اليها نفوسهم لكنما ايمان نيقية لبث مستمرًا قسرًا عن المفسدين وجاهد في سبيلهِ القديسان اثناسيوس وايلاريوس اسقف بواتيه ففازا ودوخ صيتهما كل الامصار والاقطار

واستمر قنسطنس عاكفًا على تعزيز شؤون الاريوسيين ونابذًا وراء ظهره شؤون المملكة. ولذلك كانت تنتكس اعلام قادتهِ بمنازلة الفرس في انحاء متباينة. وزحف الالمانيون والفرنسيس على غاليا واندفقوا عليها من كل جانب فدفعهم بوليانوس احد انسباء الملك وذادهم عن المملكة ومن ثمَّ ظهر عليهم منتصرًا ٢٥٧-٢٥٨-٢٥٩ وهبَّ الملك من سبات غفلتهِ واخذ يقمع السرمانيين ويخطي نحو الفرس ٣٦٠ وهناك عنا بوليانوس واستكبر عليهِ ثائرًا ومات قنسطنس ٣٦١ وحكم بوليانوس غير حادل على الرعية لكنهُ علق فيما بعد يعني المسيحيين ويلقي عليهم عبء الاضطهاد وثابر على تعزيز الشقاق ومنع ابناء المسيح ركوب متن المناصب ومطالعة العلوم ولقد طالما تسنن باعمال البيعة رجاء ان يطعنها بسلاحها وكان لا يغالي في العذابات ولا يعنت المؤمنين الأ بحجج خارجة عن دائرة الدين واطال المسيحيون مدة الرضوخ له. واما السؤدد الذي كان يتهافت على الحصول عليه فقد اصبح وسيلة لهلاكهِ ٣٦٣. ولما ولج بلاد الفرس واخذ يتجول فيها دون تبصر في ما يحدث بهِ من الملمات والكوارث قضي عليهِ بان يصبح قتيلاً فخلفه يوفيانوس وكان رجلاً عزيز الجانب مسيحيًا فسرح طائر بصره في احوال المملكة المتغايرة فرآها في حالة الياس والاضطراب فابرم صلحًا مع الفرس الجأته الضرورة اليهِ

وبعدان انشبت بهِ اظفار المنية نهض والنتيانوس وتقلد قيادة الجيش وسعر حينئذٍ نار الحرب على العدو ٣٦٦-٣٦٧-٣٦٨-٣٧٠-٣٧١ الخ واستصحب معهُ طول مدتها ابنه غراسيانوس وهو يافع السن رجاء ان تحكمهُ التجارب وتحنكهُ ورعى النظام الجندي وقوي على البربر فذللهم وبنى على ثغور المملكة معاقل منيعة محصنة. وناضل في الغرب عن ايمان نيقية بيدَ ان اخاه والنس الحريف له في الولاء قد انتهك حرمة الدين في الشرق ولما عسر عليه ان يحتاز القديسين باسيليوس وغريغوريوس النزينزي اوان يلجئهما اليهِ قنط من ان يظفر بملاشاة دين نيقية وقد اضاف بعض الاريوسيين الى قاعدة

دينهم بدعاً خرافية تبعث على الضلالة والغرور فان كاهناً منهم يقال له اهربوس نما اليه الاباء القديسون ابتداعاً وتشيعاً فانه لم يفرق الاسقفية عن الكهنوتية وفي يقينه ان الصلوات والقرابين التي تضحى عن انفس الموتى ليست الا كالهباء المنثور لا تعود عليهم بادنى جداء ومنفعة وان الامساك عن المطعوم انْ هو الا عبوديةٌ للشريعة وليس على المرء من جناح او حرج ان لم يصم بل ذلك منوط باختياره. واستمر حيناً الى ان ابرز الى الوجود القديس ابيفانوس كتابه في الابتداع والمرطقات الذي رفض به تعاليم اهربوس كل الرفض. واما القديس مرتينوس فقد اصطفي اسقفاً على مدينة تور وضاع شذاء قداسته وعجائبه في العالم باسره طول حياته وبعد موته. واما الملك والنتينيانوس فتوفاه الله برحمته (سنة ٣٧٥) باثر تلاوته خطبة عنيفة تلمُّ باعداء الدولة فحنقة الذي كان يهيل سواهُ من المتشوفين اليه عاد عليه باليأس والتعاسة وخلفه غراسيانوس الذي لم يلبث ان راى اخاه الاصغر والنتينيانوس الثاني متدرجاً الى صهوة الملك فقرت بذلك عينهُ ولم يوغر عليه صدره حسداً وبغياً مع ان ذلك المترشح الى تلك السدة الباذخة لم يكن له من العمر سوى تسع سنوات وقد كانت والدته يوستينا الذائعة عن الاريوسيين تقوم بسياسة الدولة اثناء صغره. وفي ذلك الان قد كانت نظراً حوادث تبعث على الدهشة والعجب فان الغطط (كذا يسمى القوتيون) ثاروا على الملك والس او فالانس ٣٧٧ وبعد ان كان الملك يرهق الفرس ويعنتهم عدل عن ذلك وعكف على تصغير نفوس الغطط المستكبرين وتذليلهم وانبرى غراسيانوس الى مضمار القتال قائماً بناصره بعد ان اوقع بالالمانيين واسعهم تبريحاً وارهاباً. بيدَ ان والس طمع ان يحتال للنصر مفرداً ٣٧٨ فاسرع الكرة على العدو فقتل قرب ادرنة وحرقه الغطط الظافرون في القرية التي تخذها موئلاً وملاذاً. ولما عاركت الحادثات غراسيانوس وناوشته النوائب كلٌّ ونصبه الهم كثيراً فاشرك في مملكته ثيودوسيوس الكبير فاناط بعهدته الشرق ٣٧٩ فكسر حينئذٍ الغطط وقمع البربر واسعهم كرباً والتياعاً. واما الامر الذي رآه ثيودوسيوس ان لابد له منه ارهاقه المراطقة المكدونيين الذين جحدوا الوهية الروح القدس فثبط اقدامهم عن السعي في طريق الغرة والضلال وحكم اذ ذاك مجمع القسطنطينية انهم مفسدون ٣٨١ ولم يكن ذاك المجمع ملتئماً الا من ابناء الكنيسة الشرقية واما رضوان الغربيين عنه وقبول البابا دماسيوس بو جعلاه مجمعاً ثانياً عاماً

وبينما كان ثيودوسيوس قابضاً على عنان الدولة وبنود النصر تخفق فوق هامتهِ كان الملك غراسيانوس الذي كان يضاهيهِ بالتقى والبسالة يغادره جنوده الذين كانوا موءلفين من الاجانب . فاندفع اليهِ مكسيموس العاتي وقتلهُ وكان باسلاً ابيّ النفس صدوقاً ٣٨٢ فاكتأبت عليهِ البيعة والدولة كلّ الاكتئاب لكونهِ مخفض الجناح وباذخ الهمة في مبارزة الابطال واما مكسيموس فقد حكم في بلاد غاليا يعثو ويطغى ولاحت عليهِ سمات الرضوان عما دخل في حوزته ٣٨٧ – ٣٨٠٦ واصدرت الامبراطورة جوستينيا باسم ولدها لاتينانوس المغبون في حياته اوامر ماكلها المسارعة لاسعاد الاريوسيين والقيام بناصرهم ولم يكن اسقف ميلان القديس امبروسيوس يقاويها الاّ بالتعاليم الحقة والصلوات وطول الاناة وبهذه الذريعة تذرع لان يقي للبيعة البيع التي كان في عزم المبتدعين ان يستولوا عليها واحتاز الملك الشاب اليها . وفي ذاك الحين كان مكسيموس الجائر على اهبة تاجيج الحرب ولم تعثر الملكة جوستينيا على احدٍ تستوثق لنفسها منه سوى القديس الاسقف الذي كانت تعامله معاملة العصاة المتمردين . فبعثت بهِ الى الظالم فقابلهُ بما يوءول لعدم النجاح ولذلك اركن ڤالنتينيانوس الى الفرار مع امهِ وفتح مكسيموس رومية ووسع فيها طرائق الغواية وعبادة الاصنام قصد ان يرضي مجلس الندوة الذي كان اكثر اعضائه من الوثنيين ٣٨٨ وبعد ان تبوّأ سرير الغرب وفكر ان ذلك غنيمة باردة ساوره ثيودوسيوس يضافره الفرنسيس وظهر عليه في بنونية وضيق عليه في أكيلية محاصراً وانحدر اليه انصاره المتجيشون وقتلوهُ .

ولما اصبح متسلطاً على الدولتين اناط دولة الغرب بعهدة ڤالنتينيانوس فلم يرعها زماناً مديداً لانهُ غالى اولاً في رفع مقام القائد الافرنسي اربوغاست ثم اسفلهُ الى وهاد الخيبة فانهُ كان بطلاً دعيساً شهماً مقداماً وانهُ كان لا يتقاعد عن الجد في تسنية شوءون الجيش فاهبطهُ عن منصبه . وبناء عليهِ وثب على ڤالنتينيانوس وهراق دمهُ واقام في متابعته ايجانيوس الذي لم يكن لهُ من المآثر سوى الخطابة ٣٩٢ وقد طرأت هذه الفعلة الدميمة في غاليا بالقرب من مدينة فينا فبكى عليهِ القديس امبروسيوس كثيراً لانهُ طالب اليهِ قبل اغتياله ان يعتمد بيدهِ غيرَ انهُ لم ييأَس من ارتياح نفسه عند ربهِ فان ثيودوسيوس فاز بالنصر على ايجانيوس باعجوبة بينة لدى الابصار وطمس الالهة الكذبة التي جدَّد عبادتها فعند ذلك أُلقي القبض على ايجانيوس . ولكثرة حنق الشعب منهُ قد موهُ قرباناً

عن نفوسهم وكادوا بذلك انصارهُ المخردين ٣٩٤ واما اربوغاست الجبار فلما رأى الثائرين يطأطئون للملك الظافر ويرضخون شق عليهِ الامر وآثر الانتحار على ان يرضخ لاحكامهِ فمرح ثيودوسيوس في الارض واستأثر بالولاء واصبح اعجوبةً في العالم كلهِ فانهُ عزز دعائم الدين الحديث وثبط اقدام المخرفين وصدَّ الوثنيين عن ان يقدموا محرقاتٍ وقرباناً وشدد العزائم والهمم والجأ الدولة على ان تعيش بالاقتصاد واعترف بجرائمهِ الكبرى وتاب الى الله نادماً ٣٩٠ واصاخ للقديس امبروسيوس معلم البيعة الشهير الذي ونبهُ على وصمة وجدت فيه هي العيب واستمر مظفراً طول حكمهِ ولم يكن يضرم قبسة الحرب الأمتى الجيء الى ذلك فاستظل شعبهُ تحت لوائهِ في رغد العيش وغضارة النعيم ومات سعيداً تذهب ذكرى امانته في اقاصي الارضين وتتداول الالسنة مآثرهُ وانتصاراته الفائقة ٣٩٥ .

وفي عصرهِ اي سنة ٣٨٦-٣٨٧ جدَّ كاهن كان مزوياً في مغارة بيت لحم يقال لهُ ايرونيموس في ان يفسر الكتب المقدسة ولذلك عكف على مطالعة التواريخ الدينية والدنيوية التي من وسعها توضيح الكتاب المقدس وتخذ النسخة العبرانية سنداً لهُ فالف ترجمة الكتاب المقدس المعروفة لدى البيعة باسم المؤلفات

وبعد ان كانت الدولة الرومانية في عهد ثيودوسيوس قوية العزم عزيزة المنال اهوت في عهد ولديه الى دركات الضعة والخمول فان اركاديوس وهنوريوس زاحماها واذلاها فاستولى الاول منها على الشرق والثاني على الغرب وكان كلاهما يحمل اعباءهما وزيراهما ويسعدانهما بالراي والتدبير ومع ذلك فلم يحركا سكون السلطة الا لمارب نفسية . واما روفينوس واوستروبوس فقد كانا نديمي اركادوس بالتواتر فاتخذا الشرَّة ديدناً لهما فهلكا معاً ولم تستتم الاحوال بعد موتهما في عهد هذا الملك الواهن العزم فان امرأته اودوكسيا اغرته بان يضطهد القديس يوحنا فم الذهب بطريرك القسطنطينية وسناء الشرق ٤٠٣-٤٠٤ فانحاز البابا اينوسنتوس والغربيون الى ذلك الحبر العظيم وعلقوا ياخذون بيدهِ ويعززونه على مناواة الصعاب ويضافرونه على ثيوفيلوس بطريرك الاسكندرية الذي كان وسيلةً لانتشار جور الملكة واعتسافها . وماد الغرب اضطراباً لكثرة ازدحام البرابرة ٤٠٦ الخ فان رجلاً وثنياً من نسل القوطيين يقال لهُ رداغيز حمل على ايطاليا . والاندلسيون الذين هم قبل غوتية واربوسية تبوئوا جزءاً كبيراً

من غاليا وامتدوا في اسبانيا وارغم الارنك ملك (الفيزيقوسيين الاربوسيين هونوربوس على ان يغادر له تلك الاقاليم الرحبة التي كان الاندلسيون قد تولوا عليها . واما ستيليكون الذي كان قد سئم من عظم البربر فقد كان آونةً يناكرهم فيظهر عليهم وبصانعهم وآونة يواثقهم ثم يكاشحهم بالغلا والبغضاء وقد كان يجعل كل شيء ضحية لمآربه الخاصة ومع ذلك فلم يكن ينفك برعى المملكة قصد ان تكون خلسة لحوله وسلطانه وفي ذاك الحين استأثرَ الله بالملك اركادوس ٤٠٨ وقبل موته اقام ابنه ثيودوسيوس عند ابزد يجردوس ملك الفرس ووكل اليه امر تثقيفه وهو في سن ثماني سنوات ولم يرتاءي ذلك الاَّ لظنه ان الشرق ينذُ عن ان يكون فيه اناس لهم الاهلية لتثقيفه مع ان بيلكاريا شقيقة هذا الوليد البضّ كانت فيها الاهلية لان تقوم باعباء تثقيفه فعكفت عليه اذ ذاك واسبلت عليه سجاف الصيانة والرعاية واسجمت عليه سيول البر والتقى . واما حكومة هونوربوس فقد ناوشها الدثار لان هذا الملك اجحف بوزيره ستيليكون فاهرق دمهُ . واضاق ذرعاً عن ان يرى له وزيراً يليق لخابته ولذلك اشرف ملكهُ على الاضمحلال فان هلاك ذلك الوزير الموازر الجأ قسطيطين الى ان يثور متمردًا على المليك فنزع من يده غاليا واسبانيا ٤٠٩ وحمل الاربك ملك القوزيقوت على رومية بجنوده ففتحها واستاق منها الاسلاب ٤١٠ واما اتولف فقد كان عنلاً جائرًا يفوق الاربك حنقاً وغيظاً ولذلك اعاد على رومية النهب والسلب واستاق منها الغنائم ولم يكن يفكر الان يمحو من البسيطة الاسم الروماني لكنما ذلك لم يكن قدرًا مقدورًا فان بلاسيديا شقيقة الملك هونوربوس زفت اليه فهذه الملكة التي اصبحت لديه اسيرة علقت حينئذٍ تكدح في ان تدمث اخلاقه السمجة وتسترضيه على الرومانيين ٤١٤ فابرم القوتيون الصلح مع الرومانيين وامتنوا وثاق الاخاء ٤١٢ وقطنوا بلاد اسبانيا ٤١٥ يرعون لهم في بلاد غاليا الاقاليم الدانية لجبال البيرانه من المكائد والمكاره . وقد تم كل ذلك بحكمة ملكهم فاليا ودرايته وابدت حينئذٍ اسبانيا ثابتة القدم ولم تطرأ على ايمانها شائبة الزيغان والخلل في عهد هؤلاء الولاة الاربوسيين

وفي ذاك الحين زحف شعبٌ من جرمانية يقال لهم البرغونيون على الانحاء التي تداني نهر الرين وتبطنوا فيها تبوُّءا بالحول والمصال واخذوا من ثمة يمتدون رويدًا رويدًا في البلدان التي لم تزل تلقب باسمهم واما الافرنسيس فلم تاخذهم سنة الغفلة عن مصالحهم واغراضهم الذاتية ولذلك حملوا على نفوسهم ان يفتحوا بلاد غاليا فاقاموا مزمون

بن مركومير عليهم ملكاً ٤٢٠ ونهضت حينئذٍ في عهدهِ فرنسا التي هي اقدم الممالك واخطرها

وتوفى الله في ذاك الحين هونوريوس التعيس ٤٢٣ دون عقب غير متبصرٍ في حالة المملكة واقام ثيودوسيوس ذا قرابته ڤالنتينيانوس الثالث ابن بلاسيديا ملكاً ٤٢٤ ووكل امرهُ الى والدته ريثما كان صغيراً ولقبها بملكة .

وفي ذاك الحين جحد سليستويوس وبلاجوس ٤١٢ الخطيئة الاصلية والنعمة التي بها يصير المرءُ مسيحياً فشعر مجامع افريقية بما مكرا فاصدر عليهما القضاءَ مبرماً ٤١٦ فصدق على ذلك الحكم البابوات القديسون اينوسنسيوس ٤١٧ وزوزيموس وسلستينوس واذاعوهُ في اقطار البسيطة وامصارها اما القديس اغوسطينوس فقد ضرب على ذينك الكافرين سرادق الدحوض والبطلان وانار البيعة بتعاليمه الفائقة واسعده تلميذه القديس بروسبر على اصمات نصف البلاجيين الذين نموا ابتداء التبرئة والايمان لقوة الارادة الاختيارية وحدها

ولا يخفى ان ذاك العصر قد كان يشوه وجه الدولة ويعود عليها بالوبال والتنكيل بيد انه ولو ساد فيه الابتداع وكثر الضلال والعثور فقد كان فيه الدين المسيحي مترفعاً الى درجات المجد منزهاً عن شوائب العتو والفساد فان الرزايا والخطوب المدلهمة لم تقوَ عليه ولم تصبه منها ملمة وقد كانت البيعة تعتزُّ بملافنتها العظام وتزيد بهم كمالاً وبناء عليه فحدث كل ما نشأ من الابتداع والتشيع وبعد ان كثر الاضطهاد اظهر العلي فخر شهدائه فان التواريخ طرًّا والمولفات قد وعت العجائب الفائقة التي كان الله عزَّ وجلَّ يبسطها على الارض باستصراخهم وقبورهم المكرمة

واما ڤيجيلانس ٤٠٦ الذي طالما تصدَّى لتلك العقائد السائرة فاحبط القديس إيرونيموس سعيهُ ولبس عليه المسالك فاعتسف عن تتمة اعماله ولبث اذ ذاك الدين المسيحي يثبت كيانهُ ويمتدُّ في كل صقعٍ ونادٍ .

واما الدولة الغربية فقد كانت موشكةً ان تزول لان الاعداء كانوا يندفعون اليها ويصادمونها كل الصدام وقادتها كانت تلعب بهم نشوة الحسد فان بونيفاسيوس والي افريقية مكر به اهاسيوس وخدعهُ لدى بلاسيديا فاشتبهت في امره ٤٢٧ فبعد ذلك استدعى اليه ذلك الوالي جنسريك الاندلسيين من اسبانيا بعد ان كان القوطيون

قد طاردوهم منها وندم من ثم على ذلك الاستنجاد ولات ساعة مندم . فان الاندلسيين حملوا لدى ذلك على افريقية ونزعوها من الدولة الرومانية فتجشمت حينئذٍ البيعة المشاق وعبثت بها ايدي الاريوسيين العتاة واشهد نفرٌ عظيمٌ من ابنائها ٤٢٩ ونشأ من ذلك بدعتان سيئتان فان نسطوريوس بطريرك القسطنطينية ذهب الى تجزئة اقنوم المسيح . وبعد ان مرَّ على ذلك عشرون عامًا ذهب افتشيوس (ويسمى اوطيخا واوطاخي) رئيس احد الاديرة الى مزاج الطبيعتين فانبرى القديس كيرلوس بطريرك الاسكندرية الى نسطوريوس وفندَ رأيهُ واصدر عليه الحكم البابا شلستينوس ٤٣٠ فنفذ اذ ذاك مجمع افسس وهو الثالث العام قضاء البابا المنوه عنه واهبط نسطوريوس عن كرسيه مهانًا وثبت امر البابا شلستينوس الذي دعاه اساقفة المجمع في تحديدهم ابام ونقرر عند ذلك ان مريم العذراء هي والدة الله . وذاعت تعاليم القديس كيرلوس في اقاصي الارض وبعد ان ابدى الملك ثيودسيوس في بادىء الامر قليلًا من التردد في ما ارتاه المجمع دان له صاغرًا وابعد نسطوريوس . واما اوطيخا الذي لم يتمكن من مدافعة هذا الابتداع الا بسقوطه في في طرف اخر ٤٤٨ فلم ترفضه البيعة باقل عزمٍ من الاول وقضى البابا لاون عليه واذاع ضده رسالةً تلقاها العالم كله بالتكرمة وحسن القبول . وقد حرم المجمع الخلكيدوني وهو الرابع العام ٤٥١ اوطيخا وديوسقوروس بطريرك الاسكندرية الذائد عنه وكان للبابا في هذا المجمع الرياسة اعتبارًا لسمو تعليمه وسلطة كرسيه وبعث المجمع اليه برسالة يوخذ منها انه كان بواسطة وكلائه مترأسًا على المجمع كالرأس على اعضائه وحضر الملك مرشيانوس نفسهُ الى المجمع اقتداءً بما فعل قسطنطين الملك وقابل قضاء المجمع بالرضوان وكمال الوقار

وقبل ذاك الحين بقليلٍ من الزمن كانت بولشاريا جعلت مرشيانوس ملكًا بتزوجها به لانها بعد ان اغتالت المنون اخاها انصرفت اليها مرتبة الملك لانه مات دون عقب فبناءً على ذلك انيطت السلطة بيد مرشيانوس وتقيدت به دائرة الولاء . وقد تقرر ان فضائله بعثته على تلك المأثرة السامية وفي غضون ذينك المجمعين ذهب بين الناس صيت تاودوريطوس اسقف قورش ولو لم يكتب ما كتبهُ ضد القديس كيرلوس لكانت تعاليمهُ منزّهة عن المعائب الاان ذلك لم يكن صادرًا منهُ عن سوء مأربٍ بل كان عن طيب سريرة واستمر اسقفًا كاثوليكيًا

واما بلاد غاليا فاخذت تؤدي للافرنسيس رضوخًا وكان اهاسيوس قد بارى فرمون وكلوريون الملقب المنسدل الشعر بقصد ان يدافع عن غاليا لكن مهروفي كان اكبر حظًا بنواله راية الفوز في وشك ذلك الحين حيث كان الانكليز (شعوبٌ سكسونية) يتبوئون بريطانيا العظمى ودعوها باسمهم وشيدوا ممالك جمة

وفي الوقت نفسهُ كان المونيون (شعوب من جهات بالوس مهوتيد اي بحرازوف) يعثون في الارض ويخرقون بكثرة جيوشهم الزاحفة . وقد كان في مقدمتهم ملكهم اتيلا الرائع . واهاسيوس الذي استظهر عليهِ في بلاد غاليا عسر عليهِ صدهُ عن دثار بلاد ايطاليا ٤٥٢ فارعب القلوب بشدة حنقهِ وغيظهِ فولى كثيرون من امامهِ وتخيّر واجزرُ الادرياتيك ملجا وثمالاً وتشيدت حينئذٍ مدينة البندقية في وسط المياه وفاق القديس البابا لاون قوة على اهاسيوس والجنود الرومانية والجأ هذا الملك العاتي الوثني على ان يؤدي له الحرمة والمكرمة وبذلك بعدت عن رومية غائلة الدمار ولكن لم تطل عليها فسحة الارتياح فان ڤالنتينيانوس ملكها طوّح بنفسهِ الى الفساد واصبحت امارة بالسوء فانهُ راود امرأة مكسيموس عن نفسها وهتك عرضها فشعر بذلك مكسيموس فحنق اشدَّ الحنق وطبنَ ذلك في صدرهِ واخذ من ثم يداهيهِ ويواربهُ الى ان حمل هذا الملك الاحمق على ان يمت اهاسيوس وغادر الدولة الرومية تندب مجنها . ٤٥٤ واما مكسيموس الذي كان علة هذا القتل فاثار اصحابه ان ياخذوا بدمه فقتلوا الملك ومن ثمَّ صعد مكسيموس على صهوة الملك وارغم الملكة اودوكسيا ابنة ثيودوسيوس الشاب على ان تكون لهُ زوجةً فعند ذلك ترامت على جنسريك مستنصرةً رجاء ان تتملص من يديه فاصبحت حينئذٍ رومية فريسةً لاجلاف البربر ذوي الخشونة . فتصدّى له القديس لاون وصدهُ عن ان يزيل كل شيء بالسيف والنار واقتحم الشعب على مكسيموس ومزقوه كل ممزق فكانت هذه الفعلة وحدها سلوانًا لهم على ما طرأ من الملمات والكوارث ؛

وقد كان الغرب يميد اضطرابًا ولطالما كان كثيرون من الملوك يعتزون فوق كراسيهم ثم يسقطون ونال ما بينهم مجوريان الشهرة السامية ٤٥٧ واما افيتوس فلم يمكن له ان يحفظ صيتهُ ويخلص من الملك الابان يتوشح بطيلسان الاسقفية ٤٥٦ ولبثت بلاد غاليا تئنّ من باهظ الاحمال التي عنّاها بها ميروفي وشيلدريك ابنه . وقامت الرعية على شلدريك بتألب القلوب واتحاد الكلمة والراي وطردته ممتهنًا

٤٥٨ وجد احد ظهرائهِ المزدلفين اليه في السعي بانثنائهِ الى الملك فعاد واوشك الهلاك ان يباغته لكثرة فساده ٤٦٤ ـ ٤٦٥ واستمرَّ رعبةً ورهبة في قلوب اعدائهِ وامتدت فتوحاته حتى اواسط غاليا

وكانت الدولة الشرقية في عهد لاون التراسياني خليفة مارسيانوس في كل طمانينة وسلام ٤٧٥ ـ ٤٧٤ واخمدت نيران الثورة التي اضرمها بازيليسك ولم يصل منها اليه ٤٧٦ ـ ٤٧٥ الاَّ قليلٌ من القلق والانزعاج . واما الدولة الغربية فقد اكتنفتها المحن والرزايا فاصبحت دارسةً طامسةً فان اوغسطس الملقب باوغسطيلس ابن اوريستوس كان اخر الملوك الرومانيين . فبعد ان امتطى غارب الملك بوجيزٍ من الحين نزعهُ الملكة اودواكرس ملك الهروليين . وهولاء الشعوب كانوا نحلاً توافدوا من انحاء بحر البوان نوكسان بيدَ انهم لم يستمروا حاكمين زمانًا طويلاً

ومن الامور البينة ان الملك زنون تلقنت الاذان عنهُ انباءَ لم تكن تسمع بها من قبل فانهُ استغال الى ان يكون اول الملوك الذين ينهمكون في حل مشاكل الايمان وفي غضون ما كان المبتدعون النصف الاتيوخيين يناصبون مجمع خلكيدونية ويقاوونه ابرز ضد المجمع المنوه عنه براءةً دعاها هنوتيك ٤٨٢ اي براءة الاتحاد التي يأنف منها الكاثوليكيون فابرم عليها البابا فيلكس الثالث قضاءهُ ٤٨٣ وقد كان ثيودوريك ملك القوت الشرقيين الذريعة الكبرى لطرد الهروليين من رومية وشيد هذا الملك مملكة ايطاليا ٤٩٠ وان يكن اريوسيًا فقد غادر للدين الكاثوليكي فسحةً كافيةً من الحرية . واما الملك اناستاسيوس فكان يهتك حرمة الدين في الشرق ٤٩٢ فانهُ قفا اثر زنون متهافتًا على ان يكون للمبتدعين عضدًا وسندًا ٤٩٢ فعند ذلك نفرت عنه القلوب واخذ الشعوب يكنحون له بالعداوة واعتسف جدًا عن طريق استرضائهم لا يجديهِ نفعًا ما زحزحه عنهم من اثقال الخراج . واما ايطاليا فقد كانت صاغرة لولاءِ الملك ثيودوريك وقد كان ادواكر في مدينة رافين يكابد الم الحصار فدان اليه ووالاهُ عاقدًا معهُ عهدةً لم يرعَ ثيودوريك المشار اليه ذمامها وافضى الامر بالهروليين الى ان يخلوا له كل البلاد وفضلاً عن انهُ كان متبوءًا ايطاليا فقد كان مستوليًا على البروفنس طرًا . وفي عصره ٤٩٤ كان القديس مبارك متزويًا في احدى مفاوز ايطاليا منذ نعومة اظفارهِ معتزلاً عن العالم أملَ ان يتخذ الفضيلة له ديدنًا . وبعد ان استقرا بعضًا من

قواعد الكمال الرهباني اتحف بها رهبان الغرب فتلقوها بالتكرمة والحرمة مثلما كان الرهبان الشرقيون يودون الكرامة لقوانين القديس باسيليوس

واما الرومانيون فقد نازلهم كلوفيس بن شيلدريك فظهر عليهم وانتزع بلاد غاليا برمتها من ايديهم وعارك ايضاً الالمانيين في تولبياك فنكس اعلامهم ظافراً ٤٩٦-٤٩٥ واوجب على نفسه ان يتدين بدين المسيح اذ كانت تحضهُ على ذلك زوجة كلوتيلد . اما كلوتيلد فكانت من سراة ملوك بورغونيا وكان آلها اريوسيين وهي كاثوليكية سامية الهمة غيورة جداً نحو مذهبها وعلم القدس فاهت كلوفيس الدين المسيحي وعمدهُ في مدينة رمس اسقفها القديس رمجي مع كل الافرنسيس الذين كانوا يقتفونه وقد تفرد في اسعاد الدين الكاثوليكي بين ملوك الارض طرّاً فاتصف خلفاؤهُ بمسيحيين وبعد ان قتل الاريك ملك الفيزيقوت في معركة هائلة ٥٠٧ ضمّ الى مملكتهِ تولوزا والاكتيان واما انتصار القوت الشرقيين ٥٠٨ فكان له مانعاً عن ان يتطوّح في الاستيلاء الى جبال البيرانه . ومحت اعماله في غاية ملكهِ كل ما ناله من السؤدد والمجد في بدء حكمهِ ٥١٠ واجتزأ بنوه الملك من بعده واستمروا يتشاحنون ويتباغضون وهبطت من السماء صاعقة منقضة على الملك انستاسيوس فاودت بهِ الى الهلاك ٥١٨

واقام مجلس الندوة ملكاً على سرير الملك يقال جوستينوس مع عدم المبالاة بما فيه من سفالة النشأة والمحتد لانهُ كان ذا المعية ثاقبة كاثوليكياً ملتهباً بنار التقوى والعفاف فرضخ هذا المالك ومرؤوسوه لاوامر البابا القديس هورميسداس واستمرت البيعة الشرقية رافلة ببرد الطمانينة والارتياح وبدا في عصرهِ بوهسيوس الشهير بتعاليمهِ الحقة وجودة اخلاقه وبدا ايضاً حموهُ سيماك ونقلد كلاهما مهاتٍ ذات شانٍ . اما الملك ثيودوريك فقد وغرَ عليهما صدرهُ حسداً فاتهمهما بانهما تواثقا بما يعود على ملكهِ بالخيبة والخسران فاماتهما بغياً واعتسافاً . وبعد ان فعل تلك الفعلة الذريعة جاش بالهِ ندماً على جريرتهِ ولما أُدنيت منهُ جفنةٌ فيها ماكولة خيل له الوهم ان فيها راس سيماك فخنق من ذلك فؤادهُ وكانت عقباهُ بالموت عقيب ذلك ٥٢٦ واما القوتيون فلما راوا ابنته امالازونتة قائمة بصيانة وليدها اتالاريك ومنهمكةً في شان تثقيفهِ رجاء ان يترشح لركوب التخت بعد جده منعوها عن ذلك اشد المنع فأرغمت على ان تغادره يتجول بين اترابهِ وقد راته مراراً معرّضاً للنائبات وهي غير قديرةٍ على الاخذ بيدهِ

وبعد ان مرَّ من ذلك الحين حول عبثت براثن المنية يوستينوس الملك ٥٢٧ بعد ان اشرك معهُ في ملكهِ حفيدهُ يوستنيانوس الذي اشتهر طول ولائهِ باعمال تريبونيانوس المستقرىء النواميس الرومانية وبحروب بليزار والخصي نرسيس ولعمري ان ذينك القائدين الماهرين قد ارهقا الفرس وقمعاهم بالحول والبسالة ٥٢٨-٥٤٢ ونكسا اعلام الغطط الشرقيين ٥٢٦-٥٢٩-٥٤٠-٥٥٢ والبندال ٥٢٤ واعاد لسيدهما افريقية وايطاليا ورومية . واما الملك فلما رآهما يخطوان خطوات السعد ولواء النصر معقود بايديهما دب في فؤادهِ الحسد عليهما وعاق يدهما بما يعود بالخيبة والخطاط الشان غير قائم بناصرها

وكانت مملكة فرنسا في ذلك الآن تنمو وتعزز يومًا بعد يوم وفتح بعد حرب طويلة ولدا كلوفيس شلديبرت وكلوتير مملكة بورغونيا ٥٣٢ وفي الوقت عينهِ اغراهما الطمع بان يقتلا اولاد اخيهما كلودومير الاحداث ويقتسما ملكهم بينهما وبعد ذلك بقليلٍ من الحين اضرم بليزار الحرب على الغطط الشرقيين فاستعين عند ذلك الفرنسيس وقبضوا على املاكهم في غاليا وانتزعوها منهم غنيمةً باردة وكانت فرنسا وقتئذٍ تمتدُّ كثيرًا وراء نهر الرين وقد كانت املاكها مجتزئة بسبب انقسامات امرائها الى ممالك شتى اهمها نوستريا (اي فرنسا الغربية) واسترازيا (اي فرنسا الشرقية) ولذلك شق عليها ان تكون راضخة لصولجان واحد. وفي السنة التي اعاد نرسيس مدينة رومية لأم يوستنيانوس في القسطنطينية المجمع الخامس العام الذي اثبت احكام المجامع الغابرة وقضى على بعض تآليف موافقة لمذهب نسطوريوس كانت تلقب بثلاثة الفصول بسبب انها لثلاثة مؤلفين كانوا ماتوا قبل ذلك بزمان شاسع ولم تزل مقالاتهم موضوعًا للجدال فشجبت تآليف ثاودوروس اسقف المصيصة ورسالة ايهيبا اسقف الرها ومن تآليف تاودوريطوس ما كتبهُ ضد القديس كيرلس واما التآليف التي قام باعبائها اوريجانوس ولم تزل تخيم على الشرق منذ جيل بسرادق الاضطراب اهملت ونبذت جانبًا . وبعد ان كان ذلك المجمع غير محمود البداية نال حسن العاقبة وحازت اعمالهُ لدى الكرسي الرسولي ارفع مكانةٍ من القبول ٥٥٥ . واما نرسيس الذي ملَّص ايطاليا من ايدي الغطط فبعد ان

مضى على ذلك الجمع حولان برز الى الفرنسيس بوائبهم وبدفعهم عنها قصد رعايتها من شر الغائلة وحينئذٍ ظهر على بوسالن قائد جيوش افرنسة الشرقية ومع كل ذلك فلم تلبث ايطاليا زماناً طويلاً في اكف الامبراطورين وشاد البوين مملكة لمبردية ٥٦٨ واخذ مديولان سنة ٥٦٩ وبافي ٤٧٢ وكان ذلك في عهد يوستينوس الثاني حفيد يوستنيانوس بعد موت نرسيس . وقد كانت رومية ورافنة تكادان لا تنجوان من حبائلو فان الرومانيين قد كانوا يتجشمون المشاق والجور من اللمبرديين ورومية لا ناصر لها من قبل ملوكها الذين ارهقهم الافاربون التتر والشراكسة والعرب ولاسيما الفرس كل الارهاق واوسعوهم تبريحاً واعناتاً في الشرق كلو ٥٧٤ . اما الملك يوستينوس الثاني فقد كان يستبد برأيه زهواً وصلفاً فزحف عليه الفرس وملكهم كسرى بجنوده واستمرّ يذلهُ ويسلبهُ خير ما يملك حتى اودى بو الى ان يصبح معتوهاً . واخذت حينئذٍ امرأته صوفيا تدبر المملكة . واصبح ذلك الملك في حالة كبرى من السوء والعثار اياماً عديدة وبعد ان صحا من غشيان جنونه عرف لدن احتضاره خبث ماكريه ومصانعيه ومن ثم امسى عرضةً لمخالب المنون ٥٧٨-٦٧٩ وخلفه طيباريوس الثاني فناضل اعداء الدولة وقمعهم وارحب للرعية فسيح الفرج وكشف عنهم ما تانف منه النفوس وآسى واحسن كثيراً ٥٨٠ واقام موريس الكبادوكي على الجيش قائداً فكان سميدعاً مستميتاً بعنولة النصر صاغراً فمات من ذلك كسرى الجبار كمداً وقهراً ٥٨٢-٥٨٣ فاسفر حينئذٍ طيباريوس عن مبسم المسرة والارتياح وجازى موريس بان اورثه عند موته السدة الملوكية وزفّ اليو ابنته قسطنطينة ٥٨٢-٥٨٣

وفي ذلك الحين كانت فردغوندة الطاعة امرأة شيلبيريك الاول تذكي نيران الحرب بين ملوك الافرنسيس فاستعرت بسببها جذوة القتال في مملكة فرنسا . وفي غضون ما كانت ايطاليا ينتابها من النازلات الكبرى شيءٌ كثير ويشتد في رومية الوباء الهائل اقيم القديس غريغوريوس الكبير على الكرسي الرسولي رغماً على ارادته ٥٩٠ فعلق هذا البابا بجأر الى ربو بالدعاء ليفتقد عباده بازالة ذلك الداء العياء فاستجاب استصراخهُ ومنَّ عليهم بقبول الدعاء وقد كان يونب الملوك ويوعز الى الرعية ان يؤدوا لهم كامل الرضوخ وابرز لافريقيا سلوةً وعززها وثبت في الايمان القطط الغربيين الذين في اسبانيا

بان يداخل معهم بمداراة خطرة ٦٣٣ وارتضى بالصمت الذي نجم منه ان البهتان والحق قد زهقا . وشرع الملك هرقل بعد ذلك بقليل من الزمن بفضّ ذلك المشكل العظيم بسلطتهِ الملوكية وبناءً عليه اصدر من لدنه اشعارًا يقال له الاكتازاي اليان بعي ما يجنح اليهِ المونوتوليتيون واما الخداع الذي تهمك فيه الهراطقة المبتدعون فقد ارتفع عنه الغشاء وبدا بينًا لدى العيان فان البابا يوحنا الرابع حكم على الاكتاز وبادهة من لدنه بالحرم واخذ من ثمّ قنسطانت حفيد هرقل يدافع عن اشعار جدهِ باشعار اصدرهُ دعاهُ تيب ٦٤٨ فتصدى لذلك المشروع البابا ثيودوروس والكرسيّ الرسوليّ ولأم البابا مرتينوس الاول مجمعًا في لاطران وعند ذلك باده التيب ورؤساء المونوتوليتين بحرم جسيم ٦٤٩ واما القديس مكسيموس الذي اشتهر في التقوى وتعليمه في الشرق كافةً فقد تنحى عن البلاط الملوكي لما خامره من شائبة الابتداع الحديث واخذ من ثم يجاهر الملوك في التنديد والتثريب لانهم اجترئوا على الايمان بان يقضوا عليه . وكابد بعد ذلك المشاقّ الجسيمة غيرةً على الدين الكاثوليكي ٦٥٠ واما البابا فقد واصل الملوك عذابهُ بنقلهِ من منفىً الى آخر وعاملوهُ بالاساءة والاذلال معاملة البربر ذوي الخشونة والهمجية . فاستأثرت بهِ رحمة الله في غضون إعناتهِ وتعذيبهِ ومع ذلك كلهِ فلم يتغضب ولا يتقاعد عن اتمام ما تندبهُ اليهِ مرتبتهُ ٦٥٤ وفي ذلك الحين كانت بيعة الانكليز الحديثة تتعزز اركانها وترعى مقامها البابا بونيفاسوس الخامس وهونوريوس واخذت من ثم تشتهر في العالم كلهِ وكثرت فيها العجائب والفضائل مثلما كانت تكثر في ايام الرسل . ورفل ملوكها باردية الفضائل والمآثر الحميدة فان ادوين الملك اهتدى هو وشعبه الى حجر الكنيسة وادّى بهِ ايمانهُ الى التدثر بدثار الغنيمة والنصر على اعدائهِ . وعلق حينئذٍ بنصّر من يدانون ملكه ٦٣٧ وكان الملك اوزوالد ترجمان المنذرين بالانجيل ٦٣٤ وقد تقرّر انهُ ملك عظيم الصولة نالت فتوحاته ارفع مكانة من الشهرة ومع ذلك فقد كان يوءثر عليها اسم مسيحيّ وتنصّر المرسيّون بمجهد اوزوين ملك نورتمبرلند ٦٣٥ ومن يدانيهم وقفا اخلافهم آثارهم وكانت اعمالهم المأثورة تجاوز الحدّ

واما الشرق فقد كان وقتئذٍ على جرفٍ هارٍ فان الملوك كانوا ثمة ينهمكون في الجدل الديني ويستبضعون تجارة الابتداع وبينما كانت تلك شوءونهم كان العرب يشنون الاغارة على المملكة ويستولون على تخومها ويتبوئون سوريا وفلسطين ٦٣٥-٦٣٤ وادت

لهم المدينة المقدسة الخضوع وفتحت لهم بلاد الفرس ابوابها بسبب الشقاق فيها واخذوا منه المملكة العظمى غنيمة باردة ٦٣٧-٦٤٦ ونطرقوا الى افريقيا فانتزعوها وجعلوها اقليما من مملكتهم ٦٤٧ وطاطات لهم جزيرة قبرس رضوخا ٦٤٨ وفي برهة لا تبلغ ثلاثين سنة ضموا كل تلك الفتوحات الى فتوحات محمد

واما ايطاليا التي كانت تجرع كؤوس الذلة والبؤس غير مرنو اليها بعيون الاسعاد فقد كانت تئن تحت اثقال ولاة اللومبرد واخذ الملك قسطانس يجاهد في ان يبادهم بالممات . فحبط سعيه وخامره الفشل وعوّل عند ذلك على ان يتلف كلما لم يكن يستطيع على رعايته وكان هذا الملك اشد قسوة من اللومبرديين ولم يلج رومية الا رجاء ان يسلب كنوزها ٦٦٣ ولم يطو عن التشنيع في الكنائس كشحا . ونهب صقلية وسردينيا فاصبح مرذولا من الجميع يأنف منه كل ذي ذوق سليم فائتمر على قتله اصحابه ٦٦٨ وفي عهد ابنه قسطنطين بوغونات (اي لحوي) فتح العرب سيليسيا وليسيا ٦٧١ ولم تنج القسطنطينية من الفتوح الا باعجوبة ٦٧٢ . واما البلغاريون فهم نحل هاجروا الى مصب الفولغا وقد تولوا في بلاد التراس على قسم يفأل له ميزيا دعي من ثم بلغاريا ٦٧٨ واما بيعة الانكليز فكان ينشأ منها بيع جديدة فان القديس ولفريد اسقف يورك المنفي من كرسيه اغرى الفريسيين بان يتنصروا

واخذت البيع كلها تسطع وتزهو بالانوار التي انبثقت اليها من مجمع قسطنطينية السادس العام ٦٨٠ حيث البابا القديس اغاثون كان قابضا فيه على زمام الرئاسة بواسطة وكلائه العظام . وابان فيه التعليم الكاثوليكي برسالة بليغة . واصدر المجمع الحرم على اسقف ذاع فساد تعليمه وعلى بطريرك الاسكندرية واربعة من بطاركة القسطنطينية . وقصارى القول على كل روساء المونوتوليتيين ومع ذلك لم يعف بالعذل عن البابا هونوريوس الذي كان قد واطأهم . وفي اثناء التئام المجمع مات البابا اغاثون وعند ذلك ثبت البابا القديس لاون الثاني احكام المجمع وصدّق على كل ما حرم . واما قسطنطين بوغونات الذي تسنن باعمال قسطنطين الكبير ومرسيانوس فدخل المجمع على مثالهما ولما رآه المجمع انه ادى الخضوع مثلهما لقبه بملك كاثوليكي محب للصلح مصلح للدين . وخلفه ابنه جوستنيانوس الثاني وهو يافع ٦٨٥ فكان الدين في عهد هذا الخلف يترعرع بالنضارة والازدهاء في ناحية الشمال . فان القديس كيليانوس الذي بعث به البابا كونون

الى بلاد فرنكونيا ليكون هنالك نذيراً ببشارة الانجيل اتم ما هو مندوب اليهِ ٦٨٦ وفي عهد البابا سرجيوس أمَّ شدوال احد ملوك الانكليز رومية ليعترف بعلاقتهِ بالبيعة الرومانية من حيث دخل الايمان المسيحي جزيرته . واعتمد على يد البابا واستأثرت به رافة الله حينئذٍ حسب متمناهُ ٦٨٩

واصبح في ذلك الحين آل كلوفيس هابطين الى مهاوي الذلة مدحورين واخذت الاحكام الملوكية تنحط انحطاطاً يستحق الرثاء . ولما كان كثير من هؤلاء الملوك يرقون التخت الملوكي وهم قصر سناً فلم يكونوا يعكفون الا على التقاعد عمَّا من شانه الفلاح والنجاح فكان ذلك مندوحة لان يربوا بالترف والرغد ولا يخرجون عنهما بعد بلوغهم وكانوا منغمسين في عباب التواني والكسل لانهم كانوا ملوكاً لفظاً لا معنىً يكلون رعاية الملك لامراء يقال لهم بابر واخصهم بيبن هريستال الذي كان جل الحكم يناط بعهدتهِ ٦٩٢ فانهُ اسمى آل بيتهِ الى ارفع الآمال ونما الايمان في بلاد فريزيا التي ضمها فرنسا الى فتوحاتها بواسطة سلطانهِ وموت فيجبر الشهيد . وان القديس سوبارت والقديس ويلبرود ومرسلون سواهما اوسعوا خطا الانجيل في الاقاليم المجاورة ٦٩٥ وفي ذاك الحين انتهى مدة كون يوستنيانوس قاصراً وكان لاونس استظهر على العرب وقمعهم وتوطدت اركان الدولة الرومانية في المشرق ٦٩٤ ولكن قبض على هذا القائد الجريء عدواناً وحل وثاقه دون تبصر في العاقبة . فجدع انف سيده (ولذلك لنب يوستنيانوس بالاخرم) وطرده ٦٩٥-٦٩٦ فتجشم هذا الخائن الوقح نفس العذاب من قبل طباريوس المدعو ابسيمار الذي لم تطل ايامهُ من بعد ذلك على الارض

فاعيد يوستنيانوس الى ملكه ٧٠٢-٧٠٥ ونكر جميل اخوانه المخلصين واخذ ينقم من اعدائهِ الكاشحين فبدا له اعداء الداء خلافهم جرَّعوه كاس المنية ٧١١ ولما استوى خليفته فليبكوس على صهوة الملك بعث بصورتهِ الى رومية فلم تحز قبولاً لانهُ كان يجنح الى المونوتوليتيين ويعلن عداوته للمجمع السادس العام فتخير من ثم في القسطنطينية انسطاسيوس الثاني ملكاً للكاثوليكيين وسُملت عينا فيليبكوس ٧١٢ وفي ذاك الحين فتحت رذائل الملك رودريك ابواب اسبانيا للمغاربة وكانوا يدعون بسراكسة افريقيا

فانه ارتكب الفحشاء بابنة الكونت بوليانوس فاستغاث هذا بالسراكسة لينتقم عن الاهانة التي المت بابنته فزحف المغاربة الى اسبانيا بفيالقٍ جمة وتحارب الجيشان فقتل رودريك ورضخت اسبانيا وانقرضت دولة الغطط وتوالت الاحن والرزايا على البيعة. في اسبانيا غيرَ ان المسلمين لم يضادوا الايمان الكاثوليكي بل بقي سالمًا كما كان في عهد الاريوسيين واطلقوا لذويه بداءة بدء اعنة الحرية في الدين وان توالت بعد ذلك الحروب في القرون التالية. واما الملك انسطاسيوس فلم يبقَ امدًا طويلاً فان الجيش اجبر ثيودوسيوس الثالث على تقلد السلطة وشحوه بطيلسان الارجوان ٧١٥ـ٧١٦ وبعد ان استوى على اريكة الملك آل بهِ الامر الى ان يحرب الهيجاء فظهر على انسطاسيوس واغراهُ بان ينزوي في احد اديرة المتعبدين. واما المغاربة الذين اثخنوا فتوحاتهم في اسبانيا فقد عولوا ثمة على ان يدوخوا باقي الامصار فاجتازت عساكرهم ما وراء جبال البيرانه لكن ذلك لم يستمر لان كرلوس مرتال الافرنسي استظهر عليهم فتقهقروا. وهذا وان يكن نغيلاً فانه خلف اباهُ ببين هريستال واستقر على سرير الخلافة بعدهُ. وكان ابوه اختص لسرانهِ اوسترازيا اي افرنسة الشرقية لتكون لهم امارة مطلقة والولاية على نوستريا اي افرنسة الغربية قيامًا بحق كونه اميرًا في البلاط فكرلوس ضم المملكتين باقدامه

واما احوال الشرق فكانت وقتئذٍ في ازمةٍ عظمى فان الحاكم هنالك لاون الايسوري لم يخضع لثيودسيوس فانحاز حينئذٍ الملك دون كرهٍ عن الملك الذي لم يقتبله الاّ بالاكراه والتجأ الى افسوس ولم يهتم الاّ في العظمة الحقة. وفي عهد لاون استظهر على السراكسة مرارًا كثيرة وأُرغموا على ان يحبصوا عن القسطنطينية ويرفعوا عنها الحصار ٧١٨ واما في اسبانيا فبيلاجيوس تسلق على جبال استوريا ٧١٩ هو ومن تبقي معه من الغطط وبعد ان انتصر على العرب نصرًا مبينًا انشأ مملكة حديثة كانت معدة لطردهم من اسبانيا وكرلوس مرتال لم ترعهُ بسالة قائدهم عبد الرحيم وكثرة جيوشهم فظهر عليهم في موقعة طور الشهيرة ٧٢٢ـ٧٢٥ حيث قتل كثيرون واخصهم عبد الرحيم القائد الباسل وقفت

تلك النصرة نصرة اخرى ثبطت اقدام المغاربة واسرع الكرة واوصل سلطة الفرنسيس الى جبال البيراني . ومن ذاك الحين اخذ الغوليون يوافون الافرنسيس بالنفوس المستصغرة راضخين وبعد الجميع اعناقهم لكارلوس مارتال واما هذا السري البسول فاصبح ذا سطوة في الصلح والحرب وشوكة مطلقة في المملكة فانه تولى الحكم باسم كثيرين من الملوك فقد ولى من ولى ونزع من نزع منهم دون ان يتطالّ الى ان يتلقب بذلك اللقب الرفيع فان الافرنسيس الذين كانت صدورهم واغرة من الحسد اغروه بان يداهنهم ويصانعهم

وكان الدين في المانيا في ذلك الان تزيد نشأته ٧٢٢ ودين الكاهن القديس بونيفاسيوس اولائك الشعوب بدين النصرانية واقام عليهم اسقفًا من يعث به اليهم البابا غريغوريوس الثاني واما الدولة الرومانية فكانت اذ ذاك مترعة كوءوس السكينة والسلام عبدان لاون بادهما بالرزايا والنائباب حقبًا متوالية فانه طوح بنفسه الى ان يوقع بايقونات المسيح وقديسيه معتبرًا انها تماثيل صنمية ٧٢٦ ولما ضاق ذرعًا عن ان يحاز اليه القديس جرمانوس بطريرك القسطنطينية استاثر بقوته وسلطانه . وبعد ان برزت الاوامر من مجلس الندوة نعمد صورةً ليسوع كانت مركوزة فوق باب كنيسة القسطنطينية الكبير وحطمها تحطيمًا ومنذ ذاك اخذ الجائرون يحطمون الصور ويفسدون وان التماثيل التي اركزها الملوك والاساقفة والموءمنون في المحال المقدسة العامة منذ كانت البيعة في غضارة النعيم والرفاهية اصبحت كالهبا المنثور . واما الشعب فلما رأوا ذلك اصبحوا في تهويش واضطراب واخذوا تماثيل الملك وكسروها فاستكبر ذلك وايقن انه أهانةٌ لحقت به فوثبة الشعب قائلين ان الاهانة التي يّدعي بانها المت به فانه هو نفسه يقاذع بها يسوع المسيح واولياءه الاطهار وانهم باخذون من استكباره تحطيم تمثاله دليلاً على ان اهانة الرسم اهانةٌ للعين . واما في بلاد ايطاليا فقد اتسع الخرق جدًا لان الشعوب لما رأوا ان الملك جنف عن سراط الحق واستبضع تجارة الكفر والطغيان اصروا على ان لا يوءدوا له جزيةً وتسنى بذلك لويتبران ملك اللومبرديين رجاء ان يقبض على مدينة رافين مركز الاكزرك اي الولاة فان الولاة الذين كان يبعث بهم الملوك الى ايطاليا كانوا يعثونهم على ذلك واقام البابا غريغوريوس الثاني الحجة على تحطيم الصور وفي الوقت نفسه كان يقاوي اعداء المملكة ويناكرهم ويحض الرعية على الدعة والسلم وتادية الرضوخ المستحب للدولة واما الملك فانه ابرم صلحًا مع اللومبرديين ٧٣٠

ووثقهم بالعهود والاخاء ونفذ الاوامر المعلنة بالايقاع بالصور والتماثيل جائرًا عاتيًا . فاجابه يوحنا الدمشقي المشهور انه لا يطاطىء لسوى اوامر البيعة في المشاكل الدينية وان امرءٌ ليس له عنده رعايةٌ الا النبذ جانبًا . فحنق الملك من ذلك جدًا واخذ يبالغ في الاعنات والاذلال واعتزل البطرك جرمانوس عن كرسيهِ ونفاه الى حيث استاثرت بهِ رحمة ربهِ وهو في سن تسعين عامًا ٧٣٢ - ٧٣٩ ولم يمضِ على ذلك الحين قليلٌ من الزمن ٧٤٠ الا عاد اللومبرديون يهرجون ويمرجون واخذوا يجشمون الرمانيين المشاق فاستنصر البابا غريغوريوس الثاني كارلوس مارلوس فلبى الاستصراخ جاهدًا ودرأ عن الرومانيين الخطوب المدقعة . واما مملكة اسبانيا الجديدة التي كانت تدعى وقتئذٍ مملكة اوفياد فكان ظفر الفونس صهر بلاج يسرعان في نشاتها ويزيدان في شبابها وقد تلقب هذا الملك بكاثوليكي اقتداء بريكارد الذي كان يزعم انه من نسلهِ واستعزَّ الله في ذلك الان بلاون الملك ٧٤١ تاركًا المملكة في اضطراب والبيعة منشودة النواد

وقبض على زمام الملك ارطاباز والي ارمينيا بدلاً من قسطنطين كبرونيم بن لاون وراعى حرمة الصور واصدر الامر بارجاعها وبعد ان عبثت المنية بكارلوس مارتال شرع لو يتبراند يوهدرومية ثانيةً بالامر الهائل واصبحت حينئذٍ اكزركات رافين (ولاية) مشرفة على الدثار العظيم ولم ينقذ ايطاليا من فتكات العدوّ الالد الا رصانة القديس زكريا البابا وفرط حصافتهِ ٧٤٢ واما قسطنطين فكان في الشرق في حالة البوس والشدة ومع ذلك فلم يكن يفكر الا في ان يكون مستعزًا على سرير الولاء فناضل ارطاباز ظافرًا عليهِ وفتح القسطنطينية واكثر فيها من المبرحات المدقعه والنائبات الموقعة ٧٤٣ وقد كان لكارلوس مارتال ولدان يقال لاحدهما كارلومان وللاخر بيان وكلاهما خلفا اباهما بعد ان اغتاله الردى . اما كارلومان فقد انفَ الحيوة الدنيا وغادرَ العزة الملوكية وترف العيش وتبتل لله معتزلاً عن الناس الى بعض الاديرة طلبًا للعبادة ٧٤٧ فلدن ذلك استاثر اخوهُ بيان بالسلطة السامية ورعى منصبهُ بحسن سليقتهِ وجودة تدبيرهِ وعوّل على ان يركب التخت السلطانيّ . ولما كان في ذاك الحين الملك شيلدريك من سفالة الملوك المنغمسين في لجة التواني والتراخي وكان خامل الرأي معتوهًا جنحت الى بيان افكار الافرنسيس ٧٥٢ وتخيروا له السوءدد الرفيع وزيادةً على ذلك فانهم كانوا وقتئذٍ قد انفوا من الملوك المتقاعدين والفوا آل كارلوس مرتال الذين نشأ منهم افرادٌ

تغتزّ بهم الاسرة فلم يكونوا اذ ذاك ينهمكون الأ بما حلفوا لشيلدبريك وبناته على ما اوعز اليهم البابا زكريا تخيلوا انهم امسوا رافلين باردية الحرية وانهم عُتقوا مما حلفوا لملكهم بعبرة انهُ هو ومخلوفوهُ بدوا معتزلين عن حقوقهم في السلطان منذ مئة من الاعوام اذ غادروا الشوكة منوطة بعهدة من تدرج الى منصب ميرديبالي (اي امير البلاط) وعلى ذلك اغروا ببان بان يستوي على اريكة الملك وجعلوا اللقب الملوكي موثوقًا بوثاق السلطة

ورأى البابا اسطفانوس الثالث في ذلك الملك الجديد غيرةً على الكرسي الرسولي مثلها في كارلوس مارتاس ضد اللومبرديين ولقد كان قبلاً يستصرخ ملك الروم فذهب استصراخهُ ادراج الرياح فاستنجد بالافرنسيس فهشّ بهِ ملكهم وقابلهُ بالتودة مبرزًا لديهِ المكرمة والحرمة وازدلف اليهِ واراد ان يمسح بيدهِ ملكًا ويتوّج به ٧٥٤

وفي ذلك الحين اجتاز الملك بيان جبال الالب وانهض رومية واكثر كان زافين من وهاد الخمول وارغم استولف ملك اللومبرديين على ان يوائقهُ ويبرم معهُ صلحًا مراعيًا فيهِ جانب العدل والانصاف وعاق ملك الروم يذكو نيران الحرب على الايقونات فلأم في القسطنطينية مجمعًا عظيمًا رجاءَ ان يوطد آراءهُ على الاسناد الكنائسية فلم يشهد حسب العادة ذلك المجمع وكلاء الكرسيّ الرسولي ولا اساقفة الكراسي البطريركية اووكلاؤهم ومع ذلك فلم يكتفِ المجمع بان يقضي بأنّ الاحترام المؤدّى للايقونات تذكارًا لاعيانها هو عبادة وثنية بل قضى بان فن الرسم والتصوير هو من الامور التي يأنف منها الطبع ويمجها الذوق وذلك اعتقاد الاعراب الذين يقولون ان الملك لاون لما حطم الايقونات كان معتقدًا رايهم فذلك بهتانٌ وتمويهٌ لانه لم يجاهر قط بالعدوان ضدّ الذخائر ولم يقضِ مجمع قبرونيموس بعدم تادية الحرمة لها وحرّم كل من كان يجحد الاستشفاع الى مريم البتول والقديسين . واما الكاثوليكيون الذين كانوا يئنون تحت باهظ التاويق والاضطهاد لابرازهم التكرمة للايقونات فكانوا يجاهرون امام الملك انهم يؤثرون الموت تحت اثقال النوائب الوبيلة على ازورارهم عن تأدية الاكرام ليسوع المسيح في مثالهِ وفي ذلك الحين نكث استولف العهود التي أُبرمت بشان الصلح فحنق على ذلك بيان ودوّخ جبال الالب مرة اخرى واصبحت الكنيسة الرومانية قريرة المقلتين لانها رأت من ذلك الملك الصالح مالم ترهُ قبلُ من غيرهِ . فانهُ منحها كل

المدن التي انتزعها من اللومبرديين فجس قبرونيموس ان يعيدها اليه فقابله بيان بالهزء والسخرية اذ لم يكن بوسعهِ من قبلُ ان يكون ذائدًا عنها وحاميًا لذمارها . ومنذ ذاك الحين تناسى الرومانيون سلطة ملوك الروم الذين اصبح الجميع يصوّبون عليهم سهام المقت والتفنيد يحتقرونهم لوهن عزائمهم ويكرهونهم لجنوفهم عن المحجة القويمة وغدا بيان يذود عن الشعب الروماني والبيعة الرومانية ومن ثمَّ توارث الذَّودَ من بعدهِ سراتهُ وكل ملوك الافرنسيس وبعد ان استعزَّ بهِ الله صعد على ذروة الملك ابنهُ كارلوس العظيم فتسنن بما كان يفعل ابوه فثابر على الذود عن الرومانيين والبيعة ببسالة فائقة وتقوى خارقة ولما فتح ديديه ملك اللومبرديين مدائن شتى واوعد ايطاليا برمتها بالامر المكروه استغاث البابا ادريانوس بكارلوس العظيم فلبى الدعوة مسرعًا واجتاز جبال الالب ٧٧٣ فاتحًا فخضع كل شيء لبأسهِ واحضر ديديه لديه اسيرًا ٧٧٤ وانقرضت ملوك اللومبرديين اعداء رومية والمنصات الرسولية واستوى على ايطاليا ملكًا . وتلقب من ثم بملك فرنسا واللومبرديين وفي الوقت عينهِ كان يمارس السلطة في رومية لانهُ كان ملقبًا بباتريس (اي محامٍ عن الشعب) وثبت كل ما منَّ بهِ ابوه على الكرسي الرسولي وكان ملوك الروم يتاسون المشاق بدفاعهم البلغاريين ويخازون ضد كارلوس العظيم الى اللومبارديين الذين انتزعت منهم املاكهم قائمين بناصرهم فينتكسون . ومع ذلك فقد استمرَّ الإلمام بالايقونات واضطهادهنَّ فان لاون الرابع ابن قبرونيموس تراءى اولاً انهُ كاظمٌ غيظهُ لكنما جذوة الحقد بقيت مطبونةً في فوءادهِ فانثنى الى غرتهِ وشرتهِ واخذ يهتك حرمة الصور واهمًا انه يستوي على صهوة العرش فكان بذلك سهمه طائشًا لان طائر الموت انقض عليه فذهب بروحهِ عاجلاً ٧٨٠ وخلفه ابنه قسطنطين وهو في العام العاشر من عمرهِ وتولى الامر والنهي تحت وكالة امه ابرانيا وحينئذٍ اخذت الشوءون تتغير والمنكرات تنسلخ فان بولس بطريرك القسطنطينية اعلن قبل انقضاء اجلهِ ان تصديه للايقونات وافتراءهُ عليهنَّ لم يكونا عن طيبة خاطرٍ منهُ ولكي يكفر عن نفسه دخل احد الاديرة متعبدًا ٧٨٤ واخذ من ثم يراسل الملكة ويرثي لها تعاسة كنيسة القسطنطينية المنفرزة عن اربعة الكراسي البطريركية واوعز اليها ان التئام مجمع عامٍ يكون دواءً لمزاولة ذلك الداء . واما خليفته تاريز فقد قرر ان المشكل لم يحل نظامًا لان القضاء بهِ كان بامرٍ بارزٍ من الملك وان المجمع الملتئم وقتئذٍ كان قد لوءمَ ضد

القوانين . مع ان المجامع الدينية لها حق الاولوية في الاحكام الدينية وعلى الملك ان يكون عضدًا لاحكام البيعة ليس مبرزًا للحكم . وبناءً على ذلك لم يرضَ بان يكون بطريركًا في القسطنطينية الاَّ بشرط ان يصير التئام مجمعٍ عامٍ . فبدأ ذلك المجمع في القسطنطينية وانتهى في نيقية ٧٨٧ وبعث البابا اليه بوكلاء من لدنه اقاموا النكير على مجمع محطمي الايقونات ورشقوه بسهام التنديد والتفنيد واعتبروا ذويه اناسًا يفاذعون المسيحيين ويتهمونهم بتادية العبادة للاوثان كما يتهمهم الشرافصة وتقرر ان الايقونات تؤدى لهنَّ التكرمة تذكارًا ومحبةً لاعيانهنَّ . واليكَ صور العبادات التي تقررت في المجمع وهي : عبادة معزوّة . اوعبادةٌ اواسلام اكراميٌّ مقابلة للعبادة المطلقة والعبادة اللاطريا او الرضوخ التام الذي اختص المجمع بهِ الله وحدهُ . وفضلاً عن ان وكلاء الكرسي الرسولي وبطريرك القسطنطينية حضروا المجمع فقد حضرهُ جميع البطاركة الذين كانوا وقتئذٍ تحت حكم غير المومنين وقد رفض البعض من اعضاء المجمع ان يعترفوا بوكلائهم . ومن الامور التي لا يشذُّ عليه نكير أن الكراسي برمتها قبلت احكام المجمع ولم يبدُ انها ناقضته بل حاز قبولاً لدى البيعة كلها . واما الافرنسيس فلما راوا عابدين الاوثان او المرتدين الى الايمان حديثًا يكتنفونهم ضربوا لقبول المجمع اخماسًا في اسداس زمنًا طويلاً حذرًا من ان تجيش افكارهم ولاسيما لانهم كانوا مرتبكين بابهام كلمة عبادة ولم يبرزوا الاكرام الا لصورة الصليب التي كانت تباين جدًا الصور التي كان الوثنيون يخالونها مفعمة من الالوهية . ومع ذلك كله فلبثوا يحتفظون على الايقونات باكرام ويضعونها في محال مكرّمة وبقوا مصرين على ان يعتنوا محطمي الصور ولم يتأتَّ من ذلك الاختلاف شقاقٌ ولا اختصام . وبعد ان مضت على ذلك مدة من الزمن تبين الافرنسيس ان اباء مجمع نيقية لا يحضون للصور الاَّ على عبادة مثل التي كانوا هم انفسهم يؤدونها للذخائر والانجيل والصليب مع رعاية المناسبة . وادى المسيحيون برمتهم الاحترام لذلك المجمع ودعي المجمع السابع العام . وبناء على ذلك قد تهمّنا المجامع السبعة العمومية التي حازت التكرمة والاحترام في الشرق والغرب سواء كان في الكنيسة اليونانية او اللاتينية وكان ملوك الروم يلتمسون هذه المجامع العظمى بسلطانهم المطلق على الاساقفة او على روسائهم الذين كانوا حينئذٍ رعايا الدولة الرومانية ويجلبون من يلوذ بهم وكانت المراكيب العامة تقدم بامرٍ من الملوك وكانت المجامع تلتئم في الشرق حيث كان مقرهم ويبعثون بجنودٍ الى هنالك اعتيادًا

لرعاية النظام جزماً . واما الاساقفة الذين كانوا يلتثمون ثمة على ذاك المنوال فكانوا ياتون متقلدين بسلطة الروح القدس وتقاليد البيعة ومن يوم نشأة البيعة كان ثلاثة كراسٍ مترئسة على سواها وهي كرسي رومية وكرسي الاسكندرية وكرسي انطاكية. وارتأى مجمع نيقية ان تكون اسقفية المدينة المقدسة من هذه المرتبة أمّا المجمعان الثاني والرابع فقد انهضا كرسي القسطنطينية الى هذه الدرجة ورغبا في ان يكون له المرتبة الثانية وعلى ذلك تاتى خمسة من الكراسي لتبت فيما بعد بطريركية ونالت الكراسي في المجامع مقامات فكانت حينئذٍ المرتبة الاول منوطة بكرسي رومية ورتب مجمع نيقية سائر الكراسي بالنسبة اليه كلاً حسب منزلتهِ وكان ايضاً جثالقة لهم سيادة على الاقاليم وكانوا يتقدمون على الاساقفة وطفقوا من ثم يلقبونهم رؤساء اساقفة وكانت سلطتهم لا تبرح مرعية قبل ذلك وفي اثناء التئام المجمع كان الملتثمون يتصفحون الكتب المقدسة ويتلون فقراتٍ من اقوال الآباء الاقدمين الذين شاهدوا التقليدات التي كانت مغزى الكتاب وكانوا يفكرون ان المعنى الحقيقي كان كلاماً استعمالياً في الاعصار الغابرة ولم يكن حينئذٍ احدٌ يخال انهُ محقٌ بتعبيره على خلاف ذلك وكانت سهام الحرم مصوبةً على كل من لم يكن لذلك المجمع راضخاً وانهم كانوا اولاً ينهمكون في اثبات ما ينوط بالاعتقاد ومن ثم يهتمون في امر التدابير الكنائسية وقد كانوا يضبطون كل ذلك تحت قوانين وقواعد معتقدين ان الايمان لن تمسهُ شوائب التغيير. ولقد كانوا يجزمون على ان الاقتدا في الازمنة السالفة من الامور التي لا مندوحة عنها وان تكن التهذيبات جانحةً الى تغيير بعضها وفاقاً لاختلاف الزمان والمكان . ومع ذلك كلهِ فان البابوات لم يحضروا تلك المجامع العامة انفسهم بل اناطوا ذلك بعهدة وكلائهم لكنهم قرروا ما يتعلق بشان تعاليمهم بكل صراحةٍ وايضاح ولم يكن اذ ذاك في الكنيسة الاّ اعتقاد فقط

وقد اذعن الملك قسطنطين والملكة ايران والدته في باديء الامر لاوامر المجمع السابع بكل رضوخ واعتبار ٧٨٧ غير ان سلوكها في امرٍ اخر لم يكن على هذا المنوال وذلك لأن والدته اقرنته بعرسٍ ليس لها في فؤادهِ منزلةٌ من الغرام فطوح بنفسهِ الى مهاوي الهوى وطفق يعهر العاهرات فاسقاً . ولما سئمت نفسه من الانقياد الاعمى الى والدتهِ التي تعنيه بشدة تبهنسها راى ان ابعادها عن الامور السياسية من الضروب اللازمة ومع ذلك فقد استمرت تتداولها رغماً عنه وفي ذاك الحين كان العفيف الفونس متبوءا

اسبانيا ٧٩٢ وقد استاهل تلك الصفة بعيشته المستمرة في العفافة وكان ذريعة لان يرفع عن اسبانيا عار الجزية التي كان اهلوها يادونها للمغاربة وهي عبارة عن مائة بنت كان عمه مورنت منحهن لهم لكنما الفونس الباسل استكبر ذلك جدًا وابدى الى مضار القتال واجج نار الحرب عليهم . فقتل قائدهم مغاث وسبعين الفًا من جنودهم

واخذ قسطنطين يحرب الحرب على البلغاريين املاً بالفوز والغنيمة فسقط سهم امله دون مرامه لكنه حطم شوكة والدته ايرينا تحطيمًا ليستعز على سرير الملك مفردًا فحبط مسعاه كل الحبوط لانه لم يكن اهلاً لرعاية الملك وحده فطلق مريم امراته واقترن بجاريتها ثيودوث ٧٩٥ فانفت من ذلك والدته كل الانفة وثارت عليه بانظارها كل الثورة فاتى من ذلك عثور للجميع ٧٩٦ واهلكت بحيلها قسطنطين وامالت اليها الشعوب طرًا لانزالها مقادير الخراج وتظاهرت بالبر والتقوى فجنحت اليها الاكليروس والرهبان وقصارى الامر انها اصبحت وحدها قابضة على زمام الامر

واما الرومانيون فقد تحذروا تلك الحكومة وجنحوا الى كرلوس الكبير الذي كان يعني السكسونيين ويقمع السراكسة ويلاشي البدع ويذود عن الباباوات ويدين بالدين المسيحي الامم الضالة ويقوم بناصر العلوم والتهذيبات الكنائسية ويلم مجامع شهيرة فينبثق فيها سناه عليه وكانت آثار عدله وتقواه تدوخ لا فرنسا وايطاليا فقط بل اسبانيا وانكلترا وجرمانيا وما جاورها من البلدان

العصر الثاني عشر

في كرلوس الكبير او تشييد الامبراطورية الجديدة

تخير الرومانيون هذا القائد العظيم عن رومية وايطاليا او بالاحرى عن الكنيسة والنصرانية امبراطورًا ولقد كان انتخابه الى العرش فجأة دون ان يكون له مستنظرًا وذلك سنة ٨٠٠ من ميلاد السيد المسيح وتوجه لاون الثالث الذي بعث الرومانيين على ان ينتقوا ذلك القسور العظيم . ولذلك اصبح كرلوس موطدًا هذه الامبراطورية الجديدة وعظمة الكرسي الرسولي الزمنية

فياسيدي هاك مارفعته لدى جلالتك من الاعصار وهو اثنا عشر عصرًا وعينها في هذا الموجز وابنت لك كل ماهو مهم من حوادثها . ويمكن لك من الان فصاعدًا ان تنسق دون نصبٍ حسب النظام الزمني كل حوادث التاريخ القديم وان تركز كلاً منها في مقره . ولم يذهب عني ان ابث لديك في موجزي هذا التقسيم المشهور لدى المورخين وهو تقسيم مدة العالم الى سبعة اجيال وان بداءة كل جيل ليست الاَّ بمثابة عصر لنا وان رايت اني ادخلت في ذلك بعض اجيال اخرى فليس ذلك مني الاَّ لتمتاز الاشياء عن بعضها ويلوح لذلك نظام الازمنة عاريًا من التهويش والالتباس وان رايتني اناجيك بتسلسل الازمنة فلا تخالنَّ ان من ماربي ان اغريك بحفظ كل التواريخ بالضبط والدقة او ان اوقفك على خصام المورخين الذي يحدث غالبًا ببونٍ قليل من الحوول . واما الحسبان التاريخي الذي ينقر في كل هذه الفصول ويستغرقها فهو بلاشبهة جليل الفائدة بيدَ انهُ ليس مما يهتم فيه مثل جلالتك لانهُ لايزيد على سناء عقل ملكٍ عظيمٍ نورًا ثاقبًا ولذلك لم ترني انقر في استقراء الازمنة وانني قد انتقيت من الحسبان المستعمل ما هو دانٍ من الحق غير ضامنٍ اثباته

فليت شعري هل يقضى علينا بان نتفو من حسبان السنين منذ التكوين الى ابرهيم الحسبان السبعيني الذي يشعر بقدمية العالم او النسخة العبرانية التي تشعر بتاخيره عن ذلك اجيالاً مديدة . فان اسندنا استقراءنا على النسخة العبرانية بدا بذلك فضل عظيم . ومع هذا فان ذلك ليس لهُ في ذاتهِ اهمية كبرى لان الكنيسة التي قفت القديس ايرونيموس في حساب النسخه العبرانية في الفولغاتا اي النسخة العامية ادرجت الحسبان السبعيني في السنكسار وليس من ذلك للتاريخ اهمية ان زادت اجيال فارغة او نقصت ان لم يكن فيها حوادث مهمة ينقلها المورخ الى تاليفهِ . ولايكفي ان تكون الازمنة التي تتضمن الحوادث الخطيرة في حالةٍ راهنة وان التقسيم يكون موطدًا على ركنٍ قويمٍ مقرَّروان حدث احيانًا اختلاف على بعض حوول متعلقة بهذه الازمنة فذلك ليس من شانهِ ان يجيش الافكار فلو افضى بنا الامر مثلاً ان نجعل تشييد رومية او ميلاد المسيح في قديمٍ من السنين او في متاخر منها فذلك لاينجم منهُ مضرة في تسلسل التاريخ او في اتمام مقاصد الرب ولكننا مندوبون ان نحذر الشطط في الحسبان الذي يتاتى منهُ ابهامٌ في الامور نابذين عنا ما بقي للعلماء يتخذونهُ موضوعًا يحملون عليه بحثهم وجدلهم

وليس من دابي ان اهوش ذاكرتك بحسبان الاولمبياد وان كان اليونانيون الذين يستعملونهُ برونهُ ضرورياً لتحديد الازمنة لكنما يكفيك ان تعرف بما هو قائم بهِ لكي نتمكن من البحث فيهِ اذا آل بك الامر الى البحث . فيكفيك اذاً ان تتهمك في الحسبان التاريخي الذي ابرزتهُ لديك لانهُ بسيطٌ ومتداول وهذه التواريخ هي من العالم الى رومية ومن رومية الى السيد المسيح ومن السيد المسيح الى ما ياتي من الزمان . وان المارب الحق من هذا الموجز ليس لاوضح لدى جلالتك تسلسل الازمنة وان يكن ذلك ضرورياً جداً لمطالعة التواريخ ولابراز تعلقاتها واني قد اشعرتك ياسيدي ان اخص موضوعي هوان اوضح لديك بذريعة تسلسل الازمنة تسلسل شؤون شعب الله وشؤون الممالك العظمى . وان هذين الشأنين يتفقان في المسير في دور الاجيال العظيمة وما ذلك الأ لان لهما محوراً مفرداً في سيرها وليس بوسعنا ان نتوصل الى درك ذلك الأ بان نفصلها عن بعضها ونعتبر ما يليق بكلٍ منهما

الجزء الثاني

* في تسلسل الامور الدينية *

الفصل الاول

* في التكوين والازمنة الابتدائية *

ان الدين وتسلسل شعب الله المتسق هما من اهمّ المواضيع التي تعرض على الانسان فبلا ريب انهُ يرتاح الى ان يذكر حال شعب الله المتباينة في عهد الناموس الطبيعي وفي ايام الآباء وفي عهد موسى وعهد السنة المكتتبة وعهد النبي داود والانبياء ومنذ اثناء سبي بابل الى يسوع المسيح ثم في عهد المسيح اي في عهد سنة النعمة والانجيل وفي الاعصار التي كان يرى فيها يسوع وفي الاجيال التي اتى فيها وايام ان كانت عبادة الله محصورة في شعب واحد وفي الاجيال التي دوخت فيها العبادة

الارضين توفيقاً لما نوه الانبياء الاقدمون ثم في الاجيال التي كان فيها الانسان في حالة الوهن والخشونة اذ كان مفتقراً الى ان يثبت على رعاية الشريعة ليستأهل ثواباً وعقاباً زمنيين وفي الاجيال التي غدا فيها المومنون خارجين من حنادس الغي الى سناء الهدى ولم يألوا على نفوسهم الآن يكونوا عائشين في حجر الايمان معتصمين بالخيرات الازلية متجشمين المشاق قدرما يتجلدون امل ان يتمتعوا بها ومن الامور التي تليق بالله ويمكن للانسان تخيلها ان الله تعالت قدرته لم يكن يرى بدًّا في بادىء الامر من ان يتخير له شعباً يكون سمة بادية لعنايته فاصطفى اذ ذاك شعباً اناط سعادته وشقاءه بعهدة طهره ونقواه وتدل حالته على حكمة من يتولاه وعدله . فذلك ما تممك فاطر الارض فيه من ذي قبل وما ابداه في الامة اليهودية ولم يتم ذلك الأ بعد ان ابرز بعلامات بينة ان هذه الحقيقة لاتحول وانه وحده يقود كل حوادث هذه الحيوة العتيدة ولقد كان قد آن الزمن ان يرفع الانسان الى افكار سامية وهي بعث ابنه يسوع المسيح الى الارض ليصرح عن اسرار الحيوة المستقبلة لشعب حديث كان قد جمعه من شعوب العالم . فما عليك الآن تستقرىء تاريخ الشعبين وترى ان المسيح كيف كان موضوع الاتحاد بين الطرفين فانه كان سلواناً لابناء الله ومنتهى آمالهم سواء كان مأتاه منتظراً ام اتى .

وبما يدل على ان الدين متساوٍ او بالاحرى هو عينه من بدء العالمين ان الشعب كان يعترف باله واحد خلق الجنس البشري وبمنقذٍ واحدٍ له هو يسوع ويتبين لديك ان الدين الذي تستمسك بعروته اقدم شيء بين البشر وان اجدادك لم يبذلوا دون سبب سموّ مجدهم ليناضلوا في سبيله

فيالله من شهادة عظمى على حقيقة هذا الدين فان التاريخ الدنيوي لا يأتينا بنباء عن الازمنة الغابرة الأ مشوهٍ بالخزعبلات والاحاديث الملفقة بيدَ ان الكتاب كلّ الكتاب يأتينا بالنبإ اليقين عن تسلسل الشوءون المقررة ويوعز الينا عن المحدث الحق وهو الله عزّ جلاله البارىء كلّ مبروء ويمكننا من معرفة تكوين العالم ولاسيما تكوين الانسان ومن معرفة سعادته الاولى وعلة شقائه ووهنه وفساد العالم والطوفان وابتداء الصنائع والامم واجتراء الارض وانتشار بني الناس . وحوادث اخرى مهمة جدًّا لا يبرز لدينا التاريخ الدنيوي عنها نبأ غير خالٍ من التهويش والاضطراب بل يبعثنا على ان نبحث عن مصادرها الحقة في تواريخ اخرى فان كان قدم الدين يهبه اهمية خطيرة فان تسلسله

المستطردُ استمرارًا دون تغيير في كل الاعصار رغمًا عن الفواسر يدلُّ على ان يد الله سندٌ قويم له وهي لم تزل تقوم بناصره

ولا ريب في ان الدين موطدٌ على تلك الاركان القويمة منذ بدء العالم ولا تقوى عليه عبادة الاوثان ولا المجد الذي كان يكتنفهُ من كل الانحاء ولا الجائرون الذي كانوا يرشقونه بسهام المنت والاضطهاد ولا الكفرة الذين أجهدوا نفوسهم في ان يزيلوه ولا العاتون الذين لم يكونوا عليه بموءتمنين ولا الخصاؤه الذين دنسوهُ بآثامهم وجرائرهم ولا طول الزمان الذي هو القدير على ازالة الامور البشرية وهو ربُّ العجائب . فكل ذلك لم يتمكن من ازالته او فساده وان شحذنا الفكرة في التصوُّرات التي يخيلها لدينا هذا الدين الذي نحترم قدمهُ نظرًا لموضوعهِ اي الكائن الاول نوقن انه يفوق كل ما يتصوره اولو الافكار ونجزم انه منبعث من لدن العلي وان الله الذي عبدهُ العبرانيون والمسيحيون يجلُّ عن ان تضاهيه الالهة الآفكة المتألفة من عدم الكمال ومن الفساد التي كان يوءدى لها العبادة في سائر الارض . لان الهنا مفردٌ لانهاية له ومتفرد في الكمال وبيده المعاقبة على الجرائم والسيئات ويثيب اولي الفضائل لانهُ وحده عين القداسة ويفوق العلة الاولى وانه المحرك الاول الذي كان يعرفهُ الفلاسفة ولا يعبدونه وقد ذهب بعض الى خلاف ذلك وهو انه مثل لنا الهًا اوجد مادة سرمدية تقومُ بذاتها مثله وصنعها كالصانع الحقير المقتسر بصنيعهِ من المادة وكيفياتها التي لم يصنعها دون ان يدرك ان كانت المادة قائمة بذاتها لايمكن لها ان تترصد كمالها من الخارج وان يكن الله غير متناهٍ وكاملاً لم يتعسر عليه صنع ما شاء لنفسه ولارادتهِ الفائقة سموًا وقدرةً فان موسى اله ابائنا كتب عجائبه بانه نظم العالم بل صنعهُ بكمالهِ من مادتهِ وصورتهِ وانهُ قبل ان ابرز الوجود من العدم لم يكن سواه فتقرر لنا انه صانع كل شيء بكلمتهِ ولا فرق في ذلك ان كان قد صنع كل شيء بحكمتهِ او انه صنعه بدون تعسف فانه لم يلتجيء في ابراز كل ما صنع الا الى التصريح بكلمة واحدة وهي ارادته

اما الاننا فيما اننا عكفنا على استقراء تاريخ التكوين نقول ان موسى انبأنا ان هذا الفاطر القدير الذي لم يكلفه صنع المبروءات شيئًا شاء ان يصنعها مرارًا متعاقبة في ستة ايام ليشعرنا انه لم يصنعها كرهًا او بعجلة عمياء كما وهم بعض الفلاسفة . ان الشمس تشرق فتلقي على الارض اشعتها فجأةً دون ان تستمسك ذاتها لكنما الله جلَّ جلالهُ الذي يفعل كل شيء

بالرصانة والحزم والحرية المطلقة يستعمل قوته حسب ما يشا ومقدار ما يشا وكما انه لما صنع العالم بحكمته ابدى انه خلقه دون تعب لا يحول دون صنيعه مانع ولما خلقه في مرار متوالية ابدى انه سلطان المادة وعملهِ ومشروعهِ وان لا قاعدة لصنيعهِ الا ارادته المستقيمة بذاتها يلوح لنا من نفس عملهِ ان كل شيء لا ينشأ الا بهِ وان الفلاسفة الذين قالوا ان الارض التي يخامرها الماء وتضافرها حرارة الشمس بدت بذاتها وانمت بواسطة غضارتها النبات والحيوان زاغوا عن سراط الحق وركبوا متن الشطط والعثور.

وقد ابان لنا الكتاب المقدس ان العناصر لو لم يهبها الله قوة النشأة بصيغة امرهِ لكانت عقيمة فلو لم يكن الله الذي اعدَّ المادة انفًا قد كوَّن النبات والحيوان بارادته الكلية القدرة ولو لم يفض لهما البذور اللازمة ليتكاثرا في الاجيال طرًّا لما وجدا في الارض والماء والهواء.

فيا لعمري ان من يرى النبات ينمو بحرارة الشمس ويولد نباتًا تاخذه الريبة في مكونه مع ان الكتاب المقدس يعلن لنا ان الارض كانت ملتحفة بالكلا وصنوف النبات قبل ان تنشأ الشمس فذلك يبعث على الاعتقاد بان الله متفردٌ بابداع كل شيء من العدم الى الوجدان.

وقد شاء ذلك الصانع الجليل ان يبدع النور قبل ان يحصره في الشمس والكواكب لانهُ اراد ان يشعرنا ان النيرين اللذين اديت لهما العبادة لم تكن لهما في ذاتهما مادة ثمينة وساطعة يتركبان منها ولا شكل عجيب حصرا فيما بعدُ فيهِ.

ثم ان نبأ التكوين الذي نقله موسى الينا يزحزحُ لنا الغشاء عن سر الفلسفة الحقة وذلك ان في الله وحده الانماء والقدرة المطلقة وانهُ وحده لسعيد وحكيم وكلي القدرة وكفوءٌ لنفسهِ يفعل اختياريًا كما انهُ يفعل دون احتياج وان المادة لا تحجه الى الصنيع ولا تبدي لديهِ التباكا بل يصنع بها بمطلق ارادتهِ لانهُ هو الذي منحها بارادته جوهر الوجود

وبما انهُ متولٍّ عليها يجمعها ويصنعها ويدبرها ويحركها دون عناء وصعوبة ولا شيء الا يتعلق بهِ وان كانت الاشياء متعلقة ببعضها كتلقيح النبات ونموه المتوقف على حرارة الشمس فما ذلك الا لان هذا الاله البارىء الخليقة اراد ان يوثق بعضها بالبعض فتبدو حكمته بهذا التسلسل الغريب

وان ما يخبرنا عنه الكتاب المقدس بشان تكوين العالم ليس امرًا مذكورًا بالنسبة

الى ما يبثنا عنه بشان تكوين الانسان . فان الله فطر كل شيء بامرهِ وسلطانه قائلاً فليكن النور فكان النور وليكن جلدٌ في وسط المياه ولتلتئم المياه الى محل واحد وليبدُ اليبس وليكن نيّرات عظيمة تفصل بين النهار والليل ولتفض المياه خشاشاً واساماكاً ولتخرج الارض حيوانات بحسب اصنافها بيدَ انهُ لما وصل الى برء الانسان غير منهج نطقهِ فان موسى انبأنا انهُ قال حينئذٍ فلنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا وبلا ريب ان هذا الكلام يباين ما تفوه بهِ قبلاً . فان كلامهُ الانف يدل على السلطة المطلقة وينجم منه ان ما خلق قبل ان فطر الانسان لم يسعهُ عليهِ احدٌ لكنه استرق كلامهُ عند خلقهِ للانسان فكأنه استشار نفسهُ بشان ذلك الصنيع ليشعرنا بان ما هو مزمع على برئهِ يفوق كل ما برأهُ الى ذاك الحين اهمية واستلفاتاً . فقوله لنصنع الانسان يدل على ان الله كان يناجي نفسه ومن يصنع مثله ويناجي الذي خلق الانسان على صورتهِ ويناجي من هُوَ هُوَ ومن نشأ كل شيء بهِ وهو الذي قال في انجيله إن كل ما يصنعهُ الاب يصنعهُ الابن ايضاً (١) وفي غضون ما كان يتكلم مع الابن كان يناجي الروح القدس السامي المقدرة المساوي لهما في الجوهر والازلية

ولم يعلم من الكتاب المقدس ان احداً تكلم عن نفسهِ بصيغة الجمع سوى الله تعالت قدرتهُ حيث يقول . لنصنع . وانهُ جل جلالهُ لم ينهج على ذلك النمط سوى مرتين في الكتاب المقدس او ثلاثٍ ولم يبدُ ذلك التعبير منه الاَّ لدى مباشرته برُوء الانسان واذا ما غير الله منهج كلامه بنمط من تصرفهِ فذلك ليس دليلاً على انهُ يتغير في ذاته بل يود ان يشعرنا انهُ عازمٌ على ان يبرز في الاشياء نظاماً مختلفاً حسب آرائهِ السرمدية وبناء على ذلك فان الانسان المترفع فوق سائر المبرؤات التي انبأنا عنها موسى الكليم برز الى الوجود بامرٍ يبعث على الدهشة والحيرة . فان الثالوث طفق يبدو لما كُوِّنت الخلائق الناطقة التي قواها العقلية في صورة غير كاملة للافعال الازلية ومن ذلك يتبين ان الله مخصابٌ في ذاتهِ

اما الاستشارة التي احتفل بها الله فتدل على ان البريّة التي عنى برءها متفردة في ان تبرز افعالاً باختيار وعقل ولا ريب في ان ما خلق عدا الانسان يذهل العقول

---

(١) يوحنا ص ٥ : ١٩

ويحير الفكر . ولم أتنف في سفر التكوين الى الان على ان بدَ الرب مست المادة الزائلة غيرَ انه لما شاء برء الانسان اخذ بيده ترابًا امسى في ما بعدُ ذا هيئة تنزّهت عمّا بدا فيما مضى قبلها . فللانسان قوامٌ قويمٌ وهامةٌ رفيعةٌ وعينانِ لها وجهةٌ الى العلاء فهذا التكوين يدله على اصلهِ وعلى المحل الذي هو مندوبٌ ان يناوحهُ بباصرتيه . فالعناية التي ابرزها الله لدى برئهِ الانسان تشعر بان فيه اهتمامًا خاصًا بهِ وان تكن سائر المبروءات سواء برزت الى عالم الكون فجأة بفرط حصافته وحكمته السامية . واما ابداعة النفس فمن الشؤون التي تورث الفواد عجبًا انهُ لم يبدعها من المادة بل نفخ في انف الانسان نسمة حيوةٍ . ولما خلق نوع الحيوان قال فلتفض المياه اسماكًا فبرزت حيتان البحار وكل ذي نفسٍ حيةٍ متحركة مزمعةٍ على ان تعم اللجج وكل الحيوانات التي تدب على بساط الارض والطائفة الزحّافة (١) فعلى ذلك المنوال كان تكوين الارواح الحيّة ذوات الحيوة الوحشية والبهيميّة التي لم يمن الله عليها بسوى الحركة التابعة لاجسامها وابرزها الى الوجود من الارض والمياه . اما النفس المزمعة ان تكون كمثال حياتهِ وتحيى مثله بالعقل والادراك وتتحد معهُ بتأملها فيه وتوقانها اليهِ فقد كونها الله كمثالهِ ولم يمكن للمادة ان تكون علة تكوينها وان الله الذي انشأ المادة لا يعسر عليه ان يبرز منها جسمًا عظيمًا لكنه وان احكم صنعهُ وقلبهُ يتعسر عليه ان يجعلهُ مماثلاً لصورتهِ مع ان النفس المشرفة على ان تمتطي غارب السعادة بامتلاكها ربها آل بها الامر ان تكون تكوينًا جديدًا غريبًا وذلك انها تاتي من العلاء وابد ذلك نسمة الحيوة التي نفخها من فيه مبدع الكائنات . ولنتذكرنّ ان موسى عرض على ذوي الجثمان حقائق روحانية بصور حسية ولا نخالنّ ان نفخة الله في فم الانسان كالنفخات الحيوانية ولانتوهمنّ ان نفوسنا نسماتٌ عليلة او بخرة نحيلة لان النفخة التي ينفخها الله والتي هي حاوية في ذاتها صورة الله ليست هواء ولا بخارًا ولا نظن ايضًا ان نفوسنا هي جزءٌ من الطبع الالهي كما وهم بعض الفلاسفة لان الله ليس بكلٍ معرض للتجزئة فلو كان لله اجزاء لما كانت صنعت فان الخالق لا يكون مخلوقًا والذلك لا يتركب من أشياء مخلوقة . والحال ان النفس مخلوقة وليس فيها شيءٌ من الطبع الالهي . وانها مبروءة على صورة الله كمثالهِ فقضي عليها بان تستمر متحدة مع صانعها وتتخذ

---

(١) سفر تك ١ : ٢٠ و٢٤

لمصداق ذلك دليلاً من النفخ الالهي الذي يبدو لدينا بهذه النفس الحية . فما قد تكوّن الرجل وكوّن الله منهُ زوجاً زفّت بارادة الله اليهِ وامسى البشر كافة يتناسلون من محتدٍ واحدٍ حتى اصبحوا كانهم عائلة واحدة وان كانوا يتشعثون في الارضين ويتكاثرون . وبعد ان برأ الله آدم ابانا وحواء أُمنا اقامهما في روضة غنّاء يقال لها الفردوس . واقتضى لله اذ ذاك ان يجعل صورته سعيدة

واوجب على الانسان وصية تشعرهُ بان لهُ ربًّا فكان ما اوصيَ بهِ متعلقاً باشياء حسية لانهُ لم يكن حينئذٍ عارياً من الحواس . ولم تكن تلك الوصية عسرة عليهِ لان الله اراد ان يجعل لهُ الحيوة هنيئة ما دام عائشاً في البر والتقى فازورّ الانسان عن القيام بحق تلك الوصية واصاخ لمنطوق المجرب المختال تابعاً ما اوعز بهِ اليهِ نابذاً وراء ظهره قول ربهِ فاشرف حينئذٍ على ان يهوي الى دركات الهلاك ولا غروَ ان الله خلق اولاً الملائكة ارواحاً بسيطة منفصلة عن المادة وجعلهم في حالة القداسة . اما هولاء الملائكة فقد كان يقتضي ان يقدموا نفوسهم لخالقهم اختياريًّا رجاء ان يستمروا على السعادة بيدَ ان كل ما خرج من العدم لا يكون كاملاً ولذلك قد استولى الحب الذاتي على قلوب بعضهم . فويلٌ لمخلوقٍ يعتجب بنفسهِ لا بخالقهِ فان ذلك الاعجاب يكون لهُ ذريعةً لان يفقد كل ما منحه خالقه العظيم ولا ريب ان الجريرة عظيمة المفعول . وبناء عليه اصبحت تلك الارواح النيرة ارواحاً حالكة وان ذلك النور الذي كان فيها اصبح كله مكراً وخداعاً وتجنت قلوب الملائكة من الشر بدلاً من المحبة وتحولت تلك العظمة فيهم الى كبرياء وصلف وسعادتهم الى السلوان الشجيّ بان يروا لهم شركاء في تعاستهم واصبح طغيانهم لابناء البشر وتهافتهم على تجربتهم من الامور التي يرونها سعيدة جداً . وان من كان بينهم يفوق الجميع كمالاً اضحى شديد الخنزوانة مستكبراً ولذلك غدا اتعسهم اجمع واشرهم . واما الانسان الذي نقصهُ عن الملائكة قليلاً فلما احرزهُ في جسمانهِ اصبح موضوع حسد الروح الشرير فازمع الملاك الشرير على ان يحمله على التمرد والعصيان رجاء ان يشركه في ورطة هلاكهِ . ولقد كان للخلائق الروحانية ما هو لله من الوسائل اللازمة الحسية للمداخلة في امر الانسان الذي ليس بينها وبينهُ من المشابهة في الجوهر بونٌ عظيمٌ فبناء على ذلك اصبحت الارواح الشريرة التي استخدمها بارىء الكيان ليختبر امانة الانسان ملازمة لها تلك الوسيلة قصد المداخلة في الفطرة الانسانية وقد كانت

عديمة السلطة على الخلائق الجسدية فعكف الشيطان الخنّاس على تلك الوسيلة وخادع ابوينا فاهبطهما من العزّة الى الغرّة فسمح له العليّ بان يلج جوف الثعبان لان الثعبان حريٌّ بان يمثل خبث تلك الروح الشريرة ولم يكن وسيلةً لان يقشعرّ منها ابوانا لان الحيوان طرًا بدا امام مقلتي آدم في بادىء الامر قصد أن ان يعين لها اسماء لكلٍّ حسب نوعه ولتؤدي الرضوخ لذلك الملك العظيم الذي مازهُ ربهُ بالرفعة عنها واقامهُ عليها سيدًا ولذلك لم تكن الرعدة تستولي على فؤادهِ لانهُ طالما كان على تلك الحال لم يكن لحيوانٍ ان يبادههُ بادنى مضرّةٍ

اما الان فلا يذهب عنا ان نعرف ما ناجاهُ بهِ الشيطان الختول وما اتاهُ بهِ من الخبث والرياء . ولما كانت الانثى منفطرة على الضعة والوهن اخذ يناجي حواء وكان في اثناء مكالمتهِ اياها يكالم بعلها قائلاً لكليهما علامَ صدكما الله من ان تلتهما هاتي الثمرة الناضرة فان كان برأكما ناطقين فليس من العدل ان تخفى عليكما من علل الكائنات خافية واني لاوقن ان هذه الثمرة لايخامرها سمٌّ زعاق وليست نفساكما تزهقانِ لدن اكلها فالتهماها تنجلِ لديكما الغوامض فشدًا عليه في بادىء الامر نكيرًا ثم طعنا في كبد الرضوخ سهام الريبة فاعاد عليهما الحديث قائلاً كلا الثمرةَ تزايلا نطاق العبودية ويفسح لكما جددُ الحرّية وتمسيا الهةً تستأثران السؤدد والسعادة وتسح عليكما ميازيب الحصافة والحكمة . وتعلما الخير والشر اي لا يتوارى عنكما من الامور شيء فبذلك يطفق العقل يقاوم اوامر الخالق ويدوس القوانين فرنت حواء الى الثمرة واستطابتها وجذبتها اليها الشهوة النفسية . ولما كانت عالمة ان الله قد احرز في الانسان النفس والجسد فكرت ان يكون قد اناط بالنبات قوىً خارقة واحرز في المحسوسات هباتٍ عقلية فاخذت من ذلك الثمر واكلت وقدمت من ذلك لبعلها فاصبح عرضةً لكل خطرٍ جسيم فان التموزج والملاطفة يضعفان التجربة ولهذا اذعن لمآرب الطاغي فعمي عليهِ أمرهُ واستولت عليه الكبرياء والصلف واللذة الباطنية فكل ذلك بعثهُ على ما فعل ولم يكن الا لينقاد لمرضاة شهوته وغرّهُ نضارة الثمر فانقلب عبدًا للحواس بعد ان كان سيدًا

فعند ذلك انقلبت لديه المناظر واصبحت الارض غير بهجةٍ عندهُ كما كان يراها اولاً اذ لم يكن يتلقف منها شيئًا الا بعد مقاساة العناء والمتاعب ولم يعد يرى السماء صافية نافية . واما نوع الحيوان طرًا الذي كان علة ارتياحهِ ونزهتهِ فقد بدا لديه هائلاً

مرعبًا وبعد ان كان صنع العليّ كل شيء لامرهِ وسعادتهِ احالهُ لتعبتهِ والتبرج بهِ واصبح ذلك الرجل يطرح نفسه تحت اوقار العذاب بعد ان كان كل شيء بودهِ فثارت حواسهُ ثورةً ايقظت فكرهُ وارتهُ في نفسه اشياء تبعث على الخجل . واستحالت هيئتهُ الاولى التي برأهُ بها ربهُ الى هيئة حملته على ان يجهد النفس باخفائها واصبح منغمسًا في غمرة التثريب والحياء وكان يود لو يكون متواريًا مستورًا وشقت عليهِ روية خالقه جدًا لان الله ذا الحول والطول الذي براهُ على مثالهِ ومنحهُ حواس تسعد عقلهُ وبدا امامهُ بهيئة محسوسة امسى الانسان لا يطيق مرآه ولا الدنو منه بل كان يتمنى ان يتبطن في وهاد المفاوز رجاء ان يبابن وجه من كان موضوع سعادتهِ وجذله واخذ من ثم ضميرهُ يونبهُ قبل ان ناجاهُ العليّ واتى بعذرٍ قضى عليه بالخزي والعار واصبح هدفًا لسهام الردى . ونزع منهُ إساء الهلاك واصبح موت نفسه الامارة رمزًا الى موت جسده الواهن وبناء عليه فقد قضي علينا بقضائه فان الله الذى كان في عزمه ان يثيب كل اخلافه فقد عاقبهم بجريته بعد عتوه وعصيانه ورشقنا طرًا من بعده بسهام الانتقام ولذلك اصبحت ولادتنا مبنية من اصلها على الفساد . وليس من شاننا الان ان نبحث عن عدل الاله بقضائه على الفطرة الانسانية بل لا يحولنّ دون عبادتنا احكامه حائل ولعمري هل يمكن لنا ان نعتبر البشر كافة مرذولين كابينا آدم فذلك لا يتيه عن معرفته احدٌ بل انهم سقطوا من عليين سقوطًا ابديًا وحرموا الجنة حيث كانت لذة ابينا

اما نظام العدل الانساني فيترتب عليه اسعادنا على ادراك كنه العدل الالهي وما ذلك الّا لانه رمزٌ اليه غير انه يتعسر عليه ابانة عمق هذه الدركات . ومن المقرر لدينا ان العدل الالهي ورحمته لا يقاسان بالعدل الانساني ورحمته بل لكلٍّ عواقب اكثر سعةً وتخصيصًا

وفي اثناء اعنات الله عبادهُ وايساعهم ارهابًا ووعيدًا يثني اعطافهم الى موضوع آخر اعز لديهم وهو رجاءهم في النجاة اعدهُ الباري لمبروئيهِ منذ سقوطهم فان الله ابان لامنا حواء في انسياب الثعبان المزور المضاهي لخداع الروح الختول اخلاق عدونا المقوتة وما أعدّ له من كبير العقاب ولذلك اصبح الثعبان مرشوقًا بنبال التلى والبغضاء اكثر من اصناف الحيوان اجمع والشيطان ملعونًا اكثر من الخلائق قاطبةً وكما ان الثعبان يستمرُّ منسابًا على بطنهِ فيستمر الشيطان اسفل بعد هبوطه من صهوات العلاء وقبل في

الكتاب المقدس ان الثعبان يقتات ترابًا وليس ذلك الاّ رمزًا الى الافكار الدنسة التي يبعثنا عليها الشيطان ولا ريب في انه نفسه لايفكر الاّ باشياء دنسة لان افكاره كلها آثام وجرائم . وان البغضاء بين الشيطان والنوع الانساني تشعرنا باننا نكون عليهِ ظافرين بزرع مبارك بان يدوس راسهُ اعني يقمع كبرياءهُ ويلاشي صالهُ عن وجه البسيطة

وما ذلك الزرع المبارك الاّ يسوع المسيح ابن مريم البكر ومن المعلوم ان خطيئة آدم الاصلية الحقت بنسلهِ اجمع الاّ يسوع المسيح لانه ولد انسانا بنوع الهي وهو انه لم يحبل به من الانسان بل من الروح القدس وبناء عليهِ فانه بواسطة الزرع الالهي او بواسطة الامرأة التي حل في احشائها حسب تعبير هذه الآية المتباينة يخف الهلاك الانساني وينتزع السلطان من الشيطان مالك العالم لكونه ليس له شيءٌ في يسوع المسيح (١) اما الجنس البشري فقبل ان يمن الله عليهِ بذلك الفادي العظيم فقد انباءُ الاخبار المستطيل انه مفتقرٌ الى المضافرة والاعانة . فترتب عليه امر نجاته وفسدت طباع الانسان وغالى في الرذائل والقبائح وامتلأت الارض آثامًا وجرائم . فعند ذلك فكر الله في ان ينتقم منه بامرٍ يخلد ذكره بين البشر كافة فاجرى عليهِ ميازيب الطوفان عرمرمًا فذهب صيت ذلك ما بين نوع الانسان قاطبةً ولم يزل الى الان تلهج بذكره الامم وما بعث الله عليه من الاثام . فلا يخالنَّ الانسان اذ ذاك ان العالم يسير من تلقاء نفسه وان كل ما كان يبقى على ما كان بل ان الله الذي برأ كل شيء والذي لايكون كلُّ شيءٍ الاّ قائمًا بأمرهِ ازمع على ان يفرق نوع الحيوان والانسان وان في نفسه ان يلاشي احسن جزءٍ من صنعهِ .

ولم يكن محتاجًا الاّ الى قدرته بان يزيل ما صنعهُ بينت شفة لكنهُ رأى ان من اجلِ شأنه ان يستخدم خلائقه ذريعةً لانتقامهِ فدعا المياه تنتقم من الارض المغشاة بالذنوب . بيدَ انه رأى ما بين اولائك رجلاً صدوقًا يستحق النجاة فان الله قبل ان رعاه من طوفان الماء كان قد رعاهُ بنعمته من طوفان الخطيئة ورعى عائلتهُ اجمع لتعمر الارض ثانيةً حيث انها امست ان تكون خاويةً وانه بوساطة هذا الرجل الصدوق حفظ الله نوع الحيوان لكي يعرف الانسان انها صنعت لاجلهِ رجاءَ ان يستخدمها تمجيدًا للرب خالقهِ . ولقد صنع

---

(١) يوحنا ص ١٤ : ٣٠

شيئاً اعظم من ذلك وهو انه اسف جداً على اجراء عدلهِ الصارم بعقابهِ للانسان الاثيم بان لا يبعث اليهِ مرة اخرى بطوفانٍ غامرٍ وابرم معهُ ومع سائر الطيور والبهائم (١) عهداً تدل عليهِ قوسٌ نصبها في الرقيع فوق الارض وما ذلك الاَّ ليشعر بان عنايتهُ تمتدُّ فوق كل ذي حيوة فبدت تلك القوس مشكلة الالوان تخبرها ان تكون في غمامٍ رقيقٍ يحمل ندىً لطيفاً غيرَ متغيرٍ ان تكون في غمامٍ لبدٍ يحمل مطراً سحاحاً . وذلك دليلٌ على ان الامطار التي تسيل من ميازيب الغمام لا ينشأُ منها فيما بعد طوفانٌ جارفٌ . ومنذ ذاك الحين اخذت القوس تبدو في المشاهد السماوية كانها زينة العرش الالهي حاملةً آثار رحمتهِ الصمدية . ومن ثمَّ عاد العالم الى نشأتهِ الاولى وبرزت الارض من غمرة المياه ومع ذلك فقد بقي لانتقام الله على ابن الطينة اثارٌ ليست بزائلة فان الطبيعة كانت منذ البدء الى الطوفان شديدةً قوية لكنما الارض بعد ان اماهت عليها السمآء وطال مكث المياه عليها ذهبت عنها الغضارة وفسدت ماوبتها وتناقلت الاهوآء الرَّطابة وكثر الفساد واخذت آجال الاناس تتقلص فان الاعمار الانسانية كانت في ذلك الحين تصل الى الف حولٍ فاعتراها من ثمَّ التناقص رويداً رويداً من لدن العليّ وزايلت الاكلآء والثمار تلك القوى الاصلية واقتضى ان يقتات الانسان بعد ذلك من لحمان الحيوان وبنآء على ذلك اخذت الآثار الاولية تصبح عافية الرسم رويداً رويداً وقد كان ذلك التغيير الطبيعي دليلاً يبعث الانسان على ان يشعر بان الله تغير عليه بالغيظ والانتقام اذ تعاظمت آثامهُ وجرائمه . ولقد جآء في تاريخ شعب الله ان حيوة بني الانسان لم تكن في الابتدآء غير مأثورة لدى الشعوب بل ان تقاليدهم القديمة قد ابقت لها في بطن التاريخ ذكراً خالداً وكان الموت الذي يباده الفطرة الانسانية يستلفتهم الى ما يلمّ بهم من الانتقام السريع ولما كانوا يستمرون كل يومٍ متسكعين في مهامهِ الآثام آل الامر ان تعنيهم العذابات المبرحة . ولا ريب في ان تغيير اقتياتهم اللحماني كان يشعرهم بانهم اصبحوا في حالة بوسى فان قواهم امست واهنة جداً واكبوا في الوقت نفسهِ على النهامة واهراق الدمآء . وقبل الطوفان كان الغذآء الذي يغتذيه الاناس كآثار حياتهم الساذجة واخلاقهم الرضية غلار الارضين تتساقط لديهم من تلقآء ذاتها . اما الان فلا يطيب لنا الغذآء الا بان نهريق الدماء قسراً

....

(١) تكوين ص ٩ : ٩ و ١٠

عما يأخذنا لذلك من الهول والدهش وان الوسائط التي تقوم بها قصدَ تغشية خوان الطعام تكاد لاتكفي ان تواري عنا الجثث التي ارقنا دمها في سبيل اقتياتنا. وما ذلك الاَّ جزءٌ مما يلمُّ بنا من الكوارث فان الحيوة التي تقلصت بعد ان كانت مدينةً بادهنها المظالم والجور بالنقص فان الانسان بعد ان كان في بادىء الامر يوفر حيوة الحيوان فقد اغرته العادة بان يسفك دماء ابن طينته وان ما اوصاه به الله ان لاياكل لحم الحيوان بدمه وان لا يريق دماء اولاد جبلته ذهب ادراجَ الرياح ولم يقم الانسان بحق رعايته ولم يوحِ الله بذلك الاَّ ليبقي له من اخلاقه الاولية اثرًا رضيًا. ومع ذلك فان القتل زاد وفشا وان يكن قايين حرج صدرهُ على اخيه هابيل قبل الطوفان فاجرى دمهُ على الارض صبيبًا ولامك من اخلاف قايين هو ثاني من اجترأ على ان يريق مثله الدماء ويمكن لنا ان نفترض ان غيرهما قد اقتفى اثرهما السيء فان الحرب كانت وقتئذٍ في عدم بحتٍ لا يتهافت على احرابها العالمون. فنشأ بعد الطوفان فقط جبابرة يعثون في البلاد ويخترقون الدساكر يدعون فاتحين فهولاء اغرام الهيام بسمو السوءدد والمجد بان يناصبوا الابرار ويبيدوا منهم عددًا كبيرًا فنشا من اخلاف حام المخزى من ابيه (١) رجلٌ ملعونٌ يقال له نمرود سوّلت له النفس الامارة على ان يشيد له مملكة فغالوا من ذاك الحين في الترهات واخذت المطامع النفسية تلعب بالحيوة البشرية لا تثنيهم عن المفاسد شكيمة فطفقوا يتقاتلون ويتساورون بغيًا وعمدًا واصبح من اعزّ الفنون واسماها ان يتفانوا ويجعلوا هياكل الاجسام عظمًا رميمًا. وبعد ان مضى على الطوفان نحوٌ من ماية سنة سخط الله على بني الانسان وضربهم ببلية كبرى هي بلبلة الألسن ولو لبثت اللغة التي علّمها آدم لاولاده وتدولتها السنة الاقدمين عامة بعد ان تشعث اولاد نوح وهاموا على وجوههم في شواسع الارض لكانت وثاقًا متينًا ترتبط به الالفة الاجتماعية بيدَ انها قد اعتراها الاضمحلال وعبثت بها ايدي الملاشاة لدن اقامة البرج في بابل ولافرق في ذلك ان كان اولاد ادم الجاحدون لم يثقوا بمواعيد الرب التي يعني منها ان الطوفان لن يغمرهم مرة اخرى فاخذوا يبنون لهم لجأ شامخًا يلوذون به وقت النازلة محتصنين او انهم قصدوا ان يخلدوا لهم ذكرًا ببنائه قبل ان تلعب بهم ايدي سبا متشعثين

....

(١) سفر التكوين ص ١٠ : ٩.

وذلك ما يدل عليه سفر التكوين فاحبط العليّ سعيهم بان صدفهم عن تشييد ذلك البرج الباذخ آملين ان تنطح شرفتهُ روق الغمام فاوقع بينهم الشقاق والاضطراب ضاربًا بينهم وبين لغتهم السجاف الاولى المستور فتناست عندهم ومن ثمَّ اخذوا يجتزئون الى امم وقبائل واخذت تتنوع بينهم اللغات ودل على الوسوسة التي تعنى من البلبلة برج بابل الدال على الاضطراب وليس ذلك الأ كانتقام خالدٍ من الفطرة الانسانية على ان الكبرياء هي مصدر الانقسام والبلبلة بين البشر .

فذلك ما كان بدء العالم كما يستفاد من تاريخ موسى فكان ذلك الابتداء في بادىء الامر سعيدًا ثم تشوه بالمشاق والكوارث الخارقة . فان استلفتنا الانظار الى كيفية بريثهِ بالنظر الى باريثهِ القدير نراه عجيبًا غريبًا وهذا البدء يستمر كما نعلمهُ عند التبصر فيه معتبرين ان الجنس البشري لا يزال في قبضة الخالق الذي انشأهُ من العدم المحض بمجرد كلمته ورعاه بصلاحهِ وساسه بحكمته وعاقبه بقسطاس عدله وانقذه برحمته وهو لم يزل راضخًا لسلطانه .

وليس العالم كما زعم بعض الفلاسفة انه موءلف من كتلٍ تلاقت بعضها على سبيل الاتفاق وليس كما زعم بعض من هم احصف منهم وهو ان المادة كانت منذ الازل فتلقفها خالق الكون فاصبح حينئذٍ امركيان الكون لايتعلق بالخالق نظرًا لجوهر الوجود او نظرًا للحال الاولى لكنهُ قيد لها نواميس ليس بوسعه ان يناقضها .

لكن موسى والاباء الاقدمين الذين روى لنا عنهم النبأ الاكيد يثبتون لنا بذلك آراءً سديدة وهي ان الاله الذي يستلفتنا اليه الكلّ قابضٌ على سلطانٍ اخر عظيم وفي وسعه ان يبرم ويزيل مثلما يشاء ويقيّض للطبيعة نواميس يقوّضها متى اراد . ولما نساه اكثر بني الانسان اراد ان يبدو لديهم فاخذ من ثم يبدي الاعاجيب المرهبة فالجأ الطبيعة الى ان تزايل نواميسها الثابتة ولدن ذلك طفق يبين انه هو السلطان المطلق الذي بيدهِ وحدهُ ان يحفظ وثاق النظام في العالم .

ولا ريب في ان بني الانسان نسوا خالقهم لان ثبات ذلك النظام العظيم لم يكن صالحًا الّا ليقنعهم انه خالدٌ من تلقاء ذاتهِ وذلك ما حملهم على ان يعبدوا العالم طرًا او النجوم والعناصر او كل الاجرام التي يتالف منها . فلما اراد الله ان في بعض ظروف مهمة نقض ذلك النظام ابدى جودة عظمى فلم يكونوا اذ ذاك يعجبون او يندهشون من ذاك النظام لانهم كانوا قد الفوه بل انه كان يبعثهم على ان يتوهموا لكثرة غرّتهم وعمه

بصائرهم ان الابدية والاستقلال خارجان عن الله

وتاريخ شعب الله المثبت بتسلسله وبصلاح اولائك الذين كتبوه او باستقامة اولائك الذين رعوه من الغائلة باعتناء عظيم يذكر تلك العجائب صريحًا ويبدي لنا سلطان الخالق المطلق على كل مخلوقاته سواء كان قد اخضعها لنواميس الطبيعة او بوءهلها لان تكون مهيأة للرضوخ لنواميس غيرها اذا آل الامر ان ينذر عباده التائهين في الضلالة باعمال غريبة

فذلك هو الاله الذي ينبئنا عنه موسى وهو الاله الفرد الصمد الذي يحق ان يعبد . عبدهُ من قبل موسى الاباء وهو اله ابراهيم واسحق ويعقوب فشاء ابونا ابراهيم ان يقدم له ابنه الوحيد قربانًا وكان ملكيصادق المرموز به الى المسيح كاهنًا له وقدم له نوح لدن خروجه من السفينة محرقات واعترف به هابيل الصدوق اذ قدم له اعز شيء لديه وخلف الله على آدم بعد هابيل بشيت واظهر آدم عينه لبنيه انه اخرجه من بين يديه وانه هو وحده الذي يرفع عن عواتق ذريته اثقال المشاق المبرّحة

فيا لله من فلسفةٍ عظمى تبعثنا على ان نقف على علة وجودنا ويا لهُ من تقليد عظيم يرعى لنا ذكر هذه الصنائع العجيبة ويا لهُ من شعبٍ ذي برٍّ وقداسةٍ هو شعب الله الذي يتسلسل تسلسلاً غير منفصل من بدء العالم الى ايامنا هذه ويحفظ دائمًا هذا التقليد وهذه الفلسفة المقدسة

الفصل الثاني

في الكلام عن ابراهيم والآباء

سيدي . لايخفى عليك ان شعب الله كان في عهد هذا الاب الصدّيق في رعايةٍ نظامية ولذلك لابدَّ عني ان اضرب عن التبيان عنه لديك فاقول . ان ابراهيم ولد سنة الثلاثمائة والخمسين بعد الطوفان حين كانت حيوة بني الانسان مديدة وان كانت وقتئذٍ قد تقلصت فان نوح استعزَّ به الله في مقربة من لدة ابرهيم وكان ابنه سام في ربق حياته فقضى ابراهيم معهُ في لدة الحيوة اعوامًا كثيرة

فياسيدي ان حانت منك التفاتة البصيرة الى ذلك العالم الحديث الذي كان

وفتنذٍ كانت مبتلّة بماء الطوفان ترَ عجيبًا . ولاسيما لما كان بنو الانسان القريبين بهذا المقدار من بداءة الامور لا يفتقرون الى معرفه وحدة الله وما يفرض عليهم من القيام بخدمتهِ ليعرفوا التقاليد التي حفظت منذ آدم ونوح الى ذاك الوقت الذي هو وشيكٌ من الاصل جدًا . وفضلاً عن ذلك فقد كان ذلك التقليد من الامور التي لا يقيم عليها العقل نكيرًا بنوع ان تلك الحقيقة البينة لم تكن على شرف التناسي بين البشر ولبث حال الدين على ذلك المنوال الى عهد ابراهيم اذ لم يكن بنو الانسان مفتقرين الى معرفة الرب الأ بان تدلهم على ذلك عقولهم وذاكرتهم بيدَ ان العقل كان ضعيفًا يعروه فسادٌ واختلال . وكلما كان البشر يتقاصون عن الاشياء الاولية كانت تتوسوس تصوُّراتهم التي تلقفوها من آبائهم فعقَّ الاولاد متمردين وتمزّق عنهم شعار الاداب وابوا ان يذعنوا لكلام اجدادهم المعمّرين اعوامًا ولكثرة مغالاتهم بعد كل هذه الاجيال في تلك الاخلاق الخشنة اوشكوا ان لا يعرفوهم . واصبح الجنس البشري منحطًا عن المدارك العقلية يخبط في مهامه الخشونة والهمجية وازمع على ان لا يعبد الا ما تستقر عليه حاسة البصر ولذلك فشت عبادة الاوثان في اقاصي الارض

واما الروح الشرير الذي أطغى الانسان الاول فكان يجني ثمرة خداعهِ ويشاهد غوائل كلامهِ لما قال لادم وحواء انكما تصيران من الالهة ومن حين تفوه بذاك الحديث معهما فكر في نفسهِ انه سيدب التهويش والاضطراب في فواد الانسان ويجعله يمزج تصوّره بالله بتصوره بمخلوقاتهِ عازمًا على ان يجتزيء اسمه القدوس الذي هو محصور في عزته الالهية فركب بذلك متن الفلاح ولبث البشر المجانيون الدمويون يتصورون في الله تصورًا مبهمًا وهذا التصور ثبت بقوته الخاصة . بيدَ انه لما امتزج بالتصورات المتاتية من المشاعر عكف البشر على ان يعبدوا كل ما فيه قدرة وقوة ولذلك اصبحت الشمس والنجوم التي تظهر قوتها عن بعد والنار والعناصر التي مفاعيلها عامة من الامور الاولى التي تحق لها العبادة العامة من البشر كافة ثم الملوك العظام والجبابرة الفاتحون الذين كانوا اصحاب جرأة وصولة . ثم الذين اخترعوا اشياء مهمة للطائفة البشرية امسوا من الذين أديت لهم الكرامة الالهية وعوقب البشر بخضوعهم لحواسهم وامست تلك الحواس فيصل حقٍ في كل الامور ولم يمكن للعقل ان يصدها عن صنع الالهة التي أُديت عبادتها في جميع الارض

فلكم بدا الانسان حينئذٍ قاصياً عن وضع نظامهِ الاول ولكم اصبحت فيه صورة الله فاسدة . فليت شعري هل من العدل ان يقال ان الله براهُ في تلك الاميال السيئة التي كانت على وشك الازدياد يوماً بعد يوم وذلك الميل الغريب قد حملهُ على ان يعتاض عن عبادة مولاه الطبيعي بعبادة كل ما تراهُ مقلتاهُ فهل ذلك لا يدل بنوع جليّ على ان يداً غريبة لعبت بعقل الانسان فافسدت كل ما صنع الرب حتى لم يبقَ لذلك الاَّ آثارٌ قليلة فعمه الانسان بصيرة وتاه في ليل الضلالة مغروراً في عبادة الاوثان ولم يكن في ذلك الوقت شيءٌ يصدفه عن ذلك فنما الشروفشا وكاد يخيم على قاطبة البسيطة . ولما فكر المهيمن المتعال انهُ ان لم يبعث اليه بدواءٍ شافٍ يمتد في الارض طراً وتخفى عن عقول البشر معرفة الله دعا عبده ابراهيم وقيض لهُ ولعيلتهِ عبادته وامرهُ ان يحافظ على الاعتقاد القديم في تكوين العالم وفي العناية الخاصة التي يسوس بها الرب الامور البشرية . وذهب صيتهُ في اقاصي الشرق ولم يكن العبرانيون وحدهم يتخذونهُ اباً لهم بل الادوميون ايضاً وقد كانوا يتفاخرون بانهم من اخلافهِ . وقد عرف اسمعيل عند العرب ان اصلٌ لهم واستمرت الختانة عندهم دليلاً على اصلهم ولم يكونوا يختنون في اليوم الثامن من ميلاد الطفل حسب عادة اليهود بل في السنة الثالثة عشرة استناداً على ما علمناهُ من الكتاب المقدس عن اسمعيل ابيهم ولبثت هذه العادة محفوظة عند المحمديين . وشعوبٌ اخرى عربية يتذكرون ابراهيم وامراته قطورة وهولاء هم الشعوب الذين يعزوهم الكتاب المقدس الى هذه النسل وكان ذلك الاب كلدانيٌّ المحتد ونبغ هولاء الشعوب في معرفة الارصاد الفلكية وكانوا يثقون بان ابراهيم لهُ الباع الاطول في فن التنجيم وقد زعم المورخون السوريون انهُ استولى على العرش ملكاً في دمشق وانهُ اتى من انحاء بابل ويثبتون انهُ غادر مملكة دمشق ليسكن بلاد كنعان التي دعيت فيما بعد يهودية . لكنما الاجدر بك ياسيدي ان تثق بما ينقلهُ عنه تاريخ شعب الله وقد اسلفنا ان ابراهيم كان عائشاً عيشة الاقدمين قبل ان اجتزأ العالم الى ممالك وقد كانت لهُ السطوة على اهلهِ الذين كان عائشاً معهم عيشة رعائية مشهورة بالسذاجة والبر وكان مثرياً يملك من المواشي والعبدان والفضة شيئاً كثيراً ولكن لم يملك شيئاً من الاقاليم وفسيح الارض . ومع هذا وان كان في مملكة غريبة فقد كان محترماً ومستاثراً بالآلو عائشاً عيشة الملوك وما ذلك الاَّ لان يد الله كانت تقوم بناصرهِ وتقرب اليه المكرمة من

ناظريه نظراً لما كان عليهِ من طيب السريرة ونزاهة النفس وكان يوافي الملوك الذين يرومون اخاءهُ فشاع من ثمّ انهُ كان ملكاً . وقد أجج الحرب مراراً قسراً عن سذاجة عيشتهِ وجنوحهِ الى الصلح ولم يحارب الحرب احياناً الاَّ ليدافع عن المظلومين الذين كانوا يواخونه فاخذ بثارهم ظافراً ظفراً عجيباً ووهبهم اموالهم التي انتزعها من اعدائهم ولم يبقِ في يدهِ منها الاَّ العشر الذي قرّبه لله وقسماً جازى بهِ الذين جاهدوا معهُ في ساحة القتال ومع هذا كلهِ فلم تحز لديه هدايا الملوك قبولاً ولم يتمالك ان يرى احداً يزعم انهُ جعل ابراهيم غنياً ولم يشأ ان يكون مديوناً لغير الله الذي كان يقوم بناصرهِ ولذلك كان يحفظ له في صدرهِ ايماناً حياً ويؤدي له رضوخاً تاماً . وما يدل على امانتهِ انه نزح من ارض ابيه لياتي مهاجراً الى الارض التي اعدها له الرب ودعاهُ اليها ولما رآهُ اهلاً لان يبرم معه عهداً عقد معهُ معاهدة موثوقة بشروط واعلن لهُ انهُ سيكون الههُ واله اخلافه اي يستمرُّ قائماً بناصرهم وهم يعبدونه الهاً مفرداً فاطر السموات والارض ووعدهُ بارضٍ هي ارض كنعان لتكون مركزاً للدين وموطناً سرمدياً لهُ ولاخلافهِ طراً . ولم يكن لابراهيم في بادئ الامر اولاد لان امراته سارة كانت عاقراً فقسم الله بسرمديته وجوهر ذاته انه يمنّ عليه من امراته العاقر بذرية تتكاثر كنجوم السماء ورمال البحر . واهم ما يذكر هو ان كل الشعوب الذين كانوا جانفين عن طريق الحق يعبدون الاوثان اوعز اليه عنهم انهم سيتباركون بهِ وبنسلهِ اي يزدلفون الى معرفة الله التي لا بركة الاَّ بها . فلذلك اصبح ابراهيم اباً لكل المؤمنين واختار الله ذريتهُ لتكون مصدراً تنبعث منها البركة المزمعة ان تمتد في اقاصي الارض وهذا الوعد يحوي مجيء المسيح الذي تنبأ عنه اباؤنا بانه يكون مزمعاً ان ياتي من نسلهِ وان يكون منقذاً من لجة الآثام كل عابدي الاوثان وساير شعوب الارض ولهذا اصبح هذا الزرع المبارك الذي وعدت بهِ حواء زرع ابراهيم وابيه . فهذا هو ركن الميعاد وعماده والشروط التي ابرمها الله مع ابراهيم . واقتبل ثمة هذا الميعاد في الختانة التي ينتج منها ان هذا الاب الصالح يناط هو وعائلته بالله . ولما اخذ الرب يبارك ذرية ابراهيم لم يكن لهُ اولاد وغادرهُ الله بدون بنين من الاعوام كثيراً . ومن ثم ولد لهُ ولدٌ دعاهُ اسماعيل وكان مؤهلاً لان يكون اباً لشعوبٍ عظيمة غير الشعب المصطفى الذي وعد بهِ العليُّ اباهُ ابراهيم . بل ان هذا الشعب يخرج منه ومن امراتهِ سارة التي كانت عاقراً . وبعد ان تقادمت على ولادة اسماعيل ثلاث عشرة سنة ولد لابراهيم ولدٌ دعاهُ

اسحق اي الضحاك او ابن المشاشة وابن المعجزات والمواعيد ويتبين من ولادتهِ ان اولاد الله الاحفاء يلدون بالنعمة

ولما ترعرع اسحق وزادت نشأتهُ ورجا ابوهُ ان يرى منه اولادًا امتحن الله مصداق ايمان ابراهيم فامرهُ ان يسرع بهِ الى ذروة جبل عينهُ لهُ كي يذبحهُ ثمة تقدمةً للرب . فرضخ ابراهيم للامر وقاد ابنه الذي وعده بهِ العلي ان المسيح وشعوبًا كثيرة تنشأ منهُ ولما رفع الجارحة فوق نحرهِ واصبح الوليد على وشك الزهوق ناداه العليُّ من العلاء ان ارفع اليد عنهُ محققًا حينئذٍ رضوخ الولد وابيه . ولم يعنهما بعد ذلك بثقل الامتحان واصبحا كرمزٍ الى يسوع المسيح بتقدمتهِ ذبيحة لله وقد ذاقت نفساهما مرارة صليبهِ واستحقا ان يصيرا من اجدادهِ ولما رأى الله ان ابراهيم ثابت الامانة انجزلهُ كل مواعيدهِ وبارك عائلتهُ وبها كل امم الارض ولا ريب في ان الله واظب على الدفاع عن اسحق بن ابراهيم وعن حفيدهِ يعقوب وكلاهما تسننا باعمال ابراهيم وتخذاهُ نموذجًا لهما واستمسكا بالاعتقاد القديم والعيشة الرعائية ونظام العالم القديم وهو ان كل ابا عائلة كان يناط بعهدتهِ سياسة عائلتهِ . ولم يكن التقلب الذي كان ينشأ بين البشر ذريعة لتغيير الاثار القديمة في الدين وسلوك ابراهيم واولادهِ .

وبناء عليهِ اعاد الرب لاسحاق ويعقوب المواعيد التي وعد بها ابراهيم وزيادة على ان شاء اولاً ان يدعى باله ابراهيم فقد رغب في ان يلقب ايضًا باله اسحق ويعقوب

فعلق هؤلاء الثلاثة يقطنون بلاد كنعان تحت رعاية الرب ولكنهم كانوا في تلك الارض غرباء محاويج لا يملكون من اجزائها شيئًا . ولما تضوَّر يعقوب جوعًا هاجر الى ارض مصر فنما هنالك نسله واصبحوا كما قال الرب جيشًا كبيرًا . ومع ذلك ولو ان الشعب الذي ادخله الرب في ميعاده اقتضى ان ينمو نسلهُ وتنتقي البركة النسل فلم يتقاعد هذا الاله العظيم عن ان يتخير البعض منهم مختصًا اياهم بنعمتهِ . وبيان ذلك هو انهُ بعد ان اصطفى ابراهيم من بين الامم تخير من اولادهِ اسحاق ومن توأمي اسحق يعقوب الذي دعاهُ فيما بعدُ اسرائيل .

ولقد فضّل يعقوب على عيسو بالبركة الرسمية التي نالها من اسحق ومن المقرَّر ان هذه البركة التي حازها يعقوب في بادي الامر اختلاسًا قد كانت بعناية صمدية لان هذا العمل الرمزي كان قد تأهب بسرٍّ الهي منذ كان الاخوان مستقرين في احشاء رفقا

لانها كانت وقتئذٍ تشعر بنزاعٍ عظيمٍ في بطنها فضرعت لله طالبةً من لدنه ايضاح ذلك فاجابها ان في احشائكِ شعبين اكبرهما يوءدي للاصغر رضوخًا . وقد تمت هذه النبوة بان ترك عيسو لشقيقهِ حقوق البكورية وصدَّق لهُ على ذلك بيمين ولما باركه اسحق اناط بعهدتهِ هذه الحقوق التي منَّ الرب نفسه عليهِ بها . اما تفضيل الاسرائيليين اولاد يعقوب على الادوميين اولاد عيسو فقد ثبت بهذا العمل الذي يدل ايضًا على تفضيل الوثنيين المدعوين حديثًا للميعاد بيسوع المسيح على الشعب القديم

ولقد كان ليعقوب اثنا عشر ابنًا اصبحوا اثني عشر ابًا اصل الاثني عشر سبطًا ولقد كانوا برمتهم موءهبين للدخول في العهد . واما يهوذا فقد اصطفي من بين اخوتهِ قصد ان يكون ابًا لملوك الشعب المصطفى وابًا للمسيح الذي وعد بهِ آباوءهُ ومن الامور المقررة ان عشرة أسباط قد غالوا في الترهات والمجد فصلوا عن شعب الله . وان ذرية ابراهيم لم تستمر راعية البركة القديمة اي الديانة وارض كنعان والرجا الوطيد في مأتى المسيح الا ان سبط يهوذا وحده تلقب باسمه جميع الاسرائيليين فدعوا يهودًا واصبحت البلاد التي يقطنونها يقال لها يهودية وبناء على ذلك فقد كان الانتخاب الالهي يبدو دائمًا عينه في ذلك الشعب الجسداني الذي كان مزمعًا ان يستمر بواسطة التناسل الاعتيادي . فلما كان يعقوب على وشك الموت واولاد يكتنفونه طالبين البركة منه رأى بالروح سرَّ ذلك الانتخاب فابان لهُ الرب حالة الاثني عشر سبطًا كيف تكون بعد ان يقطنون ارض الميعاد فاوضحها بكلامٍ موجزٍ يتضمن اسرارًا لا تحصى .

فلما اخذ يناجي اخوة يهوذا اتى بفصاحةٍ تشده العقول وتحير الالباب وتبين انه خارجٌ عن ذاتهِ ولما انتقل بالحديث الى يهوذا ترفع الى مثابة اعلى فقال . يهوذا إياك يحمدُ إخوتك . يدك على قذل اعدآئك يسجد لك بنو ابيك يهوذا شبل أسدٍ . من فريسةٍ صعدت يا ابني جثم وربض كأسدٍ وكلبوءةٍ فمن ذا يقيمه . لا يزول صولجان (اي السلطة) من يهوذا ومشترعٌ من صلبهِ حتى يأتيَ شيلو وتطيعهُ الشعوب . وقد روي في نسخةٍ من الكتاب ليست اقدم من النسخة التي اخذنا عنها انه قال كلامًا زيادة عما ذكرنا وهو حتى ياتي من حفظ كلُّ شيءٍ لاجلهِ . وسائر النبوءة منوطة بالحال التي يقطنها سبط يهوذا في الاراضي المقدسة واما الكلام الاخير الذي اوردناه فلا يدلُّ في كل الوجوه الأعلى الذي ياتي من لدن العليّ خادمًا لارادتهِ ومفسرها ومنجزًا لمواعيدهُ

ومنها للشعب الجديد وهو يسوع المسيح اي ممسوح من الله .

واما يعقوب فلم يتكلم عنه بصراحة ووضوح الا ليهوذا لان المسيح موءهل لان يلد منه ولم يكن ايعازهُ الى يهوذا وحدهُ بل الى كل الامم التي انحازت اسباطها الى سطاه بعد ان لعبت بهم ايدي التفريق . وكل الالفاظ النبوية في غاية الصراحة والوضوح وليس فيها الا لفظة صولجان فانها على اصطلاح لغتنا علامة للملك فقط وعلى اصطلاح اللغة المقدسة تدلُ على السلطة والسلطان والقضاء وقد توجد هذه الاستعارة في كل سفرٍ من الكتاب المقدس وقد بدت في إبانة وجلاء في نبوءة يعقوب وكانت مآرب هذا الاب الصدوق ان يقول ان في ايام المسيح كل سلطة تزول في بيت يهوذا وذلك دليلٌ على ان تصير مملكة برمتها قاعًا صفصفًا .

وبيانًا لذلك ان ماتى المسيح يشار اليهِ بحادثين عظيمين وهما ان مملكة يهوذا والشعب اليهودي يندثران اندثارًا كبيرًا وان مملكة كبرى تتألف من كل الشعوب ترضخ لقضاء المسيح وهو يكون ملكًا عليهم ومنتهى اوطارهم وآمالهم . اما شعب يهوذا فلم يعثر عليهِ في الكتاب المقدس الا في صيغة الافراد لكونهِ شعب الله واذا عثرت باسمدي على تلك اللفظة في بعض المحال مجموعة اي الشعوب فالذين معتادون على قراءة هذا الكتاب المقدس يفهمونها غير الشعب اليهودي وهولاء الشعوب نراهم موعودين بالمسيح حسب نبوة يعقوب . وهذه النبوءة العظيمة تتضمن باوجز الفاظٍ كل تاريخ شعب يهوذا او تاريخ المسيح الذي وعد بهِ وتدلُ على كل تسلسل شعب الله ولم تزل عاقبة ذلك في حيز الوجود ، وبناءً عليهِ فليس من المقتضي ان ابهمك لديك في ايضاحها لانك تحصل عليها دون نصبٍ وكدٍ وليس عليك الا ان تلاحظ تاريخ شعب الله وتتفهم معنى هذه النبوءة اذ يتضح لديك جليًا بما تنبئك عنهُ الحوادث

الفصل الثالث

في موسى والشريعة المكتتبة ودخول شعب الله الى ارض الميعاد

بعد ان مات يعقوب مكث شعب الله في مصر الى حين ارسالية موسى اي نحوًا من مائتي سنة وعلى هذا مضى نحو اربع مائة وثلاثين سنة قبل ان من الله على شعبه بالارض

التي وعدهم بها . وقد ودَّ ان يعوِّد مختاريه على الثقة بكلامه ويحققوا ان لابدَّ من تتمة ذلك في الوقت المعين من حكمته السرمدية

وكانت آثام الاموريين الذين اراد ان يهبهم اراضيهم وغنائمهم غير كاملة . وذلك كما اوعز عنها لابراهيم اذ كان منتظرًا ان ينتقم منهم دون شفقة ورحمة بايدي شعبه المختار وقد آل الامر ان يفسح لهذا الشعب الزمن لكي يتكاثروا ويفعموا الارض المهيأة لهم ويحلوا فيها عنوةً ويقرضوا فيها قاطنيها الذين لعنهم الرب

وقد اراد ان يتجشموا في مصر اثقال الاسترقاق وما ذلك الأ لكي يحبوا منقذهم عند نوال الحرية بنجاتهم بمعجزات غريبة وتجمع قلوبهم على محبة الله ويثقون رحمته الى الابد فهذه هي مآرب العلي وقد انذرنا بها ليحضنا على ان نخافه ونعبده ونوده ونستنظره بالامانة والصبر .

ولما جاء الوقت سمع جوار اولاده واستصراخهم فاوعز الى موسى ان اذهب الى مصر وملص اولادي من وثاق العبودية .

فبدا الله امام هذا الرجل العظيم بطريقةٍ لم يبدُ بها لغيره من قبله فظهر له بنوع يدلُّ من جهة على العظمة والجلال ومن اخرى على السلوان والامال . واوعز اليه انه هو الذي هو وان كل ماسواهُ ليس سوى شبح وقال له انا هو الكائن (اي ان الوجود والكمال يختصان به تعالى وحده) وتخذ اسمًا جديدًا يدلُّ على الحيوة والوجود كانه لها مصدرٌ . وهذا الاسم العظيم المرهب السرّي لايمكن ان يشترك به واراد ان تكون عبادته منوطة به . وليس من مآربي ان ازيدك علمًا برزايا مصر وقسوة قلب فرعون وعبور البحر الاحمر والغمام والبوق الهاتف والرعدة الهائلة التي ترآءت لشعب الله على ذروة جبل سينا حيث كتب الله على لوحين من حجارة بيده وصايا الدين والالفة الاجتماعية الاساسية ونص ما تبقى على موسى بصوتٍ جهيرٍ . ورغبةً في ان تكون هذه السنة مرعية تمامًا امر الرب موسى ان يولف جمعيةً ذات حرمة تنضوي على سبعين مشيرًا وتدعى مجلس ندوة لشعب الله او مجلس شُورى الامة المستمر فبدا الله جهرًا وامر ان تنتشر سنته بحضوره وذلك باظهار عزته وقدرته بنوعٍ عجيب . ولم يكن الرب قد ابرز الى ذاك الحين شيئًا خطًا ليكون للبشر دستورًا بل ان اخلاف ابراهيم كان مفروضًا عليهم ان يختتنوا محتفلين بذلك اشعارًا بالميعاد الذي امتن عنه الرب مع هذه الامة المصطفاة . وكانت هذه العلامة

تبعثهم على ان ينفرزوا عن ساير الامم الذين يوءدون للالهة الكذبه رضوخاً وعبادةً .
وفضلاً عن ذلك فانهم كانوا لاينامون عن ان يحرصوا على حرمة الميعاد لانهم كانوا يذكرون ما وعد به الرب آباءهم وكانوا يعتقدون انهم مندوبون ان يستمرّوا شعباً يعبد اله ابراهيم واسحق ويعقوب كانّ الله اصبح منسياً . فاقتضى ان يعرّف باضافته الى اسماء الذين كانوا يعبدونه اذ كان عنهم لائذاً ومحامياً

ولم يكن من مشيئتهِ ان ينيط بخواطر بني الانسان اسرار الدين والميعاد فقد حان الزمان الذي فيه ان يوقّف امتداد الاصنام التي امتدت بين الجنس البشري وكانت تكاد تلاشي ما تبقى من النور الطبيعي

ولا ريب ان الضلالة في ايام ابرهيم كانت خافقة البنود وبعد ان استأثرت بهِ رحمة ربهِ بدا الناس يعرفون الله في فلسطين ومصر فان ملكيصادق ملك سيلَم استمر يمارس الكهانة لله الذي فطر السماء والارض (١) وابيمالك ملك جيرار وخليفتهُ المسمى باسمهِ كانا يخشيان الله ويحلفان باسمهِ القدوس ويعجبان من معظم قوتهِ . وكان فرعون ملك مصر تاخذهُ الرعدة من وعيد الله الرهيب . اما في عصر موسى فقد تهافتت تلك الامة على على الفساد واصبح الله العلي في مصر منسياً غير معروف انهُ اله الشعوب طرّاً بل انهُ اله العبرانيين وكان الناس هنالك يعبدون كل شيء حتى نوع الحيوان وخشاش الارض . وكل ما ترى نواظرهم على الارض كانوا يدعونه الهاً فغدا والحالة هذه العالم الذي فطرهُ الله من العدم البحت هيكلاً للاوثان فغالى النوع الانساني في فيافي البطل والاعتساف حتى اصبح يوءدي العبادة لما تبعثهُ عليه النفس الامارة من القبائح والمنكرات ولا غروَ من ذلك فان الانسان كان يخال ان كل قوة لامحيص منها ولا مناص لابُدَّ من ان تكون الهاً فلذلك راى ان قوة شهوتهِ التي تبعثه على الطيش عمداً وقسراً تزايله كل المزايلة فتغذها الهاً له لانها تجذبه الى الفحشاء وهو عارٍ من شكيمة تثنيهِ عن مهاوي ذاك الضلال . فاقام هياكل شتى وامسى للقبائح التي تانف منها النفوس الابية دخلٌ في تقدمة القرابين

ومع هذا كلهِ فقد دخلت القسوة في الدين فانهُ بعد ان اجرم اضطرب باله فظن ان الله العلي من الد اعدائهِ ففكر انهُ لا يمكن لهُ ان يسترضيهُ بذبائح اعتيادية فاجترأ بقبح

---

(١) سفر التكوين ص ١٤ : ١٨ و ١٩

الفكر ان يسفك دم ابناء نوعه و يقرنه بدم البهائم ذبيحة . ولما استولت عليه المخاوف فاعمت بصيرته توصل الآباء الى ان يقدموا ولدانهم محرقاتٍ للالهة بدلاً من البخور فشاع ذلك في عهد موسى وكان جزءًا من اجرام الاموريين الذين وكل الله امر اعناتهم الى الاسرائيليين . بيدَ ان هذه المنكرات لم يكن الاموريون يرتكبونها وحدهم بل ان بني الانسان طرًّا كانوا يقدمون للالهة بعضهم ذبائح ولم يخلُ صقعٌ من فسيح الارض الا بدت فيه تلك الالهة التي اوجب بغضها للنوع الانساني ان يقدم لها القرابين البشرية . وتوغل الانسان في الخشونة والجهالة حتى انهُ توصل الى ان يعبد كل ما تصنع يداه وفكر انهُ يصنع في التماثيل روحًا الهية . واوصلته الغباوة الى ان ينسى ان الله هو الذي صنعهُ متوهمًا انه قادرٌ ان يصنع الله . ولو لم يكن الاختبار ابدى لنا ان الضلال مرسوخٌ في جبلة الانسان وغير قابل للتعليم لشذَّ عليهِ نكيرٌ . وبناءٌ عليهِ فلا شيء يصدنا عن الحكم بان النوع الانساني يستاهل الخزي فان اول الحقائق التي يدل عليها الكون والتي ليس لقوة تأثيرها مضاهاة امست قاصيةً عن ناظريه كثيرًا . وان التقليد الذي لبث مستظهره كان على وشك الاضمحلال واستكنت في مثابتهِ خرافات جمة مفعمة من الكفر والبله . ولما راى الله ان قد حان الان اذ اذهان البشر لم تكن تعي الحنيفة ارتأى ان يجعلها مرعية كتابةً واملَ ان يهذب شعبه بالفضائل بواسطة نواميس كثيرة خاصة عكف على ان ينصها خطًا . ودعا موسى لهذا العمل فجمع هذا الرجل البرّ تاريخ الاجيال الماضية اي تاريخ آدم ونوح وابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف او بالاحرى انهُ جمع تاريخ الرب وصنعتهِ العجيبة . ولم يحوجه الامر ليبحث بعيدًا عن تقاليد اجداده السالفين لانهُ ولد بعد موت يعقوب بنحوٍ من مائة سنة وان مشائخ عصره امكن لهم ان يكونوا سنوات جمةً مع ذلك الاب الصدوق . وقد كان ذكر يوسف حيًا وان العجائب التي كان الرب قد صنعها عن يد وزير ملوك مصر العظيم كانت لاتزال اذ ذاك وان جوة ثلاثة او اربعة انفار كانت متصلةً بنوح الذي شاهد اولاد آدم فكان اذ ذاك يشهد بداءة الاشياء . وبناء عليه كانت تقاليد النوع الانساني القديمة وتقاليد عائلة ابراهيم سهلة الائتلاف لان ذكراها كانت وقتئذٍ لاتزال حيةً ولا غرو ان رأينا احيانًا موسى يتكلم في سفر التكوين عن كل ما حدث آنفًا في الاجيال الغابرة مثلما يتكلم عن اشياء مستمرة كانت مقررة اذ تبقى منها آثار مهمة لدى الامم المجاورة وفي ارض كنعان

ولما كان ابراهيم واسحق ويعقوب قد قطنوا تلك الارض اقام كلٌ منهم فيها اثاراً تدل على كل ما حدث لهم وقد استمرت الى عصر موسى المنازل التي فيها والآبار التي احتفروها في تلك المفاوز لتستقي منها عيالهم ومواشيهم . وقد عُرفت الاطواد الرواسخ التي تراءى لهم الله عليها فقدموا له ثمة محرقات والحجارة التي اقاموها او كرسوها لتكون آثاراً تذكرها الاجيال التالية والاجداث التي كانت تحوي رفاتهم المقدسة . وكانت ذكرى اولائك الافراد باقية في تلك البلدان والاصقاع الشرقية حيث امم كثيرة لم تنسَ انها من اخلافهم . ولما دخل الشعب العبراني في ارض الميعاد فشت بينهم ذكرى اجدادهم وكانت المدائن والاطواد الرواسخ والصخور الصماء توعز اليهم عن اولائك الاشخاص المشهورين وتذكرهم بالرؤيا العجيبة التي اثبت الله بها امانتهم القديمة الحقة ولا غروَ ان كل من عندهُ علم بالاثار القديمة ولو جزئيًا يفهم حالاً ان البشر الظاعنين كانت لهم الرغبة في ان يقيموا اثاراً كتلك يستبقونها الى ما سياتي وهم عليها محافظون . وقد كان خلفاؤهم يصرون على كل ما كان ذريعةً لذلك البناء وتلك مزايا كان من شانها ان تجعل التاريخ ثابتًا . وبعد انْ مضت على ذلك اعوام تهمكوا في صقل الحجارة ونحتها وصنعوا بها تماثيل بعد ان كان من قبلهم يقيمون اعمدةً ضخمةً بحجارة خشنة . ولنا ادلةٌ قاطعة على حفظ تواريخ الازمنة الخالية خطأ في القبيلة التي حفظت فيها معرفة الله لان البشر لم يهملوا ذلك ابدًا ومن المقرر انهم كانوا يعلمون اولادهم اناشيد في الاحتفالات والاجتماعات كانت تويد الاعمال المشهورة التي حدثت في الازمنة السالفة ومن ثم تولد القريض وتغير فيما بعد على اساليب مختلفة . واما اسلوبهُ الاول فلم يزل الى الان محفوظًا في القصائد والنشائد المستعملة عند الاقدمين لمدح الالوهية والابطال وفي ايامنا هذه عند الامم التي لا تعرف اصول الكتابة

ولا ينكر ان تلك الاناشيد بليغة المعاني جدًا ذات انفاس سامية طبيعية النسق جديرة بان تمثل الطبيعة بمحاسنها . وفضلاً عن ذلك فانها متضمنة اوزانًا شتى تتوسع بها معانيها وتطرب بها السماع وتشنف العقول وتسحر الالباب وتتهافت على حفظها الذاكرة . واكثر من استعمل تلك الاناشيد وتهمك فيها شعب الله فموسى اشار الى جزءٍ منها وكان يذكر من انواعها المصراع الاول وكان الشعب يعرف الباقي ونظم هو نفسه على ذلك النمط انشودتين احداها تتضمن عبر الاسرائيليين البحر الاحمر وغرق البعض من

اعداء الرب في لجة البحر واضطراب البعض من كثرة الروع والخشية والاخرى تتضمن تبكيتة للاسرائيليين على نكرانهم جميل الله والايعاز الى خيراته ومعظم معجزاته . واقتفى اثره ابناء الاجيال التالية لان الله وما برأ من العجائب كانا موضوعاً لكل نشيد وقد كان الله يوحي بها الى اوليائهِ الاطهار وقصارى الامر ان كل شعر يشنف العقول ويدله القلوب قد كان يتغنى بهِ شعب الله

وتغنى يعقوب بتلك الاناشيد النبوية متضمنة كل ما ازمع ان يحدث لبنيهِ وقد كان كلُّ سبطٍ يحفظ بسهولة ما يناط بهِ ويتعلم ان يسبح الرب العظيم بنبوءاته والصادق في نتميمها .

وكل ذلك وسائل استخدمها الرب ليحفظ الى وقت موسى ذكر الشؤون الآنفة . وان موسى الذي عرف كل ذلك رفعه الروح القدس فوق كل شيء والهمهُ ان يكتب صنائع الرب بالتدقيق والضبط وبساطة تبعث على الامانة والعجب من اعمال الله نفسه . وقد اضاف للاشياء القديمة التي كانت تحوي نشأة ابتدا شعب الله على ما كتبهُ من التقاليد القديمة المعجزات التي صنعها الله في شأن خلاص شعبه ولم يكن موسى يقيم على مصداق كلامهِ دليلاً سوى ما رأته ابصارهم لانه لم يكن يأتيهم بنبإٍ بعيد عن مداركهم ولم يأتهم بما يحدث في الكهوف العميقة ولم يكلمهم ابهاماً بل كان كلامهُ مبنياً على الصراحة والوضوح خيفة ان يبعثهم على الريبة فيرشقوه بحجر الظن ويكذبوه . فشيد نواميس الاسرائيليين وحكم على العجائب التي شاهدوها عياناً وهذه العجائب قائمة بتغيير الطبيعة فوراً على انماطٍ متغايرة قصد نجاتهم وعقاب اعدائهم فانشطر البحر قسمين وانشقت الارض وانزل الله لهم من العلاء منّاً واجرى لهم من فؤاد الصخرة الصماء ماء قراحاً بان ضربها موسى بعصاه واقام لهم في الاوج علامة تقودهم مدة تسيارهم وصنع لهم معجزات اخرى استمرت اربعين عاماً . ولم يكن في ذاك الحين الاسرائيليون يفوقون غيرهم في جودة العقل ولم يكونوا اذكى من الشعوب الذين تغلبت عليهم مشاعرهم وما امكن لهم ان يقروا بوجود الهٍ غير منظور بل كانوا يضاهون سواهم في الخشونة والهمجية ان لم نقل اكثر من غيرهم جلافةً اما هذا الاله غير المنظور فكان لايزال يبدو لهم محوساً بمعجزات مستمرةٍ وكان موسى يجهد دائماً في ان يجعل في عقولهم من ذلك تأثيراً ومن كثر ذلك اخذ بافكارهم كل مأخذ واصبح له عندهم عظيمُ وقعٍ فاشعر بالهٍ بسيط يصنع كل شيء بكلمته وادرك اخيراً ان هذا الاله ليس

سوى عقلٍ وروحٍ وفهم . ولما اخذت عبادة الاصنام التي زادت جدًّا منذ عهد ابراهيم تغشي وجه البسيطة اصبح نسل هذا الاب البارّ بريئًا وحدهُ من ذاك الدنس وشهد له بذلك اعداوهُ . واما الشعوب الذين لم ينسوا تمامًا الحقيقة والتقاليد فكانوا يتعجبون قائلين . انهُ لم يبصر اثمًا في يعقوب ولم يرَ إصرًا في اسرائيل إنهُ لا عيافة في يعقوب ولا عرافة في اسرائيل الرب الهُ معهُ وهتاف الملك فيهِ

ولما راى موسى انهُ لا مندوحة لهُ من ان يرسخ في عقولهم وحدة الله وتخصيص العبادة بهِ جل شانه كان يكرّر على مسامعهم قائلاً ان هذا الاله الحي يصطفي لهُ في ارض الميعاد محلاً مفردًا حيث تتم فيه الاحتفالات وتقدم لهُ فيهِ المحرقات والقرابين والعبادات العامة وبينما كان الشعب يهيم على وجهه في الفيافي والقفار صنع موسى تابوت العهد وجعلهُ قابلاً للانتقال من محلٍ الى آخر وقد كان لديه بنو اسرائيل يقدمون القرابين لله الذي فطر السموات والارض وقد تعطف عليهم بان يجوب معهم الفيافي ويفودهم في القفار والمفاوز

وعلى هذا المبدا والاساس كانت السنة موطدة ولا بدعَ فانها لسنة عادلة ذات نفع منعمةٌ من الحكمة والبساطة والبلاغة ولقد كانت وثاقًا يمتن ربط الالفة بين البشر ويجعل الانسان يزدلف الى ربهِ . وزاد موسى على تلك السنن قوانين تجري بموجبها الاحتفالات الدينية المقدسة واعيادًا مشهورة توعز الى المعجزات التي كانت ذريعةً لنجاة شعب اسرائيل وابقى لهم مرارًا جمة انهم مزمعون ان ينجحوا في اشغالهم ان لبثوا مستمسكين بعروة السنة والاَّ فيحل عليهم من العقاب اشدهُ ولات حين مناص . هذا ما قالهُ الشارع واقتضى ان يكون هذا الامر مقررًا لديه من قبل الرب ليجعله ركنًا لسنتهِ . واتضح من الحوادث جليًا ان موسى لم يتكلم عن نفسهِ واما القوانين التي القاها الى بني اسرائيل وان كانت تبدو في ايامنا غير مفيدة فقد كانت قبلاً ضرورية جدًّا لانها كانت توثر شعب الله على سائر الشعوب وكانت تحاجز يمنع شعب الله عن عبادة الاوثان وان لا يطوحوا بنفوسهم كباقي الشعوب

وقد تخير سبطًا واحدًا من الاثني عشر سبطًا واناط بعهدتهِ القرابين والاعشار وكل ما يختص بالاشياء المقدسة وما ذلك الاَّ ليحفظ الدين وكل تقاليد شعب الله . وأنبط لاوي واخلافه بالله تكريسًا لهُ كعشر الشعب وتخير من سبط لاوي هرون ليكون

كاهنًا عظيمًا وتوارث الكهانة من بعده الخلافة وبناء عليه اصبحت المنابر مرعية كل الرعاية واصبح للسنة ذائدون ومن ثم اخذت الكهنة تتعاقب استمرارًا منذ عهد هرون الكاهن الاول . ومن الامور التي تزيد تلك السنة جلالاً انها كانت تمهد طريقًا لشريعة افضل منها غير محملة من الاحتفالات مثلها لكنها مخصبة بالفضيلة اكثر منها . واما موسى فلكي يعزز الشعب ويجعلهم يتأسون على انتظار تلك السنة اثبت لهم مأتى النبي العظيم الذي ياتي من نسل ابراهيم واسحاق ويعقوب وقال لهم يقيم لكم الرب الهكم نبيًا من بينكم من اخوتكم مثلي له تسمعون . فهذا النبي الذي يضاهي موسى المشترع مثلهُ لا يمكن ان يكون سوى المسيح الذي تعليمه يصلح العالم اصلاحًا عظيمًا

ويحرز المسيح وحدهُ شعبًا جديدًا ويقول له ايضًا فرضت عليكم سنَّة جديدة وقال ايضًا من يحبني يحفظ وصيتي وقد تكلم في موضع آخر باكثر صراحة حيث قال . قد قيل للقدماء لا تقتلوا وانا اقول لكم الخ . وسائر القول على هذا النمط فهذا هو النبي الذي يضاهي موسى ويشيد شريعة جديدة وعن ماتاه تنبأ منذرًا وقائلاً له تسمعون . وتتميمًا لذلك ان الله لما بعث بابنهِ الى الارض نادى من العلاء هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سررت له اسمعوا . والي نفسهِ قد رمز موسى بارقم نحاسيّ اقامه لدى الاسرائيليين في القفر . لان لدغة الارقم القديم الذي نفث في الجنس البشري سمًّا مدقعًا يبرأ منها من يرنو الى المسيح . اي يبرأ بثقتهِ بهِ كما ابان عن ذلك هو ذاته ولنا في ذلك فسحة نظر وهو لماذا لا نخص هنا بالذكر الا الارقم النحاسيّ مع ان في سنَّة موسى وكل الذبائح والحبر الاعظم الذي نصبهُ باحتفالات سرية وادخاله اياه الى قدس الاقداس وكل طقوس الدين اليهودي المقدسة التي فيها كل شيء يتطهر بالدم ويترتب عليها نحر الحمل في عيد الفصح تذكارًا لخلاص الشعب ادلة كبرى على ان المسيح مزمع ان ينقذ شعبهُ باهراق دمهِ الالهي . وقد كان محتومًا على اليهود الى ان اتى المسيح ان يقرئوا في كل مجامع الشعب اسفار موسى وبناء على ذلك ترى اليهود في كل ظرف وآن لا يستندون الا على موسى وكما ان مدينة رومية كانت تحترم شرائع رومولوس وشرائع نوما والاثني عشر لوحًا واثينا تتوكأ على شرائع سولون ولاسيدمون تعتبر قوانين ليكورك كذلك كان الشعب العبراني يستند دائمًا على شرائع موسى . وفي اليقين ان هذا المشترع قد نظم الشريعة نظامًا محكمًا ولم تمس الحاجة فيما بعد الى ان يطرأ عليها ادنى تغيير وبناء عليهِ لم يكن مجموع الشرائع

العبرانية مؤلفًا من قوانين مختلفة في اوقات وظروف متباينة بل ان موسى الموحيّ اليه من الروح القدس قد فكر في بادىء الامر في كل شيء ولم نرَ في هذه الشريعة اوامر من داود او من سليمان او من يوشافاط وحزقيا . وقد كانوا طرًّا يتهافتون على العدل بل ان الملوك الاخيار كان محتومًا عليهم ان يتمسكوا بشريعة موسى ويكتفوا بان يحملوا خلفاءهم على حفظها وقد كان من الامور المنكرة ان يزاد عليها او ينقص منها شيء

وكانت الشريعة مما لا مندوحة عنه في كل آن فانها كانت من الضروريات التي يفتقر اليها نظام الاعياد والمحرقات والاحتفالات بل الاشغال العامة والخاصة والاحكام والمعاهدات والزيجة والوراثة والجنازة ونوع اللباس وقصارى الكلام كل ما يناط بالاخلاق والعادات . ولم يكن سوى كتاب الشريعة يتعلم منه المطالعون فنّ الآداب فيحتم اذ ذاك على كلٍّ ان يتصفحه وينقر فيه إناء الليل واطراف النهار فيقتبس منه آيات يشخصها دائمًا امامه وكانت هذه الشرائع يتعلم بها الصبية الاحداث القراءة . وقاعدة التربية هي التحتمّ على الآباء طرًّا ان يعلموا بنيهم الشريعة المقدسة ويجهدوا في ان يرسخوها في عقولهم ويقسروهم على ان يسعوا بموجبها حتى اذا راهقوا وبلغوا من الاعمار اشدّها اصبحوا حكماء .

وبناء على ذلك كانت معرفتها من الامور اللازمة وفضلاً عن ان مداولتها كانت مستمرة فكانت تقرأ كل انتهاء سبعة اعوام مرة في عام الغفران والراحة قراءة عامة في عيد المظال امام الشعب الذي كان يجتمع مدة ثمانية ايام . والقى موسى على تابوت العهد النسخة الاصلية وخشيةً من ان تمسها ايدي المفسدين اولي الغواية ويحرفوها فكانوا وقتئذٍ ينقلون نسخًا مفرزة عدا النسخ التي تتداولها ايادي الاحداث وكان الكهنة واللاويون ينقرون فيها ويصلحونها اذا وقع فيها خلل ومن ثم يدعونها عندهم محفوظةً لتكون نسخًا اصلية يعول عليها ويكون مآب الامر اليها .

ولما تنبأ ان هذا الشعب يأتيهم آنٌ يكون لهم فيه ملوكٌ كسائر الامم حتم موسى على من يتبوّئون سرير الملك بموجب نصٍّ في تثنية الاشتراع على ان يقبلوا من ايدي الكهنة نسخة من النسخ المصححة بكل اعتناء لينقلوها بايديهم ويقرأوها طول ايام حياتهم وهذه النسخ قد كانت جديرة بالاعتبار لدى الشعب وكانوا يعتبرونها كانها صادرة راسًا من يد موسى في الصحة والكمال مثلما املاها الله عليه ووجد نسخةٌ مصححة منها في هيكل الرب في عهد يوشيا ومن المحتمل ان تكون النسخة الاصلية نفسها التي وضعها موسى في تابوت

العهد فكانت تلك ذريعة لان يتذرع بالامانة والطهر ويحمل شعبهُ على ان يتوبوا الى الله عما فعلت ايديهم من السيئات . ولقد كانت النتائج التي نجمت من قرآءة تلك الشريعة لاتعد ولاتحصى وبايجاز القول ان ذلك الكتاب مدثر بالكمال . لانه يحوي تاريخ شعب الله ويسلفته الى اصلهِ ودينه ونظامهِ وعاداتهِ وحكمتهِ وكل ما تترتب عليه حياتهُ وما يؤول الى اجتماع البشر واتحادهم وينطوي على الامثال السيئة والحسنة وعلى جزاء من فعل الخير وعقاب من صنع الشر .

وبواسطة هذا النظام العجيب وصل ذلك الشعب الذي تملص من وثاق الاسترقاق الى البلاد التي اعدت لهُ بكل ترتيب بعد ان حبس في بطن القفار اربعين عامًا . فقاده موسى الى مدخل البلاد ولما شعر ان منيتهُ حانت دعا يشوع وسلمهُ القيادة وقبل ان اغتالته المنية نظم نشيدًا طويلاً عجيبًا هاك مطلعه : انصتي ايتها الارض والسماوات فاتكلم ولتصغ الارض لاقوالِ فيَّ . وبمجرد اسكاتهِ الطبيعة كان يناجي شعبه بقوة لامزيد عليها . ولما وعى حسبان اثامهِ وجرائمهِ اجلى له عن كلِّ المنكرات ثم ارتأى ان الكلام البشري لايناسب ذلك الموضوع فغير منهج كلامهِ والتفظ بما قاله الرب واخذ اذ ذاك يتكلم كلامًا ساميًا فلم يدرِ الشعب هل كان الله يحي اليه بالخوف والاضطراب او بالمودة والايمان

فامر الرب وموسى بالشعب ان يتعلموا ذاك النشيد على ظهر قلوبهم فتعلموه ثم استعزت بذلك الرجل الصدوق رحمة ربهِ مسرورًا ولم يضرب لشعبه عن امرٍ يعود عليهم بالنفع العميم ليذكروا مبرات الله واحسانه ووصاياه . وغادر ولدانه بين شعبه دون ان يختصهم بمنفعةٍ خاصة فاعجب من ذلك شعبه وكل الامم ولم يحز مشترع ما حازه موسى من الشهرة والمنقبة بين البشر وقد افتخر كل الانبياء الذين خلفوه في قديم العهد والذين كتبوا بالوحي ان يكونوا بمذهبهِ متمذهبين .

وقد كان يؤخذ من مناجاتهِ انه اروعي عريق باحسن الصفات التي لم ينلها احد من المؤلفين سواهُ وقد كان تاليفه عريًا من التعقيدات بل كان ذا بساطة يقارنها علو النفس والفصاحة الخارقة وفي اليقين ان من قرأ تاليف مؤرخ لاعمال الله يعلم ان المؤلف يتكلم عن الله عزَّ شأنه واما من قرأ تاليف موسى لايظنُّ ان ما يقرأهُ صادر من غير فم الله .

ومن تصفح سفر ايوب بعثه ما أُودع فيهِ من سموّ الفكر ودقة المعنى على الجزم بانه

من انشاء موسى . وخشية من ان العبرانيين تاخذهم نشوة الكبرياء لدن ظنهم ان رحمة الله لم تحل الا عليهم اخذ موسى يناجيهم بان الله له مختارون حتى في نسل عيسو ولم يكن من إمكانه أن ينبث بينهم تعليماً افيد لهم من صبر ايوب وحزنه الذي اناط الله امره بعهدة الشيطان الختول ليضيق عليه ويعذبه بكل انواع المبرحات الموبقة . فاصبح عرياً من رزقه واولاده وكل سلوى على بساط الارض ثم اصابه الله بتفريح جسمه وامتحن باطناً بالتجديف والقنوط ومع ذلك فلم يجنف عن طريق الايمان فتبين من ثم ان النفس الطاهرة ذات الامانة تقوم نعمة الله بناصرها وقت التجربة وتضافرها قسراً عن الافكار الخبيثة التي يبادهها بها العدو الخناس فانها تستمر في حيز الإمانة وتصعد الى ذرى التأمل عالمة بان ما يتراكم عليها من النوائب والنازلات دليل على ضعة الانسان ووهنه وعلى حكمة الله غير المتناهية . فذلك ما نقتبسه من سفر ايوب . ولرعاية هيئة عصرية كانت امانة هذا الرجل الصدوق ذريعة لان تتراكم عليه الخيرات الزمنية . واما شعب الله فقد هب من سنة الغفلة وفقه ماهية فضيلة العذاب وشرع يذوق لذة النعمة المزمعة ان تعلق ذات يوم بالصليب . بيد ان موسى قد ذاق تلك اللذة لما آثر تجشم المشاق وما تكبد هو وشعبه من النائبات السود على ملذة البلاط الملوكي في مصر وغضارة نعيمه . ومن ثم علق الله بذبيحة ما بهياً ليسوع المسيح من العار ولاسيما لما اركن الى الفرار في منفاه مدة اربعين عاماً . وكرع كاس مصائب المسيح لما اصطفاه الله لينقذ شعبه وألجيء ان يحتمل تمردهم المستمر لما كان معرضاً للمخاطر وعلم ما يصرف في شان امر نجاة اولاد الرب وابدى عن بعد ما سيترتب عليه امر الخلاص الاعظم وقت مجيء مخلص العالم . فلم تقر مقلتا موسى برؤية ارض الميعاد عن قرب بل انه راها عن بعد من اعلى ذروة الجبل . ولم يشق عليه ان يكتب انه غير مستحق الدخول الى ارض الميعاد لعدم امانته فاستحق عقاباً عظيماً وان كانت خطيئته صغيرة . فاصبح عقابه دليلاً على ان الله ذو غيرة عادلة صارمة على الذين يجنفون عن منهج طريقه ولاسيما على الذين تقسرهم النعمة على ان يسلكوا باكثر كمال من غيرهم في الامانة . ويتبين لنا ايضاً من صدف موسى عن الدخول الى الارض المقدسة سر اعظم من هذا وهو انه مع كل معجزاته التي صنعها لم يمكن له ان يقود اولاد الله الا الى مقربة من ارضهم . فذاك دليل على ان لم يكن بالناموس كمال لشيء بل لا يمكن له ان يقودنا الى نعيم المواعيد بل جعلنا نحييها عن

بعد او بعبارة اخرى انه بقودنا الى قرب باب ميراثنا لان يشوع الذي يكون باسمه ورفعة مقامه نائبًا عن مخلص العالم احق منه في كل شيء وهذا الرجل الذي كان احط من موسى في كل امر كان يتعالى عليه بشرف اسمه وهو الذي انيط بعهدته ادخال الشعب الى الارض المقدسة . وبظهوره المبين جزرت مياه الاردن الى الوراء وسقطت اسوار اريحا من تلقاء ذاتها وانحبست الشمس في كبد السماء وامكث الله اولاده في ارض كنعان طاردًا منها شعوبًا كثيرة منطوية على الرذائل والمفاسد والهم شعبه ان يكافحوهم بالبغضاء وجعل عدوانهم لهم امرًا طبيعيًا حرصًا عليهم من ان يكتسبوا عاداتهم السمجة

ولقد اوسعهم اعناتًا واحل عليهم شعبه فخافوه خوفًا عظيمًا وبعد ان اخرجوا من تلك الاصقاع نحلت منهم فرقة الى افريقية حيث كشف فيما بعد على آثار هزمهم وظهور يشوع في تاريخ قديم . وبعد ان وطن يشوع الاسرائيليين بظفره المبين في اكثر الاراضي المقدسة اخذ يشاطرهم اجزاءها هو والعازار الكاهن ورؤساء الاسباط وفاقًا لسنة موسى فنال سبط يهوذا من ذلك القسم الاكبر لانه فاق منذ عهد موسى غيره بالعدد والباس ورفعة المقام . ثم استأثرت رحمة الله بيشوع وواصل الشعب الاسرائيلي فتوح ارض الميعاد وقد شاءت العزة الالهية ان يكون سبط يهوذا في مقدمة الاسباط اجمع فالمعت ان في عزمها ان تسلم الارض اليه

ولا ريب ان هذا السبط قد قمع الكنعانيين وظفر بهم واستولى على اورشليم التي اهبت لان تكون المدينة المقدسة وحاضرة الملك وقد كانت تدعى من قبل سيلم وكان ملكيصادق مليكها في عهد ابرام . وان ملكيصادق يعني منه ملك العدل ويدعى ايضًا ملك السلم لان سيلم معناه السلم وقد قرر بذلك ابرام واعتبره كالكاهن العظيم كان اورشليم أُهبت لان تكون المدينة المقدسة وحاضرة الدين فانيطت في بادىء الامر بعهدة اولاد بنيمين . ولما كانوا على جانب من الضعف وقلة العدد لم يمكن لهم ان يطردوا منها اليابوزيين قاطنيها الاقدمين ولذلك آل بهم الامر ان يخالطوهم . وقد كانت اميال شعب الرب في عهد القضاة متباينة في الخير والشر . وبعد ان مات الشيوخ الذين شاهدوا معجزات الرب اصبح ذكر تلك المصانيع يكاد يكون نسيًا منسيًا وجنح شعب الله الى عبادة الاوثان . وقد كان الله يعاقب من يرتكب ذلك المنكر عقابًا صارمًا وينوم بناصر كل من يرعوي عن غرته .

وبناء على ذلك دبّ الايمان بعناية الله وبصدق مواعيد موسى ووعيدهِ في قلوب الصالحين يوماً بعد يوم لكنما الرب كان يبيّ لهم انموذجاً عظيماً . وطلب الشعب ان يكون لهم ملك فاقام الرب لهم شاول الذي رذله بسبب آثامهِ ثم ازمع على ان يقيم لهُ سلالة ملوكية يخرج منها المسيح فتخير ان يكون ذلك من سبط يهوذا فاصطفى منه راعياً يقال لهُ داود وهو اصغر اولاد يسى ولم يكن ابوهُ واخوته بعالمين باهليتهِ وبما سيترشح لهُ واما الرب فعلم طيب سريرتهِ وحسن طويتهِ فكرّسهُ ملكاً بيد صموئيل في بيت لحم منبت شعبتهِ

الفصل الرابع

في الكلام عن داود وسليمان والملوك والانبياء

في ذاك الحين تخذ شعب الله لهُ هيئة جديدة وثبت الملك في سراة داود فنشأ في بادىء الامر ملكان من تلك الاسرة ليسا على اتفاقٍ بالسليقة لكنهما كانا مجلبةً لكل دهشةٍ وحيرةٍ فان داود كان يود احتدام الحرب والفتوحات فظهر ببأسهِ على اعداء شعب الله والقى رهبة اسلحته في كل الشرق وسليمان كان على جانب من الرصانة والحكمة وذهب صيتهُ بذلك داخل مملكتهِ وخارجها فانال شعبهُ غضارة الترف والسعادة لكثرة تهافتهِ على الامن والسلام . بيدَ ان تسلسل الامور الدينية تستلفت انظارنا الى هذين الملكين وتحضنا على ان نسرّح طائر النظر في حياتها فنقول : ان داود تبوّأ في اول الامر تخت اليهودية وكان قادراً ظافراً ثم رضخ لشوكتهِ كلُّ الاسرائيليين فنزع من اليابوزيين قلعة صهيون التي كانت لاورشليم حصناً منيعاً ولما استولى عليها بحولهِ وطولهِ جعلها حسب امر الله مركزاً للاحكام والدين وشاد بيتهُ على قمة طودها واقام حولهِ منازل جمة دعاها مدينة داود واقام يوآب ابن اختهِ باقي المدينة واصبحت اورشليم ذات هيئة جديدة وتبطن اولاد يهوذا سائر البلاد وخالطهم اولاد بنيمين القليلوا العدد

اما تابوت العهد الذي اقامه موسى وكان الرب مستوياً فيه على الكاروبيم وكان فيه لوحا الوصية في غاية الرعاية والحفظ فلم يكن لهُ محلٌّ يناط بهِ . فنقله داود باحتفالٍ الى جبل صهيون الذي فتحه باعانة الرب العظيم القدرة وما ذلك الاَّ ليحكم ثمة عزَّ وجلَّ

ويكون لائذاً عن داود واورشليم والملك . واما المظلة التي كان الشعب يؤدي فيها لله العبادة في البرية فقد كانت لا تزال في غباوون حيث كانت تقدم الذبائح لله على المذبح الذي شادهُ موسى وكان ذلك باقياً الى ان يشاد هيكل لبركز فيه المذبح والتابوت ويتم ثمة عبادة الرب . ولما ظهر داود على اعدائهِ وقمعهم وامتدت فتوحاته الى نهر الفرات ظافراً دار في خلدهِ ان يصرف جلَّ عنايتهِ في ان يعزّز العبادة الالهية فعين محل اقامة الهيكل بامر الله على ذروة الجبل حيث ابراهيم عوّل على نحر ابنهِ الوحيد فصدفه عن ذلك ملاك الرب .

فاقام اذ ذاك للهيكل رسماً واحرز فيه كلّ ما جلّ وغلا من المواد واعدّ لهُ كل ما سلب من الملوك والشعوب المدحورين ولما كان فاتحاً سفاكاً للدماء صدَّهُ الله عن بنائهِ فاناط امر تشييدهِ بسليمان حليف السكينة والسلم فبناهُ اذ ذاك على رسم المظلة وصنع مذبح المحرقات ومذبح العطور ومنارة الذهب ومائدة الخبز المقرَّب لله وادوات الهيكل باسرها مثل التي صنعها موسى في القفار . ولم يضف عليها موسى الاّ العظمة والغناء . واما التابوت الذي قام باعبائهِ رجل الله الكليم فوضعهُ سليمان حيث قدس الاقداس وذلك في محلٍ لاسبيل الى الوصول اليه وما ذلك الاّ دليلٌ على عظمة الرب التي لا يقرب اليها احد وعلى السماء التي كانت محجورة عن بني الانسان الى ان يهبط منها المسيح فيفتح ابوابها المغلقة بسفك دمهِ الطاهر . وبدا الله بجلالهِ وجبروتهِ يوم تكريس الهيكل وتخير تلك المثابة مقراً لاسمهِ ومنتدىً لعبادتهِ واوجب عليهم ان لا يذبحوا خارج اورشليم . ودلَّ على وحدة الله وحدة هيكلهِ واصبحت اورشليم المدينة المقدسة وصورة البيعة لان الرب كان في عزمهِ اذ ذاك ان يستوي في هيكله الحق واصبحت صورة السماء ايضاً لاننا ننال السعادة بابراز مجد الله

وبعد ان شاد سليمان لله هيكلاً اقام صرحاً ملوكياً فكان بناء عظيماً يليق بذاك الملك العظيم وبنى بيتاً للنزهة دعاه غابة لبنان . واما القصر الملوكي فكان زينة اخرى لاورشليم وكل تلك البناءات قد كانت ذات غُرَفٍ شاهقة ودهاليز فائقة وبماشٍ فسيحة واروقةٍ عظيمة واقام عرشاً سلطانياً وسدّة رفيعة يستوي عليها عند ابراز القضاء ولم يستخدم لكل ما شاد سوى خشب الصندل . وقد كان كل ذلك مرشوقاً بالنضار والحجارة الكريمة

وقد طالما اندهش القاصي والداني من عظمة ملوك اسرائيل . وان ما تبقى من الابنية التي بناها ذلك الملك العظيم لم تكن اقل عظمةً من تلك . وكل ذلك كمدائن كبرى وحوانيت الاسلحة وكان عنده من اكرم الخيول المطهمة واحسن العجلات وابسل الظهراء . واصبحت اورشليم من اغنى مدائن المشرق لسعة تجارتها وما ساد اهلوها على غيرهم في سلك البحار وما تقرّر فيها من السكينة وما ترتب من النظام وكانت المملكة باسرها في غضارة وخصب . وكان كل ذلك كمثال للمجد السماوي وقد تأتى من الحروب التي اذكى نيرانها داود الحصول على النعمة التي تستلزم مشقة عظيمة وابان حكم سليمان كم لهذه الراحة من ملذة . وفضلاً عن ذلك فان سموّ هذين الملكين وارتفاع شان عائلتهما تأتى باختيارٍ خاصٍ فراق ذلك لدى داود فابرز في سبيلهِ نشيدًا قائلاً : ان الله قد خص الملوك في بيت يهوذا وفي بيت يهوذا اختص بيت ابي . ومن بين اولاد ابي حسن لديه ان يتخيرني ملكًا على كل شعبهِ الاسرائيلي ومن بين اولادي (لان الله منّ عليّ باولادٍ كثيرين) تخيرّ سليمان ليجلس على عرش سيدهِ ويحكم على اسرائيل

ولقد كان هذا الانتخاب لهُ غاية اسمى من التي تبدو اولاً لان المسيح الذي وعد بهِ الرب ابراهيم ليكون ابنًا لهُ كان موعبًا لان يكون ابنًا لداود وسائر ملوك اسرائيل . واما وعد الله لداود بقولهِ ان ملكهُ لن يزول الى الابد فكان تلميحًا على المسيح وملكوهِ الازلي وان سليمان الذي اصطفي لان يكون خلفًا عنهُ كان رمزًا الى ما تأتى ابن الله ولذلك قال الرب اني ساكون لهُ ابًا ويكون لي ابنًا . وبناء عليهِ برزت اسرار المسيح في عهد داود والملوك اولادهِ بنبوات عظيمة وفاقت الشمس بهاء وسطوعًا

فرآهُ داود عن بعدٍ ونشدهُ في مزاميرهِ ببلاغة فائقة وفصاحة خارقة . وقد طالما خالج فكرهُ ان ينشد مجد سليمان ابنه . ثم اختطف بالروح ورأى من هو اقصى من سليمان الذي يفوقه بالمجد والحكمة فتراءى لهُ المسيح انهُ مستوٍ على العرش يفوق الشمس والقمر ثباتًا وبصر بالامم المتموعة مصروعةً تحت اخمصيهِ ومباركةً بهِ في الوقت نفسهِ وفاقًا لما وعد بهِ ابراهيم

ثم راه يسمو متعاليًا في بهاء القداسة من الجوف قبل الفجر لهُ ندى ولادتهِ من ابيه وهو كاهن الى الابد ليس لهُ من خليفة ولا يخلف احدًا بل وسم كاهنًا بنوع غريب لا على رتبة هرون بل على رتبة ملكيصادق (رتبة جديدة غير معروفة لدى شريعة موسى) ورآه

جالساً عن يمين الآب ناظراً من اعلى السماء الى اعدائهِ المدحورين فاصبح مندهشاً من ذلك المشهد العظيم ومتعجباً من مجد ابنهِ فدعاه سيده . ورأى الله الذي مسحهُ الله ليسلطه على كل البسيطة بالبر والاستقامة وشاهدهُ بالروح فسمعهُ يقول هذه الفقرة التي القاها على ابنه وهي انت ابني وانا اليوم ولدتك واضاف الى ذلك وعد مملكة ابدية تمتد على كل الامم وملكه يمتد الى اقاصي الارض ولماذا ارتجت الامم بالباطل . وباطلاً ائتمر الملوك والعظماء على الرب فالساكن في السموات يضحك والسيد يستهزئ بهم . ويشيد قسراً عن انوفهم ملك مسيحهِ فالقى الله عليهم عبء حكم ابنه فآل بهم الامر ان يصبحوا اول من يطأطئ للمسيح صاغراً بعد ان راموا ان ينبذوا عن عواتقهم نيرهُ . وان يكن قد تنبأ عن المسيح مراراً جمة في الكتاب بتصورات عظيمة فان الرب لم يخف عن داود ما سيلحق ثمرة احشائهِ المباركة من العار لان هذا التعليم كان لشعب الله ضرورياً وان يكن ذلك الشعب لايزال ضعيفاً مفتقراً لمواعيد جسدية فلم يكن من المقتضي ان يغادر الصعود الانساني معتبراً كسعادتهِ الاخيرة ومكافأتهِ المفردة ولذلك كان الرب يوعز عن بعدٍ بالمسيح المنتظر الذي هو انموزج الكمال وموضوع لرغبتهِ كانهُ غارقٌ في عباب الاشجان والاوجاع وبدا الصليب لداود كعرش حنيفيٍّ له فانه رأى يديه ورجليه مثقوبة بالمسامير وعظامهُ كانت تعدُّ وثيابهُ معرَّضة للاقتسام وعلى لباسهِ طرأ الاقتراع . وسقي خلاً ومرارةً واعداؤهُ يحدمون حوله غيظاً وهم يفترون سروراً باهراق دمهِ ثم رأى ذلك النبي في الوقت نفسهِ نتائج ذله المأثورة وذلك ان كل شعوب الارض تذكروا الههم الذي كانوا قد نسوه منذ اجيال عديدة . وان اول من اتى موائد المسيح الفقراء ثم اعقبهم الاغنياء والاشراف وجاؤوا كلهم يعبدونه ويباركونه وكان هو متصدراً في الكنيسة العظيمة والكثيرة العدد اي في جمعية الامم المرتدين الى الايمان وانذر فيها جميع اخوته باسم الرب وحنائنه العظيمة واما داود الذي نظرت مقلتاه كل ذلك فشعر بان ملك ابنه ليس في ذا العالم ولم يكن بذلك متعجباً لانه يعلم ان هذا العالم حليف الزوال . ولقد كان يعلم ذلك الملك الذي استقرَّ بكل تواضع على العرش انهُ ليس من الخيرات التي ينتهي اليها كلُّ امل الانسان .

واما سائر الانبيا فلم يفقهم داود بروءية اسرار المسيح ولم يكن شيءٌ من العظمة والافتخار الا اوعز به الانبياء عن ملكهِ فمنهم من كان يرى بيت لحم احقر مدن يهوذا مشرقة

بان ولد فيها وانه صعد الى اسمى من ذلك ورأى مخارجه منذ القديم منذ ايام الازل من حجر ابيه ومنهم من كان يرى بتولية امو قائلاً هذا عمانوئيل (اي هذا الاله الذي معنا) يخرج من حجر بتول هذا الولد العجيب الذي يدعوه الله . ومنهم من كان يراهُ داخلاً الى الهيكل ومنهم من كان يراهُ ممجدًا في قبرهِ حيث ظهر على الموت وفي اثناء انذارهم بمجزاتهِ لم يضربوا صفحًا عمَّا لحقهُ من العار لانهم رأوهُ مباعًا وعلموا من قبلُ قدر الدراهم التي بيع بها بانها ثلاثون من الفضة وعرفوا استعمالها وفي عرض ما كانوا يرونهُ عظيمًا ومرفع المقام كانوا يرونهُ محتقرًا وغير معروفٍ بين بني الانسان وانه اصبح اعجوبة للبشر بذله وعظته وكانوا يدعونه احقر البشر ورجل الآلام الحامل كل الخطايا المبدي الرحمة غير المعروف المشوه بسبب قروحه وبهذا كان يشفي جروحاتنا وانهُ عومل معاملة ذي الجرائم وقادهُ الاشرار الى العذاب وسلم نفسه كالنعجة البريئة بكل سكينة وارتياح للموت . وذرية كبرى ماهبةٌ لان تلد منهُ بهذه الذريعة وانزل الله على شعبه انتقامًا لعدم ايمانهم . ولكي تتمَّ النبوءة افضى بهم الامر الى ان حسبوا السنين الى مجيئهِ وذلك امرٌ بينٌ لاينكرهُ الا من كان خامد البصيرة والبصر

وليس الانبياء قد نظروا المسيح فقط بل انهم كانوا رمزًا اليه والى اسراره ولاسيما رمز الصليب لان اكثرهم قد تجشموا مشاق الاضطهاد للعدل ومثلوا لنا بعذاباتهم البر والحقيقة اللذين اضطهدا في المسيح . فلقد كان اليا واليشاع هدفًا للاضطهاد المستمرّ ولكم كان اشعيا هزءًا وسخرية للشعب والملوك الذين قتلوه حسب تقليد اليهود المتواصل ورجموا زكريا بن بوياداع بالحجارة وكان حزقيا غارقًا في لجة الحزن وارميا في مشاق متواترة بكل اللسان عن تبيانها . وقد طرح دانيال مرتين في جبّ الاسود وكلّ اولائك كانوا هدفًا لكل اضطهاد موبق ويظهروا لنا جميعهم بانموزجهم ان الشعب القديم وان يكن مستلزمًا بالعموم ان يعضد بالبركة الجسدية بسبب ضعفهِ فان اقوياء اسرائيل اولي التقى والبر كانوا يقتاتون خبز الشجون ويجرعون سابقًا الكاس المعدة لابن الله رجاء النجاة . وبمقدار ما كان اقنوم المسيح مقدسًا كانت تلك الكاس مرة ولقد رأى الانبياء بوضوحٍ بين البركة التي اعطاها الرب على الوثنيين بواسطة المسيح فانذروا بها من قبل بكلامٍ ترفع الى اعلى البلاغة فان اصل يسى وداود قد بدا لاشعيا النبي كانه رايةٌ معطاة من الله للشعوب واياه ترتجي الامم . واما رجل الاوجاع الذي اصبحت قروحاته علة شفائنا فقد اصطفي

ليغسل الوثنيين بنضحه هي دمه والمعمودية ولا يجترىء الملوك ان يبدوا امامه حديثًا وراءنه مقلة من لم تسمع به اذناه وجيء اليه بمن لم يكونوا يعرفونه فهو الشاهد الذي ناله الشعوب والقائد والمعلم الذي بُعث به الى الوثنيين . وقد انحاز في عهده شعبٌ مجهولٌ الى شعب الرب وهرع اليه الوثنيون من جميع الانحاء ولا ريب انه صديق صهيون الذي كان نورهُ يتلألأ في الآفاق وهو المنقذ صهيون الذي يضيء كالنبراس وسوف يراه الامم وجميع الملوك سوف يعرفون ذلك الرجل الشهير في نبوات صهيون

فما قد صرح به بزيادة ايضاح واكثر بيان واخص صفاته . وهو انه قد دعي بالرجل العريق في الكياسة المصطفى بنوعٍ خاصٍ من لدن الله الذي سرَّ به وقد بعث به ليقضي للامم وتستأني سنتهُ الجزر التي تدعوها الامم العبرانية اوروبا والامصار القاصية لايهتف ولا يسمع له صوت خارجًا لانه لطيف ودمث الاخلاق لايسحق الأباءة المرضوضة ولا يزبل دخان الكتان ولا يضيق على بني الغبراء المجرمين بل صوته الرخيم يدعوهم اليهِ ويده الكريمة تاخذ بايديهم . سوف يفتح عيون العميان فيبصرون ويملص من زوايا السجن مسجونًا ولا يكون له من السلطة اقلُّ من الرافة . ومن اعرق صفاته ان يقرن الرحمة بالقوة ولذلك يدوخ صوته الرقيق اقصى العالم ويجعل الارض واجنة مائلةً دون ان ياخذ ساكنيها تمردٌ ولا يكون مأنوفًا منه اوزاحفًا وهذا الذي كان في اليهودية يكون معروفًا لاينتصر ان يكون ركنًا للاتحاد بين الله وبني الانسان بل يكون نورًا لجميع الامم ايضًا ولا يكون في زمان ملكوه العجيب الاثوريون والمصريون والاسرائيليون الاَّ شعبًا واحدًا للرب وتصبح كل الامم شعبًا اسرائيليًا مقدسًا ولاتكون اورشليم مدينة خاصة بل نموذج الفة جديدة حيث يلتئم فيها كل الامم من اوروبا وافريقيا واسيا . ويدوخ تلك الامصار الرسل الذين يختم الرب بعلاماته ليكشفوا عن مجدهِ لجميع الامم ويصبح المصطفون الذين كانوا يدعون باسم اسرائيل يدعون منذ ذاك الآن باسمٍ آخر حيث تتم المواعيد بانتخاب ابدي السعادة وان الكهنة واللاويين الذي كانوا الى ذاك الآن من نسل هارون يخرجون من ثمَّ من بين الامم . وتحل محل الذبائح القديمة ذبيحةٌ اخرى اكثر منها قبولاً وطهارةً وحينئذٍ يعرف لماذا كان داود ينشد كاهنًا من مرتبة جديدة وسوف ينزل الصديق من السماء كالطل وتنبت الارض المخلص الذي ينبت معه العدل لان السماء والارض تتحدان معًا مشتركتين بولادته . ذاك الذي يكون سماويًا ارضيًا وتبدو

طرق اخرى للفضيلة في العالم بامثاله وتعليمه وترسخ النعمة التي تهبط من لدنه عزّ وجل في القلوب ويتغير كل شيء لدى مجيئه وقد آلى الله على نفسه ان تودي له السجود كل ركبة ويقسم به كل لسان ويعترف بقوته

فهاك قسمًا من العجائب التي ابداها الرب للانبياء في عهد اولاد داود ولداود نفسه قبل غيره فكتبوا جميعهم تاريخ ابن الله قبل ما أتاهُ بانه مزمع ان يصير ابن ابراهيم وداود . وبناء على ذلك تسلسل الامور طرًا بالمقاصد الالهية بكل دقة ونظام لان ذلك المسيح الذي قد بدا عن بعدٍ كأنهُ ابن لابراهيم قد بدا عن قربٍ كانه ابن داود وان الملك معدٌّ له وان معرفة الله التي ذاعت في كل العالم اصبحت كانها دليل قاطعٌ على مأتاه وقد تقرر ارتداد الامم الى الايمان الحق والبركة المزمعة ان تحل على كل شعوب الارض التي وعدَ بها منذ زمان مديد ابراهيم واسحق ويعقوب . وقد كان كل شعب الرب على وشك ذاك الانتظام ومع ذلك فلم يفتأ الرب يقودهُ بنمطٍ غريب فتعاهد مع داود معاهدةً جديدة ووعده بان يذود عنه وعن كل الملوك خلفائه ان استمروا يسعون حسب القوانين التي منحهم اياها بواسطة موسى والاَّ فيبرحهم بالعقاب الاليم . وعلى ذلك ان داود تغافل عن تلك الوصايا فكان اول من تجشم مشاق العقاب ولما تاب عن خطيئته مكفرًا عنها رضي الله عنه واثقله بالنعم والخيرات فاصبح انموذجًا يتسنن به لكثرة صلاحه ولذلك توارث الملك في بيته وطالما اقتفى سليمان اثره بالبر والتقى فكان سعيدًا . بيدَ انه ضل عن طريق هدايته شيخًا ومع ذلك فقد عفا الله عنهُ لحبه لداود عبده لكنه توعد بقصاص سوف يوقعه على ابنه وعليهِ قد ابان للآباء حسب حكمته السرية انه يبقي لأولادهم ثوابًا او عقابًا يتكفل بها المستقبل وما ذلك الاَّ ليجعلهم مستمرين على الرضوخ لاوامره بشان مهامهم العائلية وتنفيذًا لهذه الاوامر اسلم رحبعام ذاته لمشيرين ذوي غرة فتناقصت مملكته بانحياز عشرة الاسباط عنهُ وفي غضون انفصال تلك الاسباط المنتفي عن الله وملكهم كان اولاد يهوذا ذوي الامانة بالله وبنصفيه داود مستمسكين بعروة العهد وبامانة ابراهيم وواخاهم على ذلك اللاويون وسبط بنيمين فلبثت مملكة شعب الله موطدة بذلك الاتحاد باسم مملكة يهوذا واستمرت سنة موسى مرعية بكل ما لها من القوة .

وكان الله لايزال يذكر عهده مع ابراهيم واسحق ويعقوب قسرًا عن العبادة الوثنية والفساد العظيم الذي كان بين عشرة الاسباط المنفصلين ولذلك لم يتلاشَ ذكر

سنتهِ بين اولائك المتمردين فاستمر يدعوهم الى ان يتوبوا بمعجزات كثيرة وبانذارات متواصلة كان يبعث بها اليهم بلسان ابنائه الابرار . ولما تصلدت قلوبهم وتمادوا في الآثام والجرائر انف من الرفق بهم ولذلك طردهم من ارض الميعاد قاطعاً عنهم الرجاء بالأياب اليها .

واما تاريخ طوبيا الذي كان في ذلك الحين نفسهِ وفي ابتداء اسر الاسرائيليين فيتبين لنا منه سلوك ابناء الله الذين بقوا بين الاسباط المنفصلين لان ذلك الرجل الصدوق قد انحبس عن تادية الرضوخ للاوثان طالما كان بين الاسباط قبل السبي وقصارى الامر انهُ كان يرعى السنة حق الرعاية لانهُ كان يجاهر بعبادة الله في هيكلهِ في اورشليم دون ان يجنح به الاقتداء الذريع او يردعهُ عن ذلك ذعر او خوف . ولما كان اسيراً في نينوا ومستهدفاً لسهام الاضطهاد لم يبرح ثابتاً في التقى والبر هو وعائلتهُ . ويتضح من المجازاة التي نالها هو وابنهُ في تلك الارض ان الله كان لهُ وسائل خفية قمراً عن الاسر والاضطهاد بان يظهر لعابديه البركة المعدة لمن يرعى السنة لكنهُ كان يرفع افكارهم الى العلاء بواسطة المشاق التي كانت تمنيهم وكان بنو اسرائيل يعرفون بواسطة انذار طوبيا وارشاده أنَّ يدَ الرب التي كانت تعاقبهم بضرب العصا ومع ذلك فقد استمر معُظمهم على العتوّ والعناد واما بنو يهوذا فلم ينجع بهم مثال اسرائيل ولم يرعووا عن غرورهم فلبثوا بهم ممتثلين فواصل الله انذارهم بواسطة انبيائهِ الذين كان يبعث بهم بالتواتر ليسهروا في الليل ويستيقظوا في الصباح كما يقول هو نفسه وما ذلك الا دليلٌ على اهتمامهِ الابويّ . ولما غالوا في الجحد انف منهم وتحرك عليهم غضبهُ وتوعدهم بان يعاملهم كما عامل اخوتهم المتمردين .

الفصل الخامس

في حيوة الانبياء ووظيفتهم واحكام الرب المعانة بالنبوّات

ليس في تاريخ شعب الله ما هو اهمّ من وظائف الانبياء فان اناساً كثيرين كانوا متباعدين عن البشر بعيشتهم ومرتدين بالبسة خاصة وكانوا في منازلهم يعيشون معيشة جمهورية تحت ادارة رئيس يقيمه الرب عليهم . ولقد كانت عيشتهم في الفاقة والتقشف

رمزًا الى العيشة التي ينذر بها في عهد الانجيل . وكان الرب يتراءى لهم بنوع خاص ويظهر امام الشعب ذلك الوحي العجيب ولم يكن يغالي به الاّ حينما كان الفساد يتكاثر وقد بدا وقتئذٍ ان عبادة الاوثان كانت مزمعة على ان تلاشي سنة الله وكان الانبياء يذيعون في تلك الاوقات التعيسة انذارات الله شفاهًا وكتابةً رجاء ان يقوموا بناصر الحق المبين وقد كانت الايدي تتداول تآليفهم ويستبقيها الشعوب كتذكارٍ مستمرٍ للاجيال الآتية وكان ينحاز اليهم كلٌّ من كان يستمرُّ واثقًا بالله .

وقد نرى في اسرائيل حيث استمرَّت عبادة الاوثان ان كل من كان يجنح الى الايمان كان يحتفل نهار السبت وايام الاعياد الموما اليها في سنة موسى . وقد طالما كان يحض الانبياء الصديقين على الثبات في ميعاد الرب وتحمل جمٌّ غفيرٌ منهم عقاب الموت الزؤام ونسج كثيرٌ من الناس باعمالهم المبرورة في ايام الملك منسى ايام البوس والشدة . وهريقت دماؤهم في سبيل الله ويتبين من ذلك ان الحقيقة لم تلبث قليلاً دون شهادة .

وينجم من ذلك ان الالفة كانت سائدةً بين شعب الله لان رباط الاتحاد بين الانبياء كان متينًا وكانت فيالق من المومنين يثبتون معهم علانية في الاتحاد بشريعة الرب والكهنة الابرار الذين ثبتوا في ما غادره لهم سلفًا وهم منذهرون . وفي عهد الملوك الكفرة كاحاز ومنسى لم ينشك اسعياء وانبياء آخرين من الغاء الخيانة التي كانت تثبت الميعاد وفيها كل رعاية السنَّة كما يقول بولس الرسول . ولم تنتسخ رعاية السبت والاعياد وان يكن احاز قد قفل باب الهيكل ووقف الذبائح حينًا من الدهر ظلمًا وعدوانًا فلم يكن ذلك مانعًا من ان يسبح الله اولياؤه ويجهرون باسمهِ فان الخالق جلَّ شانه لم يشأ ان تنتسخ الصلوة من بين شعبهِ . ولما عزم هامان على ان يمحو ميراث الرب ويغير مواعيدهُ ويزيل تسابيحه لم يخفَ على احدٍ ما صنع الله به قصدَ ان يصدهُ عما يشاء وعلت قوة الله وسمت لما ازمع انتيوخوس على ان يقوض ركن الهيكل والدين وانذر الانبياء احاز ومنسى كثيرًا ليقوما بناصر الحقّ والدين ويدعا العبادة سالمة وقد كتبت كلمات الانبياء الذين كانوا يناجونهم باسم الرب اله اسرائيل في تاريخ ملوك اسرائيل كما ينوه عنه الكتاب المقدس واما منسى فقد تلين قلبهُ وتاب بسبب انذارهم واصبح ارشاد الانبياء ذريعة لان يحفظ للشريعة من المومنين عددًا كبيرًا . وان حرب الصالحين

كان لم يزل قويًا حتى ان الاحكام كانت تصدر ان الملوك الكفرة الذي تبادهم غائلة الموت ليس من الحق ان يرمسوا في تربة داود سلفو الصالحين وان يكن قد كتب ان احاز قد دفن في مدينة داود فيوخذ من الكتاب المقدس انه لم يرمس في تربة ملوك اسرائيل . ولم يخرج منسى عن نطاق ذلك الحكم ولو اصبح من بعد تجمه تائبًا ولم يكن ذلك الاَّ ليبقى له اثرٌ مستمرٌ يبعث على الرعدة والارهاب من سلوكه ولكي لا يدور في خلد احد ان الذين كانوا متحدين بالعبادة علانية مع الانبياء لم يكن بينهم خلفاء شرعيون للكهنة قال حزقيال صريحًا : اما الكهنة واللاويون بنوا صادوق الذين رعوا سنن مقدسي اذ ضلَّ بنو اسرائيل عني فهم يزدلفون اليَّ ليخدموني . ويقفوا قدامي ليقربوا لي الشحم والدم قال الرب .

ومع ذلك فان عبادة الاوثان التي كانت وسيلة لان تطمس اسرائيل كانت مرارًا جمة تجذب اليها في مملكة يهوذا الملوك واكثر الشعب قسرًا عن الانبياء المومنين والكهنة الصديقين والشعب المتحد معهم في حفظ الشريعة . وان يكن الملوك غادروا اله ابائهم نسيًا منسيًا فتحملهم الله اكرامًا لعبده داود لانهُ كان دائمًا يرنو اليهِ . ولما كان الملوك بنو داود يتسننون باعمال ابائهم كان الله يتيح لهم بالعجائب العظيمة قصدَ نجاتهم الاَّ انهم كانوا يشعرون بقوة يدهِ التي كانت تثقل عليهم لما كانوا ينغمسون في الفساد والغواية. وكان ملوك مصر وسوريا ولاسيما ملوك اثور وبابل كقضيب حنقهِ . ولما فشا الكفر اقام الرب في الشرق ملكًا جبارًا مرهبًا يقال له نبوخذنصَّر وولاهُ على بابل فكان اشر الفاتحين . وكان يخيف الله بهِ الملوك عن بعدٍ كانه نقمةٌ عليهم في عزمهِ ان يوسعهم ارهاقًا وتعنيتًا فعلق يسعى والذُّعر يسعى امامهُ فانقض في بادىء الامر على اورشليم ففتحها ونقل من سكانها جزءا الى بابل . ومع ذلك فلم يرعوِ من استقرَّ بهم المقام في بلادهم ولا من جيءَ بهم وقد طالما جدَّ ارمياء النبيء وحزقيال في سبيل ارجاعهم عن غيهم فلم يرجعوا بل آثروا عليها الانبياء الكذبة الذين غالوا في ان يداهنوهم ويصانعوهم بالخديعة فانثنى من ثم ذو الانتقام الى بلاد يهوذا وعنى اهل اورشليم بالمبرحات الموبقة وصوب عليها سهام غضبهِ فاتلف منها جانبًا كبيرًا ولما تعاظمت الجرائر وتمادى قاطنوها في الخيلاء والصلف وجه عنايتهُ الى اتلافها فجعلها قاعًا صفصفًا

ولم يعفُ الله عن ادمار هيكل قدسهِ . ولا ريب في ان بني اسرائيل لو استمروا

ثابتين في عبادة الله لكان ذلك الهيكل الذي هو زينة العالم ابديًا لا يمحوهُ كرور الايام . فمحنح الله عنه فاذكى الاثوريون فيه النار فاحرقوه . واما قول اليهود ان هيكل الله هيكل الله هيكل الله هو عندنا فقد ذهب ادراج الرياح زاعمين ان ذلك الهيكل في وسعهِ ان ينقذهم وحدهُ فشاء ذو اليد القوية ان يدلهم على ان نجاة المرء ليست موقوفة على بناء الحجارة بل على قلوب انطوت على الطهر والامانة

ولذلك عرّض هيكل اورشليم لان يصبح يبابًا وكنوزهُ للسلب واصبحت كل ادواته الثمينة التي وقفها اليه الملوك الصديون فريسة لمطامع ذلك الملك المجود . الآن سقوط شعب الله ازمع ان يكون مثالاً لكل الارض وانذارًا لانا نرى في هذا الملك العتي الظافر صفات كل الفاتحين الذين كانوا عصيًا لغضب الله فكان جلّ جلالهُ يتخذهم آلةً لتنفيذ احكامهِ العادلة ثم ينفذ احكامه فيهم لان نبوقولصّر الذي قد استلأم بقوة المهة واصبح ظاهرًا ظهورًا فائقًا عاقب جميع اعداء شعب الله وبيان ذلك انهُ زحف على الادوميين والعمونيين والموآبيين وسلب ملوك سوريا املاكهم واضحت مصر التي القت على عواتق اليهود نير الاسترقاق هدفًا لسهام هذا الملك الجبار فانهُ اثقلهم بالجزية بيد أن باسهُ لم يكن اقل مضرّة على يهوذا فان الشعوب لم ينتهزوا الحين الذي اوسعهم بهِ الرب رجاء الاياب اليهِ فوهي فيها كل ما كان قائمًا وقوّض نبوقولصّر قضيب غضب الرب ركن كل شيء وقد اصبح هو نفسه على جرف سوف ينهار . واما الرب الذي قد تخذ ذلك الملك آلةً يعاقب بها شعبه واعداءهُ ترك قصاصهُ لعهدة يدهِ القوية

الفصل السادس

في قضاء الرب على نبوقولصّر والملوك خلفائهِ وكل دولة الاثوريين

ان الرب لم يخفِ على شعبهِ ما كان مزمعًا ان يحل في ذلك الملك الذي كان يعنتهم ويضيق عليهم وفي دولة الكلدانيين التي تخذتهم اسرى وخيفة ان يصبحوا جانحين الى مجد الكافرين وسؤددهم اخذ الانبياء ينذرونهم بان ملك الاشرار قريب الزوال فان اشعياء الذي شاهد ما اتصل اليه نبو قولصر من العزّ والمنعة والجبروت تنبأ بانه سيهبط مدحورًا وتصبح مملكته طامسةً دارسةً وذلك قبل ان يبرز الى عالم الوجود وقد

كانت بابل خبيرة جدًا لما تنبأ هذا النبي عما ستصل اليه من الباس والشوكة . وبعد ذلك بقليل من الحين رأى ما الم بها من الدثار وعلى ذلك كانت التقلبات التي تنشأ في المدائن والممالك التي طالما ارهقت شعب الله او تغتنم من خسائرهِ تكتب في تلك النبوءات التي كانت لا يمضي عليها قليلٌ من الحين الا تتم وان اليهود الذين عوقبوا بكل صرامةٍ شاهدوا سقوط السامرة وادوم وغزة واسكالون ودمشق والمدائن العمونية والموآبية العدوتين اللدّاوين وحاضرات الممالك العظام كصور ملكة البحر وتانيس وممفيس . وتاب التي كان لها مائة بوابة سقطت مع غنا سيزوستريس ونينوا نفسها مركز ملوك اثور الصاهدين وبابل ذات الخيلاء والكبر الظاهرة على غيرها المثرية بما اغتنمت . وكلُّ ذلك تم قبل اليهود او في اثنائهم او بعدهم بقليل كما كتب في سفر الانبياء .

وبلا ريب ان اورشليم سقطت في ذاك الحين نفسهِ لكثرة ما تحملت من الجرائر والمنكرات بيدَ ان الله لم يدعها فاصمةً حبل الرجاء فان اشعياء الذي تنبأ عن سقوطها رأى نهوضها المجيد وانه عينهُ اوعز قبل ميلاد قورش بمايتي عام الى انهُ ينقذها وان ارمياء النبي الذي لا يشكُّ في سموّ نبوآتهِ وعدَ الشعب بالاياب السنة السبعين بعد السبي وما ذلك الا ليبدي لهم ما سيعتورهم من الهلاك عقابًا على نكرانهم الجميل وفي اثناء السبي كان الشعب مرعيَّ الحرمة بسبب انبيائهِ الذين كانوا ينذرون الامم والملوك بما سيطرأ عليهم من الموبقات .

ونبو قولصر الذي كانت تؤدى له العبادة خرَّ لدانيال خاشعًا لأن الدهش اخذه اذ شعر بالاسرار الالهية التي كان دانيال ينشرها لديهِ . واعلمهُ بما سيقضى عليه فكان انفاذهُ عقيب ذلك دليلاً على مصداق ما قال . فان ذلك الملك الظافر كان يحتفل في بابل التي جعلها اعظم المدن وامنعها قوةً وابهج مدينة اشرقت عليها الشمس فوقف له الرب هنالك في المرصاد لينكس اعلام عظمتهِ فكان في حكمه سعيدًا لا تلمُّ بجسمهِ قرحةٌ طالما كان مترئسًا على جنودهِ وفي كل ايام فتوحاته وكان مشرفًا على السقوط في بيته تطبيقًا لنبوءة حزقيال ولكثرة ما كان متماديًا في الكبر والصلف تعالى فوق العالم الانساني . ففاجأهُ الله اذ ذاك بالضربات الويلة وذهب بعقلهِ وطرح بهِ بين البهائم الا انه لما جاء الحين المتاح الذي اوعز اليهِ بهِ دانيال رجع الى عقلهِ وتاب الى رب السماء الذي جعله يشعر بقوته بيدَ ان خلفاءهُ لم يتسننوا باعمالهِ فتغيرت حينئذٍ

الشؤون في بابل وازف الوقت الذي حدده الانبياء بنهوض يوذا فبدا قورش مترئساً على الماديين والفرس ورضخ كل شي له فازدلف رويداً رويداً وزاحف الكلدانيين لانهُ توقف في تسياره كثيراً وفشا نبأ ماتاه كما تنبا اشعياء ومن ثم زحف على بابل . فهذه المدينة التي طالما توعدها الانبياء مراراً جمة لتوغلها في عباب الكبرياء والعظمة غير ثابتة عراها الظافر الجري وهي لاتذعر منهُ ولا ترتعب . فانها كانت تشامخ بهامتها لكثرة ما كان لها من الغنى والثروة وبذوخ اسوارها وعظم جيوشها وسعة نطاق حكمها الذي كان يكتنف بلاداً باسرها كما روى القدماء وذخرها العظيمة . وبعد ان حوصرت زمناً مديداً لم ترهب ادنى غائلة بل كانت تهزأ باعدائها غير مبالية بما كان يحتفر قورش حولها من الخنادق والاخاديد ولم يكن يهتم اهلوها داخل ابوابها الا في المآدب والملذات وقام ملكها بلتشصر حفيد نبو فولصر الذي كان يضاهيه بالكبرياء لا بالبسالة ودعا ظهراءه المقربين وصنع لهم احتفالاً عظيماً . وحدث في ذلك الاحتفال فساد ما عليهِ من مزيد . لانه اتى بالاواني القدسية المنتزعة من هيكل اورشليم ودنسها مازجاً الارجاس بالتبرج فحنق الله حينئذٍ منهُ وهبطت من العلاء يدٌ سماوية وكتبت على ظاهر المنزل المعد للوليمة كلاماً يبعث على الارهاب والذعر فاوقفه دانيال الذي كان قد تنبأ عن سقوط جد الكتيب عن معناهُ : قائلاً ان صاعقة ستلمُّ بهِ وتتميماً لاوامر الرب فتح قورش له في بابل باباً . واما نهر الفرات الذي كان قد حوله قورش عن مجراهُ بواسطة خنادق احتفرها له منذ ايام مديدة فقد اكتشف له مجراهُ المتسع وعبر الملك في ذلك المجرى غير المنتظر وعليه اصبحت بابل ذات الكبر فريسة الماديين والفرس وقورش كما قال الانبياء . ولدن ذلك اندثرت معها مملكة الكلدانيين التي ادمرت من الممالك مقداراً كبيراً وهكذا تحطمت مطرقة جميع الارض كما يقول ارمياء النبي وسحق الرب عصاً ضرب بهِ كل الامم حسب قول اشعياء . ورأى الشعوب الذين كانوا يعانون اثقال ملوك الكلدانيين انهم يعانون مثلما كانوا يعانون . وقالوا لبابل اصبحت فرجى مثلنا فضاهيتنا ولقد طالما كنت تقولين في قلبكِ اصعد الى السماء فاكون نظير العليّ وذلك ما قد انذر بهِ اشعياء النبي قائلاً سقطت سقطت بابل الكبرى وتحطمت الهتها وسحقت اصنامها وانكسر باعال والهها نابو العظيم الذي كان ملوكها العظام يشتقون منه القابهم فان الفرس اعداءهم كانوا يعبدون الشمس ولم يكونوا يقنطون من الاصنام او الملوك الذين اقاموهم آلهة عليهم . واما

سقوط بابل فقد طابق ما تنبأ عليه الانبياء فان مياهها نضبت كما قال ارميا ليلجها الظاهر عليها واخذت بها سنة النوم والغفلة وهي غريقة بحار الملذات كما قال النبي وقبضت عليها ايدي اعدائها كأن احبولة طُرحت عليها فاصبحت قبضةً وهي غير شاعرة . فغدا كل سكانها هدفاً لنصال السهام وفريسة لغرار الحسام . فان الماديين الظافرين لا يطلبون كما قال اشعيا نضاراً ولا لجيناً بل الانتقام وحدهُ ويجهدون في ان يشفوا غليل غمرهم بان يهلكوا شعباً ظالماً حمله تكبره على ان يكون عدواً لبني الانسان قاطبةً . وكان السعاة يأتون متوافدين على الملك ينبئون لديه ان المدينة قبضت عليها ايدي الاعداء . وتنبأ ارميا عن ذلك ومجموع الذين كان يثق بهم وكانوا يعدونها بملك ابديّ ولم يمكن لهم ان ينقذوها من ايدي الظافرين وذلك ما تنبأ عنهُ اشعيا وارميا معاً ولم ينج في هذه المذبحة الهائلة من حسام الظاهر الا اليهود وحدهم لانهم كانوا يعرفون ذلك انفاً وقورش الذي امسى قابضاً بنفوذهِ على كل الشرق شعر ان في هذا الشعب المدحور مراراً امراً الهيًا فقرت عينهُ لما سمع بالنبوءات التي اعلنت سلفاً بانتصاره وذعن ان ملكهُ هبةٌ من رب السماء الذي يعبده اليهود . فاوعز اول عامٍ من حكمه الى ان ينهض الهيكل ويثني الشعب الاسرائيلي .

الفصل السابع

في اختلاف احكام الرب بقضائهِ الصارم على بابل وحكمهِ الرحوم على اورشليم

من ذا الذي لا يأخذه العجب والدهشة من الحكمة الالهية البادية بنوعٍ صريح على اليهود والكلدانيين واورشليم وبابل . فشاء ذو العزة ان يعاقب هاتين المدينتين كلتيهما عقاباً شديداً فانذر بذلك بفم انبيائهِ الاطهار حذراً ان يدور في خلد البعض ان ذلك العقاب ليس منه تعالى . فكان اذ ذاك لاورشليم وبابل سقوطٌ رائع حسبما فاهت به الانبياء من قبل . واما الرب فقد اذاع سرَّ ذاك العقاب فاثقل الكلدانيين بالمبرحات وعاقب اليهود الذين هم بنوه رافقاً راحماً فسقط تكبر الكلدانيين الى الحضيض دون رجاء النهوض وما ذلك الا لان الخيلاء قد اخذت بهم كلَّ مأخذ فاصبحت

فيهم من الصفات الغريزية وملكةً في دولة بابل فقد قال النبي ارميا ان ذا الكبر يهوى الى اسفل مدحوراً وليس من احدٍ يقوم بناصره وقد قال اشعياء النبي ان بابل الشديدة الخنزوانة التي هي مثابة عظمة الكلدانيين ستصبح طامسةً دارسة مثلما اصبحت صدوم وعمورة . ويغادرها الرب آيسة قنوطةً . بيدَ ان ذلك العقاب الصارم لم يوقعهُ على اليهود بل انهُ قاصّهم كما يقاصّ الاب بنيه المتمردين امل ان يجنحوا عن غرّتهم مزدلفين اليه رضوخاً فيتناسى ما فعلوا ان تابوا اليهِ نادمين ويسدل سجاف الستر على زلاتهم . قال الرب لاتجزع ياعبدي يعقوب فاني انا معك واني ابيد جميع الامم . واما انت فلا ابيدك بل اؤدبك بالحكم ولا اغفر لك كأنك ذكي . وعلى هذا قد أُخذت بابل من الكلدانيين اخذاً مؤبداً . وأُسلمت لشعبٍ آخر ونهضت اورشليم بعد ان كانت دائرة بنوعٍ عجيب . وآب اليها بنوها من كل اصقاع العالم .

الفصل الثامن

في اياب الشعب تحت قيادة زروبّابل وعزرا ونحميا

إنّ من اعاد بني اسرائيل من السبي زروبّابل من سبط يهوذا ومن نسل الملوك فانثنى بنو يهوذا اجواقاً وافعموا الارضين . بيدَ ان عشرة الاسباط تشعثوا وتبدّدوا ما بين الامم الّا الذين هم موسومون باسم يهوذا فانهم انحازوا تحت رايته وآبوا الى ارض ابائهم . وشادوا في ذاك الحين المذبح واقاموا الهيكل ورفعوا اسوار اورشليم

وكبتَ الفرس الذين اصبحوا ذائدين عن شعب الرب حسد الامم المجاورة وعاد الكاهن العظيم الى مهام امرهِ والكهنة الذين امكن لهم ان يبينوا تسلسلهم بواسطة السجلات العامة . وكل من لم يبين ذلك اصبح مرفوضاً وعزرا نفسه الذي كان كاهناً ومعلماً في السنّة والحاكم نحميا اصلحا كل الفساد الذي طرأ منذ السبي وحملا الشعب على ان يرعى الناموس بكل دقة ونظام . وكان الشعوب يصببون العبرات معها على كل الزلات التي سببت لهم ذلك العقاب الاليم . واذعنوا ان موسى تنبأ عن كل ذلك وكانوا جميعهم يطالعون في الكتاب كل ما كان عبد الرب يتوعدهم بهِ وكانوا يشاهدون تنفيذهُ . وكانت نبوّة النبي ارميا والاياب الذي وعدوا بهِ بعد سبعين سنة من الاسر يدهشانهم

ويعزّ بانهم فاخذوا اذ ذاك يرضخون لاحكام الرب ويزدلفون اليهِ ويعيشون بالامن والسلام .

الفصل التاسع

في ان الرب الذي كان على وشك ابطال النبوات اذاع نور حقهِ اكثر من الآنف

ان الرب الذي يصنع كل شيء في حينهِ قد استحسن الوقت لان يلغي الوسائط الخارقة العادة اي النبوات بين شعبهِ . لانهُ راهُ نبغ في الرشد ولم يكن باقيًا في ذاك الحين الى ماتى المسيح الا خمسمائة عام . واناط الله بعهدة ابنه ذي الجلال ان يسكت الانبياء في كل ذاك الآن ليبقى شعبه منتظرًا من هو مزمعٌ ان يكون منقذًا لتلك النبوات

وفي اواخر الاوقات التي عزم فيها الرب على ان يلغي النبوات لاح في فكره ان ينشر كل نور حقائقهِ ويكشف كل اسرار حكمتهِ الالهية فابان بنوع صريح اسرار الاوقات الآتية .

فان دانيال رأى في اثناء السبي ولاسيما نحو اواخر ذاك الحين اربعة الممالك التي ازمع الاسرائيليون ان يعيشوا تحت رايتها مرارًا مختلفة بهيئات متباينة . ولا غروَ انهُ نبيٌّ قد ذاعت في تلك الارجاء حكمته وتقواه ورعت الملوك لهُ الحرمة وقد تخذهُ بعضهم سندًا يعوّل عليه في امور الدولة لفرط حصافتهِ وحكمته التي دارت ذكراها على الالسنة وكشف عما كان مطويًا بشان تلك الدول لانهُ كان مزمعًا ان يرى دولة ملك من ملوك اليونان ظاعنة كالسيل الآتيّ وهي دولة الاسكندر وعند سقوطها تقوم دولة اضعف منها وياخذ بها الشقاق والانقسام فتفنى وهذه الدولة هي دولة خلفائهِ الذين بنوه النبي عن اربعةٍ منهم وهم انتيباطور وسلاكوس وبتولماوس وانتيغونوس . ومن الامور المقررة في التاريخ انهم كانوا ذوي جراءة وباس يفوقون بذلك سواهم . وتوارث شوكتهم خلفاؤهم وقد اوعز ايضًا الى ما اججوا من الحروب وما اوغرت صدورهم من الحسد والى اتحادهم المبني على الرياء والمخاتلة ويشير عن جور ملوك سوريا ومطامعهم وكبريائهم وصفاتهم الذميمة التي قد امتاز بها انتيوخوس ايفان الذي كاشح لشعب الله بالقلى والبغضاء وجار عليهم . وقد

اوعز دانيال الى قصر حكمه وما يلم به من العقاب السريع على جوره . وفي اواخر تلك الازمنة توطد احكام ابن الانسان وتبرز كانها ناشئة من بين تلك الممالك ويعرف بذلك الاسم يسوع المسيح وتدعى مملكته ملك قديسي العلى ويودي كل الشعوب لها رضوخا عظيما وانها لدولة تتهافت على السكينة والسلم وقد وعدها الله بان تكون ازلية وان شوكتها لا تحول الى دولة أخرى سواها .

ان الله اوحى الى دانيال عن ماتى ابن الانسان اي المسيح المنتظر وعن كيفية تتمة العمل المندوب به اي انقاذ الجنس البشري . لانه بينما كان منهمكا في سبي شعبه في بابل وفي السبعين سنة التي حصر بها الله مدة السبي وفي جؤاره الى ربه بالدعاء لينيح له نجاة اخوته رفعه الى افكار اسمى منها لانه رأى من السنين عددا سوى ذلك ونجاة اعم فقد راى بدلا من السبعين سنة التي تنبأ عنها ارميا سبعين اسبوعا منذ الامر الصادر من ارتحشستا ذي اليد الطولى سنة العشرين من ملكه لاجل قيام اورشليم فانه يقول حينئذ بنوع صريح في انتها السبعين عاما ان الخطيئة تمحى ويتلاشى الاثم ويسود العدل الابدي وتتم النبوة ويمسح قدوس القديسين وان المسيح سوف يبدو كقائد الشعب بعد تسعة وستين اسبوعا بعد تسعة وستين اسبوعا (لان النبي كرر ذلك) وعند ذلك يقتل جورا وعدوانا ويختم قتله لتتم النبوة ويوعز النبي الى اسبوع خاص وهو آخر اسبوع السبعين الذي يقتل فيه المسيح حيث يتثبت العهد وفي وسط ذلك الاسبوع تلغى الذبيحة والتقريب ولا جناح في ان ذلك يكون بسبب موت المسيح لان ذلك التغيير ينشأ عقيب موته ولم يبق بعد موت المسيح والغاء الذبيحة الا الرجس واليباب فحينئذ ترى خراب المدينة والقدس وان الشعب والقائد المقدم يبيدهما ويكون في الهيكل رجس ويستمر اخر دثار الشعب الذي يجحد مخلصه الى الانقضاء

فاذا اريد بهذه الاسابيع اسابيع سنوية حسب مقتضى الكتاب المقدس نتج من ذلك اربعمائة وتسعين سنة وقادنا ذلك منذ السنة العشرين من الملك ارتحشستا الى الاسبوع الاخير المفعم من الاسرار حيث تالم فيه المسيح والغى بموته ذبائح السنة واتم كل الرموز . فالعلماء ياتون بحسبان متباين ليطابقوا ذلك الوقت تماما اما الحسبان الذي رفعته اليك فهو خال من الارتباك ولا يشوش تسلسل ملوك الفرس بل يجعل له وضوحا بينا وليس من العجب ان يكون في تاريخ هولاء الملوك قليل من الارتباك الا ان السنين

القليلة التي يقع عليها النزاع لا تكون مشكلاً مهماً بالنسبة الى تعداد اربعماية وتسعين سنة فعلامَ نطيل البحث عن هذه المسئلة فان وجد موانع في هذه الامور فقد كان العليّ ازالها بحكم لا يناقض فان الحادث البين يحملنا على ان لا نعبأ بتغيير المؤرخين طرًّا فان دثار اليهود الذي وليَ موت السيد المسيح يبين لمن كان اعمى البصيرة تتميم النبوءة . ولم يبق عليّ الان الآن احملك على ان تسرح طائر النظر في احد الظروف فان دانيال ياتينا بسرٍّ اخر وهو ان نبوة يعقوب كانت قد انبأتنا ان مملكة يهوذا سوف تزول لدن مأتى المسيح يدَ انهُ لم يوعز الينا ان موته يكون ذريعة لانقضاء هذه المملكة بل الرب قد كشف هذا السرَّ المهمَّ لدانيال النبي لما ابان لهُ ان انقضاء اليهود سوف يكون نتيجة موت المسيح وجحدهم اياهُ . فادر لحاظك ياسيدي الى هذا القول فان تسلسل الامور سوف يبينهُ لديك على احسن منوال .

الفصل العاشر

في نبوات زكريا وحجّايَ

انك قد عثرت على كل ما ابان الرب لدانيال قبل انتصار قورش وترميم الهيكل . وفي غضون ترميمهِ اقام الله حجاي وزكريا النبيين ثم بعث فورًا بملاخي المزمع ان يكون خاتمة انبياء العهد القديم فكم من الامور التي رآها زكريا النبي . فقد تبين ان كتاب احكام الرب كان كأنهُ مفتوح امامهُ وانهُ كان يقرأ كل تاريخ شعب الله منذ سبائهِ . فقد انجلى لديهِ تسلسل اضطهاد ملوك سوريا والحروب التي اذكوها على يهوذا لانهُ كان فتوح اورشليم ونهبها يتضحان لديه . ترى بصيرته خرابًا هائلاً وبلبلة عظيمة وشعب الله موليًا في البرية آيسًا جزوعًا عائشًا بين الموت والحيوة . وقبل ان اضمحل بزغ امامهُ نورٌ جديد وهو ان الاعداء الكاشحين تشعثوا منهزمين مقموعين وتقوضت الاركان الصنمية في كل الاراضي المقدسة وآب الامن والسلام والنضارة الى المدينة والبلاد واصبح الهيكل مرعيّ الحرمة في كل الشرق . ومن الظروف التي تستلفت الانظار اليها ان زكريا أُوحيَ اليه من العلاء ان يهوذا نفسه يحارب اورشليم اي ان بني اورشليم سوف يسلمونها وان كثيرين من اليهود هم من زمرة اعدائها . وكان يرى احيانًا في بيت يهوذا تواتر حوادث محزنة لانهُ

يقول عن لسان الرب انا اقوى بيت يهوذا واني اذلل الممالك التي اضطهدتني واعاقب الممالك المجاورة التي لاتنفك تضطهدني . فقد ارتد بعضها وانحاز الى شعب الرب . ولقد كان يرى ان الشعب غائص في لجة انعام الله . ومن جملة انعامات الله انه كان يناجيهم بانتصار الملك الفقير الطاهر السليقة والقلب المنقذ الذي يدخل اورشليم راكبًا اتانًا

وبعد ان انبأهم عن سعادتهم علق ينبئهم عن تسلسل المصائب وهو انه راى ان النار التهمت الهيكل وساد في البلاد والعاصمة الدثار والقتل والجور وما اتى به الملك من العسف والعدوان اما الرب فيرفق بشعبه المنبوذ جانبًا ويصبح له راعيًا ويعصمه بيده ثم تحتدم الحروب الاهلية وتحول الحال والى ذلك يوعز بدلائل فردية ويكون بدء ذلك الحين لدن سقوط ثلاثه رعاة اي ثلاثة ملوك حسب قول الكتاب فيستطون في شهر واحد وقول النبي في ذلك بينٌ ذو وضوح اذ يقول قطعت ثلاثة رعاة اي ثلاثة ملوك في شهر واحد وتضايقت نفسي بهم اي بشعبي لان اهواءهم قد اختلفت بي ولم يثبتوا في سنتي وقد قلت لهم اني لا ادعي راعيًا اي لا اكون لكم قائدًا بل اغادركم وشأنكم بخامل بختكم ولا اعبا بما يلم بكم من الشقاق ولااتهمك في ان ادرأ عنكم النوائب المعدة لكم وعلى هذا فليمت من يموت ولينصرم ما ينصرم وينهم كلٌ من الباقين لحمان خدنه والى ذلك يكون مآل اليهود الذين نسيهم الرب عدلاً . وقصارى القول ان السقوط قد تمَّ بعد فناء هؤلاء الملوك الثلاثة وان ما هو مزمعٌ ان ياتي سوف يبدي لنا ان تتميم هذه النبوة لم يكن قليل الوضوح .

وفي اثناء هذه المصائب العديدة التي تنبأ عنها زكريا جليًا يتبين لنا بلية اشدٌ من كل تلك النوازل وهي انه بعد ان سار الشقاق بين اولائك الشعوب وآل بهم الامر الى السقوط باعوا الرب العظيم بثلاثين من الفضة . وقد توصل النبي الى ان رأى بروءياه حقل الخزفيّ الذي صرفت في سبيله واصبح من بعد ذلك بليلةٌ عظيمةٌ بين الشعب فقست قلوبهم وتحطمت شوكتهم .

فياسيدي ان لساني لعيٌ عن تبيان نبوة زكريا العجيبة التي راى بها الراعي مضروبًا والضئان مبددة والشعب يرنو الى ربه الذي طعنه ولقد راى دموعًا تسح عليه تفوق دموع الثكلى على وحيدها وحزنًا عليه شجيًا اقوى من الحزن على الملك يوشيا وقد راى امرًا اعظم من كل ذلك وهوان الرب بعث بالرب الى اورشليم ليدعوا الامم لكي يتصفوا

بشعبهِ ويفطن هو بينهم .

اما ما قاله حجاي بشان ذلك فقد كان عريًا عن كل اطرآء ومفرغًا في قالب الغرائب لان الشيوخ لما كان يبني الهيكل الثاني كانوا يسحون العبرات حزنًا والتياعًا مقابلين سوءدد البناء الاول بالبنآء الثاني الذي هو نتيجة الفاقة والفقر اما النبي الذي كان اسمى معرفةً منهم فقد كان ينذرهم بمجد الهيكل الثاني وبوثره على الاول ويبين لهم انه يقام بن ينتظره الامم وهو المسيح الموعود به منذ الفين سنة ومنذ ابتدآء العالم ليكون منقذًا للامم وهو الذي سيبدو في الهيكل الاخير لان الرب يهب فيه السلام وكل الارض تشهد بأنهُ مخلصها ولا يبقى لماتاه الاَّ قليلٌ من الحين وان الازمنة المهيأة لمجيئه قد اصبحت من آخر الازمنة .

الفصل الحادي عشر

في نبوة ملاخيا آخر الانبيا وتتميم الهيكل الثاني

لما ناهز نجاز الهيكل اخذ الشعوب يقدمون الذبائح بيد ان اليهود ذوي الخسة والدناءة تهمكوا في تقدمة قرابين ذات عيب وارتفع اعتبار ملاخيا الذي كان يونبهم على ذلك فانه لما كان يرى قرابين اليهود ذات الرجس كان يرى قربانًا ذا طهرٍ عريًا من الدنس موهبًا لان يقرَّب لله ولا يكون ذلك في هيكل اورشليم فقط بل في فسيح من الارض من مشرق الشمس الى مغربها ليس من اليهود بل من ساير الامم الذين يصبح اسم الرب بينهم عظيمًا كما يقول النبي

ويرى ايضًا مثل حجاي مجد الهيكل الاخير والمسيح الذي تحلُّ فيه ركابهُ خطيرًا الاَّ انه كان يرى في الوقت ذاته ان ذاك المسيح هو الله نفسه الذي كرَّس له ذاك الهيكل لانه يقول عن لسان الرب هئنذا ابعث بملاكي ليسهل الطريق امام وجهي ولدن ذلك ياتي الى هيكله الرب الذي انتم تطلبون وملاك الميثاق الذي انتم تبتغون .

يبعث بملاك وهئنذا الملاك المبعوث ذو السوءدد السامي ولي الهيكل والمبعوث هو الله يلج هيكله كما يلج موئلهُ الخاص وهو المبعوث الذي يطلبه كلُّ الشعب الذي ياتي ليضع ميثاقًا جديدًا ولذلك دعي ملاك الميثاق او العهد .

واذا تحتم ان يبدو هذا الاله المبعوث من قبل الرب في الهيكل الاخير فان مبعوثًا اخر يسبقهُ ويمهد لهُ الطريق . ومن ذلك يتضح ان المسيح يسبقهُ البشير وقد اوعز الله عن صفات ذاك البشير الى النبي ملاخي وانهُ يكون كاليا المشهور بالطهر والقداسة ورقة العيش والسلطان والغيرة .

وعلى هذا ان النبيّ الاخير من الشعب القديم قد ابان كل صفات النبيّ الاول المزمع ان ياتي بعدهُ وهو اليا الجديد بشير المخلص الذي سيبدو . ولم يكن شعب الله يستأني الى ذاك الحين نبيًا بل كان يقتصر على سنّة موسى .

ولذلك اتمّ ملاخي نبوّتهُ بهذه الكلمات اذكروا سنّة موسى عبدي التي اوصيته بها في حوريب الى جميع اسرائيل هئنذا ابعث اليكم باليا النبي ويعطف قلوب الاباء على البنين ويرد قلوب البنين الى ابائهم . ويظهر للبنين ما كان يستنظرهُ الاباء وضمّ الرب الى شريعة موسى الانبياء الذين تكلموا حسب منطوقها وتاريخ شعب الله الذي الفه الانبياء اذ كانت مواعيد الناموس وعهد بدائه مقرّرة بحوادث ظاهرة . ولقد كان كل ذلك مكتوبًا بعناية كبيرة ومنصوصًا حسب ترتيب الازمنة وهذا ما غادرهُ الرب لتعليم شعبه لما الغى الانبياء

الفصل الثاني عشر

في زمن الهيكل الثاني وثمرة العقابات والنبوات الاخيرة

والغاء عبادة الاصنام وطرد الانبياء الكذبة

ان هذا التعليم قد سبب تغييرًا عظيمًا في اخلاق الاسرائيليين ولم يكونوا بمفتقرين الى الرويا ولا للانذارات الصريحة ولا للمعجزات الغريبة التي كان الرب يستخدمها في شان انقاذهم بل ان الادلة التي بانت لديهم كانت كفوًا لهم في ذلك . وان قلة امانتهم قد لاشتها الحوادث التي تمت لديهم وانارت بصائرهم فانثنوا راضخين ومن ثمّ ضعفت اميالهم الى عبادة الاوثان التي كانوا يتهافتون عليها بنوعٍ غريب . وذلك لانهم لم يجنوا بجحدهم الله ابائهم ثمارًا وكانوا يذكرون دائمًا نبوقولصر وما تنبيء لهم عن الخراب ومع ذلك فقد نشا الخراب في وقت ادنى ما كانوا يخالون . ولقد كانوا يعجبون من رجوعهم في الوقت

المحدود قسرًا عن كل الامور البادية وبسبب من عين لهم ليردهم . ولم تكن ابصارهم ترف على الهيكل الاخير الا يشعرون بما سبب خراب الهيكل الاول وما من شانه قيام هذا وبناء عليه كانوا يثبتون في سبيل الامانة بكتبهم التي كانت الاحوال طرًّا تشهد لها .

ولم يبق بينهم انبياء كذبة لانهم جنحوا عنهم وانفوا من عبادة الاصنام . وبيان ذلك ان زكريا قد تنبأ ان هذين الامرين يحدثان لهم وهاك ما قاله حزقيال في ذاك الشان : في ذلك اليوم يقول رب الجنود اهلك اسماء الاوثان من الارض ولن تذكر الى ما بعد وانزع من الارض الانبياء الكذبة والروح النجس وان تنبأ احدٌ الى ما بعد يقول له ابوهُ وامهُ اللذان ولداهُ لا تحيَ من اجل انك انت تكلمت بالكذب باسم الرب ويمكن لك ان ترى في النبوءة نفسها ان ما بقي من القول ليس باقل قوة من هذا . وتمت هذه النبوة بوضوحٍ وجلاء فان الانبياء الكذبة توارَوا في عهد الهيكل الاخير ونكص الشعب عما صانعوا وداهنوا وانفوا من ان يسمعوا لهم كلامًا وعكفوا على ان يطالعوا مولفات انبياء الرب الصادقين ولم يكونوا وقتئذٍ بمحتاجين الى ايضاح ما كانوا يسمعون من النبوة لان الحوادث كانت تتم كل يوم وتصبح دليلاً على مصداق ما كان الانبياء يتنبئون .

الفصل الثالث عشر

في السلام بين الشعب وفي من تنبأ عنهُ

لاريب في ان الانبياء طرًّا وعدوا الشعب بسلامٍ عميم ولم تزل نطالع بكل ارتياح ومسرة ما اوعز اليه اشعياء وحزقيال بشان الان السعيد المزمع ان ياتي عقيب سباء بابل . فان ما كان خربًا اصبح مرمومًا واقيمت المدائن والدساكر زاهية وكثرت الشعوب ونكست اعلام الاعداء الكاشحين واخصبت الارضون وامتدت الغضارة والترف في المدائن وسادت فيها السكينة واصبحت مرتعًا للمسرة والسلام ووعد الله شعبه بسكينة مستمرة دائمة فقبضوا على ناصيتها في ابان حكم الفرس وكانت اوامر الملك قورش مرمم الدولة تقرر لليهود راحة طول ايام الحكم . وقد كانت العيون تحدق بهم في عهد كل من

يدعى احشوروش ويرهبون مما نهيأ لهم من الاذلال والتاويق . فتعطف الله عليهم ورأفهم اذ كانوا يستعبدون وأحال قلب الملك حالاً عنهم ونقم لهم من عدوهم هامان . وبعد ان مرّ ذلك الحادث سريعاً ذهبت عنهم الروعة واصبحوا دون رهبة وليسوا يحزنون . وكان الانبياء ينذرونهم بان يوءدوا الرضوخ للملوك الذين يتولون امرهم بالله فانقادوا الى ذلك صاغرين . وبناء على ذلك كان الملوك لايعاملونهم بالقسوة والغلظة بل كانوا يرفقون بهم وياخذون بايديهم ولا يحملونهم من الجزية ما يبهظهم فارتاحوا الى ذلك وعاشوا في رفة العيش حسب نواميسهم . وكان اذ ذاك السلطان الكهنوتي بينهم مرعيّ الحرمة فكان الكهنة العظام يقيدون اهواءهم ولا يغادرونها تجمح بهم وكان المجلس الشوروي الذي اقامهُ موسى يرعى مالهُ من السلطان وكانوا يجرون بينهم السلطة في الحيوة والممات دون ان يتداخل احدٌ في اشغالهم وذاك ما كان الملوك يامرونهم بهِ . ولم يغيّر دثار دولة الفرس شيئاً من احوالهم فان الاسكندر لم يهتك حرمة هيكلهم بل اعتجب من نبوّاتهم وزاد في اكرامهم الا انهم أُرهقوا قليلاً في عهد خلفائهِ الاولين . فان بتولماوس بن لاغوس باغت اورشليم وقاد الى مصر ماية الف من الاسرى بيدَ انهُ توقف فوراً عن ان يكون لهم مكاشحاً بالبغضاء او بالاحرى لم يبغضهم قطُّ بل عزم على ان يخرجهم عن تأدية الخضوع لملوك سوريا اعدائهِ والحقُّ يقال انهُ لما اخضعهم اتاح لهم بحقوق سكان الاسكندرية عاصمة مملكتهِ او بالاحرى صدّق على الحقوق التي كان الاسكندر موسس هذه المدينة قدمنّ بها عليهم ولما سبَر اعمالهم ورآهم ممن تفردوا بخلوص النية والامانة ادخلهم في سلك عسكرهِ واناط بعهدتهم المراكز المهمة . فان كان اللاغيديون قد رعوا لهم مقاماً فان السلاسيدبون عاملوهم احسن معاملة فان سلاكوس نيكاتور رئيس هذه العائلة اقامهم في انطاكية وادخلهم حنيفُ انتيوخوس الإله في كل مدائن اسيا الصغرى فانتشروا في البلدان اليونانية عائشين حسب نواميسهم ومتمتّعين بكل ما لسكان تلك الارجاء من الحقوق مثلما كانوا في الاسكندرية وانطاكية . وفي ذاك الحين امر بتولماوس فيلادلفوس ملك مصر بشريعتهم ان تترجم الى اللغة اليونانية فعرف الامم اذ ذاك دين اليهود وجدت بالملوك والشعوب المهمة ان يسيّروا الهبات والصلات النفيسة الى هيكل اورشليم واصبح اليهود راتعين في بحبوحة الامن والسكينة تحت لواء ملوك سوريا وتمتعوا براحة لم يتمتعوا بمثلها في عهد ملوكهم

الفصل الرابع عشر

في ابطال الصلح واعادة تفريق وانقسام الشعب المقدس واضطهاد انتيوخوس

ان الشعب المقدس لو لم يسد بينهم الشقاق لما كان السلم فيهم مهوّشاً ولقد مضت عليهم من الاعوام ثلثماية وهم راتعون في حلبة الارتياح الذي تنبأ عنه الانبياء يوم دخل فيهم الطمع والحسد واوشكا ان يهلكاهم. فان بعض عظمائهم الاعيان خانوهم رجاء ان يداهنوا الملوك لينالوا منهم حظوة لانهم شاءوا ان ينالوا الشهرة اليونانية وآثروا المجد الباطل على المجد الحقيقي الذي كانوا يقتبسونه وهم بين اهليهم اذ كانوا يحافظون على سنن اجدادهم. فعكفوا على اللهو والقصوف كسائر الامم. وكانت هذه الامور المحدثة تبعث الشعب على الدهشة والذهول. وبدت في طيّ ذلك الزهو عبادة الاوثان كأنها قرّة في عيون كثيرٍ من اليهود. وفضلاً عن ذلك فانهم لم يكونوا متحدي الكلمة والراي في انتخاب الكهنوت العظيم الذي كان في اسمى مكانة في الشعب. وكان ذوو المطامع النفسية يزدلفون من ملوك سوريا أملَ ان يترشحوا الى ذاك المنصب السنيع وكانت هذه الوظيفة المقدسة جزاء لاولائك المصانعين الآ ان الحسد والشقاق بين بعض افرادهم اتاهم بمصائب ودواهٍ جسيمة داهمتهم والمدينة المقدسة. وحدث حينئذٍ ما قد اوعزنا اليه وتنبأ عنه ذكريا النبي. وهو ان يهوذا نفسه يناوي اورشليم فسلم المدينة سكانها ومجس انتيوخوس ملك سوريا ان يبيد ذاك الشعب المنقسم رجاء ان يغنم غناهُ. وبدا حينئذٍ هذا الملك مطابقاً لكل ما قاله عنه دانيال النبي: اي طامع خسيس مصانعٌ جائر وقح كافر معتوه يشمخ بانفوان كان منصوراً ويانف من نفسه ان كان مدحوراً. فولج اورشليم مستعداً لان يصنع ما يشاء. وكان يعزز آماله على انقسام اليهود لا على قوة جنوده وفاقاً لما تنبأ عنه دانيال وغالى في القسوة اذ دخل المدينة وبعثته كبرياؤه وعظمة نفسه على ان يرتكب فواحش تنفر منها النفوس. وابدى كلاماً يلمُّ بشان العليّ كما تنبأ النبي ايضاً. فتتميماً للنبوات الصادقات ونقمة مما اقترف الشعب من الجرائر المنكرات اتاح الله له قوة ضد المحرقات الدائمة ودنس الهيكل الذي

احترمهُ من قبلهِ الملوك اسلافه وسلب منه اموالاً افعمت خزينتهُ الخاوية . وامر باليهود ان يعبدوا الالهة التي كان اليونانيون يعبدونها مدّعياً انهُ يساوي عوائد شعبهِ . مع ان ذلك كان ليشفي أُوام مطامعهِ ولاسيما انهُ كان يود لو يعبدون المشتري اولامبيان الذي اقام تمثالهُ في الهيكل نفسهِ . ولما كان يفوق نبوقولصّر بالكفر والاعتساف تهمك في ان يلغي الاعياد والسنة الموسوية والذبائح والدين ويبيد الشعب برمتهِ الاّ ان الانبياء قيدوهُ بشكيمةٍ خيفة الجموح . فان متتيا تصدّى له واحرز كل الاخبار وصنع ابنه يهوذا المكابي هو وقليلٌ من الناس افعالاً عجيبة وظهر هيكل الرب ثلاث سنوات ونصف سنة بعد ان تدنس وهذا كلهُ تنبأ عنه النبي دانيال ثم علق بمحارب الادوميين والامم الذين اجتمعوا مع انتيوخوس . وبعد ان استولى على امنع حصونهم ومعاقلهم انثنى ظافراً صغير النفس كما تنبأ اشعياء ومنشداً اناشيد بالرب الذي القى بين يديهِ اعداء شعبهِ وهو مضرّج بدمائهم . ولم يفتأ ظافراً على اعدائهِ قسراً عن الجنود العظيمة التي كان يقوم بامرها قادة انتيوخوس . ولم يكن دانيال يعين لهذا الملك الكافر الا ست سنوات ليضطهد شعب الرب . وشعر في الوقت المعين سابقاً في مدينة باعمال يهوذا الجريئة نبادهتهُ الشجون والاتراح فمات كما قال عنه النبي تعيساً وليس بيد انسان بعد ان اعترف بإله اسرائيل اعترافاً لم يجدِ من بعد ذلك نفعاً . وليس من الامور ان ارفع اليك النبأ عن الحروب التي قام باعبائها خلفاؤهُ ضد اليهود وعن موت يهوذا مخلصهم او عن فوز اخويه يوناتان وسمعان اللذين تعاقبا في الكهنوت واقاما بشدة الباس مجد شعب الرب واعاداهُ الى ما كان سابقاً . فعلم جميع هؤلاء الافراد ان ملوك سوريا وكل الشعوب المجاورة قد تألبت قلوبهم عليهم عدواناً . ومن الامور التي كانت تبعثهم على الاسف والثبور انهم كانوا يرون مراراً جمة بني يهوذا يندمجون في شكتهم ضد وطنهم اورشليم وقد كان ذاك الامر الى ذلك الحين غريباً الاّ ان النبوة عنه كانت قد صدرت في ما مضى . وكانوا في غضون تلك النوائب يكلون امورهم الى الله فلم يتقهقروا ولم تفجعهم تلك النوازل بل استمروا اشداء اقوياء واستمرّ الشعب تحت لوائهم سعيداً مغبوطاً وتملص من وثاق عبودية الامم في عهد سمعان الحبر والمجاز اليه خاضعاً له ولبنيه بارادة ملوك سوريا ورضاهم

وان ورقة الوثيقة التي بمقتضاها نقل شعب الرب لسمعان واخلافهِ السلطة العامة

والحقوق الملوكية كانت على جانب عظيم من الاعتبار وهي تحوي مانصه: وهوان سمعان وذريته يتمتعان بالسلطة الى ان ياتي النبي الحقيقي الامين .

ولما كان معتادًا منذ كيانه على القضاء الالهي وشاعرًا بان السلطة منوطة ببيت داود منذ اقامة الله على العرش ملكًا وانها سترد اليه عند جيئة المسيح وان يكن ذلك بنوع رمزي واسى ممن كانوا ينتظرون جعلوا للكهنوت اجلاً مسمى يقبضون على السلطة في غضونه عائشين تحت الوبتهم منتظرين ذلك المسيح الذين وعدوا بما تاهُ من قديم الزمان . وبناء عليهِ نهضت مملكة يهوذا المستقلة وتخيرت لها ملكًا يتولى زمامها . فان ذرية يعقوب استمرت مالكةً على سبط يهوذا ومن انحاز اليهِ وملكت باستقلال وسكينة في الارض التي عينت لها .

وزها اذ ذاك الدين اليهودي ذائعًا ونال من لدن الله دلائل جديدة فان اورشليم التي كان انتيوخوس سيداتيس يحاصرها مضيقًا عليها نجت من ذاك الحصار نجاةً تبعث على الحيرة والدهشة لان ذلك الملك لما رأى الشعب عاكفين على تادية فروض دينهم غير عابئين بما المَّ بهم من العسر وشدة الجوع تحركت الشفقة في قلبهِ ومنحهم هدنةً تستمر سبعة ايام في قضاء اسبوع المظال القدسية . ولم يكتف بان ينفس الكرب عنهم بل كان يبعث اليهم ذبائح يقربونها في الهيكل غير عابيء انها تكون موءونة يسدّون بها سغبهم في تلك الأزمة الشديدة . ويوخذ من نص العلماء الموءرخين ان اليهود كانوا يحتفلون السنة السابعة وهو انهم يدعون الارض في اثنائها غير مزدرعة رجاء ان تنال بذلك راحةً وذلك طبق ما نصه موسى وكان اليهود في اكبر فاقة الى كل شيء وملك سوريا في وسعهِ ان يبيدهم طرًّا دفعةً واحدةً . لانه كان يتراءى له انهم اعداءه له الداء فاراد الله ان ياخذ بايدي شعبهِ وينقذهم من تلك الورطة الشديدة فانزل في قلب الملك الرحمة عليهم غير باعث بملائكتهِ ليقتلوا اعداءهم كالسابق والجاة الى ان يتعجب من الاسرائيليين الذي لم تصدهم الاخطار الوبيلة والنوائب الجسيمة عن حفظ قوانين دينهم الشديدة ولذلك منَّ عليهم بالحيوة والسلام . وكان الانبياء قد تنبئوا ان الرب اقلع عن ان يستمرَّ منقذًا شعبهُ بالمعجزات كالايام السالفة بل يستخدم لذلك حكمتهُ الالهية الرحومة ومع ذلك فلم تكن هذه الوسيلة اقل مفعوليةً من تلك وسوف تبدو بنوع حسيٍ مع تواتر الايام وبواسطة مفعول هذا التدبير الالهي اخذ يوحنا هيركان الذي اشتهر بالجراة

والاقدام لدى عساكر انتيوخوس يستولي على وطنهِ عقيب موت ذلك الملك .

وفي عهدهِ اوسع اليهود نطاق فتوحاتهم فانهم افتتحوا السامرة وفاقًا لما تنبأ عنه جزقيال وارمياء وقمعوا الادوميين والفلسطينيين والعمونيين اعداءهم الكاشحين ودينوهم بدينهم تطبيقًا لنبوءة زكريا . وقسرًا عن بغضاء الشعوب المجاورين وحسدهم شيدوا لهم مملكةً جديدة هي مملكة المكابيين فاتصلت الى اكبر درجة من السعة خلا الطول الذي حازته في ايام داود وسليمان وكان ذلك تحت لواء كهنتهم الذين اصبحوا في ذاك الحين ملوكهم

وهاك الهيئة التي مكث بها شعب الرب في عرض تلك التقلبات وقد كان تارة مرضوضًا تحت صدمات العقاب وتارةً متجلدًا تحت اوقار النوائب وانهُ يجهر بالشهادة للحكمة الالهية والعناية الصمدية التي تعامل العالم معاملة متباينة كلاً حسب ما يستحق

الفصل الخامس عشر

في انتظار المسيح وما يستند عليه وتاهب ملكه وعود الامم

ان الشعب لم يبرح في أية حالة كانت يوطد آماله على ماتى المسيح اذ كان مرتقبًا انعامًا جديدة تفوق عظمة على كل ما نال الى ذاك الحين ولم يكن احدٌ يعتقد ان الايمان بالمسيح ومعجزاته الذي لم يبرح بين اليهود الى الان قد انتقل اليهم من ابائهم وانبيائهم وذلك من ابتداء الامة لان الله لم يبعث اليهم بنبوات جديدة ولا بنبوات حديثة مدة تسلسل تلك الاعوام المديدة اذ كانوا هم نفوسهم يذعنون بان لا يقوم بينهم نبيٌّ بقصد الحكمة الالهية ومع ذلك كانت امانتهم بماتى المسيح اقوى منها في الايام السالفة وكانت الامانة شديدةً فيها لما شادوا الهيكل الاخير حتى انهُ لم يكن من المقتضي ان يكون انبياء يثبتوا الشعب وكانوا يثابرون على الامانة بالنبوات القديمة التي شاهدوا مغزاها مرارًا جمة بكل دقة ونظام . وان ما كان لم يتمَّ بعد منها لم يكونوا منذ ذاك الحين يرتابون في تتميمهِ ولم يعانوا ان يثقوا بان الرب الصادق بكل شيء يتمُّ كل ما يناط بالمسيح في حينهِ اي اعظم مواعيدهِ وعماد غيرها

ومن اليقين ان كل تاريخهم وما كان يطرأُ عليهم يومًا فيومًا لم يونا الاَّ بيانًا للنبوات

التي اتاحها لهم الروح القدس . ولا يحملنا على العجب ان نراهم انثنوا الى اراضيهم عقيب سبائهم ونالوا بعد ذلك بردًا وسلامًا مدة ثلاث مائة سنة وان هيكلهم كان مكرمًا وديانتهم مرعية الحرمة في الشرق او ان كورش الطائنية تعكرت بانشقاقهم او ان ملك سوريا الجبار بذل اقصى الجهد في ان يهلكهم فائزًا حقبةً من الحين بذلك معاقبًا على جريمته او ان دين اليهود وكل شعب الرب زهوا زهاء غريبًا ومملكة يهوذا امتدت في اخر الزمان بفتوحات عظيمة . فكل ذلك قد شاهدناه مكتوبًا في النبوات . ولا ريب في ان كل شيء كان مقررًا حتى الزمان المزمع ان يسود فيه الاضطهاد والمحال التي تتأجج فيها مواقد القتال والارض التي يصير فتوحها

انني اوعزت اليك بالاجمال عن هذه النبوات والاسهاب في شان ذلك يقتضي له خطبة سابغة الذيول . فحسبك ما قد رايت منها فتثق بوجود هذه النبوات التي هي ركن عتقادنا وعماده وكلما غالى الانسان بها متبحرًا اكتشف منها على حقائق فان نبوات شعب الرب تمت صريحًا في اثناء تلك الاوقات ومن ثم لما كان بعض الوثنيين او بالاحرى عدوا الكتب المقدسة بورفيروس وجوليانوس الجاحد قد ارادوا ان يتنبئوا تخذوا نبوات اليهود وتسننوا بها

ويمكن لي ان اثبت لديك ان كان شعب الله لم يكن له انبياء مدة خمسماية سنة ان حالة ذاك الحين كانت باسرها نبوية لان افعال الرب كانت جارية والطرق مهيأة رويدًا رويدًا لتتميم النبوات القديمة

وان انثناء الشعب من سباء بابل لم يكن الا رمزًا الى حرية اعظم وجزيلة الجداء اكثر من تلك وهي التي اتاحها المسيح للبشر الذين هم اسرى الخطيئة واخذ الشعب الذي كان قد تشعث في محال مختلفة في اسيا العليا واسيا الصغرى ومصر والبلدان اليونانية يذيع اسم الله ومجد اله اسرائيل بين الامم . وترجمت الكتب المقدسة المزمعة ان تصير نور العالم الى اشهر اللغات وتقررت قدمينهم . وفي غضون ما كان الهيكل مكرمًا والكتب المقدسة مذاعة لدى الامم كان الرب يبثّ ابابهم ويجعل لذلك عن بعد اساسًا

وكل ما كان يحدث بين اليونان كان توطئةً لمعرفة الحقيقة فان فلاسفتهم ابانوا ان العالم كان يتولى امرهُ اله يباين الالهة التي كانوا هم ورعاع الشعب يعبدونها وان مورخيهم يثبتون في مولفاتهم ان هذه الفلسفة السامية نشأت في المشرق وفي المحال التي

تشعشت بها اليهود . فمن اية جهة تاتي هذا الحق شرعت الحقيقة المهمة المبثوثة بين الامم توقظ الجنس البشري وان تصدّى لها او كانت منبوذة من اولائك الذين كانوا يعلمونها الآن انتشارها سوف يكون منه براهين قاطعة للذين يحال الى عهدتهم انقاذ الجنس البشري من مهاوي جهله

الفصل السادس عشر .

في غباوة الوثنيين الكلية قبل مأتى المسيح

لما كان جنوح الامم الى الدين الحق موقوفًا على المسيح وهو السمة الخاصة لمأتاه كان الضلال والكفر يسودان على البسيطة . لان الامم الاكثر نوراً كالكلدانيين والمصريين والفينيقيين واليونانيين والرومانيين كانوا اجهل القوم واغباهم في الامور الدينية وذلك دليلٌ على ان الانسان لا يمكنه ان يتدرج الى مدارج هذه الامور الا بنعمة خاصة وحكمة علوية فمن لا يأنف من ان يكشف عن احتفالات الالهة العظيمة واسرارها الدنسة . فان عشقهم وقسوتهم وحسدهم وكل رذائلهم كانت موضوع احتفالاتهم وطقوسهم وذبائحهم واناشيدهم التي كان الناس يتناشدونها في هياكلهم والايقونات التي كانوا يركزونها فيها وعلى ذلك كانوا يتعبدون للاثم زاعمين انه من المقتضيات التي تبذل في سبيل رضى الالهة . وقد منع اعظم الفلاسفة المغالاة في شرب الخمرة الا يوم عيد الاله باخوس اكرامًا له وقد ندد فيلسوفٌ آخر في الايقونات الرجسة طراً الا ايقونات الالهة فانه جزم بانها نحتاج الى ان تتكرم بتلك النجاسة. فمن يقرأ ما يقتضي صنيعة اكرامًا للزهراء والمعاهر المكرسة يحار من ذلك جدًا ولم يصدّ اليونانيين عن الاعتصام بتلك الاسرار القبيحة حكمةٌ او آدابٌ

ولما كانوا يقعون في ورطة خاصة او عامة كانوا ينذرون للزهرا نساءً عواهر ولم يخجلوا من ان يعتقدوا بان نجاتهم موقوفةٌ على صلواتهنّ المقدمة لتلك الالهة وبعد ان ظهروا على الملك وقمعوا جنودهُ الكثيرة اقاموا في هيكلهم ايقونة تمثل دعاءهم وزباحاتهم ورقشوا عليها الفاظًا فاه بها الشاعر سيسمونيد الشهير وهاك مغزاها ان هولاء العاهرات جأرن بالدعاء للالهة الزهراء فانقذت اليونانيين اكرامًا لهنّ . فان كان الحبُّ لا مندوحة من

التعبد له فمن طريق اولى كان من المقتضي ان تفرّغ تلك العبادة للحب المباح لكنما ذلك كان بعكس الامر فان سولون نفسه الشهير الذي لم يكن يظن به ان يقترف فظاعةً كبيرة شاد في اثينا هيكل الزهراء العاهرة او معبد العشق الفاحش . وكانت بلاد اليونان باسرها مفعمةً هياكل مكرسة لهذه الالهة ولم يكن في كل تلك البلاد هيكلٌ لارتباط المودة بين الزوجين . ومع ذلك كانوا يانفون من الزناء في الذكران والاناث وكانوا يعتبرون ان الزيجة من الامور المقدسة بينهم بيدَ انه لما كانوا يهتمون في الدين كانوا يدرون ان روحًا اخرى تستولي عليهم وان النور الطبيعي يغادرهم . ولم يكن الرومانيون ينظرون الى الامور الدينية بعين الرصانة والحزم فانهم كانوا يكرسون لاكرام الالهة دنس المزاح ومشاهد القارعين بالقواضب الدموية وقصارى الكلام كل ما كانوا يقترفون من المفاسد ودواعي الخشونة . ولست بعالمٍ ان كانت العبادة والتخريبات التي كانوا يخامرونها بالدين اتت بكبير مضرة مع انها كانت ذريعة للانفة منهُ . فليت شعري هل امكن لهم ان يثابروا على الاحترام والوقار المفروضين للامور الالهية في خلال السفاهة التي كانوا يبثونها بالاحاديث المروية في كل العبادات فلا ريب في ان كل العبادة الجمهورية لم تكن الأَملةً بالاسم الالهي وحقارةً للامور الالهية واقتضى اذ ذاك ان يكون قوةٌ مناقضة للاسم الالهي تبعث بني الانسان على ان يرذلوا صفاته القدسية ويستخدموها باشياء دنيئة وينيطون لها مواضيع ليس للاستهزال فيها مثابة . وقد قرر الفلاسفة فيما بعد ان وجود الهٍ عدا التي يعبدها رعاع الشعب من الامور التي لامناص منها ولكنهم لم يكن بوسعهم ان يجهروا بذلك عيانًا فان سوقراط اوعز الى ان كلاًّ لابد له من ان يتبع دين وطنه وتلميذه افلاطون الذي كان يشاهد مرارًا بلاد اليونان وكل اقاصي الارض مفعمةً من العبادات الاعتسافية الباعثة على العثور والريبة جعل دعامة جمهوريته ان لايسوغ لاحد ان يغير شيئًا من القواعد الدينية وان هجس احدٌ بتغيير شيءٍ منها فلا يكون عملهُ الأَمن داعيات الجنون . فهولاء الفلاسفة الذين اتوا باقوالٍ سامية في الطبيعة الالهية لم يكن لهم جرأة على مقاومة الضلالة العامة وقد ايسوا من ان يفوزوا عليها ولما اتهم سوقراط بانه يجحد الالهة اخذ يدافع عن نفسه كما يدافع عن جريرةٍ كبرى اقترفها واذ كان افلاطون يتكلم عن الاله الذي فطر المبروءات قال انه من الامور التي يعنى وجودها وايضاحه امام الشعب امرٌ منكرٌ . وآلى على نفسه انه لايتكلم عنهُ الأَ بطريق الاحاجي والمعمَّيات خشية ان

تصبح هذه الحقيقة العظيمة عرضةً للهزء والسخرية

فيا للداهية الدهماء ان النوع الانساني قد تهور الى مهاوي الخمول ولم يمكن له اذ ذاك ان يحمل الاله الحقيقي وان اثينا العظمى المعتبرة بين المدائن سيدتهن بالنظر لما استغرقت بالتمدن والآداب والمعارف كانت تشدّ النكير على من يتكلمون بالروحانيات وتنمي اليهم الجحود الالهي وبناء عليهِ قضت على سوقراط بزهوق الروح .

فلو كان بعض الفلاسفة اجترئوا على ان يذيعوا ان التماثيل ليست "آلهة كما كانت العامة تخال ذلك لكانوا قد أُرغموا فيما بعد ان يكذبوا نفوسهم ولكان قد جزم مجلس (الارهوباج) اي مجلس الشيوخ بنفيهم وعوملوا معاملة الجاحدين وكانت الضلالة سائدة في اقطار كل البسيطة . وقد كان الحق اذ ذاك زهوقاً ولم يكن للاله الحق من معبدٍ ولا عبادة الاّ في اورشليم ولما كان الوثنيون يقدمون له القرابين لم يكونوا يعتبرونهُ كالهِ اسرائيل بل كسائر الالهة . وبلاد اليهودية وحدها كانت تشعر بتفرده في الالوهية وتعلم حق العلم ان اجتزاء العبادة بينهُ وبين الالهة من شانهِ ان يزيلها عنه .

الفصل السابع عشر

في الفساد والاعتقادات الباطلة عند اليهود
وتعليم الفريسيين الكاذب

ان اليهود الذين كانوا يعرفون الرب وهم مستودع الدين الحق شرعوا في اواخر الحين ان ينسوا اله ابائهم او ان يمزجوا بعبادتهم اياهُ اعتقادات باطلة لاتليق بشانهِ تعالى طالما كان النوع الانساني يضعف لديه الحق كلما توالت عليه الاحقاب والاحيان . فقد نشأت في عهد المكابيين منذ زمان يوناتان شيعة الفريسيين فنالوا في بادىء الامر شهرةً عظيمة لسبب تعاليمهم الصادقة ورعايتهم السنة أكمل رعاية وسلاسة مسعاهم وحفظهم للقوانين وعيشتهم بالاتحاد والالفة ومدافعتهم عن الثواب والعقاب الآخريين فلذلك كان الناس يحفقون بهم الآمال ويودون لهم الكرامة الاكيدة بيد ان المطامع النفسية دبت في رؤوسهم واغرتهم نفوسهم الامارة بان يتولوا زمام الشعب فأُتيح لهم ذلك ورفعوا

على الأمة لواء السلطة واصبحوا حاكمين بالامور الدينية وتعاليمها واحالوا رويدًا رويدًا القواعد الدينية الى اعتقادات باطلة لاتفيد الا صوالحهم وسلطتهم التي زعموا ان يكلوا لها الضمير ولذلك اوشك روح الناموس الحقيقي ان يزول . واشرُّ من ذلك كبرياؤهم وثقتهم بنفوسهم وادعاؤهم وقد آلَ بهم ذلك الادعاء الى ان يعزوا لنفوسهم الهبات الالهية . واما اليهود المعتادون على تلك الانعام المستنيرون منذ اجيال مديدةٍ بمعرفته تعالى فتذهب عن اذهانهم ان الجودة الالهية فرقتهم وحدها مجانًا عن ساير الامم فشرعوا يعتبرون نعمة كانها دينٌ مختم لهم . وبما انهم شعب مبارك منذ الفي سنة ومصطفى منهُ تعالى فكروا في نفوسهم انهم وحدهم يستاهلون معرفة الرب وخالوا انهم من جنس اخر بما ين الناس الذين كانوا يرونهم عارين عن تلك المعرفة . وبناء على ذلك كانوا ينظرون الى الامم بالحقارة والأنفة ولما كانوا من نسل ابرهيم بالجد كانوا يتوهمون انهم مترفعون فوق كل النوع الانساني ولذلك كانت تصاعد الى روؤسهم خمرة الكبرياء ويفكرون انهم قديسون حسب الطبيعة لا حسب النعمة ولم يستمر هذا الضلال بينهم انما الفريسيون ادخلوا ثمة تلك الاعتقادات في اواخر الايام اذ كانوا يطلبون المجد بسبب علمهم ورعايتهم المدققة لطقوس الشريعة . ولما كانوا لايفكرون الا بان يكونوا ممتازين عن البشر كافةً ضاعفوا كثيرًا اعمالهم الظاهرة وابانوا لدى الناس ان افكارهم تقاليد حقيقية مع انها مناقضة لشريعة الرب كل المناقضة.

الفصل الثامن عشر

ذيلٌ لما مرَّ من فساد اليهود ودلائل سقوطهم

وفاقًا لما تنبأ عنهُ زكريا النبي

ان هذه الافكار وان لم تكن بموجب امرٍ عامٍ كشاعة في جمعية اليهود الا انها كانت تزجُّ تدريجًا بين الشعب الذي خلق اضطرابًا وبلبلةً وتمرُّدًا . وبدت اخيرًا الانقسامات التي هي داعية سقوطهم كما قال الانبياء بسبب الشقاق الذي حدث بين المكابيين . وقد كان حينئذٍ المسيح قريب الماتى لايبقى له من ذاك الحين الا نحوٌ من ستين عامًا وذلك لدن تناضل على الكهنوت التي كانت السلطة الملوكية متعلقة بها هيركان وترازويل

ولدا اسكندر جني . فهاك الوقت التعس الذي يقرر فيه التاريخ العلة الاولى لدثار اليهود فدعا الاخوان بومبيوس لمقضي بينهما فاخضعهما للدولة الرومانية ونزع الملك حينئذٍ عن الملك انتيوخوس اخر ملوك سوريا الملقب بالاسيوي وان سقوط هولاء الملوك الثلاثة معًا دفعةً واحدة هو ابتداء السقوط المنوه عنهُ بالفاظٍ صريحة في نبوات زكريا النبي .

ومن البين والمقرر في التاريخ ان تغيير احوال سوريا واليهودية قد نجز بواسطة بومبيوس بعد ان انهى حرب متريدات وكان اذ ذاك متاهبًا للرجوع الى رومية فرتب احوال الشرق على تلك الصورة وابان النبي ما هو مزمع ان يتم لدن خراب اليهود وهو ان احد الاخوين اللذين ركبا تخت الملك يسبي اسيرًا بقوده بومبيوس هاشًا طربًا بما نال من الظهور عليهِ والاخر وهو هيركان الواهن يترع عنهُ بومبيوس التاج الملوكي ويسلبهُ من مملكتهِ قسمًا عظيمًا ولم يبق له من السلطة الا الصورة مع انه كان على وشك فقدانها ولدى ذلك اصبح اليهود يرضخون للرومانيين ويؤدون لهم خراجًا فكان دثار مملكة سوريا باعثًا على خراب مملكتهم لان تلك المملكة المجاورة لمملكتهم اصبحت اقليمًا من الدولة الرومانية . وذلك ما ضاعف شوكة الرومانيين ولم يبق حينئذٍ لهم محيص الا بان يتذللوا لها راضخين ولهذا شرع ولاة سوريا ينهمكون في مداخلات متواصلة في اليهودية وغدا الرومانيون متبوئين البلاد واضعفوا بالتواتر قوة حكومتها باوجهٍ متباينة . وبواسطتهم انتقل الولاء في يهوذا من ايدي المكابيين الى هيرودوس الغريب الادومي ولما كان هذا الملك منطويًا على الجور ومداهنًا مصانعًا باعتقادهِ بدين اليهود غير كل مبادىء الحكم القديمة ولم يكن هولاء اليهود احرارًا في اعمالهم في ذاك الوقت مثلما كانوا في عهد الفرس والسلوسيديين ولم يكونوا مهتمين الا بان يعيشوا بالامنية والطمانينة لكن حبط بذلك مسعاهم فان هيرودوس الذي قد القى على عواتقهم نير الاسترقاق هوش كل شيء ثمة وغير حسب هوى نفسه الخلافة الكهنوتية واوهن سلطتها بل جعلها دون نظام وقيد . واضعف ايضًا المجلس الشوروي فاصبح من المتعسر عليهِ ان يبرم امرًا . فامست اذ ذاك السلطة العامة في يد هيرودوس والرومانيين الذين كان هذا الملك في بادىء الامر من الراضخين لولائهم وبناء عليه زعزع اركان حكم مملكة اليهود .

واما الفريسيين والشعب الذي لم يكن يصيخ الا لاحساساتهم كابدوا من ذلك عرق القربة ولبثوا يعانون الثبور مبرحين تحت اثقال عبودية الامم تعاملهم بالحقارة

وتكاشحهم بالعداوة والبغضاء . ولذلك رغبوا في ان لايكون المسيح الذي سيأتيهم الاّ فاتحًا يوقع الرهبة في قلوب السلطنة التي تعنيهم تحت اوقار العبودية الباهظة وبناء عليه ذهب عن بصائرهم ما تنبأت عنه الانبياء مما سيلمُّ بهِ من العار ولم تكن تترقبُ ابصارهم وتترصد للسماع آذانهم الاّ النبوات التي تنذرهم بالانتصار المبين وان يكن ذلك الانتصار الذي انذرت بهِ أناة الانبياء مباينًا لما كانوا يرغبون فيه .

الفصل التاسع عشر

في الكلام عن المسيح وتعليمهِ

لما تنكست اعلام الدين وتشوهت احوال اليهود في اواخر حكم هيرودوس اذ كان الفريسيون يدنسون الشريعة بالمعائب بعث الله بالمسيح الى الارض ليعيد الحكم لبيت داود ويجعله اسمى مما كانوا يخالون منذرًا بالتعليم الذي ازمع الرب ان يعلنهُ للبشر فذلك الولد العجيب هو الذي دعاهُ اشعياء الرب القدير واب الجيل الاتي ورب السلام فقد ولدَ من بكرٍ عذراء في بيت لحم حيث ذهب ليقرر نسائة فحبلت بهِ من الروح القدس واصبح منذ ولادتهِ قدوسًا . وكان عيب ولادتهِ موكولاً محوهُ اليهِ وحدهُ ودعيَ مخلصًا لانه ازمع على خلاصنا من وثاق الخطيئة وعند ولادتهِ بدا على الفور نجم في المشرق رمزًا الى النور المزمع ان ينير بهِ الامم فتوافد اذ ذاك اليهِ الوثنيون مرتدين وبعد ان مرَّ على ذلك حينٌ من الزمان ذهب ذاك الرب المنتظر الى هيكله المقدس حيث رآهُ سمعان انه مجد اسرائيل ونور الامم الضالة . ولما آن وقت الانذار بالانجيل دعا يوحنا المزمع ان يهيء لهُ الطريق كل الخطاة الى التوبة وجاَرَ بصوتهِ في البرية التي كان يقضي حياتهُ فيها منذ نعومة اظفاره في التقشف والدعة والبر وعرف الشعب الذي لم يكن يسمع مدة خمسماية سنة صوت نبيٍ انه ايليا الجديد وكان مستعدًا ان يتخذه مخلصًا لما ظهر لهُ من قداستهِ العجيبة . اما هو فكان يوعز اليهِ بمن لم يكن هو اهلاً لان يحل سير حذائهِ ومن ثم اخذ المسيح ينذر بانجيله وينشر الاسرار التي كان يراها وهو في حجر ابيه منذ الازل وقد اقام اركان بيعتهِ بدعوة الاثني عشر صيادًا وجعل بطرس راعيَ ضئانهِ ومازهُ عن غيرهِ بنوع صريح . وذلك ان الانجيليين طرًا لم يحفظوا لتعداد الرسل رتبة مقرَّرةَ لما كانوا يأتون

بحسبانهم الا انهم يذكرون دائمًا بطرس في مقدمتهم كانهُ رئيسهم .

ودوخ المسيح اليهودية وافاض عليها جزيل انعامهِ فانه كان مهتمًا بتمريض المرضى رافقًا بالخطاة مبينًا انهُ هو الطبيبُ الحق وكان يسمح لهم بان يزدلفوا اليهِ وذلك كان دليلاً للبشر على انهُ قابضٌ على السلطة والرحمة معًا فاتقًا بذلك كل من ظعن قبلهُ ولقد كان ينذر باسرارٍ عالية ويثبتها بمعجزات عظيمة وكان يسن فضائل سامية وكان يهب في غضون ذلك نورًا ثاقبًا ومثلاً عظيمًا ونعمة علوية وبهذا بدا ممتلئًا نعمةً وحقًا ومن امتلائهِ نحن كلنا اخذنا .

وكل ما بدا منهُ استمرَّ منطبقًا على بعضه سواء كان على حياته او تعليمه وعجائبه . لان الحقيقة ذاتها كانت تبدو في كل ما هو له . وكل ما صنع يدلُّ على انهُ سيدُ النوع الانساني ومثال الكمال .

وهو وحدهُ قد عاش بين البشر مستطيعًا ان يقول امام الجميع دون ان يكذبهُ احدٌ : من منكم يمكن لهُ ان يوبخني على خطيئةٍ ويقول ايضًا : انا نور العالم والذي ارسلني هو معي ولم يدعني وحدي لاني افعل ما يرضيهِ كلَّ حينٍ .

واما اعاجيبهُ فهي من مرتبةٍ خاصة وذات صفاتٍ حديثة لانها ليست سمات في السماء كما كان اليهود يطلبون بل كانت في بني الانسان رجاءً ان يشفوا من علاتهم ولا ريب في ان تلك الاعاجيب قد كانت رأفةً اكثر منها قوةً دون ان تبعث كثيرًا على الدهشة بل كانت تلين القلوب . ثم كان يتمها بسلطانه لان الامراض كانت تخضع والشيطان لهُ فكان العميان اذا تكلم يبصرون والموتى يخرجون من ارماسهم والخطايا تغفر للخاطئين فكانت مبادي تلك الاعاجيب منه وهو مصدر فعلها وقد كانت قوةٌ تخرج منهُ وتشفي الجميع ولهذا لم يفعل احدٌ اعاجيب عظيمةً كهذه ولا عديدة نظيرها ولذلك كان يعد ان تلاميذهُ سوف يصنعون باسمهِ معجزاتٍ اعظم منها لان القوة التي فيه كانت عظيمة جدًا .

فمن لا يتعجب من ضعة تعليمه السامي فهو لبانٌ للاطفال وخبزٌ للاشداء ويلوح انه ممتلئٌ من اسرار الرب الّا انه لا يبدو انه مندهش من ذلك كسائر البشر الذين يتراءى لهم الرب . فانه يتكلم بذلك طبيعيًا كانهُ ولد في هذه الاسرار وفي هذا المجد . لا وزن لما لهِ وينطق به بوزنٍ ليتمكن وهن النوع الانساني من احتمالهِ

وان يكن قد بعث بهِ الى جميع البشر فلم ينهمك في بادىء الامر الاَّ في ضئان اسرائيل الضالة لانهُ أُرسل اليها بنوعٍ خاصٍ . لكنه اعدَّ الطريق لاياب السمرة والوثنيين فان امرأةً سامرية عرفته ان هو المسيح الذي كان شعبها ينتظرهُ مثلما كان ينتظرهُ اليهود . وتعلّمت منهُ اسرار العبادة الجديدة التي لم تعد تناط بمكانة واحدة ونزعت منهُ امرأة كنعانية وثنية شفاء ابنتها وان يكن قد اظهرانهُ يرفضها واقرَّ في محالٍ متباينة ان الوثنيين مثل اولاد ابراهيم . ويتكلم عن تعليمهِ كانه مزمع ان يبذر في كل البسيطة حيث يقاوم ثم يصبح مقبولاً ولم يكن الناس الى ذاك الان نظروا لهُ مثيلاً . وكان تلاميذهُ يتعجبون من ذلك ولم يكن يخفي عنهم ما سيكابدون من المشاق والمكايد . وكان يوعز اليهم عمّا سيبادهم من الاضطهاد والجور والمخادعات والتعاليم الكاذبة والاخوة الكذبة والنزاع الداخلي والخارجي وايمانهم المزمع ان يختبر بكل المشاق وابان لهم ان سوف يصير في اخر الزمان ضعفٌ كثيرٌ في الايمان ونقلُ المحبة بين الرسل وتلبث الكنيسة والحق في عرض تلك المخاطر غير متزعزعين

فهاك نظاماً للاحوال جديداً فلا يوعدُ اولاد الله بمكافاة جسدية فان المسيح ابان لهم حياة مستقبلة وبينا هو يثبط اقدامهم على ذاك الانتظار يعلمهم ان ينفصلوا عن الاشياء الحسيّة واصبح الصليب والتأسي ميراثهم على الارض وابان لهم ان يقتضي ان يفتحوا باب السماء عنوةً وقد داس هو اولاً الطريق التي اوعزالى بني الانسان عنها . ولقد كان يبذر بحقائق بسيطة تدهش اصحاب الغواية والمتكبرين وكان يغشي تكبر الفريسيين ومداهناتهم الخفية ويبين ما يحرف الشريعة علماؤهم بتفاسيرهم وفي غضون تونيبهِ اياهم كان يراعي حرمة وظائفهم وحرمة كرسيّ موسى الذي كانوا يتبوئونهُ وكان يتردد الى الهيكل ويحمل الناس على ان يحترموهُ وكان يبعث الى الكهنة بالبرص الذين شفاهم . وبهذا كان يعلّم البشر كيف يقتضي ان يصلحوا العيوب دون ان يلموا بالسلطة المقامة من الرب وكان يبين ايضاً ان جمعية اليهود ما برحت قسراً عن فساد اعضائها . الاَّ انها قد كانت على وشك دثارها لان الكهنة والفريسيين كانوا يثيرون على المسيح شعب اليهود الذي كان دينهُ قد تحوّل الى اعتقادات باطلة . ولهذا لم يكن يحتمل المخلص الذي كان يدعوهُ الى عبادة حنيفية بل صعبة . وبناءً عليه اصبح اصلح البشر وافضلهم بل معدن القداسة والجودة موضوع الحسد والبغضة . ولم ينفر منهم ولم يتقاعد عن ان

يصنع الخير لابناء وطنهِ ومع ذلك لم يقابل الا بنكران الجميل . وكان يتنبأ عما سيبادههم من العقاب اسيفًا جدًا وانذر بدثار اورشليم قريبًا وتنبأ ايضًا على ان اليهود اعداء الحق الذي اتى لينذرهم بهِ سوف يلقون بنفوسهم الى الضلالة ويمسون العوبةً بين ايدي الانبياء الكذبة . وفي ذاك الوقت كان حسد الفريسيين والكهنة لهُ يقودهُ الى عذاب العار وحينئذٍ غادره تلاميذهُ وسلمهُ احدهم وجحدهُ ثلاث مرارٍ ريسهم الذي كان يتظاهر انه اكثر غيرةً عليهِ من غيرهِ . وشكوهُ الى المجلس الشوروي ولبث يحترم سلطان الكهنة الى نهاية الامر واجاب رئيس الكهنة الذي كان موكولاً باستنطاقهِ شرعيًا بنوعٍ خاصٍ . الا ان الان الذي تكون فيهِ فيئة اليهود مرذولةً كان قد آن ولذلك قضى رئيس المجلس ولفيف الاعضاء على يسوع بالموت لانه كان يقول انه ابن الله . وعند ذلك اسلموه لبيلاطس النبطي والي الروماني اما بيلاطس فايقن ببراءتهِ ومع ذلك فقد خالف ضميرهُ سياسةً مراعاة لمصلحتهِ فحكم على ذلك البرّ بالموت فنتج منه ان اكبر جريمة اقترفها اليهود سببت اكبر رضوخٍ أُدي في العالم فان المسيح المالك حياته وكل شيء اسلم نفسه للاشرار وقدم فدى عن البشر ذبيحةً واذ كان على الصليب وجه انظاره الى النبوءات ليرى ما كان باقيًا عليهِ ان يتمهُ فاتمه وصرخ قائلاً قد كمل كل شي . وبعد ان فاه بتلك الكلمة تغير كل شيء في العالم فان الشريعة بطلت والرموز اليها عبرت والذبائح ابدلت بين هواسى وافضل منها . وبعد كل ذلك مات المسيح متاوهًا وهاتفًا بصوتٍ زعزع عناصر الطبيعة واعجب الخفير الذي كان يحرسه غاية العجب ونادى بجهير الصوت قائلاً انه ابن الله حقًا . وانثنى كل الذين عاينوا ذلك المشهد العظيم آسفين وهم يقرعون صدورهم ويلاً وثبورًا ونهض في اليوم الثالث من عقال الموت وظهر لتلاميذهِ الذين كانوا قد غادروهُ غير موقنين بقيامته فنظروهُ وناجوهُ ولمسوهُ فوثقوا بهِ وظهر مرارًا جمة في محال كثيرة رغبة في ان يكون الايمان بقيامتهِ ثابتًا . فكان كلٌّ من تلاميذهِ يراهُ آونةً وحدهُ وآونةً بينهم وظهر مرةً امام اكثر من خمسماية رجل وهم مجتمعون معًا ويحقق الرسول الذي كتب ذلك عنه ان الذين رأوهُ كانوا احياء لما كتب ما كتب عنه . وقد وهب تلاميذهُ بعد قيامتهِ وقتًا كافيًا ليوطدوا إمانتهم بهِ وبعد ان اتضح لديهم بكل ما راموا اذ لم يعد بهم ما يخامرهم من الريب امرهم ان يذهبوا في الارض ويشهدوا بما رأوه منه وما سمعوا ولمسهم اياه بعد قيامهِ وحذرًا من ان تكون امانتهم بهِ غير وطيدة الجأهم الى ان يزكوا شهادتهم بدمهم وعلى

ذلك كان انذارهم به متيقنًا وركن امانتهم من الحادثات المقررة ومصدقًا عليها من جميع الذين شاهدوه وصدقهم مقررًا باكبر بينة يمكن تصورها وهي عذابهم ونفس موتهم في سبيل الحق . فهاك التعليم المقرر الذي اعطيه الرسل وعلى ذلك اخذ الاثنا عشر قناصًا يرشون العالم الى حجر الايمان الحق وهم بروثهم يناقضون الشرائع التي يفرضونها عليهم والحقائق التي كانوا ينذرونهم بها كل المناقضة . وامرهم الرب ان يبتدئوا بالارشاد من اورشليم ومن ثمَّ يمتدون في كل اقاصي الارض ليعلموا كل البشر ويعمدوهم باسم الاب والابن والروح القدس . ووعدهم يسوع بان يكون معهم كل الايام الى انتهاء الاجيال وقرر بهذا الكلام السلطان الكنائسي وبعد ذلك صعد الى السماء امامهم .

فمواعيد سوف تتم بهِ والنبوات سيكون لها مغزى وامر بعد قيامهِ ان نحمل الامم على معرفة الله ورسم احتفالاً جديدًا ليجدد هذا الشعب الحديث ووثق المؤمنون بان هذا الاله الحق الذي هو اله اسرائيل الاله الواحد غير المنقسم وهو من يكرَّس في المعمودية هو آب وابنٌ وروحٌ قدس معًا .

وبهذا قد اوقفنا على عمقهِ الذي لا يحدُّ ولا يدرك وعلى عظمة وحدته الفائقة الوصف وعلى سعة طبعهِ غير المتناهي المخصب في الداخل اكثر منهُ في الخارج القادر ان يكون بثلاثة اقانيم متساوية غير متجزئة .

لدن ذلك اتضحت الاسرار التي كانت مكنونةً مخفية في العهد القديم وصرنا اذ ذاك نفهم سرَّ ذاك الكلام وهو فلنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا .

وان الثالوث المنوه عنه في تكوين الانسان ظهر بنوعٍ صريحٍ وقت فدائهِ . والان امكن لنا ان نفهم ما هي هذه الحكمة التي حبل بها قبل كل زمان في حجر الرب وفاقًا لما قال سليمان وهي موضوع حبهِ وبها رتب كل اعمالهِ وامكن لنا ايضًا ان نعرف من هو الذي رآه داود مولودًا قبل انبلاج الصبح لان العهد الجديد يعلمنا انه هو الكلمة اي كلمة الرب الباطنة وفكره الازلي الذي هو دائمًا في حجرهِ والذي بهِ صار كل شيء وبذلك امكن لنا ايضًا ان نجيب عن المسالة السرية المذكورة في سفر الامثال وهي قل لي ما اسم الرب وما اسم ابنه ان كنت تعرف ذلك

فاننا صرنا نعرف ان اسم الرب السري الخفي هو اسم الآب اي بهذا المعنى العميق

وهوانه قد ولد منذ الازل ابنًا مساويًا له وان اسم الابن هو اسم الكلمة وهي الكلمة التي ولدها منذ الابد بالنظر لنفسو وهي ترجمة حقه الكامل وصورته وابنة الوحيد وضياء مجده وصورة جوهره

ونعرف ايضًا مع الاب والابن الروح القدس الذي هو الحب المتبادل بينهما واتحادهما بالازلية وذلك هو الروح الذي يوحي الى الانبياء ويكون مستقرًا عليهم ليكشف لهم اسرار المستقبل ومقاصد الرب وذلك هو الروح الذي كتب عنهُ : ان الرب الاله ارسلني وروحهُ هو الذي يمتاز عن الرب وهو الرب نفسه لانه يبعث الانبياء ويكشف لهم الاشياء المستقبلة وذلك هو الروح الذي يناجي الانبياء ويناجي بهم وهو متحدٌ مع الاب والابن ومشتركٌ معهما في تقديس الانسان الجديد .

وبناء عليه فان الاب والابن والروح القدس اي الاله الواحد في ثلاثة اقانيم قد ظهر لآبائنا بنوعٍ خفي وبدا في العهد الجديد بنوعٍ واضح واذ تقرر اننا عرفنا ذاك السر السامي ودهشنا من علوه غير المدرك فلا يؤول بنا الامر الآن نغشي وجوهنا حياءً من الرب مثل الصاروفيم التي شاهدها اشعياءُ النبيُّ ونعبد معها هذا الاله المثلث القداسة .

اما اسرار الطبيعة الالهية العجيبة فقد كان نشرها لدينا منوطًا ببعثة الابن الوحيد الذي قام باعبائها دون ان يبارح مجراه مع ان موسى والانبياء لم ينوهوا عنها بتلميح الاشارة

فكان يناطُ بهِ وحده ان يفهمنا لماذا وُعد بالمسيح كانسان مزمع ان ينقذ جميع الشعوب وروى لنا عنه انه اله واحد فرد . وانه يتصور فيه ما يتصور في الخالق نفسهِ وكان يصنع هكذا وهو يعلمنا . اي انه كان قبل ان كان ابراهيم وان كان ابنًا له . وانه هبط من السماء وهو لم يزل فيها وانه ابن الله العلي وابن الانسان معًا وهو عمانويل الحق اي الرب معنا وبوجيز العبادة ان الكلمة التي تجسدت في اقنومهِ وجمعت فيهِ الطبيعتان البشرية والالهية رجاءَ ان يصلح كل شيءٍ بنفسهِ .

فتبين لدينا السران الاعظمان وهما سر الثالوث وسر التجسد الآن الذي ابانهما جعلنا نرى صورتهما فينا لتكون دائمًا حاضرةً امامنا ونعرف شرف طبيعتنا . ومن اليقين اننا لو قضينا على حواسنا بالصمت وانعطفنا راجعين الى نفوسنا اي الى ما هو منا

حيث يسمع صوت الحق لرأينا صورة الثالوث الذي نوءدي له العبادة . لان التفكر الذي نشعر بهِ يتولد من روحنا فهو كابنٍ لعقلنا وذلك ما يجعلنا بنوعٍ ما نعرف كيف ابن الله يتولد ازليًّا في عقل الاب السماوي . ولذلك يدعى ابن الله العلي كلمة ونتفهم اذ ذاك انهُ يلدُ في حجر ابيهِ ولادةً تباين ولادة الاجساد . بل تتولد مثلما تتولد في عقلنا الكلمة الباطنية التي نشعر بها لما نتأمل في الحق .

الآن خصب عقلنا لاينتهي بهذا الفكر الداخلي وبهذا التصور وصورة الحقيقة التي تتكون فينا . واما نحن فاننا نود الكلمة الباطنة والروح الذي يتولد منها ونشعر لدى حبنا اياها اننا لا نفضل حب نفوسنا وعقولنا عليها وانهُ لناشيءٌ من كليهما وهو محرزهما ومتحدٌ معهما وليس معهما الا حيوةٌ واحدةٌ . وبناء على ذلك اقول ان الحب الازلي يتولد في الرب بمقدار ما تكون مناسبة بين الله والانسان وانهُ ينبثق من الاب الذي يتفكر والابن الذي هو فكره ليكون معهُ ومع فكره بطبيعة واحدة متساويًا بالعزّ والكمال . وقصارى القول ان الله كلي الكمال وكلمته التي هي صورته الحقيقية الازلية . ليست باقل كمالاً منهُ وحبه المنبجس من منبع الجودة غير المتناهية والذي هو كلُّ الجودة لم ينقصهُ الكمال غير المتناهي واذ لم يكن فينا تصورٌ في الله الا الكمال اقتضى الامر تحتمًا ان يكون كلٌ من الثلاثة على حدتهِ الهًا ولما كان الثلاثة ليسوا سوى طبعٍ واحدٍ اقتضى الامر ايضًا ان نجزم بانهم الهٌ واحدٌ فقط

فيقتضي اذًا ان لا نتصور في الثالوث الاقدس شيئًا غير متناهٍ او منفصلاً مهما كانت هذه المساواة غير مدركة . فاذا اصغنا لانذار العقل فلابدَّ لهُ من ان ياتينا بشيءٍ من ذاك ودليل ذلك ان نفوسنا كائنة وبما انهُ قد تقرر انها تعرف ماهيتها فمعرفتها تحقق كيانها واذا كلفت بوجودها ومعرفتها كما يستاهلان من المحبة فذلك الحب يساويها كليهما . وكذلك ثلاثة الاشياء فانها عديمة الانفصال بل الواحد منها متصل بالآخر . وبيانهُ اننا نتفهم وجودنا الذي نحبهُ ونود كياننا وفهمنا . فمن ادرك نفسهُ لا ينكر ذلك . واذ تقرّر ان احد الثلاثة لايوءثر على غيره من سائرها قلنا ان الثلاثة باسرها لايمكن ان توءثر على احد افرادها لان كلاًّ منها يتضمن كلها . وفي الثلاثة تقوم سعادة الجوهر العاقل ومجده وجلالهُ . وبناء على ذلك يكون كاملاً غير منفصلٍ مفردًا في جوهرهِ متساويًا في كل الوجوه بنوعٍ غير متناهٍ وهو الثالوث الذي نعرفهُ

والذي تكرَّسنا له بالمعمودية . واما نحن صورةَ الثالوث فاننا بعبارة اخرى صورة التجسد لان نفسنا التي هي صبغة روحانية وغير فانية لها جسمٌ فانٍ يتحد معها وباتحادهما معًا ينتج المجموع المعبر عنه بالانسان المركب من روحٍ وجسدٍ معًا من فانٍ وغير فانٍ من مدرك وغير مدرك . فهذه الصفات تليق بمجموعها بالنظر لكلٍ من هذين الجزئين . وبناء عليه قد اتحدت الكلمة الالهية التي تعضد قوتها كل شيء بنوعٍ خاص او بالاحرى اتحدت نفسها اتحادًا كاملاً بيسوع المسيح ابن مريم ولذلك هو الهٌ وانسانٌ معًا مولود منذ الازل ومولود في الآن وهو لايفتأ حيًا في حجر ابيه وقد مات على عود الصليب في سبيل خلاصنا الأ ان الاستعارة والتشابيه المتخذة من الاشياء البشرية لاتكون في ما يدخل فيه الرب الأ غير كاملة لان نفسنا لم تكن قبل جسدنا . واذ تنفصل عنه ينقصها شيء واما الكلمة الكاملة في ذاتها منذ الازل فلم تتحد بطبعنا الا لتشرفه والنفس المستقرة في الجسم تحدث فيه تغييرات مختلفة وتؤثر فيه فتتأثر هي منه ايضًا . لان الجسم اذا كان يتحرك بامر النفس وحسب ارادتها اضطربت وحزنت وتحركت بانواعٍ مختلفة بغم او بكدر حسب استعداد الجسم . وبناء عليه فكما ان النفس ترفع الجسم اليها باستيلائها عليه فتهبط تحته بما تتكبده منه واما في المسيح فالكلمة مترئسة على الكل وكل شيء في يدها وتحت سلطتها وهكذا يكون الانسان مرتفعًا والكلمة لا تهبط ولا بنوعٍ من الانواع بل هي غير متغيرة وغير متنوعة تسود في كل شيء وفي كلٌ محلٌ على الطبع المتحد معها . ومن ذلك ينتج ان الناسوت في المسيح اصبح راضخًا مطلقًا لارادة الكلمة التي رفعته اليها ولهذا لم تكن افكارهُ او حركاته الا افكارًا وحركات الهية اي ان كل ما يفتكر به وكل ما يريده ويقوله وما يكتمه في باطنه وما يظهره في الخارج آتٍ من الكلمة ومنقادٌ من الكلمة واهلٌ للكلمة اي لائق للعقل نفسه وللحكمة نفسها وللحق نفسه ولذلك كل ما هو في المسيح هو نورٌ وسلوكه دستورٌ وعجائبه تعليم وكلامه روحٌ وحياةٌ

وليس يمكن لاحدٍ ان يدرك هذه الحقائق السامية ولا ان يرى في ذاته صورة الاشياء الالهية العجيبة التي استمسك بعراها اوغسطينوس وغيره من الاباء بل ان الحواس متسلطة علينا ولا يمكنا التخيل الطارئ على افكارنا من ان نقف امام ذلك النور الساطع . واننا لا ندرك نفوسنا ونجهل الكنوز المكنونة في لجج طبائعنا ولا يقدر ان يرنو اليها الا

العيون ذوات البهاء الثاقب واذ نتمكن من الوقوف على كنه ذلك السر ونسدل الغشاء عن ركن اعتقادنا يكفينا ذلك لان يرفعنا فوق كل شيء وحينئذٍ لايمكن لشيء من الامور الفانية ان يجاذبنا اليهِ .

ولذلك قد دعانا المسيح الى مجدٍ غير فانٍ وهذا هو ثمرة اعتقادنا في الاسرار . اذ يعدنا الاله المتأنس والحقيقة والحكمة المتجسدة التي تجعلنا نعتقد باشياء عظيمةٍ برؤية الله الساطعة والطوباوية كانّ ذلك جزاء معدّ لامانتنا وكلها بالاستناد على شهادته تعالى وحده . وبناء على ذلك غدت ارسالية المسيح مفضلةً على ارسالية موسى بامر ليس له من نهاية لان موسى قد ارسل ليوقظ بمجازاة زمنية اناساً ذوي شهوات نفسية رعاعاً لانهم كانوا قد اصبحوا اجساداً ولحماناً واقتضى ان يتخذهم بالحواس ويرسخ في عقولهم بتلك الواسطة معرفة الرب وبغضة للاصنام التي كان يجنح اليها النوع الانساني جنوحاً غريباً . وعلى ذلك كانت ارسالية موسى متوقفة ولقد انيط بالمسيح ان يرسخ في عقل الانسان افكاراً سامية ويعلمه نزاهة نفسه وانها عديمة الموت وان سعادتها ازلية

وفي غضون غرة بني الانسان اي في غضون الاوقات التي مرت قبل مأتى المسيح كان كل ما تعرفة النفس عن شرفها وعدم ميتونتها يبعثها على الخطا لان عبادة الموتى كان ركناً لعبادة الاوثان فكان اكثر البشر يقدمون ذبائح لنفوس موتاهم وتلك الغواية القديمة تبين لنا حقّاً قدمية الاعتقاد بعدم ميتونة الانفس وتدلنا على ان ذلك يعدُّ من تقاليد الجنس البشري الابتدائية الاان الانسان الذي يفسد كل شيء قد افسد تلك التقاليد كل الفساد لانه قد آل بهِ الامر الى ان يقدم ذبائح للموتى ووصل البشر الى انهم كانوا يضحون اناساً لذلك لانهم كانوا يقتلون عبيدهم ونساءهم رجاء ان يؤدوا لهم الخدمة في ذلك العالم . وكان الغوليون يفعلون ذلك كثيراً . واقتفى آثارهم شعوب كثيرون . وان الهنود الذين بنوء المؤلفون الوثنيون عن انهم كانوا يدافعون عن عدم ميتونة النفس هم اول من ادخل الى الارض القتل المرذول بحجة الدين ولطالما كان الهنود ينتحرون لكي يحصلوا باقرب آنٍ على السعادة الابدية ولم يزالوا عاكفين على ذلك الغي العظيم

ومن ذلك ينتج ان تعليم الحق ان كان مباينًا عما وضعهُ الرب يكون على شافة المخاطر . ومن الخطر على الانسان ان يمكّن من معرفة ماهيتهِ قبل معرفة ربهِ تماماً .

ولما كان اكثر الفلاسفة لم يعرفوا الرب ما امكن لهم ان يثقوا بان النفس غير مائتة الأ ان يخالوها جزءا من الالوهية . او الهة او موجودًا ازليًا غير مخلوق غير متغير لابدء له ولا نهاية . ولقد كانوا يعتقدون بتقمص النفوس فتنحدر من السماء الى الارض وتصعد من الارض الى السماء وتنتقل نفس الانسان الى الحيوان ونفس الحيوان الى الانسان ويتدرج المرء من السعادة الى الشقاء ومن الشقاء الى السعادة دون ان يكون لذلك التغيير حدٌ او نظام مقرر فيالها من ظلمة كان فيها العدل والحكمة والجودة الالهية في اثناء هذه الغواية ولذلك كان من المحتم على الانسان ان يعرف الله وقواعد حكمته قبل ان يعرف النفس وعدم ميتوتتها .

ولهذا ينتج ان شريعة موسى لم تكن تهب الانسان الأ بعض الالمام بجوهر النفس وسعادتها . ولقد علمنا ان النفس قد تكونت في بادىء الامر بقوة الرب كسائر المخلوقات الأ انها قد تكونت بصفات خاصة اي صنعت على صورة الرب وبنفخته وذلك لتعرف بمن يناط جوهرها وتوقن انها ليست من جوهر الاجسام ولم تكون باجتماعها . بيد ان نتائج هذا التعليم وعجائب الحيوة العتيدة لم تتوضح حينئذٍ تمامًا بل بقي ذلك لوقت المسيح ليبدو بنورٍ ساطعٍ امام الجميع . فنشر الرب بعضًا من تلك الحقائق في العهد القديم لان سليمان قال ويعود التراب على الارض مما كان وتعود الروح الى الله الذي منحه اياها . وعاش الآباء والانبياء في هذا الامل وقال النبي دانيال سوف ياتي حينٌ من الدهر حيث كثيرٌ ممن يرقدون في تراب الارض يستيقظون بعضهم الى الحيوة الابدية وبعضهم الى العار لينظروا دائمًا . وفي الوقت نفسه الذي اكتشفت له هذه الامور امر به أن يكتم الكلام ويختم الكتاب الى الاجل المسمى لكي يبين لنا ان كشف الحقيقة بكمالها يختص بغير آن وجيل . وان يكن لليهود في الكتب المقدسة بعض مواعيد في السعادة الازلية وانهم كانوا يتناجون بالحقائق في ابان المسيح لانها كانت مزمعة ان تبدو اكثر من الماضي كما يتبين ذلك من اسفار الحكمة والمكابيين فان تلك الحقيقة لم تكن قاعدة عامة ومقررة عند اليهود حتى ان الزنادقة لم يكونوا يعترفون بها ومع ذلك كانوا يقبلونهم في جمعية اليهود وفي درجة الكهنوت ايضًا واما هذا الاعتقاد فهو من صفات الشعب الجديد بان يكون للايمان وللدين ركنٌ هو الحيوة المستقبلة وذلك من ثمار ماتى المسيح

ولذلك لم يكتف ان يقول لنا ان الحيوة السعيدة والازلية منوطة بنبي الرب بل انهُ قال لنا بماذا تقوم هذه الحيوة لان الحيوة السعيدة هي ان نكون معهُ في مجد الله ابيه او هي ان نرى مجده في مجرايه من ابتداء العالم اوان المسيح يكون فينا كما يكون في اعضائهِ وان حب الآب الازلي نحو الابن يمتد الينا ويغمرنا بالانعام نفسها وقصارى الكلام ان الحيوة السعيدة هي ان نعرف الاله الواحد الحقيقي والمسيح الذي ارسله الآن نعرفه المعرفة الجلية وهي الرؤية الساطعة المعبر عنها بوجهٍ يناوحُ وجهًا دون حجاب اي ان الرؤية التي تكوّن فينا صورة الرب وتكملها حسب قول القديس يوحنا تجعلنا نكون شبهه لاننا سنراهُ على ما هو عليه

ويعقب هذه الرؤية حبٌّ لامزيد عليه وفرحٌ عظيم وانتصارٌ غير محدود ويترنم المنشدون قائلين هللويا وامين في اورشليم السماوية وبذلك تزاح كلُّ الاتراح وتفنى الشهوات ولا يبقى الاّ مدح الرب وجودته الالهية . وفضلاً عن ذلك الثواب الجديد فتضى ان يبرز المسيح افكارًا جديدة بشان الفضيلة واعمالاً اكمل من الاعمال السالفة واطهر منها . ولذلك كانت المحبة غاية الدين وروح الفضيلة ومخلص الناموس الاّ اننا يمكنا ان نقول لغاية يسوع المسيح ان كمال هذه الفضيلة ومفاعيلها لم تكن معروفةً تمامًا بل ان يسوع المسيح قد علمنا ان نكتفي بالله وحده وحثنا على محبة الله رجاءَ ان يشيد بذلك ملك المحبة وتبين كل واجباتها ولو افضت بنا الى ان نبغض نفوسنا ونستمرَّ على مقاومة الفساد الطارىء على قلوبنا . ولقد فرض علينا ايضًا محبة القريب وحثنا على ان نجعل ذلك فاشيًا في جميع الناس دون ان نستثني من ذلك مضطهدينا وفرض علينا ايضًا ردع شهواتنا الحسية كاننا نقطع بذلك اعضاءنا الخاصة اي اخص ما يتعلق بالقلب وفرض علينا الرضوخ لاوامر الرب حتى اننا نهشُّ الى ما يرسله لنا من النوائب . وفرض علينا الضعة نحب العار اكرامًا لمجد الله ونعتقد انه لا يوجد اهانة تنكسنا امام الناس الاّ يكون لنا اهانةٌ احطُّ منها امام الرب بواسطة خطايانا . وبواسطة ركن المحبة تكمل جميع مراتب الحيوة البشرية ولهذا قد آبت الزيجة الى هيئتها الاصلية ولم يعد حب القرينين متجزئًا وان هذه الجمعية المقدسة لاتزول الاعند زوال الحيوة . ولا يرى الاولاد امهاتهم يبدلن بخالات لهم وبدت العيشة البتولية كاقتداء في حيوة الملائكة الذين لايهتمون الا بالله وبحبه الطاهر . وشعر الرؤساء انهم خادمون مرؤوسيهم ومكرسون

لقضاء مصالحهم وعرف المرئوسون امر الرب بالسلطة الشرعية ولو غالوا في استعمال سلطانها وذلك مما لطف مشقة الخضوع تحت سلطة روساء جائرين. ولم تعد الطاعة تشق على المسيحي الحنيفي .

وقد ضم المسيح لهذه القوانين مشورات للكمال السامي وهي رفض الملذات وقضاء الحيوة في جسم كانه لم يكن جسماً . وغادر كل شيء ووهب المساكين كل شيء رجاء ان لايملك الا الله وحده ويعيش بيسير من الشيء كان معيشته من العدم البحت وذلك اليسير يقتضي انتظاره من العناية الالهية .

الان اخص شريعة للانجيل هو حمل الصليب لان الصليب هو امتحان الايمان الحق وركن الرجاء الحنيفي وتنمية المحبة الكاملة وقصارى الكلام هو طريق السماء . فقد مات المسيح على صليب عانى حملهُ طول ايامهِ ويرغب في ان يتبعه الاناس حتى الصليب ولا ينال احدٌ الحيوة الابدية الابهذا الشرط . واول من اختص بعدة الراحة المستقبلة رفيقهُ الذي كان معهُ على الصليب فقال له انك تكون معي اليوم حقاً في الفردوس واذ ارتفع على الصليب انشق حجاب الهيكل من اعلى الى اسفل وانفتحت ابواب السماء يدخلها القديسون. وبعد انزالهِ عن صليبهِ وخروجه من رمسهِ بدا لتلاميذهِ ممجداً وظاهراً على الموت وذلك يدلهم على انهم لايتبوَّءُون تحت المجد لا بالصليب وانهم لايجدون طرقاً سواه . وبناء على ذلك مثلت في شخصه صورة الفضيلة التامة التي لاتملك على الارض شيئاً ولا تنتظر منها شيئاً ولم يحسن بنو الانسان جزاءها الا بالضهد الذميم مع انها لاتفتأ توسعهم خيراً فكانت اعمالها من داعيات عقابها . فقد مات يسوع لايرى منةً في الذين اغرقهم في لجة جميلهِ وافضالهِ ولاامانةً في اخدانهِ وخلانه ولا عدالةً في الذين قضوا عليهِ ولم تنفعه براءته التي اتضحت امام الجميع . ونبذ عنه ابوه الذي يؤملهُ كل ملاذٍ واسلم الصديق لاعدائهِ ومات متروكاً من الله والناس . بيدَ انه قد اقتضى ان يصرح للرجل الصالح انه لايفتقر لدى تحديق المشاق والمخاطر اليه الى سلوان انسانيٍّ او ادلة حسية من قبيل العناية الالهية بل يكفيه ان يحب الله ويثق بهِ موقناً انه يفتكر بهِ دون ان يبدي له ادنى سمة الا انه قد خصه بسعادة ابدية وقد نقر اعقل الفلاسفة في البحث عن الفضيلة فرأى ان اعظم الاشرار من يمكن له ان يواري خبثهُ عن الناس ويتصانع امامهم بالصلاح فيثقون بانه صالح وتبعثهم الفضيلة على ان يرعوا حرمتهُ فينجم من ذلك ان

صاحب الفضيلة العظمى الحقة من يحسد النوع الانساني ويتمنى له الشر والقلى ولايبقى له شهادة على برارته الا ضميره وانه يعرض لكل ملة واهانة ويفضي به الامر الى ان يعلو على الصليب ولاتاتيه فضيلته باعانة يسيرة اي تملصة من العذاب الاليم . أفلا يظهر من ذلك ان الله وحى بهذا التصور الى احد الفلاسفة ليكون في ابنه ويتبين منه ان الصديق له مجد وراحة وسعادة غير التي يتالها على الارض فان وضع هذه الحقيقة وبيان كمالها بنوع عظيم الوضوح وخطر الحبوة لمن اعظم الاعمال التى في وسع الانسان صنيعها والحال ان الله قد رأى هذا العمل عظيماً فخصه بالمسيح ابنه المنتظر اي الانسان الذي جعله اقنوماً واحداً في ابنه الوحيد

وعلى كل حال فليس امر اعظم من الفضيلة يمكن ان يخص بالهٍ نزل من السماء الى الارض . واي شيء كان من ارادة هذا الاب ان يبرمه اكثر من ان يظهر على الارض الفضيلة كاملةً والسعادة الازلية حيث المصائب العظيمة تقودها اليه

فلو اعتبرنا كل ما هو سامٍ وخاصٌ بسرّ الصليب لتعسر على عقول البشر قاطبة ادراكه اذ يتبين لنا ظهور فضائل بالصليب لايقدر على تتميمها الا الانسان الاله وليس بممكنٍ لاحدٍ سواه ان يكون بمثابة الذبائح القديمة ويلغيها ويستبدلها بذبيحة ذات عظمةٍ واقتدار لانهاية لها . وقد تأتى منذ ذاك الحين ان لايتقدم لله الا هو نفسه فهاك العمل الديني الذي قام بعبئهِ المسيح على الصليب وهل كان يمكن للاب الازلي ان يجد بين الملائكة او بين البشر خضوعاً يوازي خضوع ابنه المحبوب لديه لما اسدى حياته له طوعاً دون كرهٍ في سبيل مسرته اذ رأى ان لايوجد احد يتمكن من نزعها منه قسراً عنه . وان لساني لقاصر عن تبيان اتحاد ارادته التامة بارادة الله وعن حبه الذي كان يقرنه بالله الذي قد اصلح بهِ العالم . وقد استغرق بذلك الاتحاد غير المدرك كامل الجنس البشري واصلح السماء والارض وانغمس بشهوة عظيمة في بحر ذاك الدم حيث له صبغة ينبغي ان يصطبغ بها مع كل اصحابهِ واخرج من قروحاته نار محبة الله على الارض المزمعة ان تحرق الارض طراً وهاك ما يقصر عن ادراكهِ عقل كل انسان وهو العدل الذي اتمه هذا الاله الانسان الذي سمح ان العالم يقضي عليهِ ليبقى العالم مقضياً عليه مؤبداً بسبب هذا الحكم العظيم . فقد اتت دينونة العالم فيطرح رئيس هذا العالم خارجاً كما حكم على ذلك يسوع نفسه . وان الجحيم الذي تولى على العالم زمع ان يفقد السلطة لانه لما

عكف على اضطهاد البري. الجأه الامر الى ان يعتق الخطأة من اسرهم واما صك القضاء الذي كان يُعلن اننا مسلمون للشيطان فاخذه يسوع المسيح واقامه معهُ على الصليب ليمحوه بدمهِ . فبكى الجحيم على ذلك بكاء مرًّا واصبح الصليب مركزًا لانتصار مخلصنا يفقوه الاعداء وهم يرتعدون خوفًا ورهبةً . ويبدو لنا من ذلك ظفرٌ اعظم من ذاك وهو ان العدل الالهي قد اصبح مغلوبًا وان الاثم الذي كان من اهلهِ ان يتقدم له ضحيةً قد تملص من بين يديه لانه وجدله عن ذلك كفيلاً قادرًا ان يؤدي عنه ثمنًا غير متناهٍ وجعل المسيح في حوزته كل الاخيار الذين فداهم بنفسهِ لانهم اعضاؤه وجسده والاب نفسه لم يجذب اليهم الألكونهِ رئيسهم ولهذا قد اوصل اليهم حبه غير المتناهي نحو ابنه بواسطتهِ لان الابن طلب منه ذاك الحب اذ لا يودُّ ان ينفصل عن البشر الذين شراهم بدمهِ . ولهذا كان يقول يا ابتاه اني اريد ان يكونوا معي وسوف يمتلئون من روحي ويتمتعون بمجدي ويجلسون معي على منصتي . وبعد هذه الحسنى الفضلى لم نتمالك ان نهتف بسرورٍ مظهرين عاطفات الممنونية مشاركين احد الفلاسفة الشهيد بقولهِ يا أيتها العجيبة يا أيها الانقلاب غير المدرك ويا حيل الحكمة الالهية الغريبة كيف يعاقبُ واحدٌ مفردٌ والكثيرون يخلصون ان الرب يقاصُّ ابنهُ البار لينقذ البشر الخطأة ويصفح عن البشر الاثيمين محبةً بابنه البري . لان المسيح اذ كنا بعد ضعفاء مات في الاوان عن المنافقين ولا يكاد احدٌ يموت عن صالحٍ . وان الذي احبنا ونحن مجرمون منتصبًا عنا لا يمكن لهُ ان يرفضنا بعد ان اصلحنا وبررنا بدمهِ .

وقد نلنا اموراً كثيرة بالمسيح وهي النعمة والقداسة والحيوة والمجد والسعادة واصبح ملكوت ابن الله ميراثنا ولم يبق شيءٌ يفوقنا بشرط ان لا نحطَّ نفوسنا .

وفي غضون ان كان المسيح يفعم شهواتنا ويفوق آمالنا كان يتم عمل الرب الذي بوشر بهِ في ايام الانبياء وشريعة موسى

فكان الرب وقتئذٍ يبدو لهم باختبارات حسية لانه كان يبدي عظمته بمواعيده الزمنية وجودته اذ كان يغمر اولاده بالاحسان الذي يداري حواسهم وقدرته بانقاذه اياهم من ابدي اعدائهم وصدقه لما قادهم الى الارض الموعود بها اباؤهم وعدلهُ بثوابهِ او عقابهِ للذين كان يبعث بهما اليهم علانيةً جزاءً على ما كانوا يعملون . وكل هذه الاعاجيب كانت تعد الطرق للحقائق التي كان المسيح مزمعًا ان يقوم بها . وذلك اذا

كان الرب صالحاً كثيراً فيهبنا ما نطلبه بالحواس فكم بالاحرى كثيراً يهبنا بالروح المصنوعة على صورته ومثاله . وان كان بهذا المقدار رؤوفاً ومحسناً نحو اولاده فهل يحصر حبه واحسانه في بضع من السنين التي يدور عليها محور حياتنا . الا يهب محبيه من السعادة الا خيالاً وارضاً مخصبة بالحبوب والزيوت . اليس من محل آخر يفيض فيه عليهم خيراته الحقيقية

أجل يوجد لا ريب محل آخر مهيأ قد اتى يسوع ليريناه وذلك لو كانت عظمة الرب تنتهي بعظمة معرّضة لحواسنا الواهنة لما كانت مبرواته لائقة بشأنه لان كل ما ليس بازلي لا يليق بعزة اله ازلي ولا امل الانسان الذي اوقفه الرب على ازليته ومن ثم ان امانته غير المتغيرة نحو عبيده لو لم تكن تمتد الى شيء ثابت وغير فان لما كان يوجد لها موضع مناسب .

فلذلك قد اقتضى الامران يفتح لنا المسيح باب السماء ليبين لايماننا المدينة الثابتة التي تجمعنا بعد هذه الحيوة . ويلوح لنا ان الله قد تلقب باله ابراهيم واله اسحق واله يعقوب ليكشف لنا ان هؤلاء الاباء الصالحين يستمرون دائماً امامه احياء ليس باله للموتى بل للاحياء وليس يليق بشأن الرب ان يقتصر على مرافقة اصفيائه الى الرمس مثلما يصنع البشر غير تارك لهم رجاء وراء ذلك . ولو لم يشد في السماء مدينة عظمى ازلية يقطنها ابراهيم واولاده بكل سعادة للحق به العار بقوله بعظمة وجلال انه اله ابراهيم .

وعلى ذلك اتضحت لدينا حقائق الحيوة المستقبلة بيسوع المسيح . وقد ابان لنا كل ذلك في السنة لان ارض الميعاد الحقيقية هي السماء وان ابراهيم واسحق ويعقوب كانوا يذكرون هذا الوطن السعيد لان بلاد فلسطين لم تكن لائقة بان تكون غاية انتظارهم او محل آمالهم الوحيد

فان مصر التي كان ينبغي ان يجالوها والصحراء التي اقتضى ان يطووها وبابل التي الجئوا الى ان يحطموا باب سجنها ليلجوا اوطانهم آبيين يشخصنَ العالم وملذاته واباطيله حيث نحن مبرحون تحت اثقال الاسترقاق وتائهين في تلعات الغرة والخطيئة وشهواتها . فعلينا ان نطرح عن عواتقنا نير هذه العبودية فننال في اورشليم مدينة المنا الحرية الحقيقية ومقدساً لم تشده الايادي يبدو فيه مجد اله اسرائيل . وقد ابان لنا تعليم المسيح سر

الرب لان الشريعة روحانية كلها ونفوذنا مواعيدها الى مواعيد الانجيل وهي كركن لها . ويبدو لنا نورٌ فردٌ ساطعٌ في كل محل لانه بدا في عهد الاباء ونما في ايام موسى والانبياء ويسوع الذي هو اعظم من الآباء وسلطته اسمى من سلطة موسى ونوره اسطع من نور الانبياء ابانه لنا بكماله . ولقد انبطت كل الحقيقة اي حقيقة الاسرار وحقيقة الفضائل وحقيقة المكافأة التي اعدّها الرب لمحبيه بجملة من يبينها لنا وهو المسيح الانسان الاله وحسب قول ماري اوغسطينوس الانسان الذي يقوم مقام الحقيقة على الارض ويريناها كانها قائمةٌ فينا

فهاك العظمة التي كان يحتم على اليهود ان يطلبوها من المسيح لانه لا شيء اعظم من حفظه للحقيقة بذاته واظهارها لبقى البشر كلها . فتكون لهم ملاذاً وقائداً وتجعل ابصارهم نقية وتمكنهم من روية الرب . وفي وقت ان تحتم ان تبدو الحقيقة لهداية البشر بكمالها كان قد سن ان ينذربها في كل الارض وفي كل الازمان ان الله لم يبخ موسى الا شعباً واحداً ووقتاً معيناً لكنه وهب المسيح كل الامم وكل الاحيان . ودليله ان مختاريه يرحون في كل محل وبيعته مبسوطةٌ في العالم باسره تستمر لهم اماً . لانه قال لرسله : اذهبوا الآن وتلمذوا كل الامم معمدين اياهم باسم الاب والابن والروح القدس وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به وها انا معكم كل الايام الى منتهى الدهر . (١)

الفصل العشرون

في حلول روح القدس وتشييد البيعة وحكم الرب على اليهود والامم

ان نشر الحقائق السامية في كل زمان ومكان وارساخها في وسط الفساد لزم ان تقوم بها فضيلة غير بشرية ولهذا وعد المسيح بان يبعث بروح القدس لتثبيت رسله الاطهار واحياء جسد بيعته احياءً ازلياً

ولكي تظهر قوة الروح القدس اقتضى ان تبدو بكل ضعفٍ فقال يسوع لتلاميذه وانا ارسل اليكم ما وعد به ابي (اي الروح القدس) فامكثوا انتم في هذه المدينة الى ان

(١) متى ص ٢٨ : ١٩ و ٢٠

تلبسوا قوةً من العلاء .

فمكثوا امتثالاً لذلك الامر في العلية اربعين يومًا وحلّ الروح القدس بينهم في الاجل المسمى وان الالسنة النارية التى هبطت على تلاميذ المسيح تدلّ على مفعولية كلامهم ومن بعد ذلك اخذوا ينذرون و يبشرون. وادى الرسل شهادةً ليسوع لانهم كانوا على اهبة ان يتحملوا كل صنوف المشاق ليقرروا انهم رأوه منبعثًا من الموت وكانت المعجزات تتعقب اقوالهم فارتد ثمانية الاف من اليهود بواسطة انذارين قام بهما بطرس . ومسحت عيونهم بالبكاء على ضلالهم وتطهروا بالدماء التي اهرقوها

وبذلك اقيمت البيعة في اورشليم بين اليهود قسرًا عن مجد اكثر الشعب وابدى تلاميذ المسيح للعالم محبةً وبأسًا وخلالاً دمثةً لم تبدُ من قبل في الفة اجتماعية ابدًا . ولما ساد الاضطهاد كثرت الامانة وتعلم اولاد الرب من آنٍ الى اخر ان لايجنحوا الاّ الى ملكوت السموات. واما اليهود فقد صوبوا عليهم بكثرة خبائثهم انتقام الرب وقربوا اليهم المشاق الوبيلة التي كان يتوعدهم بها ولقد كانت احوالهم تزداد سوءًا وفي غضون ما كان الرب يفرز من بينهم كثيرين ليضمهم الى مختاريه بعث بالقديس بطرس ليعمد قائد المائة كورنيليوس الروماني . فانه علم في باديء الامر بروءيا من العلاء وفي ما بعد بالاختبار ان الامم مدعوّون لمعرفة الله لان يسوع المسيح الذي شاء ارتدادهم ناجى من العلاء بولس الرسول المزمع ان يصير معلمهم . واقام لديه معجزةً غريبةً لم يسمع الى ذاك الوقت نظيرها فتحول الدين المسيحي بعد ان كان مضطهدًا ليس فقط الى محامٍ يبادهه بالقلى والمكاشحة بل الى ان يكون منذرًا غيورًا على الايمان ايضًا وكشف له سر دعوة الامم بسبب رذل اليهود الناكرين للجميل الذين استمروا متوغلين في القباحة وما يبعثهم على عدم استئهالهم للانجيل وبسط مار بولس يديهِ نحو الامم واخذ يتكلم بكل فصاحة وبلاغة عن كل تلك الامور المهمة وهي هل سيتألم المسيح ويصبح اول من يقوم من بين الاموات فيبشر بالنور الشعب والامم . وعلق يثبت قوله بموسى والانبياء و يدعو الامم الى معرفة الرب باسم يسوع المسيح المنبعث من الموت وتقاطر الشعب والامم الى الايمان اجواقًا وابان مار بولس حينئذٍ ان دعوتهم من النعمة التي لاتميز بين اليهود والامم . فدبت الحدة في قلوب اليهود مستشيطين وتوامروا على القديس بولس حنقين منه لاسيما لانه كان ينذر الامم ويردهم الى الاله الحق فسلموه للرومانيين مثلما سلموهم يسوع

المسيح فاحتدمت دولة رومية غضباً على البيعة الجديدة واصبح نيرون المضطهد الجميع البشر اوّل من اضطهد المومنين وامات القديسين بطرس وبولس فتكرست رومية بدمهما . وتشيد في حاضرة المملكة كرسيّ للدين الخاص بسبب اشهاد القديس بطرس رئيس الرسل . بيد انه كان قد ازف الوقت الذي كان الرب مزمعاً فيه ان ينقم من اليهود المصرّين على آثامهم لان الانقسام قام فيما بينهم واعمت الغيرة الفاسدة بصائرهم وجعلت بني الناس طرّاً يانفون منهم وكان انبياؤهم الأفاكون يخاتلونهم بمواعيد مالكٍ وهمي. ولما انخدعوا ايّ خداعٍ وانغمسوا في لجة الغرور تعسر عليهم ان يحتملوا السلطة الشرعية او يقتصروا على جرائرهم المستفظعة فغلّب الله عليهم شهواتهم السيئة فتمردوا على الرومانيين الذين اذاقوهم مرّ العذاب والضنك. وتيطس نفسه الذي تمّ دثارهم قد قرّ انه لم يكن الاّ آلةً تصوبها يد غضب الرب عليهم واباده‌م ادريانوس فهلكوا . وقد كانت كلُّ ادلة الانتقام الالهي عليهم لانهم طردوا من اوطانهم وتشعثوا اسرى وعبيداً في كل المسكونة . فلم يبق لهم من هيكل ولا مذبح ولا ذبيحة ولا وطن وانمحت آثارهم من كل يهوذا

بيد ان الرب قد اعدّ له منذ الازل شعباً اخر يودي له فروض العبادة لان الامم تفتحت ابصارهم واتحدوا بالروح مع اليهود الابين الى حجر البيعة. وبناء على ذلك انحازوا الى اخلاف ابراهيم واصبحوا اولاد الايمان وورثة المواعيد التي وعد بها ابراهيم فصار الجميع شعباً واحداً وبدت على وجه البسيطة ذبيحة جديدة وهي الذبيحة التي اوعز اليها الانبياء في نبواتهم

وعلى ذلك المنوال تمت نبوة يعقوب بكل دقة وضبط اي ان بني يهوذا يزيدون اكثاراً من البدء على كل بني اخوته . ولما كان يستمرّ حافظاً على نوع ما السلطة عليهم فقد نال الملك اخيراً ميراثاً له واصبح على طول المدى شعب الله محصراً في سبطه وملقباً باسمه . وتكاثر يهوذا الشعب العظيم الذي وعد به ابراهيم واسحق ويعقوب واستدامت به المواعيد الاخرى اي عبادة الرب والهيكل والذبائح والاستيلاء على ارض الميعاد التي لم تكن لتدعى الاّ يهودية لان اليهود قسراً عن احكامهم المتباينة قد استمرّوا جمعيةً واحدة وشعباً واحداً في مملكة واحدة منظمة راضخين لسنة واحدة . فلبث ملوكٌ وقضاةٌ واعيانٌ يتولون امورهم الى ان اتى المسيح . ولدن ما أتاه اخذت مملكة

يهوذا تندثر حيناً بعد حين وبعد ذلك تم دثارها وطرد منها اليهود ايسين من الاياب الى ارض ابائهم واصبح المسيح رجاء الامم ومنتهى امالهم وملكاً يحكم شعباً جديداً .
ورغبةً في رعاية الخلافة والاتصال اقتضى ان يطعّم الشعب الجديد في القديم حسبما قال مار بولس ان الزيتونة البرية اذا طعمت في الزيتونة البستانية اصبحت شريكة لها في دسمها ولهذا اتفق ان الكنيسة المشيدة في بادىء الامر من اليهود قبلت في حجرها الامم لتصبح شجرة واحدة وجسماً واحداً وشعباً واحداً وتشركهم طراً بمواعيدها ونعمتها .
ولا تعلق اذ ذاك لكل ما حدث لليهود غير المومنين على عهد فسباسيانوس وتيطوس بشعب الله بل ان ما طرأ عليهم كان كعقاب للمتمردين الذين لسبب عصيانهم الابن الموعود به ابراهيم وداود لم يلبثوا يهوداً ولا اولاداً لابراهيم الا حسب الجسد ولقد جحدوا المواعيد التي كانت مزمعةً ان تكون بركةً على كل الامم . وعليه ان البلية الاخيرة التي المت باليهود لم تكن كسبي بابل وليست كتوقيف الحكم والسلطة في شعب الله والخدمة في الدين لان الشعب الجديد الذي تكوّن وامتزج بالشعب القديم يسوع المسيح لم ينتقل من اليهودية واخذ في الامتداد والنماء دون انقطاع من اورشليم حيث نشأ الى اطراف المسكونة واصبح حينئذٍ الامم الذي انحازوا الى اليهود اليهود الحقيقيين ومملكة داود الحقيقية برضوخهم للشرائع وانجيل يسوع المسيح ابن داود

وبعد ان تشيدت هذه المملكة الحديثة لا يعجب من دثار كل شيء في بلاد اليهودية لان الهيكل الاخير لم يعد يصلح لشيء بعد ان اتم المسيح كل ما قيل بالانبياء . لانه قد نال الفخر الموعود به ماتى المسيح المطلوب من الامم . وقد كانت اورشليم اتمت كل ما كانت مندوبةً اليه لان البيعة كانت قد تكونت فيها ومن ثم اخذت اغصانها تمتدُّ في كل اطراف الارض ولم تعد اليهودية او اليهود من اهتمام الرب او الدين . وقد كان من العدل ان يتشعثوا في الارض عقاباً لقساوة قلوبهم

وذلك نفس ما كان مزمعاً ان يحل بهم في زمن المسيح تطبيقاً لما فاه به يعقوب ودانيال وزكريا وجميع انبيائهم ولكن بما انهم يعودون يوماً ما الى المسيح الذي جحدوه وان اله ابراهيم لم يكن قد افرغ كل كنوز رحمته نحو ذرية هذا الاب الامين فقد راى وسيلة ليس لها من نظير في تاريخ العالم وهي ان يحفظ اليهود خارج اوطانهم

بدثارهم ويبقيهم زماناً اطول من زمان الظاهرين عليهم لعدم وجود اثار للاثوريين الاقدمين والماديين والفرس واليونانيين والرومانيين لان دثارهم قد عفت واختلطوا بالامم الاخرى . اما اليهود الذين كانوا فريسة لهولاء الامم المشهورة في التاريخ لبثوا بعدهم وان الرب لم برعهم الا ليجعلنا منتظرين ما هو مزمع ان يصنع بباقي هذه الامة البائسة بعد ان صبب عليها احساناً سابقاً ومع ذلك كانت قساوة قلوبهم وسيلة لخلاص الامم الذين برون بين ايديهم الكتب المقدسة غير المرتاب فيها التي تبين يسوع المسيح واسراره . وما نراه ايضاً في الكتب المقدسة عينها المرعية بكل اعتناء من اليهود هو عمى قلوبهم ومشاقهم وعلى هذا نقتبس العبرة من مصائبهم . وعدم امانتهم اصبح ركناً لاماننا لانهم بذلك يعلموننا مخافة الرب وقد صاروا انموذجاً موءبداً لاحكامه الصارمة على بنيه الجاحدين وذلك لئلاً نفتخر بالنعمة المعطاة لآبائنا .

وقد يحتم علينا ان ندقق بالفحص عن السر العجيب الذي براعى به جانب الافادة للنوع الانساني وليس لنا حاجة لكلام البشر لكي ندركه لان الروح القدس قد اراد ان يفسرلنا ذلك بواسطة القديس بولس الرسول. فاملي وطيد على ان تصغ لما قاله هذا الرسول للرومانيين

فبعد ان تكلم عن يسير العدد من اليهود الذين اعتنقوا الانجيل وعن قساوة غيرهم شرع ينفر في ما يصير اليه الشعب المغمور بالنعمة الالهية فيكشف لنا بذلك عن الثمرة التي نجتنيها بسقوطهم والثمرة المزمعة ان تنشأ يوماً ما من رجوعهم الى الايمان فقال : العلَّ اليهود عثروا حتى يسقطوا حاشا بل بزلتهم حصلت الامم على الخلاص لا غارتهم فان كانت زلتهم غنىً للعالم ونقصانهم غنىً للامم فكم بالاحرى امتلاؤهم . لانه ان كان رفضهم هو مصالحة العالم فما يكون قبولهم الأحيوة من بني الاموات . وان كان الاصل مقدساً فكذلك الفروع. وان كان بعض الفروع قد كسر وقد كنت انت زيتونةً برية فطعمت فيها فصرت شريكاً في اصل الزيتونة ودسمها فلا تفتخر على الفروع فان افتخرت فلست انت تحمل الاصل بل الاصل يحملك ولعلك تقول ان الفروع قد كسرت لاطعم انا . حسن انها من اجل الكفر قد كسرت وانت بالايمان ثبت فلا تستكبر بل خف فانه ان كان الله لم يبق على الفروع الطبيعية فلعله لا يبقي عليك انت ايضاً

فمن ذا الذي لا تأخذه الرعدة عند ما يستمع كلام الرسول وهل يمكن لنا أن لا نخشى من انتقام الرب اللاحق باليهود منذ اجيال عديدة فان القديس بولس ينبهنا من قبيل الرب قائلاً ان كفرنا سيجذب الينا عقاباً كهذا وبناء عليه فلننصح لكلام الرسول القائل: فانظر اذاً الى لطف الله وشدته اما الشدة فعلى الذين سقطوا واما لطف الله فلك ان ثبتّ في لطفه والاّ فتنقطع انت ايضاً وهم ان لم يثبتوا في الكفر يطعّمون لان الله قادرٌ ان يطعّمهم لانك ان كنت قد قُطعت من زيتونٍ بريّ بالطبع وطُعّمت على خلاف الطبع في زيتونٍ بستانيّ فكم بالحري هؤلاء الذين هم فروع طبيعية يطعّمون في زيتونهم الخاص

وارتفع هنا الرسول فوق كل ما قاله ودخل في حجر مشورة الرب فقال فاني لا اريد ايها الاخوة ان تجهلوا هذا السر لئلاً تكونوا عند انفسكم حكماء وهو ان عمىً قد حصل لجانبٍ من اسرائيل الى ان يكون قد دخل ملء الامم وهكذا سيخلص جميع اسرائيل كما كتب سيأتي من صهيون المنقذ ويصرف النفاق عن يعقوب وهذا هو عهدي لهم حين ازيل خطاياهم

فهذه الاية قد نقلها القديس بطرس عن النسخة السبعينية حسبما كانت عادته لانها قد كانت متعارفةً في كل الارض . وانها لاقوى عبارة في النسخة الاصلية اذا استُقرئت متصلةً لان النبي يتكلم اولاً عن ارتداد الامم ويقول ان القاطنين في الغرب يخافون اسم الرب والقاطنين في الشرق يرون مجده ثم رأى اشعياء عن بعدٍ الاضطهادات التي تؤول لنماء البيعة كنهرٍ منقضٍ مغوار ثم كشف له الروح القدس عما هو مزمع ان يحلّ في اليهود فقال ويأتي لصهيون الفادي وللذين يتوبون عن الوثم في يعقوب يقول الرب هذا عهدي معهم يقول الرب روحي الذي فيك وكلامي الذي جعلته في فمك لا يزولان من فمك ومن فم نسلك ومن فم نسل نسلك يقول الرب من الان الى الابد

فيبين لنا النبيء بنوعٍ صريح ان المخلص الذي لم يعرفه صهيون وقد جحده بنو يعقوب سوف يأتي بعد ارتداد الامم اليهم ويمحو عنهم الاثام ويتيح لهم ادراك النبوات بعد ان كانوا قد فقدوه زماناً مديداً . حتى ان هذا الادراك يتعاقب من يدٍ الى يد في الاجيال كافة حسبما يشاء الرب ويكون هذا الحادث العجيب . وعلى هذا

سوف يؤدب اليهود وبعد ابايهم لايعودون يضلون الى الابد ولكن لايؤوبون الا بعد ان يمتلئ الغرب والشرق او بعبارة اصرح تمتلئ الارض كلها من خوف الرب ومعرفته

وابان الروح القدس للقديس بولس ان رجوع اليهود موقوف على محبة الرب لابائهم ولهذا تراه يتمم ما قاله بهذه الكلمات :

اما من جهة الانجيل فهم اعداء من اجلكم واما من جهة الانتخاب فهم احباء من اجل الاباء لان مواهب الله ودعوته هي بلا ندامة . فكما انكم كفرتم حيناً بالله ونلتم الآن رحمة من اجل كفرهم ،، قد شاء الله ان يتخيكم لتكونوا بمنابتهم ،، كذلك هؤلاء ايضاً كفروا الان لاجل رحمتكم حتى ينالوا هم ايضاً رحمة لان الله اغلق على الجميع في الكفر ليرحم الجميع ،، وحتى يشعر الجميع بالاحتياج الى نعمته ،، فياالعمق غنى الله وحكمته وعلمه ما ابعد احكامه عن الادراك وطرقه عن الاستقصاء من عرف فكر الرب ومن كان مشيراً ومن سبق فاعطى له فيكافأ . ان كل شيء هو منه وبه واليه فله المجد مدى الدهور آمين

ذلك ما قاله القديس بولس بشأن انتخاب اليهود وسقوطهم وابايهم ثم ارتداد الامم المدعوين ليكونوا بمنابتهم ويردونهم في اخر الاجيال للبركة الموعود بها اباءهم وهي يسوع المسيح الذي جحدوه ويبين لنا ايضاً هذا الرسول انتقال نعمة الرب من شعب الى اخر لكي تاخذ الرعدة كل الشعوب عند فقدانها ويبين لنا ايضاً قوة هذه النعمة التي بعد ان ردت الامم استاثرت لمفعولها الاخير بان يكتب كفر اليهود وبردع خبثهم ومكرهم

وبسبب مشورة الله السديدة بقي اليهود في وسط الامم حيث لعبت بهم ايدي التفريق وهم تحت اثقال الاسر الا انهم لبثوا على حالتهم المرذولة فاقدين لسبب كفرهم المواعيد التي اعطي اباءهم اياها ومجالين عن ارض الميعاد ولم يكن لهم من ارض يرثونها بل استمروا عبيداً ايان رحلوا واين حلوا لاشرف لهم ولا حرية ولا هيئة شعب .

وكابدوا تلك الاحوال ثماني وثلاثين سنة بعد ان صلبوا المسيح واستخدموا الزمان الذي اعطي لهم ليرعووا عن اغوائهم ويتوبوا بان برهنوا الرسل ويضطهدوهم . وفي غضون ما كان الشعب القديم مرذولاً لسبب كفره كان الشعب الجديد اخذاً في النماء يوماً بعد آخر بين الامم . وقد اتصلت المعاهدة التي عوهد بها انفاً ابرهيم حسب

الميعاد بكل الشعوب الذين كانوا قد نسوا الرب لان البيعة المسيحية تدعو اليها كل البشر . ولما كانت مستكنة في معمعة العذاب مدة اجيال عديدة ابانت للبشر ان لا يطلبوا السعادة على الارض .

فهاك ياسيدي ثمرة معرفة الرب ومفاعيل هذه البركة العظيمة التي ينبغي ان ينتظرها العالم بيسوع المسيح فكانت على التواتر تحل على بيوتٍ متتابعة وشعوبٍ متواصلة وكان البشر يهتدون من يوم الى اخر فيشعرون بما وصلوا اليه من الضلة بعبادتهم للاوثان . ولقد كان المسيحيون يغيرون هيئة العالم ويمتدون في كل الاصقاع قسرًا عن قوة الرومانيين دون ان يتمردوا او يثوروا بل كانوا يتجشمون كل انواع العذاب .

وسرعة هذا التغيير الخارقة العادة هي عجيبة ظاهرة فان يسوع المسيح كان قد تنبأ ان انجيلهُ ينذر بهِ في كل الارض وتمت هذه النبوءة حالاً بعد موته وكان قد قال «اذا رفعتم ابن الانسان» اي ان صلبه سوف يستجيل اليه كل شيء ولم يكن الرسل اتموا مسيرهم الا قال مار بولس للرومانيين ان ايمانكم يبشر به في العالم باسره وكان يقول للكولوسيين ان الانجيل يبشر بهِ في كل مكان

وقد وصل اليكم كانه قد وصل الى العالم كلهِ الذي يثمر بهِ وينمو . ومن التحديق في التقليد نرى ان القديس توما قد انذر بهِ في الهند وسائر الرسل في البلدان العاصية وليس بتثبيت هذه الحقائق من حاجةٍ الى التواريخ فان الافعال تبينها صريحًا ومن هنالك يتضح مطابقة كلام القديس بولس للرسل باستناده على مزامير النبي : في كل الارض خرج منطقهم وفي اقطار المسكونة انبث كلامهم

وفي زمان الرسل خلفائهم لم تكن بلادٌ قاصية ومنكورة الا بشر فيها الانجيل فبعد ان مضى على موت المسيح ماية من الاعوام كان القديس جوستينيانوس يعدُّ من زمرة المومنين كثيرين من البربر وكثيرين من النحل الرحل الذين ينزحون من مقرٍ الى اخر على عجلاتٍ وليس لهم من موطنٍ مقرر . وليس ذلك من نوع الغلو والمبالغة بل امرٌ مقرر كانوا يبرزونه وقتئذٍ لدى الملوك والعالم كلهِ واتى بعد ذلك بقليل من الزمن القديس ايرينوس وزاد عدد البيعة وكان الاتحاد عجيبًا لان ما كان يعتقد به في غاليا واسبانيا وجرمانيا كان نفس ما يعتقد به في مصر والشرق وان لم يكن في العالم

الاشمس واحدة لم يكن يرى في الكنيسة من اقصى العالم الى اقصاه الانور حقيقة واحدة

وكلما ازدلف المرء قليلاً يأخذه العجب والدهشة من النجاح الذي كان للبيعة . ففي وسط القرن الثالث يبين ترتوليانوس واوريجانوس ان شعوباً برمتها قد انحازت الى البيعة ولم تكن منها وان الذين كانوا قاطنين في اقصى العالم المعروف لم يحسبهم اوريجانوس منها لكنما اتى من بعده ارنوب فضمهم الى مؤمنيها

فعلى اي شيء عثر العالم حتى سارع متهافتاً على يسوع المسيح فاذا كان عثر على بعض من الاعاجيب فيكون الرب قد تداخل بنوع صريح في ذلك العمل وان لم تكن في ذلك الحين حدثت امامهم اعاجيب فارتدادهم وقتئذٍ من اكبر الاعاجيب واعظمها ودخول فيالق جمة في اسرار سامية وانّ رضوخ عدد غفير من العلماء واقناع اناس لايثقون باشياء عسرة التصديق لمن الغرائب والعجائب

بيد ان عجيبة العجائب ان ساغ لنا القول هي ان الفضائل السامية والاعمال الشاقة قد كثرت والايمانَ بالاسرار في العالم قاطبةً فانّ تلاميذ المسيح خطوا خطوات سيدهم في الطرق الشكسة فقد كانوا معرضين لكل شيء في سبيل الحقيقة ومقتفين آثار مخلصهم وكانوا يقدمون على الملمات جذلاً وفرحاً اكثر منه اعلى الملذات

ولا يمكن لنا ان نحصي اولائك الذين افتقروا حباً بسد سغب المعسرين . ولا اولائك المتقشفين الذين آثروا الفقر على الغنى ولا العذارى البارات اللواتي تسنَّنَ على الارض بالملائكة ولا الرعاة المتخشعين الذين كرسوا ذواتهم خدمة للجميع وقد كانوا دائماً لا يتهجدون الليالي بالعياء والسهر باذلين نفوسهم حباً بقطعانهم . ولقد كانت التقشفات والندامة في اعلى ذروة من السيادة فان القضاة وقتئذٍ لم يكونوا يقضون على المجرمين البائسين باكثر ما كان الاثيمون يقضون على نفوسهم وفضلاً عن ذلك فقد كان الابرياء يعاقبون نفوسهم بقوة عظيمة بسبب الميل الفاسد الذي يحملنا على الخطية . وقد اصبحت حيوة القديس يوحنا المعمدان التي بدت عجيبة بين اليهود ذائعة بين المومنين فامتلأت البسابس والقفار من الذين اقتفوا آثارهُ وكثرت النساك حتى ان الذين كانوا يطلبون الكمال الاعظم قد كانوا يتوغلون في وهاد الارض . ولقد كان جمٌ غفير يعتزلون عن العالم ويلتذون بالحيوة الرياضية والروحية بواسطة سكنهم القفار . فهاك الثمار الثمينة التي نجمت من الانجيل فان البيعة لم تكن اقل غنىً بالامثال من

التعليم فان تعليمها قد بدا مقدسًا وانشأ زمرةً كبيرةً من القديسين وان الله الذي يوعز بان الفضائل السامية لاتنمو الاّ بتجشم المشاق الويلة قد شاد بيعته على الاشهاد واراد ان تلبث على تلك الحال مدة ثلاثة اجيال دون ان تخامرها راحة ولما ابان باختبار مديد عدم احتياجه للمساعدة البشرية والسلطة الدنويّة لاقامة بيعته دعا اليها الملوك واقام قسطنطين الاكبر ذائدًا عنها ومحاميًا. فعند ذلك توافدت الملوك من كل صقعٍ وناد ليجثوا البيعة وكل ما قاله الانبياء عن مجدها قد تمّ امام العالم كله .

وكما ان البيعة لم تقمعها ايدي العدو الخارجي كذلك لم توقع بها الانقسامات الداخلية سوءًا . فقد بدت البدع التي تنبأ عنها المسيح ورسله واخذت تضطهد البيعة وعلق المبتدعون يناصبونها اكثر ما كان يناصبها الملوك ومع ذلك لم يضيق ذاك الاضطهاد عليها الاّ بعد ان انقضت مناصبة الوثنيين لان الجحيم في ذاك الحين افرغ ما عنده من القوة ليجعل ابناء البيعة يتناصبون بعد ان كانت اركانها قد توطدت بتحديق ابصار اعدائها القاصين عنها اليها . فلم تلبث ان استكنت وطفقت تتمتع بالراحة التي نالتها في عهد الملك قسطنطين الاّ بدأ اريوس الشقي يبادهها بامور ويلة لم تكن اذ ذاك الحين تجشمتها واخذ قسطانس بن قسطنطين الملك يرهق الكاثوليك في كل الارض فان الاريوسيين كانوا قد خاتلوه والجئوه الى تثبيت بدعتهم فاخذ يضطهد المسيحيين اشدّ الاضطهاد وهو يوجج عليهم الحرب باسم المسيح فوهت البيعة المجتزئة تحت سلطة جوليانوس الجاحد الذي استخدم كل الوسائل لاتلاف الدين المسيحي ولم يرَ له من ذريعة لتتميم ذلك الاّ بان يثير الاحزاب التي كانت تناصبه وخلفه فالانس الجانح الى الاريوسيين كقسطانس لكنه كان اشدّ منه عتوًا وجورًا

وقد دبّ الحنق في قلوب بعض الملوك سواه ففقفوا اثره بالعطوف الى بدعٍ اخرى والذود عنها . فشعرت الكنيسة بالاختبار ان يقضى عليها بان تتكبد مشاقّ على عهد الملوك المسيحيين ليست باقل مما تكبدته على عهد الملوك الوثنيين ورأت ان من المحتم عليها اهراق دم بنيها للدفاع عن تعليمها او بالاحرى للذود عن كل قاعدة منه. فلم يكن بندٌ من بنوده خاليًا من تصويب سهام بنيها عليها لان كثيرين من المتشيعين نزحوا من حجرها ناكثين ذمامها واخذوا يطارحونها . لكنها وان رأتهم قد

قاموا ضدّها يناوشونها فقد رأينهم كما قال المخلص مدحورين قسرًا عما ضافرهم الملوك العظام . واما ابناوءها الحقيقيون فقد كان ذلك الامتحان كافيًا لتثبيت ايمانهم وذلك كما قال القديس بولس . ان الحق تثبت اذ تعرض للمناوشة ولبثت البيعة غير مزعزعة

الفصل الحادي والعشرون

في بعض ملاحظاتٍ خاصةٍ باليهود ونبوّات يسوع المسيح

بينما كنت عاكفًا على ان ارفع لدى جلالتك النبأ عن تسلسل مآرب الرب في ادامة شعبه بالتواتر لمحت على حوادث كثيرة ذات بالٍ تستلفت اليها الانظار فليكن مسموحًا لي ان اعود ارفع عنها سجاف الغموض فنقف اذ ذاك على خفائها .

غير اني احقق الامل بان تعتبر بنوعٍ خاصٍ سقوط اليهود فان كل ظروفه توءول لتثبيت الانجيل . وقد اتصلت الينا بواسطة موءرخين من اليهود والوثنيين يوثق بهم كل هذه الحوادث التي اراد الرب ان تكون ذريعة لسقوط اليهود وان لم يفهم هوءلاء الموءرخون مقاصده .

فلم تزل ابدينا تتداول موءلفات الموءرخ يوسيفوس اليهودي العالم باحوال امته فانه قد اساد بلاده بما كيفه الموعزة الى اثار اليهود القديمة ومما كتبهُ فيها كلامٌ مسهبٌ عن الحرب الاخيرة التي كانت علة لدثار تلك الامة وقد كان هو نفسه بمشهد منها يخدم الوطن بمأمورية خطيرة .

وكتبٌ اخرى قديمة عند اليهود تنطبق على ما ذكرناه لان عندهم شروحًا قديمةً على الكتب المقدسة من جملتها شروح بالكلدانية في ذيل توراتهم ولهم كتاب يدعونه التلمود اي التعليم يراعون حرمته كالكتاب المقدس وهو ينطوي على مقالات واحكام قام بها العلماء الاقدمون وان تكن اجزاء ذاك التاليف ليست من قرنٍ واحدٍ فان الموءلفين المذكورين فيه اخيرًا قد كانوا في اوائل جيل الكتاب المقدس وفيه نرى اثارًا حسنة في مقاليد اليهود القديمة وبراهين قاطعة لاقناعهم وان يكن فيه خزبلات عديدة الان اكثرها كان بعد المسيح

ومن الامور المحققة ان الانتقام الالهي لم يهظ اليهود اكثر منه عندما اندثروا اخيرًا

وذلك يقرون بهِ عيانًا .

ومن الاحاديث الصحيحة المذكورة في التلمود والمثبتة من جميع الربانيين ان اشياء غريبة كانت مستمرة التبيان قبل دثار اورشليم باربعين سنة اي في عصر ينطبق على وشك موت المسيح . وقد كانت معجزاتٌ متوالية تحدث في الهيكل يومًا بعد يوم فالتجأ احد الربانيين المشاهير الى ان يهتف ذات يوم قائلاً يا ايها الهيكل يا ايها الهيكل علامَ تضطرب وعلامَ تخيف نفسك بنفسك

وهل من امرٍ جليٍّ لدى الجميع اكثر من ذاك الدويِّ الذي سمعهُ الكهنة في بيت المقدس وقت عيد المظال وذاك الصوت الجهاري الذي خرج من الهيكل هاتفًا فلنخرجنَّ من هنا فلنخرجنَّ من هنا واعلن الملائكة القديسون الذائدون عن الهيكل انهم يغادرونه وما ذلك إلاَّ لان الرب رذلهُ بعد ان كان قد جعل فيهِ مقامهُ اجيالاً مديدة .

ونقل يوسيفوس المؤرخ وتاسيتوس الروماني نفسه ذلك الحادث الغريب وشعر بهِ الكهنة وحدهم ولكن قد بدا لدى الشعب طرًا حادثٌ آخر لم يتأتَّ لاحد الشعوب ان يرى مثالهُ وبيان ذلك هو ان يوسيفوس المؤرخ يقول ان احد القرويين هتف قبل احتدام نار الحرب باربعة سنوات قائلاً : صوتٌ خرج من الغرب وصوت خرج من الشرق وصوتٌ خرج من مهاب الرياح الاربع صوتٌ ضد اورشليم وضد الهيكل وصوتٌ ضد الذين تزوجوا حديثًا واللواتي تزوجوا حديثًا وصوتٌ ضد الشعب كله ومن ثم استمر يصرخ ليلاً ونهارًا الويل الويل لاورشليم وكان يضاعف صراخهُ ايام الاعياد غير متفوهٍ بكلمةٍ اخرى عدا ذلك ولم يجب احدًا ممن كانوا يأسفون عليهِ ومن كانوا يلعنونه او يحسنون اليهِ الاَّ بهذه الالفاظ الرهيبة وهي الويل الويل لاورشليم فالقي عليهِ القبض وحكم عليه القضاة بان يجلد بالسياط فكان يجيب على كل سوالٍ يوجه اليه ولدى كل جلدةٍ تلمُّ بهِ دون شكوى بالكلام ذاته اي الويل الويل لاورشليم فيئسوا منه واطلقوه معتقدين انه معتوه . فدوخ القرى والدساكر وكرر تلك الالفاظ الرائعةَ ولبث على ذلك المنوال مدة سبع سنوات دون سآمة او ضجر .

وحينما كانت اورشليم مضيقًا عليها محاصرةً كان داخلها يتطوَّف حول اسوارها صارخًا بجهير الصوت الويل للهيكل الويل للمدينة الويل للشعب ثم قال الويل لي

فعند ذلك فاجأه حجرٌ كبيرٌ مرشوقٌ بالمجنيق فصرعهُ على الارض قتيلاً

فياسيدي من ذا الذي لا يوقن عند مرآه ذلك المشهد ان الانتقام الالهي بدا جليًا في ذلك الانسان الذي لم يكن الا ليتفوه باحكام الرب الذي افعمتهُ قوة واقتدارًا لكي يعدد بصراحة مصائب الشعب وهلك اخيرًا بحكم ذاك الانتقام الذي انذر به منذ مدة مديدة قبل وقوعه . وما ذلك الاَّ ليجعله عبدًا وبينًا ليس لانه تنبأ عنه وقرره مرارًا بل لانه اصبح ضحيةً لهُ ايضًا .

فالنبيء الذي تنبأ بمصائب اورشليم يدعى يسوع ويضح من ذلك ان اسم يسوع اسم الخلاص والسلام مزمعٌ ان يتحول لليهود الذين لم يعبئوا بهِ في المخلص دلالةً سيئة عليهم واما اولئك الجاحدون الذين نبذوا وراء ظهورهم يسوع الذي انذرهم بالنعمة والرحمة والحيوة فقد بعث الله اليهم يسوع اخر ينذرهم بشاق وبيلة لا ينجع بها دواء وبوشك خرابهم الذي لا محيص منه ولا مناص .

فلنغص اذًا في عباب احكام الرب بنور كتبهِ المقدسة . وسنرى ان قد قضي على اورشليم والهيكل بالدثار مرتين مرة في عهد بختنصر الملك واخرى في عهد تيطس وفي ذينك العهدين لم يبدُ عدل الرب بالطرق نفسها وان يكن حتق في الدثار الاخير حنقًا بينًا

ولكي ندرك تسلسل مآرب الرب ينبغي في بادىء الامر ان نتوكأ على الحقيقة المكررة في الكتاب المقدس وهي ان من عاده قضاء الانتقام الرائع ان يسلط علينا شهواتنا المرذولة فنتطوح بالمفاسد فنصبح صمًا عن نصائح الحكمة وعميًا عن روءية الطرق المفتوحة امامنا المؤدية الى النجاة وموهبين لان نسلم نفوسنا لكل ما يلقي بنا الى التهلكة ونخاتل شهواتنا بالدهان والتدليس فنثبت على كل عملٍ بجراءة غير موازنين قوانا مع قوى الاعداء الذين اغظناهم والرب يسمح بكل ذلك عقابًا على ما اقترفنا من الجرائر

وعلى ذلك المنوال كان دثار اورشليم وملوكها بيد بختنصر ملك بابل فكابدوا بهِ صاب الويل ولهذا شعروا مرارًا بان اثارتهم تعود عليهم بالتقهقر والنكبات فدانوا لهُ مقسمين . وكان ارميا يوعز اليهم من لدن الله ان الرب فوَّض امرهم لهذا الملك وان ليس لهم فرج الاَّ بان يكونوا لهُ صاغرين ويتحملوا اثقال نيره . فقد كان يناجي صدقيا الملك وشعبه قائلاً طاطئوا روءوسكم تحت نير ملك بابل وادوا لهُ العبادة تحيوا . علامَ

تموت انت وشعبك وعلامَ تبيل هذه المدينة خرابا فلم يثقوا بكلامه . وبينما كان بختنصر يضيق عليهم في المدينة مكتنفهم بمترسات عظيمة كانوا يثقون بالانبياء الكذبة الذين كانوا يعدونهم بان النصر باتيهم عن قريب فقد كانوا يخاطبونهم باسم الرب مدعين انهم مرسلون من لدنه قائلين . اني سحقت نير ملك بابل وانا من الان الى سنتين ارد الى هذا المكان جميع انية بيت الرب التي اخذها بختنصر .

فخدع الشعب بهذه المواعيد الكاذبة وعلقوا يحتملون مقاساة الجوع والظماء والمشاق الكلية وافضت بهم الوقاحة الى ان لا يبقى لهم لدى الظافر عليهم رحمة ولذلك اندثرت المدينة وحرق الهيكل واصبح كلٌّ مستاصلاً

وقد كان من ذلك ادلةٌ بينة تدع اليهود يشعرون بان يدَ الرب تداهم . ولكي يبدو لديهم انتقام الرب صريحًا في دثار اورشليم الاخير كما بدا لديهم في دثارهم الاول عثروا به على الغرور عينه والوقاحة نفسها وعتو القلب ذاته

وان يكن تمردهم صوب عليهم الاسلحة الرومانية وابدوا من الوقاحة شيئًا عظيمًا ليزحزحوا عن عواتقهم نير الرومانيين الدائنة له الارض باسرها فلم يقصد تيخوس دثارهم بل انه ودَّ مرارًا ان يعاملهم بالرفق والتوءدة ليس في ابتداء الحرب فقط بل بعد ان رأى ان لم يبق لهم من بدٍّ مفرٌّ لانه كان قد اخذ عنوة حول المدينة سورًا باذخًا محصنًا بمترساتٍ وقلاعٍ امنع من قلاع المدينة لما بعث اليهم يوسيفوس وطنيهم احد روساء شرطتهم وكهنتهم اذ كان اسره من بينهم وهو يدافع عن وطنه . فاخذ يحضهم على الرضوخ فلم تنجع بهم نصائحهُ وقد ابرز اليهم ادلة قاطعة على وجوب طاعتهم فانبأهم ان السماء والارض متحالفتان على تنكيلهم وان دثارهم بالعناد من الامور التي لا مندحة منها . وان نجاتهم موقوفة على رحمة تيخوس وناداهم بجهير الصوت قائلاً انقذوا المدينة انقذوا نفوسكم انقذوا هذا الهيكل اعجوبة العالم الذي يراعي الرومانيون حرمتهُ ويودُّ تيخوس نفسه ان لا يراهُ منقوضًا الاَّ باسفٍ عظيم ولكن ما الحيلة في انقاذ اناسٍ يثابرون على ان يصروا على هلاكهم فان انبياءهم الكذبة كانوا يطغونهم ولذلك لم يصغوا لاقوال ذاك الرجل ونصائحهِ . وقد كانوا في ازمةٍ شديدة لان كثيرين منهم كان يلمُّ بهم الجوع الشديد فكان يفني منهم اكثر من الحرب وقد افضى بهم الامر الى ان الوالدات يأكلن اولادهن فعطف عليهم تيخوس راثيًا واقسم بالهتهِ انه لم يكن علة لدثارهم . وفي اثناء المشاق التي كانت

تناصبهم كانوا يعتقدون بالانبياء الكذبة التي كانت تعدهم بالاستيلاء على العالم وفضلاً عن ذلك انهم راوا ان المدينة تملصت من بين ايديهم عنوة وشبت فيها النار من كل جانب ولم يرعووا عن اغوائهم بل لبثوا يصيخون لاقوال الانبياء الافاكين الذين كانوا يغرونهم بالمدافعة بحملهم على اليقين بان يوم انقاذهم قد حان فلبثوا على ذلك والرحمة عنهم قاصية فقتل الفاتح اذ ذاك منهم خلقاً كثيراً بحد الحسام وقوض المدينة من اركانها ولم يبق سوى بعض قلاعٍ يستبقيها آثاراً للاجيال التالية فهوت اورشليم ولم يبق منها حجرٌ على حجر

فانك ترى ياسيدي ان ما حلَّ على اورشليم من النكبات والمصائب في ايام حزقيا قد حلَّ نفسهُ عليها الان وان تيخوس لم يكن الاَّ بلاغاً من قبيل الرب كبختنصر ليهلك اليهود بالكيفية نفسها فاننا نرى في اورشليم العصيان نفسهُ والجوع عينهُ والاذمة ذاتها ووسائط نجاتهم ذاتها وعين الطغيان وذات التهور ونفس العناد ولكي تكون المضاهاة تامةً بكل الوجوه حرق الهيكل الثاني في عهد تيخوس في الشهر والنهار اللذين حرق فيهما في عهد بختنصر وكلُّ شيءٍ كان قد كتب عن ذلك آنفاً ومع ذلك لم ينتبه الشعب لوعيد الله وانذاره .

الآن بين دثاري اورشليم واليهود بوناً عظيماً وكل هذا الاختلاف يبين ان الدثار الاخير قد تمَّ بصرامةٍ غريبة بانتقام الرب فان بختنصر اضرم النار في الهيكل اما تيخوس فقد استخدم اكثر الوسائل لرعايتهِ غير مبالٍ بما تفوه بهِ لديه اعضاء مجلسهِ الشوروي قائلين ان لم تقوض اركان هذا الهيكل فاليهود يستمرون على التمرُّد والعتو لكن لما اتت الساعة التعيسة اي اليوم العاشر من شهر آب وهو الوقت الذي حرق فيه هيكل سليمان احرق هذا الهيكل المكرَّم احد جنود الرومانيين وقد حملهُ على ذلك وحيٌ الاهي كما قال يوسيفوس المؤرخ وبيانهُ ان نفراً من ارفاقه اصعدوه الى نافذة الهيكل حيث القى النار قسراً عن تحريم تيخوس لذلك امام جميع الرومانيين واليهود وقسراً عن جنوح الجنود الطبيعي الذين كانوا يودون ان يسلبوا منه ما كان فيه من الاشياء الثمينة احرى من ان يحرقوها فاذ علم بذلك تيخوس اسرع حالاً وامر بان تخمد النار فلم ينجع شيءٌ مما استعملهُ من الوسائل فان النار اضطرمت بهِ من كل جانب وحوَّلت ذاك البناء العظيم الى رماد .

فان كان عناد اليهود في عهد الملك دليلاً على مفعول انتقام الله الرهيب عليهم فكم بالاحرى عنادهم في عهد تيخوس الملك فقد كان اليهود وقت حصار اورشليم الاول متواثقين على الالفة وتآلب القلوب اما وقت ان دثرها الرومانيون اخيرًا كانت قلوب اهاليها متنافرة موءججة قبسة الشقاق . فكانت تمزق بذلك امعاءها ولم يكن عند قاطنيها حنق على الرومانيين مثلما كانوا يحنقون على بعضهم ويتهافتون على المباغضة . ولهذا لم يتجندل في المواقع الخارجية قتلى منهم بمقدار ما تجندل في المواقع الداخلية لانهم بعد ان كانوا يجالون الاعداء عن اسوارهم اندفعوا على بعضهم وعلقوا يتبارون بسفك الدماء . وكان يجاذب المدينة طرفان من الجور والسلب فعمات بها عوامل الخراب واصبحت كقاع صفصف مغشى بجثث القتلى وغدا روءساءها يتنازعون على السلطة واصبحت حالتها تضاهي حالة الجحيم حيث التكبر والبلبلة والرجز . والابالسة يودون قلى اعدائهم وهكذا كان الهالكون في اورشليم فانهم كانوا يجهدون في سبيل المباغضة

فلتثقنَّ ياسيدي ان انتقام الرب من اليهود ببختنصر هو صورة انتقامه منهم بتيخوس فهل من مدينة شاهدت هلاك احد عشر كرةً من سكانها بحصار واحدٍ مدة سبعة اشهر

فهاك ما شاهده اليهود في حصار اورشليم الاخير فلم يحملهم الكلدانيون شيئًا مثلة لان سبائهم عند الكلدانيين لم يستمرَّ اكثر من سبعين سنة اما بعد حصار اورشليم فقد بادهتهم النائبات ستة عشر جيلاً وهم يئنون تحت اوقار العبودية في العالم كله لايجدون لهم من يزحزح عن عواتقهم الاثقال الباهظة او يخففها قليلاً . ولا غروَ من ان تيخوس قد رفض تباريك الشعوب المجاورة على انتصاره ونبذ ما اسدوه له من التيجان والمكرمات على ظفره فان الظروف الغريبة وحنق الرب العظيم على اليهود ويده التي تنفك ظاهرة عليهم حملته على العجب من كل ما جرى وبعثته على ان يقول انه ليس بظاهر بل هو آلة في يد غضب الرب

ولم يكن يدرك ذاك السرلان الساعة المتوقفة عليها معرفة الملوك الرومانية بمأتى المسيح لم تكن انت الى ذاك الوقت بل كان ذلك الوقت اضطهاد البيعة واذلالها ولذلك لم يعرف تيخوس الجريرة التي يعاقب الربُّ اليهود عليها وان يكن قد عرف ان اليهودية درست بحكمٍ من لدنه تعالى فعلة هذا الانتقام هي اكبر الذنوب وهو

ذنب لم يسمع بهِ الى ذاك الوقت اي قتل الهٍ

ولقد تسبب بهِ انتقامٌ لم يرَ لهُ في العالم مثيلٌ . بيدَ اننا لو حدقنا الى الامور بعيون البصيرة وتحريناها حق التحري لما ندَّعنا العلم بعقاب اليهود وجريمتهم الكبرى . فلنتذكرنَّ كلام المسيح حينما تنبأ لهم عن دثار اورشليم والهيكل قائلاً لا يترك ههنا حجرٌ على حجرٍ الا ينقض وكان قد تنبأ لهم عن حصار هذه المدينة الجاحدة وما سيحيط بها من الاسوار وان بنيها تعمل بهم ايدي البومى فيتضورون جوعاً وان انبياء كذبة يطغونها . وكان قد حذَّر اليهود ان ابان اهوائهم قريبٌ واوعز اليهم بادلة قاطعة تشعر بأن حلولهِ وابان لهم تسلسل آثامهم التي تسبب لهم تلك العقابات الرائعة وقصارى الكلام انه كان قد اسلف لهم عن تاريخ الحصار وغوائلهِ ودثار اورشليم

فاعلم ياسيدي انه تنبأ لهم عن كل ذلك وقت الامهِ رجاء ان لا تذهب عنهم علة نكباتهم لانه كان في مقربةٍ من اعدائهِ حين قال لهم . ها انا ارسل اليكم انبياء وحكماء وكتبة فمنهم من تقتلون وتصلبون ومنهم من تجلدون في مجامعكم وتطردون من مدينةٍ الى مدينة لكي ياتي عليكم كل دمٍ زكيٍ سُفك على الارض من دم هابيل الصديق الى دم زكريا بن بركيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح . الحق اقول لكم ان هذا كلهُ سياتي على هذا الجبل . يا اورشليم يا اورشليم يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها كم من مرة اردت ان اجمع بنيك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها فلم تريدي هوذا بيتك يترك لك خراباً .

فهاك تاريخ اليهود فانهم ضهدوا المسيح في شخصهِ واخوانهِ واثاروا كل الارض على رسلهِ ولم يدعوا لهم راحةً في اية مدينة كانت وقد حملوا الرومانيين وملوكهم على ان ينقادوا السلاح على البيعة الجديدة ورجموا القديس اسطفانوس بالحجارة وقتلوا اليعقوبين اللذين كانا على جانبٍ عظيم من الطهر والتقى فاكتسبا مراعاة الحرمة حتى لديهم وذبحوا القديسين بطرس وبولس بسيف الامم وذلك كان ذريعةً لهلاكهم لان ما اهرقوا من ذلك الدم ودم الانبياء صارخ من لدن الرب بالانتقام لتصبح بيوتهم ومدائنهم كلها طامسة دارسة ولا يكون دثارهم اقلَّ من اثمهم وكان يسوع ينذرهم ان وقت ذلك قريب وان هذا الجبل لا يزول حتى يكون هذا كلهُ اي ان المعاصرين سوف يشاهدون كل ذلك

اما الآن فاصغ لما انبئك بهِ عما بقي من نبوة فادينا لانه عندما كان مقدماً على

اورشليم قبلَ ان مات بقليل من الزمن عطف فؤاده شفقة اذ رأى ما سيحل عليها من الويلات والمشاق بسبب الامهِ فرنا اليها باكيًا وقال :

لو علمت انتِ ايضًا في يومك هذا ما هو لسلامك لكنه الان خفي عن عينيك انها ستاتي عليك ايامٌ يحيط بك فيها اعداؤك بمترسةٍ ويحاصرونك ويضيقون عليك من كل وجهٍ ويهدمونك وبنوك فيك ولا يتركون فيك حجرًا على حجر لانك لم تعرفي زمان افتقادك

فبهذه الكلمات اوعز صريحًا الى كيفية الحصار وغوائل انتقام الرب الاخيرة لكن لم يكن يقتضي ان المسيح يذهب للعذاب قبل ان ينقل على اورشليم بالقصاص الذي تحمله لمعاملتها اياه سوء المعاملة فانهُ لما كان حاملاً على عاتقهِ صليبهُ وهو ذاهبٌ الى جبل الجلجلة وكان يقفوه لفيف كبيرٌ من الشعب والنساء اللواتي كنَّ يلطمنَ وينحنَ عليهِ فحانت منه اليهنَّ التفاتة قائلاً

يابناتَ اورشليم لاتبكينَ عليَّ بل ابكين على انفسكنَّ وعلى بنيكنَّ فها انها تاتي ايامٌ يقال فيها طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي ترضع

حينئذٍ يبتدئون يقولون للجبال اسقطي علينا وللاكام غطينا لانهم اذ كانوا صنعوا هذا بالعود الرَّطب فماذا يكون باليابس. ان كان بهذا يتعذب البريّ الصديق فبماذا يتعذب الخطاة

هل رثى ارميا دثار اليهود باكثر شدة من هذا وهل كان يمكن للمخلص ان يستعمل غير الالفاظ باكثر قوةٍ ووضوح لينبههم على مشاقهم وبأسهم فقد اوعز اليهم عن الجوع المدقع انه يهلك بنيهم ونساءهم اللواتى نضبت اثداؤهنَّ ولم يبق لهنَّ سوى العويل يهيئة اولادهنَّ واللواتي الجأهنَّ الجوع الشديد الى ان ياكلن ثمرة بطونهنَّ .

الفصل الثاني والعشرون

في ان نبوءتي يسوع المسيح الشهيرتين يتضحان بتتميمها وبشهادة التاريخ

ان النبوءات التي اتينا بالنباء عنها قد تنبأ بها امام الشعب اما التي لم يتفوه بها الأَامام تلاميذه فانها ذات بال لا مندوحة من استلفات الاحداق اليها وانها نؤخذ من

كلامهِ عن دثار اورشليم ودثار العالم قاطبةً ولم يكن ذاك الوثاق دون سرٍ وها هي غايتهُ .

فان مدينة اورشليم الطوباوية التي اصطفاها الرب وطالما مكثت تنتظر الميعاد والعهد قد كانت رمزًا الى الكنيسة والسماء حيث يبدوا الرب لدى بنيهِ

ولذلك نرى من الانبياء كثيرين قد ضموا ما يناط باورشليم الى ما يناط بالكنيسة والمجد الابدي وذلك في اثناء خطاب واحدٍ وهو من اسرار النبوءات ومفاتيح اقفالها واما اورشليم المرذولة الجاحدة مخلصها فهي رمزٌ الى جهنم وسكانها الخائنون هم كالهالكين وقضاء المسيح عليهم هو رمزٌ قضائهِ على كل الارض اذ يأتي في آخر الاجيال بكل عزتهِ ليدين الاحياء والاموات ومن دأب الكتب المقدسة والوسائل التي تقوم باعبائها لترسخ الاسرار في عقولنا ان تمزج في التعليم الرمز بالحقيقة وعلى ذلك مزج مخلصنا تاريخ اورشليم وخرابها بتاريخ انقضاء العالم وذلك يبدو في الخطاب الذي عليه يدور محور كلامنا لكن لا تخالنَّ ان كل هذه ممزوجة ببعضها حتى انه لا يمتاز ما يناط بكل منها بل ان المسيح قد ميز كلاً بصفات خاصة يمكن ابانتها ولكن يكفي ان ابين كل ما يناط بدثار اورشليم واليهود .

واذ كان الرسل مكتنفين يسوع نحو الامهِ كانوا يشيرون الى الهيكل وما حولهُ من الابنية معتجبين جدًا من مناعة البناء ونظامهِ وحسن حجارتهِ فرنا اليهم المخلص واخذ يقص عليهم قائلاً انظروا هذا الهيكل الحق اقول لكم لا يترك هنا حجرٌ على حجرٍ الا ينقض فتعجبوا من كلامهِ وسألوا متى يصير كل هذا اما هو فاذ لم يشأ ان يجعلهم قلقين في اورشليم لدى دثارها اخذ ينبئهم عما سيتوارد عليها من المصائب على التتابع (لانه اراد ان يكون انفصال الاخيار عن الاشرار بخراب المدينة رمزا الى الانفصال الذي يحدث في الزمان الاخير) فقال لهم سوف تكون أوبئةٌ ومجاعات وزلازل في اماكن شتى ومصادقةً على ذلك فقد قال المورخون ان تلك الحوادث الويلة التي حدثت في ذاك القرن لم يكن لها من نديدةٍ في القرون الغابرة ثم قال سيصير في كل الارض بلابل واخبار حروب وستقوم أمةٌ على أمةٍ وتحدث في كل الارض قلاقل فذلك يمثل لنا كل ما جرى اخيرًا في حكم نيرون فان الدولة الرومانية اي الارض كلها التي كانت رائعة في بحبوحة السكينة منذ انتصار اوغسطوس وعهد خلفائهِ شرعت تتزعزع لان غاليا واسبانيا

وكل مقاطعات الدولة الرومانية علقت تقوض بوقت واحد فان اربعة ملوك تألبت قلوبهم معًا على نيرون واخذوا يتناظرون وان ظهراء الملك وعساكر سوريا وجرمانيا وفيالق اخرى من الشرق والغرب تصادموا في مواقع القتال ودوخوا تحت قيادة ملوكهم الارضين من اقصاها الى اقصاها ليبنوا خصامهم بمعارك دموية ولكن لا يكون المنتهى اذ ذاك كما قال ابن الله : وسوف يتجشم اليهود من ذلك مشاق عمومية الا انه سوف يحل عليهم نوائب خاصة وهذا كله أول المخاض

ثم اضاف الى كلامه ان قال ان بيعة المضطهدة منذ تشييدها سوف تكابد اضطهادًا جديدًا اشق من الاول في ذاك الحين ولقد ذكرنا ان نيرون اراد ان يبيد في اخر ملكه المسيحيين وامات القديسين بطرس وبولس . واما الاضطهاد الذي اثاره اليهود حسدًا وبغيًا فقد عاد عليهم بالدثار بيد ان الاجل المسمى لم يكن الى ذاك الوقت قد تعين . لكنهُ قد كان يلوح ان مأتى المسحاء الدجالين والانبياء الكذبة هو الاجل المسمى لدثار اورشليم الاخير

فان الذين سدوا آذانهم عن استماع صوت الحق آل بهم الامر الى ان يصبحوا بالانبياء الكذبة هالكين . ولم يخف المسيح عن رسله حلول تلك المشاق في اليهود فانهُ اوعز اليهم ان سوف يقوم كثيرون من الانبياء الكذبة ويضلون كثيرًا وقال ايضًا سيقوم مسيحوا كذب وانبياء كذبة

فلو كنت تعرف اخلاق اليهود لقضيت بان الوصول الى ادراكها امرٌ ذو صعوبة فلقد انبأتك انهم بعد ان خذلهم الانبياء الكذبة وسببوا دمارهم ولا سيما في عهد حزقيا انفوا من اقوالهم وآلوا على ان لا يسمعوا لهم قولاً وكان قد مرَّ على ذلك اكثر من خمسمائة سنة ولم يبدُ في اسرائيل انبياء كذبة واما الجحيم الذي كان يمتن بينه وبينهم رباط الاخاء فقد استيقظ وقت مأتى المسيح وان الله الذي يقبض بيمينه على الارواح الخداعة قد اطلقها وشأنها لكي تبرح باليهود وتمتحن المؤمنين وتثبيتًا لذلك فان الانبياء الكذبة لم تظهر بمقدار ما ظهرت عقيب موت المخلص ولا سيما في وقت حرب اليهود وعهد نيرون كان قد اجج تلك الحرب فتكاثرت اذ ذاك كما اشار الى ذلك يوسيفوس المؤرخ حتى ضاق الحسبان دونها وكانت تخاتل الشعوب وتجذبهم الى بطون الكفار بالسحر والمكر وتعدهم بالفرج القريب

ولذلك اشار المسيح بنبوءتهِ الى البرية حيث يتوارى الانبياء الكذبة وكانوا بالحقيقة يجذبون الشعب ثمة الى دثاره الاخير. ويمكن لك ياسيدي ان توقن ان اسم المسيح الذي يتعسر على اليهود ان يخلصوا بدونهِ كان ممتزجًا بتلك المواعيد الباطلة وانك سوف تقف على ما هو اهلٌ لاقناعك

ولم تكن اليهودية وحدها عرضةً لهذه الغرة العشواء بل كانت كل مقاطعات الدولة الرومانية مثلها فلم يكن من زمن مثل ذاك ينبئنا التاريخ فيهِ عن العدد المديد الذي اتصل اليهِ الانبياء الافكون وعما عثوا وزعموا ان يدركوا حقائق المستقبل ويختلوا الشعب بسحرهم كسيمون الجيسباني والياس وابولونيوس تيانوس وجم غفير من السحرة المذكورين في التاريخين الديني والدنوي فكل اولائك بدوا في هذا الجيل حيث بذل الجحيم جهده ليوطد ملكهُ المزعزع واشار المسيح الى ذلك بقوله سوف يقوم في ذاك الوقت ولاسيما عند اليهود عددٌ كثيرٌ من الانبياء الكاذبة ومن ينتبه لكلامهِ يرى ان هذا العدد يتكاثر قبل دثار اورشليم وبعدهُ اوفي ما قرب منه ويضاعف الخداع التعليم الكاذب والعجائب الباطلة فيعزز ويمسي رجسًا ويكاد المختارون ينخدعون لو كان ذلك ممكنًا

ولست بناكرٍ ان قد يحدث في آخر الاجيال شيءٌ كهذا او اكثر منه مكرًا لاننا قد اسلفنا ان ما حدث في اورشليم هو محضُ رمزٍ الى ما يحدث في آخر الزمان اما المسيح فقد ابان لنا ان هذا الغرور مفعول غضب الرب على اليهود وسيماء هلاكهم . وقد ثبت هذه النبوة واقعيُ الامر لان كل شيءٍ قد تحقق بشهود عدلٍ لا تنبذ شهادتهم فاننا نرى نبوة ضلالهم في الانجيل وتتمتها في تاريخها ولاسيما تاريخ يوسيفوس

وبعد ان تنبأ يسوع المسيح عن كل ذلك قاصدًا بنبوءتهِ انقاذ تلاميذه من المشاق التي توعدبها اورشليم اخذ يورد عليهم أدلة خراب هذه المدينة الاخير

ان الرب لا يبين هذه الادلة لمختاريه دائمًا لانه لدى العقابات الصارمة التي تظهر قوته امام الامم طرًّا قد يضرب احيانًا الصديق والخاطيء معًا وما ذلك الّا لان الوسائل التي يستخدمها في سبيل عزل الواحد عن الاخر هي اشدُّ قطعًا مما تبدو لدى حواسنا فان الضربة التي تسحق التبن يتأتى لها فصل الحبة . وينقي التبر بالنار التي تحرق بيبس التبن وهكذا ينتج بالعقاب فكما يهلك بهِ الاثيمون كذلك يخلص بهِ الصالحون واما في خراب اورشليم فلكي تضح الهيئة الدنوية الاخيرة ويظهر غضب الله صريحًا على

الجاحدين لم يشاء الله ان اليهود الذين اقبلوا الانجيل يخالطون من سواهم . ولذلك ابان المسيح لتلاميذه بادلةٍ بينة عن وقت نزوحهم من المدينة المرذولة . وقد استند حسب عادته على الانبياء الاقدمين الذين كان مفسراً وخاتمةً لهم . وبعد ان ذكر ما فاه بهِ دانيال عن دثار اورشليم الاخير قال هاتي الكلمات « فمتى رأيتم رجاسة الخراب التي قيل عنها بدانيال النبي قائمةً في المكان المقدس » وكما قال القديس مرقس قائمةً حيث لاينبغي فحينئذٍ الذي في اليهودية فليهرب الى الجبال ويذكر القديس لوقا ذلك نفسه بالفاظ مختلفة قائلاً :

واذا رايتم اورشليم قد احاطت بها الجنود فاعلموا حينئذٍ ان خرابها قد اقترب فحينئذٍ الذين في اليهودية فليهربوا الى الجبال والذين في داخلها فليخرجوا والذين في البلاد فلا يدخلوها

ان الانجيليين يشفون عن معاني اقوال بعضهم وان قسنا هذه الاية يسهل لدينا ان نتفهم ان الرجاسة المذكورة في دانيال هي الجنود حول اورشليم وهكذا عبَّر عنها الاباء القديسون ويؤيد لنا العقل مصداق ذلك . لان الرجاسة حسب عادة الكتاب تدلُّ على الصنم ومن ذا الذي يجهل ان الجنود الرومانية كانوا يحملون على الويتهم صور الهتهم وقياصرتهم الذين كانوا يتعبدونهم اكثر من كل الالهة . وقد كانت تلك الالوية موضوعاً تحملهم على عبادة ما عليها ولما كان دخول الاصنام الى الارض المقدسة محرَّماً بامر الله لم تدخل ثمة العلامات الرومانية ولهذا نرى في التاريخ ان الرومانيين طالما اعتبروا اليهود لم يسمحوا بادخال علاماتهم الى اليهودية ولذلك عند ما عبر ويتليوس هذه المقاطعة ليكر على العربية محارباً استناداً على رواية التاريخ كان يقود جنوده دون علامات لان الرومانيين كانوا يحترمون وقتئذٍ دين اليهود ولم يكن من رغبتهم ان يجشموا هذا الشعب ما يناقض دينهُ

اما في ابَّان حرب اليهودية فلم يبقَ الرومانيون يراعون شعباً عازمين على استئصاله وبناءً عليه كان يكتنف اورشليم وقت حصارها اصنامٌ توازي ما كان للرومانيين من العلامات ولم تبدُ رجاسةٌ بهذا القدر اذ لاينبغي ان تكون في الارض المقدسة وحول الهيكل

ويعترض على ذلك بان هل هذه العلامات العظيمة هي نفس ما وهب المسيح

تلاميذه وهل كان الوقت يمكنهم من الاركان الى الفرار لما اخذ تيخوس يحاصر اورشليم قافلاً ابوابها غير ممكنٍ لاحدٍ منها الخروج . فعلى هذا عينهِ تتوقف غرابة هذه النبوءة فان اورشليم حوصرت مرتين في ذاك الحين فقد حاصرها في بادىء الامر سيستيوس والي سوريا سنة ٦٨ بعد المسيح وحاصرها مرة ثانية تيخوس بعد ذلك باربع سنوات اي سنة اثنتين وسبعين ولم يعد في الحصار الاخير من وسيلة للفرار لان تيخوس اخذ يبذل الجهد في الحرب وباغت اليهود المتالبين في اورشليم وقت عيد الفصح ولم يكن لاحدٍ من وسيلةٍ الى النجاة . وقد احبطت المترسات التي اقامها حول المدينة امل الاهالي في الاركان الى الفرار بيدَ انه لم يرَ شيئًا من ذلك في حصار سيستوس فانه اقام عليه حصارًا في حيزٍ يبعد عن اورشليم ستة اميالٍ وكان عسكره يحيط بالمدينة غير منشىء لسبيل ذلك اخدودًا او مترسات بل كان يوءجج الحرب دون اعتناء ولبث على ذلك الى ان بارحته الفرصة من فتح المدينة فان الروع والمنازعات الداخلية وكثيرًا من حزب الرومانيين كانا ذريعة لافتتاحها فلم يكن في ذاك الابان ممرٌ لمن يحاول النجاة بل ان التاريخ يذكر صريحًا ان كثيرين من اليهود خرجوا من اورشليم . فكان اذ ذاك وقت الخروج والعلامة التي اعطاها ابن الله تلاميذه ولذلك قد ميز بكل صراحةٍ بين الحصارين فان المدينة تكون بالحصار الاول محاطةً بالجنود فقط ولا تكون محاصرةً حقًا فيكون للذين في اليهودية ذريعةٌ الى الفرار الى الجبال وتكون بالحصار الاخير محاطة بمترسات واخاديد فيكون القضاء على الذين داخلها بالهلاك

فامتثل المسيحيون كلام سيدهم وان يكن فيلقٌ كبيرٌ منهم في اورشليم واليهودية فلم نعثر بتاريخ يوسيفوس او سواه على أن شيئًا من ذلك العدد كان لدن افتتاحها وعكس ذلك ان المسيحيين لجئوا الى مدينة بيلا في الجبال الدانية من القفار على حدود اليهودية والعربية وذلك كلهُ مقررٌ في تاريخ الكنيسة وكل ما نقله الينا الآباء الاقدمون

ومن ذلك يمكن ان نستنتج كم من مرة احتذر المسيحيون بنوعٍ صريحٍ اذ لاشيء اهم من انفصال اليهود الذين لم يوءمنوا بالمسيح من الذين امنوا بهِ فان منهم من قطن في اورشليم ليعاقب عن اثمهِ ومنهم من نزح من المدينة كما نزح لوط من صادوم ولجئوا الى مدينة حقيرة ومنها كانوا يراعون وهم في روعٍ وهولٍ كل مفاعيل غضب الرب واحكامه التي شاء ان ينقذهم منها

وقد يوجد عدا نبوات المسيح نبوات تلاميذه منها نبوات القديسين بطرس وبولس وذلك لان اليهود لما كانوا يبرحونهما بالعذاب الاليم وهما شاهدان ليسوع المسيح المنبعث من الاموات انذراهم اذ سلموهما للامم بدثارهم القريب وقالا ان اورشليم لابدّ من ان تتقوّض من الاساس وان اهلها يهلكون جوعاً وقنوطاً وينفون من ارض آبائهم نفياً موبداً ويمسون متشعثين في كل المسكونة كالاسرى ولذلك اجلّ قريب المأتى فهذه المصائب برمتها سوف تحل عليهم لانهم هزئوا بابن الله وامتهنوه بعد ان بدا لديهم بمعجزات عظيمة

فهذه النبوءة قد حفظها الآباء الاقدمون عن لسان الرسل وتمت حالاً بنوع صريح وقد فاه القديس بطرس بنبوءات كثيرة وهي اما ان تكون قد اوحيت اليه بنوع خاص او عند تعبيره كلام سيده فان فليغون احد مولفي الوثنيين قال حسب ما يشهد اوريجانوس ان كل ما فاه به هذا الرسول قد تم بكل دقة

وعلى هذا لم يكن يحدث شيء لليهود الأ تنبأ لهم عنه وتبدو لدينا علة مشقاتهم بحقارتهم ليسوع المسيح وتلاميذه لان ابان النعمة والرحمة جرى عليهما القضاء وكان قد ازف ابان الهلاك

فاصبح اذاً جدّ تبخوس في انقاذ اليهود والهيكل عبثاً فان الحكم عليهم كان قد صدر من العلاء فاصبحت حجارة البناء كالهباء المنثور

وان يكن احد الملوك الرومانيين قد جرب عبثاً ان يمنع دثار الهيكل فقد جرّب سواه عبثاً ايضاً ان ينهضه وقد فكر جوليانوس الجاحد الذي شرع ان يحارب ضد المسيح بان يكذب نبواته ولما قصد ان يقيم للمسيحيين اعداء الدّاء من كل ناحية تنازل وانهض ضدهم اليهود المرذولين من العالم وبعثهم على ان يقيموا هيكلهم وقدم لهم مبالغ عظيمة وعضدهم بكل قوة الدولة الرومانية . فاصغ الى هذا الحادث ياسيدي وانظر كيف الرب يرذل الملوك الجبابرة فهذا يشعرنا به جميع الآباء القديسين والمورخين الكنائسيين ويبينونه بآثار لا تزال من ازمانهم . واقتضى ان الوثنيين انفسهم يحققون ذلك لان اميانوس مارسيلينوس الوثني الدين والمدافع بغيرة عن جوليانوس ينبئنا عن عن هذا الحادث بقوله لما كان الييبوس يعضد والي الاقليم ويسرع بعمار البناء على قدر امكانه هبّ من الاساس كرات نارية وزعزعت اركان العمار بهزات قوية واحترق

الفعلة الذين آبوا الى اعمالهم وقد اصبح من المستحيل الدنو من ذلك المحل فنبذوا العمل

واما مؤرخوا الكنيسة فيوردون النبأ عن ذلك الحادث بدقة كبرى ويذكرون ان نار السماء خامرت وقتئذٍ نار الارض . وقصارى القول ان كلام المسيح اصبح ثابتاً وذلك ما حمل يوحنا الذهبي الفم على ان يقول ان الرب اقام على الصخرة بيعةً لا تتزعزع ودثار الهيكل ليس بوسع احدٍ انهاضه اي لا احد يمكن له ان يقوض ما اقامه الرب ولا احد يمكن له ان يقيم ما قوَّضه

ولندعنَّ الان اورشليم والهيكل ونرنونّ الى الشعب نفسه الذي كان آنفاً هيكل الرب الحي واصبح الآن عرضة لغضبة ومن المقرران اليهود اصبحوا اكثر سقوطاً من هيكلهم ومدينتهم لان روح الحق لم يبق بينهم وبطلت النبوءة وبرحت المواعيد التي كانوا يسندون عليها آمالهم ولم يبق شيء قائم في ذلك الشعب ولم يترك من البناء حجرٌ على حجر

وانظر الان كيف سلموا نفوسهم الى الضلال والى اية درجة اتصلوا فكان المسيح قد قال لهم : انا اتيت باسم ابي فلم تقبلوني وان اتى اخر باسم نفسه قبلتموه) فمنذ ذاك الحين استولى عليهم الفشل حتى انهم صاروا متأهبين ان يسلموا انفسهم لانه لم يكنهم ان الانبياء الكاذبة سلموا المدينة الى تيخوس فان اليهود واصل ابايهم من اليهودية طردُهم منها لان حبهم لاورشليم حمل كثيرين منهم على ان يتخذوا مثاوىء في رسومها العافية . وهاك مسيحاً اخر دجالاً ياتي ويتم خرابهم لانه بعد ان مضى على افتتاح اورشليم خمسون سنة شرع برخوخيباس المرذول اللص المجرم يقول في الجيل نفسه الذي مات فيه مخلصنا انه كوكب يعقوب المذكور في سفر العدد لان معنى اسمهِ ابن كوكب وتقدم لليهود كانه المسيح فقفا اثره اكيباس اشهر الربانيين وكل الذين يدعوهم اليهود حكماءهم ودخلوا في حزب هذا الرجل دون ان يبت لديهم علامة تدلُّ على بعثهِ . غير ان اكيباس كان يقول لهم ان المسيح لا يلبث الا ان يبدو وقام اليهود من كل الدولة الرومانية وانحازوا الى برخوخيباس الذي كان يعدهم بملك العالم فقتل ادريانوس منهم نحواً من ستماية الف ووضع على عواتقهم نير العبودية ونفاهم من اليهودية نفياً موءبداً ومن ذا الذي لا يدري ان روح الكذب قد استولى على قلوبهم فانهم لم يقبلوا محبة الحق

والخلاص ولذلك يبعث اليهم الله بعمل الضلال حتى يصدقوا الكذب فمهما كان الغش فانه كان كافياً لخداعهم فقال في هذه الايام احد منافقي الشرق عن نفسه انه المسيح فاخذ اليهود يجتمعون حوله وشهدناهم في ايطاليا وهولاندا والمانيا وماس يتأهبون ليبيعوا امتعتهم ويتركوا كل شيءٍ ويتبعوه وفكروا حالاً انهم مزمعون ان يستولوا على العالم لما بلغهم ان مسيحهم أسلم وترك دين موسى

الفصل الثالث والعشرون

في ضلال اليهود التابع لما انف وكيفية تعبيرهم عن الانبياء

لانعجب من سقوط اليهود في هذه الغرق ولامن تشعيثهم في هذه العاصفه بعد ان جنفوا عن طريقهم فهذهِ الطريق كانت قد رسمت لهم في النبوءات ولاسيما في النبوءات التي كانت توعز الى وقت ماتي المسيح فنبذوا هذا الان يمرُّ دون نتيجة ولهذا تراهم وقتئذ جانحين الى الافك مزورين عن الطريق

ايذن لي هنيهة كي ارفع لديك تسلسل غربهم وكل كدحهم في ولوج العمق وان الطريق التي يضلُّ بها تتصل بالطريق العظمى واذا اعتبرنا ذلك من حيث ابتداء الضلال امكن لنا السعي في الطريق المستقيمة بكل تاكيد

فقد راينا ياسيدي ان قد يوجد نبوءتان تبينان لليهود وقت ماتي المسيح وهما نبوءة يعقوب ونبوءة دانيال وكلتاهما تشير الى آثار مملكة يهوذا في وقت جيئة المسيح الآ ان دانيال يبين ان دثار هذه المملكة التام سوف يكون ناتجاً عن موت المسيح وقال يعقوب بنوع صريح ان المسيح الذي يكون رجاء للام اي مخلصاً لهم ياتي وقت سقوط ملك يهوذا ويقيم له مملكة جديدة لاتكون موءلفة من شعب واحد بل من كل شعوب الارض وان كلام هذه النبوءة لايمكن ان يخرج لغير معنىً وينتج تعبيره من تقليد اليهود الثابت بهذا الخصوص

ومن ذلك ينجم الاعتقاد الذائع بين الربانيين الاقدمين والمذكور ايضاً في التلمود وهو انه في الوقت الذي ياتي فيه المسيح يبطل وجود القضاة اي انه لاشيءَ اهم عندهم لمعرفة مجيء المسيح من ملاحظة وقت سقوطهم في هذه الحالة التعيسة التي ذكرناها

وحقيقة الامران بداءتهم كانت حسنة. ولو لم تكن افكارهم منهمكة بالعظمة الدنوية لما كان امكن لهم ان يجهلوا المسيح الذي كانوا يخالونه بسلطة كهذه حتى يشتركوا بملكه فالركن الذي وضعوه كان مقررًا حالاً عندما جار هيرودس الاول وحدوث التغيير في حالة مملكة اليهود ابان لهم وقت سقوطهم المرسوم في النبوات فلم يكن عندهم من ريب في مجيء المسيح وفي ظهور هذه المملكة الجديدة لانه كان مزمعًا ان تتحد فيها كل الامم ومما تقرر لديهم صريحًا ان قد نزع منهم كل سلطان بالموت والحيوة وهذا كان لديهم تغيرًا عظيمًا لانه قد كان محفوظًا لهم دائمًا الى غاية ذاك الحين مهما كان السلطان الذي رضخوا له حتى انهم في بابل في اثناء اسبائهم لم يبرحوا مستولين عليه ومما يبين ذلك تاريخ سوسان. وهذا كان تقليدًا ثابتًا عندهم وقد نبذ ملوك فارس الذين اتوهم الى اوطانهم هذا السلطان بموجب اوامر خاصة قد لاحظناها في محلها وقد ذكرنا ايضًا ان الملوك السلوسيدين قد ضاعفوا هذا التمييز وما انقصوه ولا حاجة هنا لنذكر ثانيةً ملك المكابيين لان اليهود قد عتقوا واصبحوا اشداء ورهبة في قلوب اعدائهم وقد اكتفى بومبايوس الذي اوهنهم كما ذكر آنفًا ان يفرض عليهم جزية ويجعلهم بحالة تمكن الشعب الروماني ان يتصرف فيهم لدى الاقتضاء كما يشاء. ولذلك قد ترك لهم ملكهم وابقى له كل سلطته ومن البين ايضًا لدى الجميع ان الرومانيين كانوا يتصرفون هكذا وكانوا لا يمسون الحكومة الداخلية في البلاد التي كانوا يتركون فيها ملوكها الوطنية

وغاية الامران اليهود انفسهم يذعنون انهم فقدوا هذا السلطان بالموت والحيوة اربعين عامًا فقط قبل دثار الهيكل الاخير ولا ريب ان هيرودس هو اول من اضرَّ بحريتهم رجاء ان ينتقم من مجلس السندارن لانه اضطرَّ هو نفسه ان يتحاكم فيه قبل ان يصير ملكًا. ثم لكي يجمع اليهِ كل سلطة اخذ يقوض هذه الجمعية التي كانت كجمعية المشايخ المنشئة من موسى وكمجلس مشورة الشعب الدائم اذ كان يجري السلطان العالي. فمن ثمَّ فقد هذا المجلس رويدًا سلطانه حتى انه اضاعه تقريبًا عند مجيء المسيح الى العالم فصارت الاحوال سيئة جدًا في عهد اولاد هيرودوس لما صارت مملكة اركيلاوس التي كانت حاضرتها اورشليم تحت ولاية معتمدين من قبل ملوك رومية. وفي هذه الحال السيئة لم يبق لليهود ادنى سلطان في الموت والحيوة حتى انهم اضطروا الى ان يلتجئوا الى بيلاطوس ليميتوا يسوع المسيح الذي كانوا يرغبون في موته في اية حالة كانت ولما

اوعز اليهم هذا الوالي الواهن ان يقتلوهُ هم انفسهم اجابوهُ بصوت واحدٍ لا يسوغ ان نميت احداً

ولهذا قتلوا يعقوب اخا يوحنا بوساطة هيرودوس والقوا ايضاً القديس بطرس في السجن . ولما ازمعوا على موت القديس بولس اسلموه للرومانيين كما صنعوا بيسوع المسيح . واما نذر ذوي الغيرة الكاذبة (اي الذين آلوا على نفوسهم ان لا ياكلوا ولا يشربوا حتى يقتلوا الرسول) فيدلُّ على انهم كانوا موقنين بهبوط سلطانهم ليقتلوه شرعاً وان يكونوا قد رجموا القديس اسطفانوس بالحجارة فذلك كان ناجماً عن ثورةٍ لم يمكن للرومانيين التمكن من ردعها لان الموجبين تلك الثورات كانوا من المدعوين بذوي الغيرة

وبناءً عليهِ اصبح من الشؤون المثبتة من المؤرخين ومن اقرار اليهود واحوالهم ان نحو وقت مأتى المسيح ولاسيما لما شرع يبشر بانجيلهِ كان اليهود قد فقدوا السلطة الزمنية وما امكن لهم ان يشاهدوا فقد هذا السلطان الا يتذكرون نبوة يعقوب التي كانت تنذرهم ان في زمان المسيح لا يبقى بينهم سلطةٌ ولا قضاة ولا سلطان . وقد لاحظ احد مؤرخيهم الاقدمين هذا الامر واقرَّ ان الصولجان قد خرج من يهوذا ولم تبقَ السلطة بايدي مشائخ الشعب لان السلطان العام نزع منهم وهبط مجلس السنداران ولم يستمر اعضاؤه يعتبرون كقضاة بل كمعلمين وهكذا قد حان الان حسب اعتقادهم لمجيء المسيح . وبما انهم كانوا يشاهدون هذه العلامات المقررة لمأتى المسيح الملك الجديد الذي يتلألأ ملكه فوق سائر الامم فكروا بالحقيقة انه مزمعٌ ان ياتي فشاع النبأ عنه في البلدان الدانية واكدوا في الشرق كله ان سوف يخرج من اليهودية من يملك الارض عن قريب . وذكر تاسيت وسياتون هذه الاشاعة المستندة على آراء مقررة ونبوة قديمة في كتب اليهود المقدسة وذكر يوسيفوس هذه النبوة بالحرف الواحد وقال ايضاً مثلهم انها في الكتب المقدسة ولا ريب ان اعتبار هذه الكتب كان عظيماً جداً في الشرق لان قد شوهد مراراً عديدة ان ما تنبأوا به كان قد تم بانواعٍ مختلفة وظروف متباينة وان اليهود كانوا متيقظين اكثر من غيرهم ليراعوا هذه الحوادث التي كتبت لتعليمهم ولهذا قد عرفوا زمان ماتى المسيح الذي اوعز اليهِ يعقوب وحده بسقوطهم وهكذا ملاحظاتهم بشان حالتهم كانت موقعة ولم يزهقوا بزمان ماتى المسيح بل

عرفوا انه مزمع ان ياتي في الوقت الذي اتي به بالحقيقة . ولكن يا للعجب من ضعف البشر وتكبرهم اللذين سببا جهلهم الفظيع . فاخفى تواضع المخلص عن هؤلاء المتكبرين العظمة الحقة التي كان يلزمهم ان يجدوها في المسيح بل انهم كانوا يرغبون في ان يكون ملكًا كملوك الارض ولهذا قال مداهنوا هيرودس الاول انه هو نفسه الملك الموعود به لليهود لانهم كانوا في دهشة من عظمة هذا الملك وفخره لانه اغنى اليهودية ولو كان جائرًا وهذا ايضًا مما سبب بدعة الهيرودبين المذكورة في الانجيل مرارًا وعند الوثنيين انفسهم لان الشاعر برسس وشارح اشعاره يخبراننا ان الاناس كانوا يحتفلون في اليهودية ميلاد هيرودس الملك كما كانوا يحتفلون نهار السبت وذلك كان في زمان نيرون ايضًا

وقد سقط في هذا الخطاء عينه ايضًا يوسيفوس المؤرخ فان هذا الرجل العالم بالنبوءات كما يقول عن نفسه اذ كان كاهنًا ومن اخلاف الكهنة انه درى بمجيء هذا الملك الموعود به يعقوب وان ذاك المجي كان يقارن لوقت هيرودس لانه يبين لنا بكل اعتناء دثار اليهود البين ولكن بما انه لم يرَ في امتهِ شيئًا يوافق افكارهُ ذات المطامع كما ظنَّ في المسيح اخر وقت النبوة ونماها لوبسبازيانوس مؤكدًا ان هذه النبوءة تدل على هذا الملك الذي صار امبراطورًا في اليهودية .

وعلى ذلك كان يعاكس معنى الكتاب الاقدس ليوطد دهانة فيالهُ من اعمه البصيرة فقد ودَّ ان ينقل أمل يعقوب ويهوذا الى الامم ويطلب يوسبازيانوس ابن ابراهيم وداود ويبني لملك وثني من هو مزمع ان ينير العالم وينقذهم من الاصنام

وكانت ظروف الزمان تقوم بناصره ولكن بينما كان يبني يوسبازيانوس ما قاله يعقوب عن المسيح كان ذوو الغيرة الذائبون عن اورشليم ينسبون ذلك اليهم وبالتوكؤ على هذا المبدأ وحده كانوا يعدون نفوسهم بملك العالم ويؤيد ذلك يوسيفوس وبهذا كانوا ارصن منهُ لانهم كانوا لم يحالوا امتهم قصد ان يطلبوا تميم المواعيد التي اعطي اباءهم اياها

فلماذا لم يفتحوا عيونهم عند سماعهم هذه الاشاعة العظمى التي كانت تقرع اذانهم لما شرع الرسل ينذرون الامم بالانجيل ويشيدون ملك المسيح في كل الارض

وايةُ مملكةٍ اعزُّ من هذه المملكة فانها تقبض على زمام التقوى وينتصر بها الحق

على الاصنام ويبشر بها بالحيوة الازلية للامم الضليلة وان مملكة القياصرة لم تكن سوى زهاء باطل بالنسبة لهذه المملكة الحقيقية . بيد انه لم يكن لهذا الملك الزهو الكافي لدى اعين العالم .

فيجب على المرء ان يقصي عنه الافتخار البشري ليعرف المسيح . ومن الثابت ان اليهود كانوا يعرفون الزمن ويرون الشعوب المدعوين لاله ابراهيم يسوع المسيح وتلاميذه حسب نبوة يعقوب ومع ذلك لم يعرفوا هذا المسيح المعلن لهم بجميع الادلة ولو انه ثبت ارساليته في مدة حياته وبعد موته بكل انواع العجائب فجحده هولاء العميان لانه لم يبدُ بهِ الاَّ العظمة العارية عن كل الظواهر التي توثر في الحواس ولانه كان آتيا لقمع مطامعهم لا للقيام بناصرها .

ومع ذلك كانت الظروف والحوادث تقسرهم على ان يحالوا احيانا اوهامهم قسرًا عن عمه قلوبهم . وكانت الاشياء تعد بظهور المسيح في وقت السيد له العزة حتى انهم فكروا ان يوحنا المعمدان يكون هو المسيح لانه ادهشهم بعيشته القشفة والخارقة العادة والعجيبة وبدا انهم اكتفوا بزهو هذه الحيوة العجيبة لانهم لم يجدوا عظمة العالم كلما كانوا يطلبون واما حيوة المسيح البسيطة والاعتيادية فكانت تجعل هذه العقول الساذجة والمتزاهية تانف منه لانهم لم يكونوا يتاثرون الاّ مما يوثر في حواسهم . وخلا ذلك فبما انهم كانوا قاصين عن كل ما يؤول الى ارتدادهم الحقيقي لم يشاؤوا ان يتعجبوا الاّ مما يعتبرونه امرًا لا يقتدى به . وبناء عليه لم يثقوا بيوحنا المعمدان الذي فكروا ان يكون مستاهلاً ان يكون المسيح لما هداهم الى المسيح الحقيقي . واما المسيح الحق الذي كان يقسرهم على اقتفاء اثره عند وثوقهم به بدا لديهم دنيئا جدًا لدن تسننهم به

وبناء على ذاك التصور الذي قام باعباته اليهود لدى بدو المسيح في تلك الاثناء كان عزيزًا جدًا حتى ان ذلك استمر فيما بينهم اكثر من عصرٍ فخالوا ان نتمة النبوءات لابدَّ لها من سعة . ولا يقتضي ان تكون محصورة في معنى مقرر ولذلك لم يكن يفوه بينهم مدة نحو من ماية سنة الاَّ عن المسيحيين الافاكين الذين كان القوم يقفونهم او عن الانبياء الافاكة الذين كانوا ينذرونهم . ولم يرَ شيء يضاهي ذلك في الاجيال الماضية ولم يغالي اليهود باستعمال اسم المسيح الى وقت أن كان يهوذا المكابي يفوز بالظالم بظفرٍ عظيم او وقت كان اخوه سمعان يعتقهم من نير عبودية الامم او وقت أن كان

هيركان الاول بفتح البلاد مقدارًا عظيما لان الوقت وهذه الادلة لم تكن بموافقة واخذوا في وقت المسيح يتكلمون عن كل هؤلاء المسحاء واما السامريون الذين كانوا يطالعون في خمسة اسفار موسى نبوة يعقوب تخذوا لهم كاليهود مسحاء لانه بعد ان تقادم على ماتى المسيح زمنٌ قصير اقتفوا اثر المبتدع دوزبته

وسيمون الساحر الذي هو من تلك البلاد كان يزعم ايضًا انه ابن الله وكان يدعي تلميذه مناندر انه مخلص العالم وكانت الامرأة السامرية تعتقد منذ ايام يسوع المسيح انه سوف ياتي لانه كان مقررًا لدى الشعب وكل من يقرأ نبوة يعقوب ان المسيح مزمعٌ ان يبدو لدى احوالٍ كتلك

ولما مضى الزمن وشقّ عليهم ان ينتظروا امرًا عرف اليهود بالاختبار ان المسحاء طرًا الذين تباينوا لم يكن منهم الّا ينقذوهم فقط من مشاقهم بل انهم ثقلوا عليهم فطال عليهم الزمن حينئذٍ دون ان يبدو بينهم مسحاء حديثًا . واما برخوخيباس فهو آخر من اقروا بارساليتهِ في بداءة الاعصار المسيحية الّا ان التاثير القديم لم يبرح تمامًا وبدلاً من ان يعتقدوا بظهور المسيح كما فعلوا في ايام الملك ادريانوس اخذوا يتفوهون في عهد خلفائهِ الانطونيين ان المسيح بارزٌ في العالم لكنهُ لم يبدُ للعيان لانه منتظرٌ اليا النبي ليكرسه وذاك القول كان ذائعًا بينهم في ايام جوستنيانوس . وقد نرى في التلمود تعليمًا آخر اقترحهُ اقدم علمائهم فانه يقول ان المسيح قد اتى حسبما قال الانبيا لكنهُ متوارٍ في رومية بين المتكدين ذوي المسكنة

بيدَ ان هذا الوهم لم يجز لدى العقول قبولاً وقد التزم اليهود ان يقروا ان المسيح لم يأتِ في الوقت الذي كان يحق لهم ان ينتظروهُ فيهِ حسب النبوات القديمة فهبطوا الى لجة اخرى واوشكوا ان يقنطوا من ماتاه لتقادم الزمن على وقتهِ وقد اقتفى الكثير منهم قول احد الربانيين المشهورين المحفوظ في التلمود فانه لما راى أنّ الوقت قد مضى قضى على ان الاسرائيليين لم يعد لهم ان ينتظروا المسيح لانه قد بعث اليهم بمثال حزقيال الملك وحقيقة الامر ان هذا الراي لم يكن لدى اليهود سديدًا بل كان عندهم مكروهًا لكن . لما تعسر عليهم ان يعرفوا الاوقات التي عينتها الانبياء ولم يمكن لهم ان يتملصوا من حبالة تلك الورطة اعتمدوا تلك الالفاظ التي في التلمود وتخذوها كقاعدة لاعتقادهم وهي : ان كل اجلٍ معينٍ لماتى المسيح قد اصبح فارطًا وبناء عليهِ ان كل

من يعين زمن مجيئهِ يصبح ملعونًا ومثل ذلك مثل سفينةٍ ماخرة في اليم اجنفتها الريح عن تسيارها المستقيم فقنط الربان من سلامتها فيترك حينئذٍ الامور تجري في اعنتها ويدع التقادير تسري حسب هواها

ومنذ ذاك الحين امتطوا غارب الجهد ليلغوا النبوءات التي تعين وقت مجيء المسيح ولذلك لم تصفق وجوههم من ملاشاة تقليدات ابائهم وكل ذلك من دأبهم اذا استمروا على نزع هذه النبوءات من ايدي المسيحيين

وقد افضى بهم الامر الى ان قالوا ان مغزى نبوءة يعقوب ليس منوطًا بالمسيح واما كتبهم القديمة فتقيم على قولهم هذا نكيرًا فان التلمود يعزو هذه النبوءة للمسيح وشرحنا لمغزاها يطابق شرحهم الذي حاز لديهم اكثر اعتبارًا وذلك اننا نرى في تلك الكتب هذه الالفاظ نفسها وهي ان اخلاف يعقوب وكل شعب اسرائيل سوف ينحصر في بيت يهوذا ومملكة يهوذا ويخرج من هذا البيت قضاة ورؤساء الى ان ياتي المسيح ويصير مملكة جديدة مؤلفة من كل الشعوب

وذلك ما كان يشهد بهِ امام اليهود في بداءة الاجيال المسيحية اعلامهم الذين ذهب صيتهم بالشهرة والاعتبار فيما بينهم وعسر عليهم ان يلغوا بغتةً هذه التقليدات المقررة ولهذا لم يجترىء اليهود على ان ينكروا ان نبوءة يعقوب منوطة بالمسيح ولو كانوا قد انكروا انها تطابق لمأتاه ولم يركبوا متن تلك الجراءة الابعد ان مضى على ماتى المسيح زمنٌ طويل يوم كان المسيحيون يضيقون عليهم بالجدال وكانوا قد رأوا ان تقليداتهم نفسها تحدق بهم شزرًا

واما نبوءة دانيال فكانت تحصر مجي المسيح في حيز اربعماية وتسعين سنة منذ السنة العشرين لحكم ارتحشستا ذي اليد الطويلة

ولما كان هذا الحيز ينتهي في سنة اربعة الاف للعالم كان لليهود تقليد قديم وهو ان المسيح سوف يبدو نحو آخر سنة اربعة الآلاف للعالم ونحو الفين سنة بعد ابراهيم ودليل ذلك ان رجلاً عظيمًا شهيرًا لدى اليهود يدعى اليا غير اليا النبي علم ذلك قبل ميلاد المسيح ولم يبرح تعليمه محفوظًا في التلمود .

فقد رأيت ياسيدي ان هذا الاجل قد تم بمجيء مخلصنا لانه بدا بالحقيقة نحو الفين عامًا بعد ابراهيم واربعة الاف عامًا للعالم ومع هذا كله فلم يعرف به اليهود . ولما حبطت

اماهم زعموا ان آثامهم قد اخرت مجي المسيح الذي كان مزمعاً ان ياتي ومنطوق التاريخ مقرر بنفس اقرارهم فما اصفق اوجههم واجهلهم فانهم قد علقوا بارادة البشر حلول اجل عينة الرب صريحاً في نبوءة دانيال

ومن المشاكل التي تعرقل اليهود ان دانيال برئي ان وقت مجيء المسيح يكون قبل دثار اورشليم وبناء عليهِ فلما تم هذا الحادث الاخير اقتضي ان يكون الحادث المزمع ان يتقدمه قد تم ايضاً

فجنف يوسيفوس عن جادة الصواب وذلك قد حسب جيداً الاسابيع التي يتأتى بعدها دثار اورشليم ولما رأى حلول هذا الحين إذ اقام تيخوس الحصار حول اورشليم ذهب عنهُ الريب في حلول الوقت لدثار هذه المدينة بيد انه لم يعتبر ان هذا الدثار اقتضى ان يتقدمهُ مجيء المسيح وموته وبناء عليهِ لم يتفهم الاَّ نصف النبوءة

واما اليهود الذين عقبوه فارادوا ان يصلحوا هذا الخطا فاعتمدوا رجلاً من نسل هيرودس يدعى اغريبا كان الرومانيون قد اماتوه قبل دثار اورشليم بقليلٍ من الزمن وزعموا انه المسيح ولما علموا انه ملك ايقنوا انه المسيح المذكور في نبوءة دانيال النبي لكنَّ ذلك دليل عمه بصائرهم اذ من المحال ان يكون اغريبا هو الصديق وقدس القديسين وانتهاء النبوات كما كان مزمعاً ان يكون المسيح الذين تنبأ عنهُ دانيال وخلا ذلك فان موت اغريبا الذي كان اليهود ابرياء منه لايمكن ان يكون موت المسيح المذكور في دانيال. فبناء عليه ان ما يزعمون ليس سوى اقاصيص فارغة . فان اغريبا الذي هو من ذرية هيرودس لم يبرح ان يكون من حزب الرومانيين وقد نظر اليهِ ملوكهم بعين الرعاية والرفق ولذلك قد تولى الامرة زمناً مديداً في احدى مقاطعات اليهودية بعد افتتاح اورشليم كما يشهد بذلك يوسيفوس ومعاصروه

وعلى هذا ان كل ما يقترحهُ اليهود لبطلان هذه النبوءة بحول لخزيهم وهم انفسهم لايثقون بهذه التخيلات السمجة وان امتن مجنٍّ لدفعهم هو في المبدأ الذي اعتمدوه ان لا يحسبوا ايام المسيح وبهذا تعمش عيونهم عن الحق اختيارياً . وينكرون النبوات حيث الروح القدس نفسه قد حسب السنين ولكن في اثناء ما هم ينكرونها اصبحوا يتممونها ويبينون حقيقة منطوق هذه النبوات عن عمه قلوبهم وهبوطهم

فليعيبُنَّ على النبوات كل ما يشاؤون وقصارى الكلام ان دثارهم

الذي اوعزت اليه قد تمَّ في الوقت المعين والحوادث اقوى من كل تنفيرهم فانهُ لولم يأتِ المسيح في هذه الاحوال السيئة لكان الانبياء الذين يثقون بهم قد خانوهم وخادعوهم

الفصل الرابع والعشرون

في ظروفٍ ذات بال تمَّت وقت سقوط اليهود وفي تفاسيرهم الفاسدة

يقتضي ياسيدي ان تلاحظ امرين طرءا وقت هبوط اليهود ووقت مجيء المسيح وذلك لتتميم افحامهم . الامر الاول ان وراثة الكهنوت التي استمرَّت لابنةٍ منذ هارون قد انتهت وقتئذٍ والثاني ان التمييز في الاسباط والعيال المرعي الى ذاك الحين قد بطل حينئذٍ كما يقرون انفسهم .

وذلك لان هذا التمييز كان امرًا ضروريًا الى وقت مأتى المسيح اذ كان يقتضي ان يخرج من نسل لاوي خدمة للاواني المقدسة ومن نسل هارون الكهنة والاحبار ومن نسل يهوذا المسيح نفسهُ فلو كان هذا التمييز لم يلبث الى وقت دثار اورشليم ومأتى المسيح لكانت ذبائح اليهود الغيث قبل حينها وحبطت آمال داود وانحطَّ مجدهُ بان يدعى بابي المسيح لكن لما بدا المسيح شرع به الكهنوت الحديث حسب رتبة ملكيصادق وبدا الملك الجديد الذي ليس من هذا العالم فلم يكن حينئذٍ ينتسر الى هارون ولا الى لاوي ويهوذا وداود واخلافهم . ومن الثابت ان هارون لم يكن مقتضيًا في الوقت الذي تلغى فيه الذبائح حسب دانيال وكان داود وبيتهُ اتما ما فرض عليهما لما خرج منهما المسيح ابن الله وكان اليهود انفسهم جحدوا املهم مشوا في هذا الوقت عينه وارث العيال الذي دعوه الى غاية ذاك الايان بكل عناية واحترامٍ ديني .

وليس من دأبنا ان نضرب هنا صفحًا عن احد ادلة مجيء المسيح الذي هو اهم واخص لو ادركنا ذلك وان كان لدى اليهود موضوع العثرة والكراهية وهو مغفرة الآثام باسم مخلص متألم منخفض الجناح راضخٍ الى الموت وكان دانيال قد اوعز في الاسابيع الى هذه السبة السرية التي راعيناها حيث كان المسيح مزمعًا ان يقتل ويتقرر الميعاد بموته وتنفقد قوة الذبائح القديمة وان احرزنا نبوءة دانيال الى النبوءة اشعيا نرى ذاك المعنى نفسه لاننا سنرى انه رجل الاوجاع وحامل خطايا الشعب وقدم حياته لاجل الخطايا

وشفينا نحن بفرحهِ . فافتح عينيك ايها الجاحد وانظر اليس باسم يسوع المسيح المصلوب تُبشَّرُ بمغفرة خطاياك ومن ذا الذي فكر ابدًا بهذا السر ومن ذا غير المسيح من يزعم بمحو الخطايا بدمه وان كان متقدمًا عليه او متاخرًا هل اسلم ذاته عنوةً للصلب ليحصل على فخرٍ باطل ويتم هذه النبوة الهائلة فلذلك يلزمك الصمت وان تخرَّ متعبدًا لهذا التعليم السامي الذي هو في الانجيل اذ لا يمكن ان يخطر في فكر انسان لو لم يكن حقًا .

فارتباك اليهود من هذا القبيل عظيم جدًا لانهم يرون في كتبهم آياتٍ كثيرة توعز الى آلام المسيح ولكن كيف يتعبر عن الايات التي تشف عن مجده وانتصاره

فحل هذا المشكل هو ان يتصل الى الانتصار بالامتحان وينال المجد بالآلام لكن ما لا يتصدق هو ان اليهود لبثوا يعتقدون بمسيحاء وذلك لاننا نرى التلمود وكتبًا اخرى قديمة تضاهيهِ انهم ينتظرون مسيحًا معذَّبًا ومسيحًا ممجدًا الاول مات وقام من الموت والثاني لا يزال سعيدًا مغبوطًا مظفرًا الاول توافقه كل الآيات التي توعز الى الوهن والضعف والثاني تليق به الايات التي تشير الى الفخر والعظمة الاول ابن يوسف اذ لم يكن لهم ان ينكروا صفات يسوع المسيح والثاني ابن داود بيدَ انهم لم يشاؤوا ان يتفهموا ان المسيح ابن داود يقتضي له ان يجرع من الوادي قبل ان ينهض راسهُ اي يقتضي ان يتالم قبل ان يتظفر كما يقول هو نفسه : يا قليلي الفهم وبطيئي القلب في الايمان بكل ما نطقت بهِ الانبياء اما كان ينبغي للمسيح ان يتألم هذه الآلام ثم يدخل الى مجده

وفضلاً عن ذلك فاننا لو عزونا للمسيح هذه الاية حيث اشعيا يعرب لنا عن رجل الاوجاع مضروبًا كالابرص بخطايانا لكان ذلك باستنادنا على تقليد اليهود القديم والتقليدات الحديثة لانه قسرًا عن اوهامهم يرى في التلمود فصل يبين لنا ان هذا الابرص المثقل بخطايا الشعب هو المسيح نفسه لان اوجاع المسيح المسببة عن خطايانا مذكورة في الفصل هذا او في اسفار اليهود الاخرى ويذكر ايضًا مرارًا دخوله المجيد والمتواضع الى اورشليم راكبًا اتانًا وتنسب اليه نبوة زكريا المشهورة . فلاي امرٍ يتشكى منه اليهود فان كل شيء كان قد تصرح لديهم جليًا بانبيائهم لان تقليداتهم القديمة قد رعت الشرح الطبيعي لهذه النبوات المشهورة ولا شيء احق من هذا التثريب الذي كان يوبخهم به المخلص قائلاً . اذا كان المساء قلتم صحوٌ لان السماء محمرة كالحةٌ . افتعلمون ان تميزوا وجه السماء وعلامات الازمنة لا تستطيعون ان تعرفوها

فينتج من ذلك ان اليهود قد قضوا صوابًا اذ قالوا ان وقت ماتي المسيح قد عبر لان يهوذا لم تلبث مملكةً ولا شعبًا وان الشعوب الاخرى اذعنوا بالمسيح المزمع ان يرسل وان يسوع المسيح قد بدا لدى الامم وبهذه العلامة تقاطروا الى ال ابراهيم وامتدت بركة هذا الاب في كل الارض وانه بشر برجل الاوجاع وغفران الخطايا المعد بموته ومضت كل الاسابيع وتم خراب الهيكل والشعب عقابًا لموت يسوع الصديق ونهاية الامر ان قد ظهر المسيح بكل الصفات المعزوة اليه بتقليدات اليهود واحاديثهم ولم يبق لهم عذرٌ على عدم ايمانهم .

ولهذا نرى منذ ذاك الحين كل ادلة رذلهم التي لاريب فيها لانهم استمروا منذ زمان المسيح على ان يهبطوا من يوم الى اخر خائضين في لجة الجهل والشقا لايخرجهم من تلك الورطة الأشدّ مشاقهم وروعهم بتكاثر سقوطهم في الضلال وبالاحرى تنقذهم جودة الرب وحدها لما ياتي الوقت المعد بحكمته تعالى ليعاقبهم على جحدهم وبقمع تكبرهم ومع ذلك لم يزالوا سخرية لدى الامم وكراهيةً عندهم دون ان هذا الاسر الطويل يحملهم على ان يثوبوا الى نفوسهم ويتبصروا في حالتهم ولو كانت هذه الحالة كافيةً لان تقنعهم .

لانه قد يمكن لنا ان نخاطبهم بما فاه به القديس ايرونيموس وهو ماذا تنتظر يا ايها اليهوديُّ الضليل قد اقترفت من الجرائر كثيرًا في عهد القضاة وصيرتك عبادتك للاصنام عبدًا للامم المجاورة لكنما الرب رأفك ولم يبطوْ من ان يبعث اليك بمنقذيك فضاعفت للاوثان عبادتك في عهد الملوك واما الاثم الذي هويت به في ايام احاز ومنسى فلم يعاقبك الرب عليه الأ بالسباء سبعين عامًا فاتى حينئذٍ قورش واعاد اليك وطنك وهيكلك وذبائحك ثم بهظلك في زمان ويسبازيانوس وتيخوس ثم شعث شملك ادريانوس خمسين عامًا بعد ذلك ولقد مضى عليك اربعماية سنة وانت رازحٌ تحت اوقار العبودية . فذلك ما كان يقوله ايرونيموس فقد تعزز هذا البرهان لانه اضاف اليه الف وخمساية سنة على دثار اليهود فلنقل له اذًا بدلاً من الاربعماية عام ان من تسعة عشر جيلاً لم يبرح دثارهم وسباؤهم دون ان يتزحزح عن عواتقهم نير الاسترقاق . فماذا صنعت يا ايها الشعب الجاحد المتعبد لكل الشعوب وكل الملوك دون ان تؤدي للالهة الغريبة خدمة فكيف نسيك الرب الذي اصطفاك والى اين ذهبت رحمته

القديمة فاي اثم واية جريرة اعظم من عبادة الاوثان التي تنزل عليك عقابًا لايمكن لما ان غلصك منه انصمت لايمكن لك ان تدرك ما هي الجريرة التي نقصي عنك شفقة بارئك تذكر كلام ابائك القائلين فليكن دمهُ علينا وعلى اولادنا وايضًا ليس لنا ملك سوى قيصر . نعم ان المسيح لايصير لك ملكًا ارعَ جيدًا ما اصطفيته امكث عبدًا لقيصر وسائر الملوك حتى يدخل ملء الامم وبذلك يخلص كل اسرائيل

الفصل الخامس والعشرون

في بعض ملاحظات منوطة بارتداد الامم وعمق مقاصد الرب الذي اراد ان يردهم اليهِ بصليب يسوع المسيح وبرهانات مار بولس في كيفيَّة ارتدادهم على هذا النمط

ان ارتداد الامم كان امرًا ثانويًا يقتضي حدوثه في وقت مجيء المسيح ودليلاً صريحًا على ماتاه فقد نوهنا كيف تنبأ الانبياء عن ذلك وباية صراحةٍ كان ذلك وقد تحققت كل مواعيدهم في زمان المخلص ومن المقرران ذلك قد تم في حينهِ لاقبلاً ولا بعدًا وايضاحهُ ان اثني عشر صيادًا بعث بهم يسوع المسيح بعد ان شاهدوا نهوضهُ من الموت ليهدوا الامم وهذا العمل المأثور لم يستطعهُ الفلاسفة ولا الانبياء ولا الشعب اليهودي الذي كان تحت اكناف حماية الرب ومعتصمًا بناموسهِ وذلك لان ارتداد الامم لم يكن معرضًا لعمل الفلاسفة والانبياء بل كان منوطًا بالمسيح وهو ثمرة صليبهِ

وقصارى الامر ان المسيح ورسله اقتضى ان يخرجوا من اليهود وان بداءة انتشار الانجيل تكون من اورشليم وكما قال اشعيا . يكون في اخر الايام جبل بيت الرب مستعدًا في رؤوس الجبال وهذا هو البيعة المسيحية وتجتمع اليه شعوب كثيرة ويغالى الرب وحده في ذلك اليوم والاصنام تنسحق البتة

واما اشعياء الذي رأى كل تلك الامور فقد راى في الوقت نفسهِ ان الناموس الذي يقضي على الامم يخرج من صهيون وكلمة الرب المزمعة ان تصلح الشعوب تخرج من اورشليم وهذا ما بعث المخلص على ان يقول ان الخلاص من اليهود وقد كان من الموافق

ان النور الجديد المزمع ان ينير الامم الخائضة في عباب الجهالة يمتد في كل الامصار من المكان حيث كان لايبرح فيه الى غاية ذاك الحين . وقد كانت الامم مزمعة ان تتبارك وتتقدس بيسوع المسيح ابن داود وابرهيم وقد لاحظنا ذلك مرارًا جمة بيد اننا لم نلاحظ العلة التي بها كان يسوع متكبدًا غوائل الصلب والعذاب وحده منقذًا للامم وظاهرًا على الاصنام . ففسر لنا القديس بولس هذا السر العظيم في الفصل الاول من رسالته الى اهل قورنتية فمن الشؤون الخطيرة ان تتفهم هذا الكلام من اوله لانه قال لان المسيح لم يرسلني لاعمد بل لابشر لابحكمة الكلام لئلاّ يبطل صليب المسيح فان كلمة الهالكين جهالة واما عندنا نحن المخلَّصين فهي قوة الله لانه قد كتب سابيد حكمة الحكماء وارذل عقل العلماء فاين الحاكم واين الكاتب واين فاحص هذا الدهر اليس الله قد جهَّل حكمة هذا العالم . فلا ريبة في ذلك اذ لم يمكن للانسان ان يتملص من احبولة غرته فاذا كان العالم وهو في حكمة الله لم يعرف الله بالبرهان فقد يحسن لدى الله ان ينقذ الحكمة اي سر الصليب حيث الحكمة البشرية لايمكن لها ان تدرك شيئًا الا به ومن مآرب الحكمة الالهية العجيبة ان الله جعل الانسان في العالم حيث حكمة الخالق تبدو لديه كيف امال بصره بكل عظمتها وغناها ونظامها الكامل ومع ذلك لم يعرفه الانسان لان الخلائق التي كان يقتضي ان تستنهض افكارنا الى العلاء قد اوقفتها واصبح الانسان الاعمى عبدها بكل جهالة وخشونة ولم يكتفوان يعبد عمل الرب بل افضى به الامر الى ان عبد عمل يديه وقد كان دينه متوقفًا على اقاصيص ذات هزء وسخرية كالاقاصيص التي تتداولها الصبية الاحداث فجنف عن الجادة القويمة وجعله الرب ينساه بوجه اخر لان العمل الذي يؤول الى حكمته لم يؤثر فيه تاثيرًا

فعرض عليه عملٌ اخر حيث عقله لايحيط علمًا وتجاربه الفكروليس ذلك الا صليب يسوع المسيح ولايمكنه ان يدرك هذا السر بالبرهان بل باسر العقل تحت طاعة الايمان وهي قادرة على هدم الحصون فيهدم الاراء وكل علوٍّ يرتفع من معرفة الله

فماذا نفهم في هذا السر حيث اله المجد حاملٌ العار والحكمة الالهية تعامل معاملة الجنون وحيث ذاك الثابت بعظمته الطبيعية لكنه اخلى ذاته اخذًا صورة عبدٍ صائرًا في شبه البشر وموجودًا كبشر في الهيئة فوضع نفسه وصار يطيع حتى الموت موت الصليب . فمن ذلك تتبلبل افكارنا وحسب قول القديس بولس لاشيء اجهل من هذا الذي من لم

يكن منيراً من العلاء

فهاك الدواء الذي اعده الرب لشفاء داء عبادة الاصنام لانه كان يعرف عقل الانسان ويعلم انه لايلاشي بالبرهان الضلال الذي لم يكن البرهان وضعهُ واضاليل نسقط بها مبرهنين لان الانسان يرتبك احياناً بقياسهِ وبرهانه. اما عبادة الاوثان فقد تأتت من علّة مناقضة لتلك لانها طرأَت لدى ضعف الحكمة والقياس وتسلط الحواس التي كانت تودُّ او تجعل كل شيء من الصفات المتاثرة بها وبهذا قد اصبحت الالهية محسوسة مادية فكساها البشر هيئتهم واخجل من كل ذلك عيوبهم واهواءهم ولم يكن القياس له دخل في هذا الضلال المبين بل كان ذلك انقلاب الحكمة والصواب وتسلط الجنون والحمق فان داولت رجلاً معتوهاً بالقياس او امالته الحكمة عن خطة الصواب ثار هائجاً واستولى عليهِ الداء العياء فما عليك الان تعزز مزاجهُ وتكظم حنقهُ والخلق الذي يثير ذاك الثوران. وبناء على ذلك لايبرأُ جنون عبادة الاصنام بهِ فما الذي ناله الفلاسفة بخطبهم الفصيحة وانفاسهم السامية وبراهينهم السديدة فهل قوض افلاطون بفصاحتهِ المدعوة سماوية مذبحاً واحداً من مذابح هؤلاء الالهة الغريبة التي كانوا يعبدونها بل كان ذلك بعكس الامر فانه اقام هو وتلامذته وكل حكماء الجيل مذابح للافك وزاغت عن المحجة افكارهم واظلمت قلوبهم التي لاتفقهُ انهم اصبحوا جهالاً بعد القول عنهم انهم حكماء لانهم عبدوا الخلائق قسراً عن انوار عقولهم الطبيعية

افلا يحق لبولس الرسول ان يهتف باية اخرى قائلاً: اين الحكماء واين المكاتب واين فاحص هذا الدهر اليس الله هو الذي جهَّل حكمة هذا العالم.

وهل امكن لهم ان يلغوا خرافات الوثنيين وهل فكروا ان قد ترتب عليهم ان يعارضوا علناً كل التجديف وقصارى الامر ان يتجشموا الاعنات بل على الاقل الاهانة لتثبيت الحق ومع هذا فلم يقوموا بعبء ذلك بل انهم كتموا حق الله وتخذوه مبدأً يقتفونه وذلك انهم يقتدون بالشعب بالاشياء الدينية. ومن المقرر ان هذا الشعب الذي كانوا يانفون منهُ اصبح متقدماً عليهم في امور خطيرة هي مسائل الدين اذ كان يبدي غاية الافتقار لكل نورهم.

فما اجدى بك ايتها الفلسفة الم يقل الرسول ان الله يظهر جهالة حكمة هذا العالم ويبيد حكمة الحكماء ويرذل فهم الفهماء

وعلى هذا قد ابان الرب بالاختبار ان انقضاء عبادة الاصنام لايتم بالبرهان البشري ولم يستند عليه بشفاء هذا الداء بل انه قد اتم ترذيله بسر الصليب وقد عالج في الوقت نفسه الداء فنجع به الدواء فاستأصل علته .

فلو سرحنا طرف الطرف في عبادة الاوثان لرأيناها ناجمة عن تعلقنا بذواتنا وذلك ما بعثنا على ان تخيرلنا الهة تضاهينا ليست سوى بشر قد تعرضوا للشهوات والوهن والمعائب وقد كان الامم يعبدون افكارهم ولذائذهم واهواءهم بهيئة الالهة الافاكة

اما يسوع المسيح فقد اولجنا في طريق جديد لان فاقته وعاره وصليبه تجعله طرًا مكروهًا لدى حواسنا وان افضى بنا الامر الى اتباعه اقتضى ان نجالي نفوسنا وننبذ كل امر ظهريًا ونصلب لاجله كل شيء ومتى تعرى المرء من كل ما يميله اليه فساده يصير اهلاً لان يعبد الرب وحقيقته الازلية المزمع حينئذٍ ان يفوكل فروضها

فاذن ذلك تباد كل الاصنام والاوثان التي كانوا يتعبدونها على المذابح والتي كانوا يسرونها في خزائن القلوب لان هذه قد اقامت تلك

ولقد كانوا يؤدون العبادة للزهراء لان غرام الحواس كان مستوليًا على الانسان الذي كان يود سلطانه

واقيم لباخوس مذابح لانه اله السرور وكان الانسان يطوح نفسه الى ملذات الحواس ويقدم لها الذبائح لانها كانت لديه لذيذة اكثر من معاقرة الخمر . فاتى المسيح بسر صليبه يرسخ في القلوب محبة الآلام بدلاً من محبة اللذائذ فتبددت حينئذٍ الاصنام التي كانوا يتعبدونها خارجًا لان التي كانوا يؤدون لها العبادة داخلاً لم يبق لها من وجود لان ذوي القلوب النقية يعاينون الله كما يقول المسيح نفسه .

ولم يبق الله يكدح في ان يجعل الالهة تضاهيه بل قد اصبح يجهد نفسه في ان يكون مضاهيًا لله بمقدار ما يسمح له الضعف البشري

ان سر يسوع المسيح قد ابان لنا كيف يمكن للالوهية ان تلبس ضعفنا وتتحد بطبعنا دون ان تنحط لان الكلمة قد تجسدت والذي كانت به صورة الله وطبيعته قد تلبس بصورة العبد دون ان يفقد ما كان له لانه غير قابل التغير في ذاته فاتحد بطبع آخر اناطه به

فيا ايها الانسان قد رغبت في ان الالهة تكون مثلك بشرًا مفسودًا فما انت

بذلك الاَّ ذو عمىً مبين فالان تعرض لديك عبادة جديدة هي عبادة اله وانسان معًا . وبالاحرى انسان لايفقد شيئًا مما كان له باتخاذه ما هو لنا فالالوهية لايعروها تغيير ولاتميل عن جلالتها وليس بوسعها الاَّ ان ترفع ما اتحد بها

لكن ماذا الذي يكون الرب قد اخذ منا اعيوبنا و وصماتنا جل شانه عن ذلك فانه لم ياخذ من الانسان سوى ما صنعهُ . ومن المقرر انه لم يصنع فيه الوصمات او العيوب بل صنع فيه الطبع فهاك ما اخذهُ ويمكن لنا ان نفوه قائلين ان صنع الميتوتة وما يصحبها من الوهن احق عقاب على الخطيئة وان لم يكن ذلك في البدء من مآرب العلي . وبناء عليه نحسب اعمال الله العادلة ولذلك لم يتأخر عزَّ شأنه عن اخذها وبما انه تخذ عقاب الخطيئة لاالخطيئة ابدى انه الصديق الذي بقي سواه وصماته لاالجرم الذي يستحق النصاص

وبناء عليه بدت كل الفضائل في اله موءنس بدلاً من الرذائل التى كان البشر يعزونها الى المتهم ولكي يبدو ذلك في الامتحان الاخير بدت فيه العذابات المبرحة فلا نطلب اذاً الهًا اخر محسوسًا سواه لانه وحده قادر ان يبيد كل الاصنام وعلى صليبه بلوح الظفر للزمع ان يتدرج اليه

ومغزى ذلك ان الانتصار معلق على جهل باد لان اليهود كما يقول القديس بولس : اليهود يطلبون الايات التي بها يزعزع الله بشدة كل الطبيعة كما صنع لدى خروجهم من مصر ليجعلهم بنوع باد ظاهرين على كل اعدائهم واليونانيون يطلبون الحكمة اي خطبًا منظمة على نسق خطب افلاطون وسوقراط فاما نحن فنكرز بالمسيح مصلوبًا شكًا لليهود وجهالة عند الامم لاباايات وحكمة واما للمدعوين من اليهود واليونانيين فالمسيح قوة الله وحكمة الله لان مستجهل الله احكم من الناس ومستضعف الله اقوى من الناس .

فهاك الضربة الاخيرة التي كان يقتضي ان يصوبها علينا عقابًا لتكبرنا وجهلنا الفظيع لان الحكمة التى نقاد بها قد عزت سموًّا حتى انها اصبحت تبدو لدينا غواية وجهالة لدى حكمتنا ونظامها سام حتى انه اصبح يبدو لدينا ضلالاً

لكن وان كانت هذه الحكمة الالهية لاتدركها بصائرنا تبدو لدينا مفاعيلها لان الصليب قد خرجت منهُ قوةٌ بددت كل الاصنام وقد شاهدنا هبوط ذلك على

الارض قسرًا عن السلطة الرومانية التي كانت تقوم بناصرها ولم يقم باعباء هذه الآيات العظيمة حكماء او شرفاء او اعزاء هذا العالم .

بل ان عمل الرب قد سرى حسب مجراه لان ما كان قد بدا بعار المسيح قد تمَّ بذل تلاميذه وعارهم وهاك ما قاله القديس بولس في رسالته الى اهل قورنثية انظروا دعوتكم ايها الاخوة انه ليس كثيرون حكماء بحسب الجسد ولا كثيرون اقوياء ولا كثيرون شرفاء بل اختار الله الجاهل من العالم ليخزي الحكماء واختار الله الضعيف من العالم ليخزي القوي واختار الله الخسيس من العالم والحقير وغير الموجود ليعدم الموجود لكي لا يفتخر ذو جسدٍ امامهُ

ان الرسل والتلاميذ كانوا من احقر العالم وانهم كانوا كانهم ليسوا بموجودين ان نظرنا اليهم باعينٍ بشرية بيد انهم كانوا يظهرون على الملوك والمملكة الرومانية وكان البشر قد نسوا تكوين الخليقة فجدده الله لما ابرز من العدم بيعتهُ التي اتاح لها قوةً عظيمة ضد كل ضلال ورذل مع الاصنام عظمة البشر التي كانت مجنًّا يدافع عنها وصنع هذا العمل العظيم بقوة كلمته كما صنع العالم كله

الفصل السادس والعشرون

في انواع عبادة الاصنام المتنوعة وفي ان الحواس والصوالح والجهل واحترام الآثار القديمة الباطل والسياسة والفلسفة والبدع اخذت بناصرها فظهرت البيعة على كل ذلك

ان عبادة الاوثان تبدو لدينا واهنة بذاتها ويتعسر علينا ادراك القوة التي اقتضت لتسقط وعكس ذلك ان هذه الحماقة عينها تبين كل الصعوبة لردعها لان هذا الانقلاب العظيم الذي طرأ على الحس المشترك يدل على الفساد العميق الذي صار في اصل الفطرة لان العالم قد شاخ في عبادة الاوثان وبما انه كان مسبيًا باصنامه اصبح كاصم لا يسمع لصوت الطبيعة الهاتفة ضد هذه العبادة فكم من القوة كان يقتضي لتهبَّ بهم ذكرى معرفة الله الحق الذي كانوا قد ضربوا عليه حجاب النسيان وبزاولوا التواني

الذي كانوا يلازمونه

فان الحواس والشهوات اطرًا والاغراض النفسية تذب عن عبادة الاوثان لان هذه العبادة كان جل نشأتها للملذات فان الطرب والملاهي والفساد كانت تخامر الفرائض الدينية وكانت اعيادها تصرف بهرج ولم تكن مثابة للاجتماعات البشرية الّا يكون الاحتشام فيها منفيًا باكثر اعتناء مما كان في الاحتفالات الدينية فكيف يمكن ان تعتاد هذه العقول المفسودة على نظام الدين الحقيقي الطاهر المناقض للحواس ولم يكن له تعلق الّا بالخيرات غير المنظورة ولما كان بولس الرسول يناجي فيلكس والي اليهودية في البر والعفاف والدين المزمع ان يحدث استولت عليه الرعدة جزعًا وقال اما الان فاذهب ومتى سنحت لي الفرصة دعوتك لان هذا الخطاب كان عسرًا على رجل يود او يتمتع بالملذات دون وسوسة وباي وجه كان

اتريد ان تنظر الان كيف تحرك الفائدة اعظم تحرك للامور البشرية فاصغ الان لان فعلة الذين كانوا عائشين ببناء هياكل من فضة للالاهة ارطاميس في افسوس وقت سقوط عبادة الاوثان التي سببها وعظ القديس بطرس في اسيا ونهض اعظمهم وابان لهم ان مكسبهم لايلبث ان يزاولهم وقال لايخطر في بالنا ان يتلبك فقط علينا الامر بل هيكل ارطاميس الكبيرة ايضًا يحسب كانه غير مذكور و ياخذ بهاء تلك الهياكل كلها التي يسجدون لها في اسيا وكل المسكونة يتلاشى

فيا للفائدة من قوة عظيمة ويا لها من جراءة اذ يكون الاستناد على حجج دينية ولم يبق افتقار الى غير براهين لتهيج اولائك الفعلة فلما سمعوا ذلك امتلأوا غيظًا وطفقوا يصيحون ويقولون عظيمة ارطاميس الافسوسية واخذوا يجرون القديس بولس ورفقاءه الى المشهد حيث اجتماع الشعب وحينئذٍ ضوعف الصياح وفي اثناء ساعتين هتفوا قائلين عظيمة ارطاميس الافسوسية واصبح القديس بولس ورفقاوه يكادون لاينجون من ايدي الشعب لان العصاة شق عليهم انفاذهم حيث كانوا يرهبون ان يحدث بلبلة اعظم من ذلك وزد فائدة الكهنة المزمعين ان يسقطوا هم والمنهم على فائدة اولائك الذين لهم مصالح خاصة وعلى هذه زد مصالح المدن التي كان الدين الافاك يجعلها شهيرة كمدينة افسوس التي نالت امتيازًا عظيمًا بواسطة هيكلها واثرت بوساطة تقاطر الغرباء اليها وبناء عليه كانت الزوبعة التي ثارت على البيعة الجديدة عظيمة جدًا . ومن ذا الذي يتعجب

بعد هذا بان يرى الرسل مضروبين ومرجومين بالحجارة ومتروكين كالموتى وسط الشعب لكنها فائدة اعظم من تلك ازمعت ان تهيج اعظم واسطة هي فائدة الدولة التي تثير مجلس شيوخ الرومانيين والشعب والملوك ضد البيعة .

وكان يرى في زمان قديم اوامر في مجلس المشايخ تمنع الاديان الغريبة في الدولة والملوك ادخلوا في هذه السياسة عينها المداولة العظيمة .

لان الموضوع كان لتصليح المعائب التي دخلت في الحكم فمن القوانين الاساسية التي عرضها مساناس على اوغسطوس ان يمنع الاديان الحديثة التي كانت تسبب في الدولة بلابل فان هذا المبدا هو حقيقي لانه لايوجد شيء يهيج العقول باكثر شدة ويحملهم على ارتكاب الكبائر اكثر من المذاهب واما الله فقد شاء ان يبين ان تشييد الدين الحقيقي لايسبب هذه البلابل وذلك من المعجزات التي تبين ان الله هو الفاعل ذاك الصنيع لان الكل يتعجبون اذ يلاحظون انه في برهة ثلاثمائة سنة كاملة احتملت بها البيعة كل ما اقترحه غضب المضطهدين لعذابها لم يكن احد من المسيحيين ابرارًا واشرارًا متحزبًا ضد الملوك ولا منحازًا الى الثورات العديدة والحروب المدنية التي طرأت وقتئذ ويطالب المسيحيون من الدّ اعدائهم ان يسموا رجلاً واحدًا ولم يقم قط منهم احدٌ الى هذه الحروب لان التعليم المسيحي كان بوهل تابعيه الاحترام نحو السلطة الدينية لان كلمة المسيح كانت اثرت في العقول تاثيرًا عظيما بقولهم اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله

وهذا القول اتاح للعقول نورًا ساطعًا . ولهذا لم يبرح المسيحيون يحترمون صورة الرب في الملوك المضطهدين الحق وصفة هذا الخضوع تبدي في كل ما كتب لمدافعنهم محبة النظام العام ويلوح ايضًا ان المسيحيين لم ينتظروا تشييد الدين المسيحي الامن الله وهؤلاء البشر الذين هم على اهبة الموت ومنتشرون في كل انحاء المملكة والعساكر لم ينسوا نفوسهم ويثبوا مرة واحدة في كل هذه الاجيال التي تعذبوا فيها ولم يكونوا فقط يمنعون نفوسهم من التمرد والعصيان بل عن التذمر ايضًا لان يد الرب كانت في هذا العمل وليس سوى يده يمكن لها ان يحبس البشر الذين حملهم الجور واهاجهم على ان يتصلوا الى هذا الحد !

وبالحقيقة ان قد كان يشق عليهم ان يعاملوا كاعداء الدولة والملوك طالما لا يتمنون الا الخضوع ولا يطلبون الا انقاذ الملوك وسعادة الدولة ولكن كانت السياسة الرومانية

نظن ان اركانها تزعزعت لما كانت تشاهد انهم يحتقرون الهتها لان رومية تفتخر بانها مدينة مقدسة منذ تشييدها ومكرسة منذ البدء للعناية الالهية ومكرسة من موسسها لاله الحرب وكانت تخال ان المشتري يستمر حاضرًا في الكابيتول اكثر من الاولمبيك وكانت تعزو انتصاراتها الى الدين لانها بواسطة عبادتها قد ظهرت على الامم والهتها لانهم كانوا يفكرون هكذا وقتئذٍ حتى ان الالهة الرومانية كانت مزمعة ان تتسلط على سائر الالهة كما ان الرومانيين كانوا مستولين على سائر الامم . ولما قمعت رومية بلاد اليهودية حسبت اله اليهود بين الالهة المقموعة وبناء عليهِ فمن يشاء ان يوليه يكون يشاء هدم اركان الدولة ويانف من انتصارات الرومانيين وشوكة الشعب . وعلى هذا ان المسيحيين الذين كانوا اعداء الالهة كانوا يعدونهم في الوقت نفسه اعداء الدولة ولذلك كان الملوك يتهمكون في استئصالهم اكثر من البرتيين والمركومانيين والداسيين وكانوا يذكرون في تواريخهم دثار الدين المسيحي باكثر افتخار من قهر السرمانيين بيد ان افتخارهم باستئصال دين ذهب ادراج الرياح فانه كان ينمو من يوم الى اخر في ظلال السيف والنار وقد تالبت عليهِ النميمة والجور فكان ذلك عبثًا فانهم كانوا يتهمون اناسًا يفلحون بالفضيلة الفائقة بارتكاب رذائل تانف منها الطبيعة لانهم كانوا يتهمون بارتكاب الفحشاء مع الاقارب اولائك الذين لايلتذون الا بالعفة . وكانوا يتهمون المسيحيين باكل اولادهم وانهم هم الذين كانوا يحسنون الى مبغضيهم ولكن قسرًا عن هذا البغض العام كانت قوة الحقيقة تلزم اعداءهم ان يودوا لهم شهادة حسنة وليس احدٌ يجهل ما كتبهُ بلينوس الشاب الى تراجان الملك عن فضائل المسيحيين وبهذا بدت براءتهم ولكن لم يعفهم من العذاب والموت اذ كان يلزمهم بهذه المعاملة الاخيرة لتكملة صورة يسوع المصلوب فيهم لانهم كانوا مزمعين ان يذهبوا الى حيث يصلبون بموجب حكم جلي يقرر براءتهم

ان عبدة الاوثان لم تكن مصوبة كل قوتها بالعسف والجور بل كانت ترغب في بعض ادلة وان كان ركنها الجهالة وفساد الحس المشترك لانه كم من مرة جهدت في ان تخفي نفسها وكم قد تقنصت وتنقلت لتخفي عارها فاحيانًا كانت تتظاهر بالاحترام نحو الالوهية لانها كانت تقول ان كل ما هو الهي غير معروف ولا احد يعرف اللاهوت الاّ اللاهوت وليس لنا سوّاغية ان نتفوه بامورٍ سامية كهذه وبناء عليه يقتضي ان كلاً يقفو آثار الاقدمين بالدين الذي في وطنهِ وبهذه الاقاويل اصبح الضلال ذو الكفر

المستولي على الارض عياء وانحبس صوت الطبيعة الذي كان يبشر باله حقيقي منقطعًا
ولقد كانوا يهجسون ان وهن العقل الزايغ عن قويم المحجة بحتاج الى سلطة تثنيه الى الاصل وبناء عليه يقتضي ان يتعلموا الدين الحق من الاجيال الدابرة ولهذا قد ابنت لك باسيدي تسلسلها القويم من ابتداء العالم اما الوثنيون فبآية قدمية يفتخرون ومن منهم كان يطالع تاريخ وطنه ولا يرى فيه ابتداء الدين والالهة . فقد ابان فارون وشيشرون هذا الاصل دون ان نذكر سواهما من المؤلفين او اننا نعتمد هذا العدد الذي لا يحصى من السنين مفعمًا من خرافات المصريين واقاصيصهم السفيهة ولقد كانوا يعتمدونه ليلوحوا على ان قدميتهم هي موضوع فخارهم . وعلى كل كانت الهتهم تتولد وتتلاشى وعسر على هذا الشعب ان يثبت قدميته دون ان يبين بداءة الهته

وهناك هيئة اخرى لعبادة الاصنام وهي انهم كانوا يودون لو يؤدون العبادة لكل ما كان يعتبر الهيًا فقد كانت السياسة الرومانية تكره قسرًا عن ممارسة الاديان الاجنبية وتاذن بعبادة الهة البرابرة بشرط ان تكون تلك الالهة تحت حيازتها وعليه فقد كانت ترغب في ان تتظاهر بالعدل نحو كل الالهة كما كانت نحو كل بني الانسان . ولقد كانت آونة تقدم كباء البخور لاله اليهود مع سائر الالهة ودليل ذلك اننا قد عثرنا على كتابة من جوليانوس الجاحد فيها اباحة منه لليهود بان يوطدوا اركان المدينة المقدسة لينتظم فيهم لتقدمة الذبائح للاله الحق ولقد اسلفنا ان الوثنين كان في عزمهم ان يؤدوا العبادة لله لكن مشركًا . ولم يتوقف على الملوك بان يسوع المسيح نفسه الذي كانوا يضهدون تلاميذه ان يكون له مذابح لدى الرومانيين ولم يروموا ان يعتبروا اعتبار اله ذاك الذي حكم عليه قضاتهم بالعذاب والقى عليه اعباء العار كثير من مؤلفيهم فلا تعجب من هذا الامر الذي لم تخامره قط ريبة ولكن يقتضي ان تميز في باديء الامر ما يفوه به المرء لدى بغضائه الشعواء من الحوادث المقررة التي يخال انها مبرهنة لديه . ومن البين ان الرومانيين لم يكونوا يعزون الى يسوع المسيح جريرة خاصة ولو كانوا اصدروا عليه حكمًا ولذلك قضى عليه بيلاطوس دون طيبة خاطر بل قد قسره على ذلك الحاح اليهود وتوعدهم . ومن الامور التي تبعث على الحيرة والاعجاب ان اليهود انفسهم الذين كانوا علة لصلب المسيح لم يثبتوا في كتبهم القديمة اقل عمل له يثلم حيانه ولم يكن من وسعهم ان يجدوا فيه جريرة تغريهم بالاجحاف به الا قوله ان المسيح ابن الله وما نراه في الانجيل

يصدق على ذلك

وحقيقة الامران تاسيتوس ينبئنا عن عذاب يسوع المسيح في عهد بيلاطوس والملك طباريوس لكنه لم ينوه لنا عن اقل جريرةٍ اوجبت له الموت الاّ انه موسس بدعة تكشح للجنس البشري بالبغضاء او انها ممقوتة لديهِ فها هو ذا اثم المسيح وتلاميذه ولم يمكن لالد اعدائهم ان يتهموهم الاّ بالفاظ مبهمة دون ان يبينوا اقل حادثٍ مقررٍ لما كانوا يتهمونهم بهِ

ولا ريب ان الوثنيين الذين لم يروا لهم من جريرةٍ يتهمون بها المسيح وتلاميذه اذاعوا في اثناء الاضطهاد الاخير وبعد يسوع المسيح بثلاثمائة سنة اخطارات بيلاطوس الكاذبة التي بها حاولوا ان يختلقوا للمسيح ذنوبًا قضت عليه بالصلب ولما كانت هذه الاخطارات لم يسمع بها في الاعصار الغابرة لا في عهد دوميثيانوس ولا في عهد نيرون اللذين قبضا على زمام الملك في بداءة الدين المسيحي وهما من الاعداء المكاشحين للدين اصبح من متقرر الامر انها اختلقت فيما بعد اقتراحًا ولم يكن لدى الرومانيين ادلة قاطعه ضد المسيح حتى ان اعداءهُ قد ابتدعوها اعتباطًا

فهاك قضيةً اولى هي براءة يسوع المسيح غير المدنس وزد عليها قضيةً اخرى هي قداسة حياتهِ وتعليمهِ المعروف وان احد ملوك رومية العظام اي اسكندر سفاريوس كان مندهشًا من يسوع ولطالما كتبت بامره بعض آيات من الانجيل في التواريخ المرقوشة على الابنية العامة حتى على قصره وانه قد كان يثني على المسيحيين الذين كانوا يظبون على الاحتياطات التي من شأنها انتخاب خدمةٍ للاواني المقدسه ولقد كان يعرض بها لتكون انموذجًا ولم يكتف بذلك كله بل كان في قصره بيعة صغيرة كان يقدم فيها قرابين كل يومٍ صباحًا واضعًا فيها تماثيل الارواح المقدسة يتخللها صورة يسوع وابراهيم بمقربة من صورة اورفيوس . وكان له بيعة اخرى اصغر من الاولى اقام فيها صور اشيل وبعض الانام المشاهير اما يسوع فقد كانت له المثابة الاولى بين تلك التماثيل فذلك ما نصه احد الوثنيين ويؤيد كلامهُ بشهادة احد المؤلفين المعاصرين لاسكندر الملك الموما اليهِ فقد شهد لهذا الحادث اثنان . وهاك حادثًا اخر يحمل على العجب كالاول وهو ان بورفيروس وان يكن قد جاهر لدن جحد الدين المسيحي انه عدوٌّ له فيقر في كتابه المدعو الفلسفة بالنبوءات بان قد يوجد نبوءات توافق قداسة يسوع المسيح . بيدَ انَّ مجد ابن

الله بمجل ان تكون النبوات الكاذبة طرائق من شأنها ايقافنا على كنهه فقد جعلها لدن مجيئه معقودة اللسان فان هذه النبوات التي ذكرها بورفيروس لم تكن سوى اختراع بحت لكنما يهمنا امر فرد وهو ما ذا كان الوثنيون يزعمون بكلام المتهم في يسوع المسيح . فيحقق بورفيروس انه كان يوجد نبي يدعى بيسوع المسيح وهو رجل برّ اهل لان يكون خالدًا. واما المسيحيون فانهم بعكس الامر اناس يخامرهم الفساد والغرور ثم يذكرنا نبوات الالاهة هكات بانها تنوه عن المسيح انه رجل تعاظمت تقواه وان جسده المت به العذابات المبرحة وصعدت نفسه الى العلا بين الارواح الطوباوية وقد كانت تقول الهة بورفيروس ان هذه النفس لاتحيط بها ادراك وقد اغرقت في لجة الضلال النفوس التي لم يقرر لها الحظ مواهب الالهة ومعرفة المشتري العظيم ولهذا اصبحت ذوابهامن الد اعداء الالهة فلا تندد وا في المسيح بل تاسفوا على ضلال اولائك الذين انبأتكم عن سوء حظهم فلا ريب ان هذه الكلمات المفخمة تعتزل عنها المعاني لكنها تدل بكل صراحة ان مجد مخلصنا قد ارغم اعداءه ان يجاهروا بمدحه

وقد يرى في يسوع المسيح امر ثالث خطير عدا بره وقداسته وهو معجزاته التي قد نقرران اليهود لم يشدوا عليها نكيرًا فاننا نرى في تلمودهم التنويه عن بعض العجائب التي قام بها تلاميذه باسمه لكنهم اذاعوا امل ان تستمر تحت غشاء الخفاء انه كان يصنعها بالسحر الذي تعلمه في مصر او باسم الله غير المعروف الذي لاتدرك اوصافه والذي يصنع كل شيء بقوته حسب اليهود وانه حظي به في قدس الاقداس بامر لايحيط به ادراك اولان المسيح هو احد الانبياء الذين تنبأ عنهم موسى وهم مزمعون ان يغروا الشعب بعبادة الاصنام بمعجزاتهم المخاتلة . واما يسوع الظافر بالاصنام الذي يبثّ انجيله في كل الارض ان لايوجد الاّ اله واحد ليس يعوزه ان يتبرأ من هذه التهمة وان الانبياء الحنيفيين لم يبشروا بالوهية اقل من الوهيته وبناء عليه ان ما ينجم من شهادة اليهود هو ان المسيح قام باعباء المعجزات ليثبت ارساليته

ودخلية الامر ان اتهامهم ليسوع بانه صنع العجائب بالسحر رُشق به موسى نفسه فكان الاحرى بهم ان يعيروا ذلك طرفًا من نظر الفكر وقد كان ذلك اعتقاد المصريين القديم الذين اخذتهم الدهشة من المعجزات التي اتاحها الرب في بلادهم ليد موسى ولذلك كانوا يحكمون عليه بانه من اكبر السحرة . ويمكن لك ان تقف على كمه ذلك في بلينوس

وايلوس حيث يذكر موسى مع الساحرين المصريين ينيس وممبره المذكورين في رسالة مار بولس اللذين رذلهما موسى بعجائبهِ واما جواب اليهود فلم يكن بصعبٍ فانهم قالوا ان غرور السحرة لم يكن له مفعول ثابت ولا يكون له غاية ليقرر عبادة الله الحقيقي كما صنع موسى وفضلاً عن ذلك ان الله يقبض على ازمة الامور ويصنع ما يستحيل ان يقتدي بهِ العدو وهذه الحجج نفسها تبرئ يسوع المسيح من هذه التهمات الباطلة ولذلك لا نفيد كما قد لاحظنا الآن ثبت ان عجائب المسيح غير منكورة

والحق يقال ان هذه العجائب مقررة تقريراً محضاً حتى ان الوثنيين يتعسر عليهم كاليهود انكارها فان سالس الد اعداء المسيحيين الذي اوسعهم طعناً مفرغاً لذلك كل ضروب الحذاقة من البداءة لم يمكن له ان ينكر كل عجائب المسيح ولو انه طلب بكل اعتناء كل ما يناقض الدين المسيحي لكنه كان يقول في سبيل المدافعة كاليهود ان المسيح تخذ هذا السر من المصريين اي بالسحر وانه رام ان يعزو الى نفسه القوة الالهية بالمعجزات التي كان يتوخاها بهذا النوع الذريع ولهذا السبب نفسه كانوا يعتبرون المسيحيين كالسحرة ولم تزل عبارة من بوليانوس الجاحد يوخذ منها انه يانف من عجائب المسيح لكنه لا ينكرها ويقول فوليتريانوس مثله برسالتهِ الى القديس اوغسطينوس وهذا القول كان ذائعاً لدى الوثنيين كلهم

فبناء عليه لا تستغرب انَّ الوثنيين اقاموا المسيح بين الهتهم اذ انهم معتادون ان يعتبروا البشر الذين يصنعون اموراً خارقة الهةً واوعز طباريوس الى مجلس الشيوخ ان يودوا ليسوع المسيح اكراماً الهياً اذ انته الانباء عنه من اليهودية وذلك لا ريبة فيه فان ترتوليانوس يذكره كامرٍ شائع في المدافعة التي ابرزها باسم البيعة الى مجلس الشيوخ ولم يشأ ان يضعف دعواه البادي حقها باستناده على اشياء منكورة يسهل دحضها وان رغبت في شهادة المورخين الوثنيين يقل له لمبريديوس ان ادريانوس اقام ليسوع المسيح هياكل كانت لا تزال في حيز الوجود في عصرهِ وان اسكندر سفاريوس اراد بعد ان ادى له ماثر الاكرام خصوصاً ان يشيد له مذابح عامة وبقيمة في عديد الالهة

ومن المقرر ان توقف ايماننا بالمسيح على ما نقله اولئك الذين لم ينضموا الى لفيف تلاميذه امرٌ خارجٌ عن خطة العدل فان ذلك يكون وسيلة لطلب الايمان من غير اهلهِ والوقوف على كنه الدين بواسطة الذين لا يعتبرونه امراً خطيراً لانهم يعكفون على كل

شيء سواه ومن اليقين ان مجد يسوع المسيح اصبح ذا سطيع زاهر حتى ان العالم لم يتمكن من ان لايؤدي له بعض شهادات وليس من سعتي ان اورد لديك شهادة ً لله احق من شهادة اولائك الملوك

ومع ذلك فاني اثق ان قد كان لهم بذلك مقصدٌ خارجي لانَّ بعض امورٍ سياسية كانت تبعث على اكرام المسيح فانهم كانوا يزعمون ان الاديان طرًّا تتحد في النهاية وان كل الالهة البدعية تغدو شايعة ً لدى الجميع . اما المسيحيون فلم يكونوا يسلمون بهذه العبادة الممتزجة ولم يكونوا يحتقرون مراعاة السياسة الرومانية اقلَّ مما كانوا يحتقرون ما فيها من الجور والقسوة لكنما الرب اراد ان مبدأ اخر يحمل الوثنيين على ان يتركوا الهياكل التي اعدَّها الملوك ليسوع المسيح لان كهنة الاصنام اعلنوا للملك ادريانوس حسب قول المؤرخ المذكور انفًا انه اذا كرَّس الهياكل المشيدة للمسيحيين تهجر كل الهياكل عداها وان الجميع يعكفون على الولوج في دائرة الدين المسيحي لان عبادة الاوثان نفسها كانت تشعر ان فيه قوة ً ظافرة لايمكن للالهة الكاذبة مقاواتها وتثبت حقيقة ما قاله الرسول واية موافقة بين المسيح وباعال واية الفة لهيكل الله مع الاصنام وعلى هذا اصبحت عبادة الاوثان حليفة الدثار بقوة الصليب ومرذولة بذاتها وان وحدة الله اخذت بتقرر حتى ان عبادة الاوثان لم تكن في نهاية الامر قاصية ً عن هذا الاعتقاد فكانت تجهران الطبع الالهي متناهٍ في العظمة والسعة حتى انه لايمكن ان يعبر عنهُ بلفظة واحدة اوصورة واحدة وان المشتري ومرس وجينوس والهة اخرون ليسوا الاالهًا واحدًا تضح قوته غير المتناهية وتتمثل باسماء متباينة لكنهم كانوا يحيلون الدين الى رمزٍ لما كانوا يتصلون الى هذه التواريخ المدنسة بالالهة وتوليدهم المرذول وعشقهم الفاحش واعيادهم واسرارهم التي لم يكن لها اساس الاهذه الخرافات الغريبة . واما هذا الاله الوحيد فكان العالم او الشمس او النجوم او الهواء والنار والماء والتراب واجزائها المختلفة المستورة تحت اسماء الالهة او العشق فيا لهُ من ملجإٍ واهن ذريعٍ فانه فضلاً عن ان هذه الخرافات كانت عثرة ً للجميع وكل هذه الرموز متجاوزة الحد وثقيلة قد كان لايرى وراءها الا اله واحدٌ هو العالم باجزائه حتى صار ركن هذا الدين الطبيعة نفسها وعليهِ اصبحت عبادة الخلائق موضوع الخالق .

ان الاعتذارات الواهنة عن عبادة الاوثان لم تقع لدى الفلاسفة موقع القبول وان

يكن ماأخذها من فلسفة الستوسيين اما سالس وبورفيروس فقد طلب عضداً آخر في تعليم افلاطون وفيثاغوروس . وهاك كيفية موافقتهما لوحدة الله مع تكاثر الالهة الذائعة فكانا يقولان ليس الاّ اله عظيم وانهُ متناهٍ في المقدرة حتى انهُ لايتنازل ان يهتم بالاشياء الدنيئة بل انه اكتفى ان يصنع السماء والكواكب ولم يتنازل ان يصنع يده على هذا العالم الحقير بل خوّل امره للذين تحت يده وليس الانسان صنعة يديه وان يكن قد خلق ليعرفه حيث انهُ عرضة للموت ولهذا يستحيل الوصول اليهِ لانه ثاوٍ في العلا وقاصٍ جداً عنا واما الارواح السماوية التي صنعتنا فهي كوساطة بيننا وبينهُ ولذلك يقتضي ان نؤدي لها العبادة

وليس علينا ان ندحض تخيلات الافلاطونيين التي كانت ايضاً تَوهي من تلقاء ذاتها لان سر المسيح كان يلاشيها من اساسها فكان هذا السر يعلم البشر ان الله الذي صنعهم على مثالهِ لايانف منهم البتة وان كانوا يفتقرون الى وسيط فليس ذلك بسبب طبعهم الذي براهُ الرب كما برأ كل الاشياء بل بسبب جرائرهم التي هم انفسهم اقترفوها وفضلاً عن ذلك فان اطباعهم لاتقصيهم عن الله لانه يتنازل ويتحد معهم فيصير انساناً وبينهم وسيطاً ليس الارواح السماوية التي يدعوها الفلاسفة ابالسة والكتاب المقدس ملائكة بل رجلاً تلتئم بهِ القوة الالهية والطبع الانساني الضعيف ويصبح دواءً شافياً لدائنا

ولو كان تكبر الافلاطونيين لايستطيع ان يتنازل الى ذل الكلمة المتجسد ولكن الم يكن يجب عليهم ان يدركوا على الاقل ان الانسان قادرٌ ان يملك الله كالملائكة ولو كان احقر منهم قليلاً وبناء عليه فان الانسان مؤاخٍ للملائكة اكثر مما هو خاضع لهم ولذلك لا يقتضي ان يتعبدهم بل يعبد معهم بالاشتراك الذي صنعهم جميعاً على مثالهِ وان تقدمة الانسان الذبائح لغير الله لم تكن من الدناءة فقط من نكران جميلهِ ولاشيء يوازي غرق الوثنيين بهذا الشان فانهم بدلاً من ان لايعبدوا الاّ الله كانوا يعبدون الابالسة

ولاسيا في الاحوال التي ابدت عبادة الاوثان ضعفها لما كانت في الورطة الشديدة وفي انتهاء الاضطهادات لما لح المسيحيون على بورفيروس التجأ ان يقول ان الذبائح ليست من العبادة السامية فانظر الى اية درجة من الغباوة قد اتصل فانه كان يقول ان

الارض قسراً عن السلطة الرومانية التي كانت تنوم بناصرها ولم يقم باعباء هذه الآيات العظيمة حكماء او شرفاء او اعزاء هذا العالم

بل ان عمل الرب قد سرى حسب مجراه لان ما كان قد بدا بعار المسيح قد تم بذل تلاميذه وعارهم وهاك ما قاله القديس بولس في رسالته الى اهل كورنثية انظروا دعوتكم ايها الاخوة انه ليس كثيرون حكماء بحسب الجسد ولا كثيرون اقوياء ولا كثيرون شرفاء بل اختار الله الجاهل من العالم ليخزي الحكماء واختار الله الضعيف من العالم ليخزي القوي واختار الله الخسيس من العالم والحقير وغير الموجود ليعدم الموجود لكي لا يفتخر ذو جسد امامه

ان الرسل والتلاميذ كانوا من احقر العالم وانهم كانوا كانهم ليسوا بموجودين ان نظرنا اليهم باعين بشرية بيد انهم كانوا يظهرون على الملوك والمملكة الرومانية وكان البشر قد نسوا تكوين الخليقة فجدده الله لما ابرز من هذا العدم بيعته التي اتاح لها قوةً عظيمة ضد كل ضلال ورذل مع الاصنام عظمة البشر التي كانت مجناً يدافع عنها وصنع هذا العمل العظيم بقوة كلمته كما صنع العالم كله

الفصل السادس والعشرون

في انواع عبادة الاصنام المتنوعة وفي ان الحواس والصوالح والجهل واحترام الآثار القديمة الباطل والسياسة والفلسفة والبدع اخذت بناصرها فظهرت البيعة على كل ذلك

ان عبادة الاوثان تبدو لدينا واهنة بذاتها ومع ذلك يتعسر علينا ادراك القوة التي اقتضت لسقوطها وحماقتها عينها تبين ما كان من الصعوبة في ردعها لان هذا الانقلاب العظيم الذي طرأ على الحس العام يدل على الفساد العميق الذي صار في اصل الفطرة والعالم قد شاخ في عبادة الاوثان وبما انه كان مسبياً باصنامه اصبح كاصم لا يسمع لصوت الطبيعة الهاتفة ضد هذه العبادة فكم من القوة كان يقتضي لتنبه بهم ذكرى معرفة الله الحق الذي كانوا قد ضربوا عليه حجاب النسيان وتنشل النوع البشري

من وهدة الفساد التي تهور بها

فان الحواس والشهوات طرًّا والاغراض النفسية تذبُّ عن عبادة الاوثان لان هذه العبادة كان جل نشأتها للملذات فان الطرب والملاهي واطلاق عنان الفساد كانت جزءًا من الفرائض الدينية ولم تكن الاعياد الا ملاعب دنسة كما لم تكن الفة بشرية اصبح الاحتشام فيها منفيًا باكثر اعتناء مما كان في الاسرار الدينية فكيف يمكن ان تعتاد هذه العقول المفسودة على نظام الدين الحنيفي الطاهر المناقض للحواس والذي لا تعلق له الاّ بالخيرات غير المنظورة ولما كان بولس الرسول يناجي فيلكس والي اليهودية في البر والعفاف والدينونة المقبلة استولت عليهِ الرعدة جزعًا وقال اما الان فاذهب ومتى سنحت لي الفرصة دعوتك لان هذا الخطاب كان عسرًا على رجلٍ يود لو يتمتع بالملذات دون وسوسة وباي وجه كان

اتريد ان تنظر الان فاعلية المنافع والمصلحة في الامور البشرية فاصغ الان فان الفعلة الذين كانوا عائشين ببناء هياكل من فضة للالاهة ارطاميس في افسوس وقت سقوط عبادة الاوثان التي سببها وعظ القديس بولس في اسيا ونهض اعظمهم وابان لرفقائه ان مكسبهم لا يلبث ان يزاولهم وليس هذا فقط بل ان هيكل ارطاميس العظيم يمسي محتقرًا ويتلاشى شيئًا فشيئًا هذه العظمة المسجود لها في اسيا وكل المسكونة (كما في اعمال الرسل فصل ١٩)

فما اعظم قوة المنافع وما اقوى جسارتها متى تحجبت بنقاب الغيرة على الدين فان اولئك الفعلة لم يفتقروا الى غير براهين لتهييجهم فلما سمعوا ذلك امتلأوا غيظًا وطفقوا يصيحون ويقولون عظيمة ارطاميس الافسوسية واخذوا يجرون رفقاء القديس بولس الى المشهد حيث اجتماع الشعب وحينئذٍ ضوعف الصياح واستمروا ساعتين يهتفون قائلين عظيمة ارطاميس الافسوسية واصبح القديس بولس ورفقاؤه يكادون لا ينجون من ايدي الشعب لولا مداركة الوالي انقاذهم خشية ان يحدث شيء اعظم من ذلك وزد فائدة الكهنة المزمعين ان يسقطوا هم والهتهم على فائدة اولائك الذين لهم مصالح خاصة وعلى هذه زد مصالح المدن التي كان الدين الافك يجعلها شهيرة كمدينة افسوس التي نالت امتيازًا عظيمًا بواسطة هيكلها واغناها تقاطر الغرباء اليها وبناء عليهِ كانت الزوبعة التي ثارت على البيعة الجديدة عظيمةً جدًّا . ومن ذا الذي يتعجب

ومنبر الوحدة واصل السلطة لم تقتصر الا عليها فكل اولائك الذين كانوا يغادرونها كانوا قد افرزوا اولاً ولم يكن يمكن لهم ان يمحوا علامة تجديدهم وسمة تمردهم وكان الوثنيون انفسهم يعتبرونها كالغصن او كالمجموع من حيث تفرعت الاجزاء او الجذع الحي الذي كانت الفروع المنفصلة تدركه على اصلهِ واما سالس الذي كان يونب المسيحيين على انقسامهم فقد كان يرى بيعةً واحدةً ممتازةً عن غيرها تستمر اقوى من غيرها بين الكنائس المنفصلة ولهذا كان يدعوها البيعة العظيمة لانه كان يقول ان بين المسيحيين من لا يسلم بالخالق ولا التقليدات اليهودية وبهذا كان يشير الى المارسيونيت وما كان يقول انهم يحوزون لدى البيعة الكبيرة قبولاً. ولم يتعسر على الملك اوربلانوس ان يعرف في غضون البلبلة التي سببها بولس السموزاتي الكنيسة الحقيقية التي يناط بها بيت البيعة سوى ان هذا هو محل الصلوة او بيت الاسقف فحكم بها للذين كانوا مشتركين مع اساقفة ايطالية واسقف رومية لانه كان يرى ان لفيف المسيحيين مستمرٌ كل حين في هذا الاشتراك. ولما كان الملك قونسطانس يبلبل كل البيعة كان الاضطراب الذي القاه بسبب دفاعهِ عن الاريوسيين لم يمنع اميانو مرسيلينون الوثني من ان يدري ان هذا الملك كان جانفًا عن المحجة القويمة المهدة للدين المسيحي البسيط والمقرر بقواعد ايمانه وتهذيبه وذلك لان الكنيسة الحقيقية هي ذات جلالة واستقامة لا يمكن للمبتدعين ان يقتدوا بها او ينكسوها بل انهم كانوا بعكس الامر يشهدون لها قسرًا عن ارادتهم . فان قسطانس الذي كان يضطهد القديس اثناسيوس المدافع عن الدين القديم كان يرغب حسب قول كيليوس في ان يحكم عليه بسلطة اسقف رومية الفائقة كل ما سواها وكان يبين بطلبه الاستناد على هذه السلطة للوثنيين انفسهم ما كان ينقص بدعته وبهذا يكرم الكنيسة التي كان الاريوسيون قد انفصلوا منها وعلى هذا كان الوثنيون يعرفون ان يميزوا الكنيسة الكاثوليكية ولو اقتضى الامر ان يطرح احدٌ لديهم سوالاً قائلاً اين مجالسها وما هم اساقفتها فلا يخطئون بجوابهم اما البدع فلم يكن يمكن لها مهما افرغت من الجهد ان تتملص من اسم مشيدها فكان السبالبون والبوليانيست والاريوسيون والبلاجيانيون وغيرهم يلتظون غيظًا من الالقاب التي تعطى لهم وكل ذلك كان عبثًا . اما العالم فكان ينطق بالصواب رغمًا عن ارادتهم ويسمي كل بدعة باسم مبتدعها لكن نظرًا الى البيعة الكبيرة اي الكنيسة الكاثوليكية الرسولية قد كان من المستحيل ان تعطى اسمًا غير اسم مشيدها يسوع المسيح . وعلى هذا فرغمًا

عن كل ما افرغ المبتدعون من السعي لم يمكن لهم ان يواروا هذا البيعة عن الوثنيين ولذلك كانت تبسط اليهم حجرها في كل انحاء البسيطة وكانوا يتقاطرون اليها سرابات . ومن الامكان ان البعض كانوا يزورون في بعض مسالك مخرفة لكنما البيعة كانت تمهد الطريق الشاسعة حيث كان اكثر الذين كانوا يطلبون المسيح يلجونها وتبين ايضاً من الاخبار انه قد من عليها بان تجتمع اليها كل الامم وهي وحدها كانت هدفاً لطعن الملوك المجدين فان اوريجانوس ينبئنا ان ليس في المبتدعين الا نزر قد اضطهدوا حباً بالايمان ويلاحظ القديس جوستينيانوس الذي كان قبلهُ ان الاضطهاد لم يلتحق بالمرسيونيت والمبتدعين الآخرين لان الوثنيين لم يضطهدوا الاّ البيعة التي كانوا يرونها ممتدة في كل اصقاع الارض ولم يكونوا يعترفون بكنيسة ليسوع المسيح سواها فاذا افترقت عنها بعض فروعٍ فليس ذلك امراً خطيراً فانها لاتفقد اذ ذاك نضارتها بل انها تمتد الى جهة اخرى وان ما نزع عنها من الافنان طيب ثمارها وحقيقة الامر اننا اذا نظرنا في تاريخ البيعة نقرر لدينا ان كل بدعةٍ اخذت تناصبها لتضعف قواها عوضت عن خسائرها من جهة اخرى بامتدادها خارجاً وتضاعف النور والتقوى فيها داخلاً اثناء ما كانت ترى الفروع المنفصلة عنها تذوي في محلٍّ منفصلٍ لان اعمال البشر اضمحلت رغماً عن الحجيم الذي كان ياخذ بايديهم فدام عمل الرب وظهرت الكنيسة على الاصنام والضلالة

الفصل السابع والعشرون

في ملاحظات عامّة تناط بتسلسل الدين وانطباق بعض الكتب المقدسة على البعض

ان هذه الكنيسة التي تعرض دائماً للقدح غير مدحورة هي كاعجوبة مستمرةٍ وشهادةٍ ساطعة لاحكام الرب غير المتغيرة لانها لاتزال ثاوية وسط البلابل البشرية بقوةٍ غريبة تقضي باننا نراها متصلةً بيسوع المسيح بتسلسل متواصل منذ الف وسبعمائة سنة اذا اخذت الخلافة عن الشعب القديم وتحد مع الانبياء والآباء وعليه تؤول كل هذه العجائب المدهشة التي شاهدها العبرانيون عياناً الى تثبيت ايماننا حتى الان وان الله الذي صنعها

لتثبيت وحدته وقدرته فاي امر كان يقتضي له لحفظها اكثر من ذلك والسندات التي تبينها احرى من ان يسلمها بين ايدي شعب برمتهِ والتي صار نصها حسب تسلسل الاوقاف وهاك ما نجده الى الان في اسفار العهد القديم اي الكتب المتناهية في القدمية في العالم التي حفظت لنا من الآثار القديمة معرفة الله الحقيقي ونظام عبادتهِ في هذه الكتب التي رعاها اليهود باحترام ديني ولم يبرحوا يحافظون عليها الى الان في كل اصقاع البسيطة

افيجوز لنا بعد هذه ان نثق بخرافات مولفي الامم الاوغاد في اصل هذا الشعب الخطير على قدر قدميتهِ وقد لاحظنا ان تاريخ نشأَتهِ وملكهِ ينتهي حيث يبتديء تاريخ اليونان حتى انه لاامل لنا بروية امرٍ يعضدنا على ايضاح حوادث العبرانيين. ومن المقرران اليونان لم يعرفوا اليهود ولا دينهم الاَّ بعد ان ترجموا اسفارهم الى لغتهم واخذوا يقطنون المدائن اليونانية اي نحو مايتين او ثلاثماية سنة قبل المسيح وان جهالة الالوهة كانت عظيمة جدًّا لدى الوثنيين حتى ان اعظم مولفيهم لم يكونوا يعرفون من هو اله اليهود ولقد كانوا يعزون الى المتناهين في العدل بينهم وبين الوهة السماء والعلاء حيث كان اليهود يتخصصون بابصارهم الى المحل الذي كانت تبدو فيه قوة الله العلية وفيه مثابة عرشهِ وعدا ذلك فان دين اليهود كان غريبًا جدًّا ومناقضًا لسائر الاديان وان سننهم وسبتهم واعيادهم وكل اخلاقهم كانت ممتازة فجذبوا اليهم حمد الامم القاطنين بينهم وبغضاءهم وكانوا يعتبرونهم امةً تانف من كل الامم وان ما فرض عليهم من المحارم التي يشتركون بها مع الامم صوبت عليهم الكراهية مقدار ما يحقرهم الجميع ان الاتحاد الذي كان متصلاً بينهم ومراعاتهم باحترامٍ ديني لصلاتهم بروساء ملتهم اي باورشليم والهيكل والاحبار والهبات التي كانوا يبعثون بها من كل نحوٍ وصوب كانا يجعلان فيهم ريبةً للامم فضلاً عن بغضة المصريين القديمة فان هذا الشعب قد عامله ملوك مصر معاملة سيئة ولم يتملص من ايديهم الاَّ بمعجزات شتى وتبين لديك من ذلك العلة التي لاجلها عكفوا على خرافات بشان اصلهِ. فان كلاًّ يذهب كما يشا وفي هذا الامر وفي تفسير احتفالاتهم التي كانت تدهش من لم يكن يعرف لها اسًّا ومصدرًا. وليس بخافٍ ان اليونان كانوا ذوي مهارةٍ في خداع نفوسهم وقد كانوا يتلهون بالمشاشة وذلك اصل الخرافات التي في جوستان وتاسيت وديودور الصقلوي وغيرها من مولفات المعاصرين الذين تكلموا عن اليهود. وان يكن من الامور الجلية انهم كتبوا بالاستناد على اشاعات

غير مقررة بعد مر اجيالٍ شتى دون ان يعرفوا شرائعهم ودينهم وفلسفتهم ودون ان ينظروا كتبهم ولربما دون ان يتصفحوها

ومع ذلك فرغمًا عن الجهالة والوثني فكان من الثابت ان شعب اليهود وحده قد عرف من بداءة اصلهِ الله الفاطر السماء والارض وفيما بعد كان وحده مستودع الاسرار الالهية ورعاها باحترامٍ واهمية دينية زائدين لان الكتب التي كان المصريون والشعوب غيرهم يدعونها مقدسة كانت قد فقدت من زمنٍ مديدٍ وكانت بعض آثار لاتكاد تكون مبهمةً في التواريخ القديمة وان كتب الرومانيين المقدسة التي كتب اسرارها مشيد دينهم نيما اتلفها الرومانيون انفسهم وامر بها مجلس الشيوخ ان تحرق خشية ان تكون عائقةً على نقض الدين . وغادر هؤلاء الرومانيون السيبيل بمهمل وان تكن تعد عندهم منذ ايام قديمة ككتب محترمة تشتمل على نبوءات لانهم كانوا يودون ان الناس يعتقدون ان في دولتهم مآرب الالهة ومع ذلك فلم يبينوا للشعب نسخةً ولا آياتٍ بهذا الشان بل ان اليهود وحدهم رعوا كتبهم التي كانت معروفة وقد انيطت بهم رعاية اثار ديانتهم الاصلية دون سائر الشعوب القديمة وان تكن هذه الآثار مفعمةً من ذكرى جحدهم وخيانتهم وخيانة آبائهم ايضًا واستمر هذا الشعب على وجه البسيطة ليأتي سائر الامم حيث تشعث بتسلسل دينهِ والعجائب والنبوءات التي تجعله غير مزعزع

فلما اتى يسوع المسيح وبعث بهِ ابوه يتم مواعيد السنة ثبت ارساليته وارسالية تلاميذه بمعجزاتٍ جديدة نقيدت بهذا التدقيق عينهِ لان هذه الاعمال ذاعت في كل الارض . ومقتضيات الزمان والاشخاص والمحال قضت بان يكون البحث عنها سهلاً على كل من اهتم بنجاة نفسهِ لان العالم قد فحص وامن وكل من تحرّى الامور ونقر في اثار البيعة ولو قليلاً اذعن انه لم يحكم قط على قضية باكثر تمعن واكثر معرفة

لكنما يوجد في الاتصال الذي بين العهدين فرق يقتضي ملاحظته وهو ان الكتب القديمة قد كتبت في ازمانٍ متباينة ودليل ذلك ان اسفار موسى تختلف عن اسفار يشوع والقضاة وعن اسفار الملوك ايضًا لان الاسفار التي تنبي عن فتوحهم الارض المقدسة وتمكنهم فيها بمعجزاتٍ بادية . ولكي يظهر الرب على خيانة شعبٍ عاكفٍ على الحواس تناول عددًا من الاجيال حيث وزع معجزاته ونبوءاته ليجدّد مرارًا الشهادات البادية التي كان بها يثبت حقائقه المقدسة . اما في العهد الجديد فقد اتبع طريقةً اخرى لانه لم يكن

نريد ان يوحي بشيء جديد الى البيعة بعد يسوع المسيح لان فيه الكمال والتمام ولهذا كتبت في ايام الرسل كل الكتب المقدسة التي الفت في العهد الجديد

اي ان شهادة يسوع المسيح واولائك الذين اراد ان يصطفيهم كشهود اتباعه من الموت كافية لدى الكنيسة المسيحية وكل امر طرأ بعد ذلك كان اهلاً لتشييدها لكنها لم تعتبر كوحيٍ من الله الا ما كتبه الرسل او ما اثبتوه بسلطانهم . اما في الفرق نفسه القايم بين كتب العهدين فقد راعى الرب دائمًا هذا النظام وهو ان تكتب الحوادث في وقت حدوثها في الان الذي يذيع فيه ذكرها . وعلى ذلك فكل اولئك الذين كانوا يعرفونها كتبوها والذين لم يكونوا يعرفونها اعتمدوا الكتب التي تتضمنها وتشهد بها وسلموها طرًّا لاخلافهم معتبرينها حوادث ثمينة فراعت الاخلاف حرمتها كل الرعاية

وبذلك تألف مجموع الكتب المقدسة في العهدين الجديد والقديم واعتبرت هذه الكتب من البدء كحقيقة لكل امرٍ معطاة من لدن الله نفسه ولهذا استحقت كل ذاك الاعتناء واعتقد ان من غير منها او حرّف كان كافرًا فظيعًا وعليه اتصلت الينا وهي لاتزال محترمةً غير متغيرة او بتقليدات اليهود الثابتة او بتقليدات المسيحيين الصحيحة والوثوق بها مقرر لانها ثبتت بدماء الذين كتبوها وباشهادهم واشهاد الذين قبلوها

ان القديس اوغسطينوس وغيره من الانبياء يسألون عن المسند الذي به تنسب الكتب الدنوية لازمنة مقررة ومولفين محققين فكل يجيب على الفور ان الكتب تمتاز بالمناسبات المختلفة بالشرايع والعوائد وتواريخ بعض الازمنة الخاصة والموءلفين الخصوصيين وفضلاً عن ذلك بالاستناد على الشهادة العامة والتقليدات الثابتة فكل هذه الوسائل تتحد لتقرر حقيقة الكتب المقدسة وتميز اوقاتها وتبين موءلفيها وان ما بذلوا من الجهد لحفظها على كيانها هو مقدار ما يكون التقليد الذي ابقاها لنا دون ريبة وبناء عليه لم يكن ذلك معروفًا فقط لدى الكاثوليك بل ايضًا لدى المبتدعين انفسهم ولدى غير المومنين لان موسى لم يفتأ يعتبر في كل الشرق ثم في العالم قاطبة انه مشترع اليهود وموءلف الكتب التي تعزى اليه وان السحرة الذين اخذوها من عشرة الاسباط المنفصلة رعوها بكل احترام ديني كاليهود انفسهم وان تقليدانهم وتاريخهم في غاية التقرير بذلك الشان وان شئت تحقيق كل التسلسل فعليك بمراجعة بعض فقرات من الجزء الاول

وان هذين الشعبين المتناقضين لم يختلق احدٌ منهما الكتب الالهية بل انهما كليهما

اتخذاها من اصل واحد اي منذ ايام سليمان وداود وان الاحرف العبرانية القديمة التي
حفظها السمرة الى الان تدل على انهم لم يتبعوا عزرا الذي غيرها وبناء عليه فخمسة اسفار
السمرة وخمسة اسفار اليهود هي نسخ اصلية كاملة لايتعلق البعض منها بالبعض الاخر
والمطابقة الكلية التي تبدو في جوهر المتن تبين استقامة الشعبين اللذين اصبحا شاهدين
عادلين متفقين بالشهادة دون ارتباط او بالاحرى انهما يتفقان قسرًا عن عداوتهما وان
التقليد الوثيق وحده غير المتغير يوفق بينهما بفكر واحد وان الذين شاؤوا ان يقولوا
وان لم يكن لقولهم من سند ان هذه الكتب قد فقدت اولم توجد قط او صححت او تلفت
حديثًا او غيرها عزرا ففضلاً عن ان عزرا نفسه يكذبهم فتدحض دعواهم ايضًا خمسة
اسفار موسى التي لم تزل الى الان بين ايدي السمرة واطلع عليها في بداءة اجيال الكنيسة
اوسابيوس القيصري والقديس ابرونيموس وموءلفوا البيعة الاخرون وهي لم تزل على
ما كانت عليه في بداءة الامر. ويبدو ان هذه الشيعة الحقيرة لم تكن زمنًا مديدًا على
هذا المنوال الا لتوءدي شهادة لقدمية موسى

وان الموءلفين الذين كتبوا الاناجيل الاربعة لم يحصلوا على شهادة اقل من رضى
الموءمنين وغير الموءمنين والمبتدعين بالاتفاق لان هوءلاء الامم الكثيري العدد والمختلفي
الاجناس ترجموا هذه الكتب الالهية حالاً بعد ان سطرت فجميعهم يتفقون على ما يناط
بتاريخها وموءلفيها وان الوثنيين لم يناقضوا هذا التقليد لاسلس الذي ندد فيها نحو
بداءة الدين المسيحي ولا جوليانوس الجاحد وان لم يكن يجهل شيئًا مما يشينهم كما انه لم
يجهل شيئًا من ذلك الامر ولم يرتب احدٌ من الوثنيين في حقيقة هذه الكتب بل انهم
نسبوا اليها الموءلفين الذي نسبهم المسيحيون ولم يجتريء المبتدعون انفسهم ان يزعموا انها
ليست من تلامذة المسيح وان كانت سلطتها تثقل عليهم . ودخيلة الامر ان قد كان يوجد
عديدٌ وافرٌ من هوءلاء المتشيعين وقت بداءة البيعة وقد سطرت الكتب المقدسة ازاء
اعينهم وبناء عليه فلو كان يرى خداع بهذا الشان لكان انكشف عن مقربة وما كان
نال نجاحًا .

ولا ريب ان قد اجترأ مارسيوس وماسس اوقح المبتدعين طرًا ان يقولا بعد مجيء
الرسل حين كانت البيعة تمتد في كل اطراف الارض ان ثلاثة الاناجيل مصنوعة دون
صحة وان انجيل القديس لوقا الذي كانا يوءثرانه على غيره دون ابراز علة لذلك مزوّر

وهذا الراي مناقض لتقليد الرسل الذي قفاه تلاميذهم والاساقفة الذين خلفوهم في مناصبهم ولعمل الشعوب وقد قبلت البيعة كلها هذا التقليد مجمعة عليه

ولكن على اي راي كانا يستندان فلا ريبة ان استنادهم كان على روى وهمية لا على حوادث مقررة فكلما كانا يقولان ان كل ما هو مناقض لرايهما لا بد ان يكون مختلقاً اختلاقاً من غير الرسل وكانا يوردان كحجة قاطعة لزعمهما نفس اراءهما المنكرة عليهما هذه الاراء نفسها كانت مناقضة للصواب حتى انه لم يعلم كيف انها ولجت عقولاً بشرية . ولكي يمكن الريب في امانة البيعة كان يقتضي عرض نسخ اصلية تخالف نسخ الكنيسة او ايراد ادلة قاطعة يعتمد عليها ولما سئل هذان الارتيكيان وتلاميذهما ان يقدموا مثل هذه البراهين افحموا جواباً وادوا سكوتاً ومن نفس سكوتهم تبين صريحاً ان لم يكن يوجد في القرن الثاني للكنيسة اذ كانا يكتبان اقل دليل على كذب الاسفار المقدسة او تزويرها ولا اضعف قرينة تخالف تقليد البيعة

وماذا الذي نقوله في اتفاق الكتب المقدسة والشهادة العجيبة القاطعة التي تؤديها ازمنة شعب الرب بعضها لبعض فان اوقات الهيكل الثاني تفترض اوقات الهيكل الاول وتقودنا الى سليمان وتنبئنا ان السلم لم تتأت الا بعد احتدام الحرب وبوصلنا فتوح شعب الرب الى القضاة ويشوع والخروج من مصر وعندما نلاحظ كيفية خروج شعب برمته من بلاد كان فيها غريباً نتذكر كيفية دخوله اليها ثم نتذكر الاثني عشر اباً ونصورنا ان هذا الشعب الذي لم يكن يعتبر نفسه الا كعائلة واحدة يقودنا الى ابراهيم الذي كان اصل هذه الامة طراً . ليت شعري هل يهافت هذا الشعب على الهداية ولم يعكف على عبادة الاوثان بعد ايابه من بابل فذاك مفعول العقاب الذي صوبته عليه جرائره وان كان يفتخر بانه راى في غضون اجيال شتى معجزات شتى لم يكن لشعب سواه ان ينظرها فيمكن له ايضاً ان يفتخر انه كان منفرداً بمعرفة الله .

فعلى ماذا تدل الختانة وعيد المظال والفصح وغيره من الاعياد التي كان الشعب يحتفلها منذ الزمان القديم أليس على ما هو منوه عنه في كتاب موسى وهل يمكن ان يكون شعب ممتاز عن غيره من الشعوب بدينه وسجاياه الخاصة وقد رعى منذ البدء تعليماً سامياً ومتتابعاً وذكراً حياً في تسلسل الحوادث المرتبطة طبعاً وفي الاحتفالات المنظمة

والعوائد العامة مستندًا بذلك على مبادىء التكوين والايمان بالعناية الربانية فهل يمكن شعب مثل هذا ان يكون دون تاريخ ينبيء عن اصل نشاته ودون سنة تقيد عاداته مدة الف سنة مكث فيها في مملكة واحدة وهل يحتمل ان عزرا شرع على الفور بفرض عليه باسم موسى تاريخ اثاره القديمة والسنة التي دمثت اخلاقه وذلك بعد ان اصبح اسيرًا وشاهد استئصال مملكته فليت شعري اية حكاية تنأى عن الصواب اكثر من هذه في هذا الافتراض ومن يمكن له ان يعتقد بذلك دون ان يكون جاهلاً جاحدًا فلكي يمكن فقد هذه الشريعة بعد ان اعطيها هذا الشعب كان من المقتضي استئصال هذه الامة او ان يكون طرأ عليها تغيرات عديدة ومختلفة حتى تشوش معرفتها باصلها ودينها وعوائدها

فان كانت هذه البلوى قد حلت في شعب اليهود وان سنتهم المعروفة صريحًا على عهد صدقيا قد فقدت سنين عامًا بعد هذا الملك رغمًا عن اعتناء حزقيال وارميا وباروخ ودانيال الذين كانوا دائمًا يستندون عليها بمنزلة ركن قوي للدين وسياسة شعبهم فاذا فرضنا ان هذه السنة قد فقدت قسرًا عن هولاء الصديقين وغيرهم وفي الوقت نفسه الذي كان كثيرون فيه ينالون اكليل الشهادة حبًا بهذه الشريعة كما تبين ذلك من الاضطهادات التي المت بدانيال والفتية الثلاثة فان كانت فقدت بوقت وجيز كهذا رغمًا عن كل من ذكر واصبحت هكذا مضروبًا عليها سجاف النسيان وان عزرا تصرف بها حسب ميله وهواه فيكون قد التزم ان لا يولف سفرًا واحدًا فقط بل كان يلزمه ان يولف في الوقت نفسه كل كتب الانبياء الاقدمين والحديثين اي الذين كتبوا قبل السبي وبعده وفي مدته وكتب الذين قد شاهدهم الشعب يكتبون واسفار الذين كان الشعب يعي ذكرهم وليس كتب الانبياء فقط بل كتب سليمان ومزامير داود وكل اسفار التاريخ لانه لا يكاد يوجد في كل هذا التاريخ حادث خطير او فصل واحد من الكتب يمكن ثبوته اذا فصلناه عن اسفار موسى فان كل الاسفار تتكلم عن موسى وكل ما فيها مؤسس على ما كتبه موسى ولا يمكن ان يكون بخلاف ذلك لان موسى وشريعته والتاريخ الذي كتبه هو الاساس والعماد في اعمال شعب اليهود ونظامه العام والخاص . فيكون على عزرا مشروع غريب وحديث في العالم بان يورد اشخاصًا كثيرين يتكلمون باساليب وانواع مختلفة . وكل منهم يتكلم بما يكون مطابقًا للاخر ويبعث شعبًا برمته على ان يعتقد على الفور ان هذه الاسفار

هي الاسفار القديمة التي كان يؤدي لها احتراماً والجديدة التي شاهد من نصها وذلك كانه لم يكن قط بسامع شيئاً وان معرفة الازمنة الحالية والغابرة الغيبت فجاة . فهذه هي المعجزات التي يندب ان يسلم بها من لا يسلم بعجائب الرب ولا يقبل الشهادة التي تقرربها انه قد قيل عن شعب برمته انه قد نظرها بمقلتيه .

ولكن فان كان هذا الشعب لدن ايابه من بابل الى ارض آبائه جديداً بمقدار كهذا وجاهلاً حتى انه كان لا يكاد يتذكر وجوده لانه قبل دون فحص كل ما شاء عزرا ان يسنه له فكيف نرى في الكتاب الذي توخى عزرا كتابته كلها وفي كتاب نحميا معاصره كل ما يقوله في الكتب المقدسة . ومن ذا الذي كان يمكن له ان يسمعهما يتكلمان عن شريعة موسى في محال متباينة علانية كأن ذلك امرٌ معروفٌ لدى الجميع . وكان الكل يتداولون هذه الاسفار ولقد كان في وسعهما ان يرتبا الاعياد والذبائح والاحتفالات وصورة المشيد ثانيةً والذبيحة والنظام وقصارى الامر ان كل شيء كان يتم لدن قولهما حسبما نص في شريعة موسى عبد الرب

واما عزرا فيدعى في الكتاب كمعلم في الشريعة حبا الرب اسرئيل به بوساطة موسى وذلك بموجب هذه الشريعة والقوانين التي كانت على يده وامره ارتحششتا ان يزور الشعب ويرتبه ويصلح اموره ومن ذلك يتأتى ان الامم انفسهم كانوا يعرفون شريعة موسى بانها شريعةٌ لكل الشعب وكان كل علمائه يعتبرون هذه الشريعة كل آن انها قاعدةٌ لاعمالهم ودستور لهامهم لان الكهنة واللاويين مبددون في المدائن وترتيب وظائفهم ومراتبهم آنفاً حسبما نص في شريعة موسى وان كل الشعب يندم تائباً فذلك لسبب انه مبدع الشريعة وان كان يجدد العهد مع الرب بتوقيع خاص من قبيل كل الاشخاص فذلك بالتوكؤ على الشريعة عينها التي كانت تتلى لهذا السبب علانيةً بكل صراحة صباحاً ومساء مدة ايام جمة امام كل الشعب الذي كان يلتئم ليصيخ لمنطوقها وهو يعتبرها كشريعة آبائه . وكان العديد الاوفر من الرجال والنساء يسمعون القراءة ويعرفون القوانين التي تعلموها منذ نعومة اظفارهم فاذاً كيف امكن لعزرا ان يتلو امام كل شعب كتاباً معروفاً وهو نفسه الفه ورتبه حسب هواه ولم يعثر به احدٌ على ادنى وصمة او تحريف او تصحيف فانهم كانوا يتلون تاريخ كل الاجيال الماضية مبتدئاً من سفر التكوين ومنتهياً في عصرهم وكان الشعب الذي ازاح عن عاتقه مراراً جمة نير هذه

الشريعة يحمل هذا العبء الثقيل دون معارضة لانه سبر الامور وايقن ان احتقاره لهذه الشريعة جذب اليه كل اصناف المشاق التي كان يكبدها لانه منع الرباء حسب نص الشريعة وذكر الفاظها وحلَّ ما كان قد عقد للزيجة ولم يبدِ احدٌ نحوه مقاومةً فلو قدّر ان هذه الشريعة لم تكن في حيز الوجود او كانت منسية لما رأيت شعباً من الفطرة الانسانية يسعى بموجبها من مجرَّد طبعهِ

ولقد كان هذا الشعب برمتهِ يصيخ لكلام حجي وزكريا وملخيا الذين كانوا وقتئذٍ يتنبئون واقتداء بالانبياء سلفهم لم يكونوا ينذرون الا بموسى وشريعة الرب التي اعطاه اياها على جبل حوريب وذلك امرٌ معروف في كل الازمنة وتبعة الامة . وان لم يكن ذلك كذلك فماذا يقال في هذا الزمن عينهِ لدن انتباه هذا الشعب بانه قد اعتجب من تتميم نبوءة ارميا في مدة السبي سبعين عاماً فكيف اصبح سفر ارميا الذي صنفهٔ عزرا او غيره من الانبياء يوخذ بغتةً بعين التصديق . فباية خديعة امكن له ان يقنع شعباً برمتهِ والشيوخ الذين كانوا قد نظروا وهم لا يزالون منتظرين انقاذهم العجيب الذي انذرهم عنه في كتبهِ او نقدّر ايضاً ان عزرا ونحميا لم يكتبا تاريخ عصرهما بل كتبه باسمها مولفٌ اخر وان اللذين قد صنفا كل اسفار العهد العتيق وما تلا من الاجيال عضد لهما حتى ان مزورين آخرين قد قدّروا لهما تاريخاً ليقرروا ما اختلقوه من التزوير

وما تلك الأحماقة تبعث على الخجل فبدلاً من ان نقول ان عزرا ابرز الى الوجود فوراً كل هذه الاسفار المتباينة عن بعضها نفاساً وزماناً يقولون انه ادخل اليها العجائب والنبوءات التي تغري الناس بان تعتبرها الاهية فتكون هذه الضلالة اشرُّ من الاولى لان هذه العجائب والنبوءات هي منتشرة بمقدارٍ كهذا في كل الاسفار ومكررة ومنمقة بعبارات مختلفة كثيرة الاستعارات عظيمة الوقع وبايجاز القول انها داخلةٌ ضمن الاسفار هكذا معتبرين ان يقتضي ان لا يكونوا قد تصفحوها اذ لا يسهل عليهم ان ياتوا بما يضاهيها بان يضمنوها اموراً لا يود المحدون ان يروها فيها ولو مُنحوا كل ما يطلبونه . فكل ما فيها عجيب والأ فهي ركن الكتب المقدسة حتى انها تبدو قسراً عن كل اجتهاد . ولو قدرنا ان عزرا اضاف بعد الحادث النبوءات الى ما كان قد حدث في زمانهِ فمن يكون اذ ذاك قد اضاف الحوادث التي تمت فيا بعد على عهد انتيوخوس والمكابيين وغيرهم وهل من الممكن ان يكون الله قد منَّ على عزرا بروح النبوءة حتى يظهر خداعه مضاهياً للحق

وعلى ذلك يوءثرون ان يكون ذلك تزويرًا على ان يكون قام بهِ اشعيا او ارميا او دانيال او ان كل جيل ٍ كان منطويًا على مزوّر ذي سعادةٍ يصبغ له كل الشعب ومزوّرين حد يثين يكونون قد انحازوا الى الكتب المقدسة محبة في الدين حتى انه بعد ان يكون القانون قد تم وتكون الكتب قد انتشرت في كل الارض بين اليهود وترجمت الى كل اللغات الاجنبية يكون ذلك لدثار الدين في سبيل الغيرة على تشييده . فهل من الممكن ان شعبًا برمته يصح دون عناء بكل ما يعتقد الهيًا سواء كان اعتقاده بذلك خطأ او صوابًا وهل يتأتى ان احدًا يمكن له ان يقنع المسيحيين او المسلمين ان يضيفوا الى الانجيل او القرآن فصلاً واحدًا ولربما ان اليهود كانوا يتساهلون بمثل ذلك اكثر من غيرهم او انهم كانوا لايحترمون كتبهم المقدسة ككبيرهم . فيا لها من آراء خاملة نتشبث بها لما نشاء ان نلقي عن عواتقنا نير السلطة الالهية ولا ترتاب حواسنا واخلاقنا الأ بعقلنا الضال

الفصل الثامن والعشرون

في ان المصاعب التي يتخيلونها للكتاب المقدس يسهل دحضها لدى ذوي العقول الثاقبة

ليس من دأبك ان نقول ان البحث في هذه الامور صعب لانه لو كان صعبًا لاقتضى ان نسلم اما بسلطة الكنيسة او بالتقليد المتواتر منذ اجيال ٍ عديدة او ننكب فاحصين الى النهاية ولا نفتكر اننا نتملص من هذا التنقيب لدى قولنا ان يستلزم وقت نكرّسه اكثر مما نريد لخلاص نفوسنا ودخيلة الامر انه بدون ان نقلب بعياء عظيم ٍ كتب العهدين يقتضي ان نرى رسائل القديس بولس الحية البديعة الحاوية سائر حوادث الوقت والاشغال والحركات التي تمت وقتئذ ٍ والتي لها صفات خاصة ولا ريب ان هذه الرسائل التي كانت مقبولة في الكنائس التي ارسلت اليها قد انبثت في غيرها من الكنائس فهذه وحدها تكفي لتقنع العقول المستقيمة ان كل شيء حق في الكتب المقدسة التي سلمها الينا الرسل .

وعلى هذا نرى ان بعض هذه الكتب يقوم بناصر البعض منها لان اعمال الرسل

تابعة للانجيل ونقدره طبعًا رسالاتهم ولكن فلكي يكون كل شيء بالمطابقة تستلزم اعمال الرسل والرسائل والانجيل في كل مصر كتب اليهود القديمة لان القديس بولس وغيره من الرسل يستشهدون دائمًا بقول موسى وما كتبه وما قاله الانبياء او كتبوه بعده لان يسوع المسيح يستشهد بموسى والانبياء والمزامير معتبرًا انها شهادات للحقيقة عينها. ومتى اراد ان يفسر اسراره يبتدىء بموسى والانبياء واذ يقول لليهود ان موسى كتب عنه يجعل ما هو اكثر تحقيقًا لديهم اسًا وبذلك يقودهم الى جرثومة تقليداتهم . ومع هذا كله فلننتهِ الان لنقف على ما يعترضون هذه الشهادة المعروفة وما هو مقبول لدى كل الاجيال اذ لا يجب ان نوهن اقوالهم بجحد قدمية هذه الاسفار لانهم اجترئوا في ايامنا ان ينشروا تعاليم في كل اللغات ضد الكتب المقدسة . فماذا الذي يتعمدونه ليثبتوا ابتداع الاسفار الخمسة وما ذا الذي يعترضون به هذا التقليد الذي مضى عليه ثلاثة آلاف من الاعوام وليس له من عضد سوى قوته الخاصة . و يوءخذ من تواتر الامور ان لا شيء من اقوالهم متتابع ولا شيء لديهم محقق ولا خطير بل ما يتفوهون به بشان التعداد والمحال والاسماء كلّه اوهام وان هذه الملاحظات التي لا تعتبر في اي موضوع كان كمداخلات باطلة ليس لها قوة تشين بها جوهر الامور فانها تلمع الينا ببراهين قاطعة ضد اشياء متناهية في الاهمية . يزعمون ان قد يوجد صعوبات عظيمة في تاريخ الكتب المقدسة صعوبات لا تبرز الى الوجود لو كان الكتاب غير قديم او قام باعبائهِ رجل ماهر حصيف كما يقولون وكذلك ان هذه الصعوبات لم تكن لو كان الشعب الذي نقله الينا غير مدقق في رعايتهِ على كيانه ولو كانت له الحرية في تذليل صعابه وعدا ذلك فهو الصعوبات التي تنجم من طول الزمان اذ تتغير المحال بالنظر الى اسمائها واحوالها والتواريخ تكون قد تناست ولم تعد تواريخ العيال تعرف ولم تصحح الاغلاط المتأتاة من النسخ المهملة او ان بعض حوادث نسيها النوع الانساني بقي بعدها الابهام في جزء من التاريخ ولكن هذا الابهام هو في تسلسل الامور وفي ركنها فكلًا فكل الحوادث متناسقة وان ما هو مبهم يفيد قدمية الكتب المقدسة ووجوب تأدية الاحترام لها

يقولون ان قد يوجد تغيير في النص لان الترجمات القديمة لا تنطبق على بعضها وان النسخة العبرانية عينها فيها مناقضة بين بعض فقراتها في محال شتى وان نسخة السمرة تختلف ايضًا في مواضع عديدة عن نسخة اليهود عدا الكلمة التي يتهمونهم بتغييرها

عمدًا بشان هيكلهم على جبل غريزيم والذي يستنتجونه من ذلك هو ان اليهود او عزرا يكونون قد زوروا خمسة اسفار موسى بعد الاياب من السبي فكان من المقتضى ان تكون النتيجة عكس ذلك لان الاختلاف الذي في النسخة السامرية يفيد تثبيت ما قد قررناه وهو ان نسختهم لا علاقة لها بنسخة اليهود ولا يمكننا ان نتصور ان هولاء المنفصلين قد تخذوا شيئًا عن اليهود وعزرا اذ نراهم بالعكس لم يخلقوا الا بغضةً لليهود وعزرا وانفةً من الهيكل الاول والثاني وروايتهم بشان غريزيم ومن ذا الذي لا يرى انه لو صح زعم الملحدين لكان هولاء المنفصلون اتهموا اليهود باختلاق الكتب ولم يتبعوهم لكن هولاء المتمردين الذين رفضوا عزرا وكل الانبياء وهيكل اليهود الذي شاده سليمان واعده داود وعين محله فماذا يحترمون في خمسة اسفار موسى الا قدميتها السابقة عزرا والانبيا وسليمان وداود القدمية المجتمعة عليها الامتان اليهودية والسامرية فما اعز سلطة موسى وما اقوى حقيقة اسفاره الخمسة التي بدلاً من ان تزعزعها الاعتراضات تثبتها بقوة عظيمة

لكنك تقول من اين هذا التباين في النصوص والترجمات المتنوعة لعمري انه لا يتاتى الا من قدمية الكتاب نفسه وكيف اتصلت سلامة الذي تداولته ايادي الناسخين منذ اجيال جمة واللغة الذي كتب بها بطلت ان تكون مستعملةً ولندع هذه المنازعات الباطلة ونبت الجدال بكلمة واحدة وهي فليقل لي اي شاء ماذا ينتج من كل هذه الترجمات ومن كل المتن الا الشرايع نفسها والمعجزات عينها والنبوات نفسها وتسلسل تاريخ نفسه وتعليم واحد بعينه وقصارى الامر جوهر واحد نفسه . وبناء عليه فما هو الضرر الناجم من اختلاف النصوص وما الذي يهمنا سوى ثبات هذه الكتب المقدسة وما ذا الذي يمكن لنا ان نطلبه من الحكمة والعناية الصمدانية اكثر من ذلك

واما من قبيل الترجمات فهل من سمات التزوير والحدوثية كون لغة الكتاب المقدس قديمة بهذا المقدار حتى اننا لا نستجلي دقايقها ولا يمكن لنا ان نعبر عنها بفصاحة او بلاغة او بكل القوة او التدقيق الواجب لا لعمري بل ان كل ذلك بينة وضيحة على قدمية الكتاب ومن شاء ان ينقر في الامور الخنيرة فليقل لنا هل يمكن له ان يثبت بالبرهان او بالتقدير احد المشاكل التي براها في بعض فقرات فالاعتماد بذلك على صحة النسخ وبما ان التقليد لم يدع التعليم الوثيق يتعرض للفساد فان وجدت اغلاط اخرى فتفيد للبرهان على انه لم يكن احد يجدد شيئًا بهذه الكتب بروحه الخاص

وعليـــه فاليك قوة الاعتراض الم يضف شيء الى ما نصه موسى فمن ابن يناتى ان نرى قصة موته في آخر السفر الذي يعزى اليه والجواب اي عجب من ان الذين اتموا تاريخه اضافوا قصة موته السعيد الى كل اعماله لكي يحرزوا من الكل مجموعًا واحدًا

ولننظر في الاضافات الاخرى فاحصين اهي سنة جديدة ام طقس حديث ام قاعدة للايمان ام اعجوبة ام نبوة فما من احد افتكر بزيادة شيء من ذلك ولا يوجد شيء يحملنا على الظن به ولا شيء يدلنا البتة لان هذه الاضافة تكون قد ضمت الى عمل الرب والشريعة حرمت ذلك ومن يكن قد صنع ذاك فلا ريبة ان يكون سبب عثرة رائعة فماذا نقول اذًا فيمكن ان يكونوا قد اتموا تاريخ نسبة باشروه او انهم اوضحوا اسم مدينة حرف لتواتر الزمان ومن ذلك انهم قرروا الوقت الذي به بطل المن السماوي بعد ان اقتات منه الشعب اربعين عامًا لان هذا الحادث أثبت في سفر آخر هو سفر يشوع فعلقت عليه الملاحظة في سفر موسى فمكث حادثًا مقررًا ومشهورًا لدى كل الشعب . ويوجد اربع او خمس ملاحظات او حواشي على هذا النمط ماخوذة عن سفر يشوع او صموئيل او بعض الانبياء الاقدمين وبما ان هذه الملاحظات او الحواشي لا تشير الا الى حوادث معروفة لدى العامة وليس بالتسليم بها من صعوبة فلا عجب من ان تكون قد اثبتت في المتن ووصلت الينا بالتقليد مع غيرها فلا يبقى اعتراض ومع ذلك لا ينفكون عن ايهام عزرا وان تكن النسخة السامرية تبين لنا ان هذه الملاحظات ذات قدمية تفوق قدميته وقدمية انشقاق الاسباط العشرة فلا يعبأون بذلك بل يعزون في اية حالة كانت كل امر اليه

وان كانت هذه الملاحظات علقت في جيل اقدم فاسفار موسى الخمسة تكون اكثر قدمية وتزداد رعاية الحرمة لهذا الكتاب المقر للملاحظاته نفسها بقدمية متناهية ثم على هذا يكون عزرا قد كتب كل شيء ولكن ذهب من فاكرته ان قصده ان يجعل موسى يتكلم ويكون جعله يكتب بكل خشونة امورًا لم تتم الا بعده وعلى ذلك ايضًا يعود لازمًا ان نقول ان كل التاليف مختلق ومزور بسبب زيادة عبارة عليه وان شهادة كل الاجيال والتسليم العام به لا تجديه شيئًا من المنفعة . والامر بالعكس فان هذه الملاحظات التي يستندون عليها هي براهين جديدة على حقيقة الاسفار ولصدق اولئك الذين

قاموا بها وللذين نقلوها وهل حكم بذلك على تحقيق كتاب كان بالاستناد على براهين ضعيفة ولم يكن ذلك الا لان هذا الكتاب هو عدو الجنس البشري لانه يقسر البشر على ان يرضخوا لمقاصد الرب ويقمع ايضًا شهواتهم غير المنظمة فبناء عليه يقتضي محوه في اي وجه كان ويلزم تضحيته لراحة الفساد البشري

ولا تخالنّ ان الكفر يتأتى دون عوزه في كل هذه الامور المستحيلة التي شاهدته قد خامرها وانها تنكر على موسى والانبياء المعروفين اسفارهم رغمًا عما يثبته النوع الانساني وكل قواعد العقل السليم ونجحد تاريخهم لانّ له مفعولاً عظيمًا في هذه المادة لامرين وهما ان هذه الاسفار ممتلئة من كل هذه الحوادث العجيبة المزدانة بكل ظروفها الخاصة والمعروفة بانها حوادث ذائعة وحاضرة فاذا امكن تكذيبها سهل نكرانها والحكم باضمحلالها ولو لم تتوكأ على ذاتها لكانت وهت من زمان مديد بذاتها . ثم بعد ان يثبت تاريخها لا يبقى امكانٌ لانقضاء العلامة الثابتة التي تدل على الوحي الالهي الذي آثاره في اكثرها ولا ينكر تسلسل النبوات الشهيرة التي تكاثرت فيها

ولكي يجتنبوا هذه الاعاجيب وهذه النبوات عكف الكفار على الامور المستحيلة التي بعثتهم على الدهشة ولكن لا يجب ان يخالوا انهم بذلك تملصوا من ايدي الرب لانه ابقى لاسفاره المقدسة دلالةً الهية ليس من الممكن ازالتها وهي العلاقة بين العهدين . ولا ريب ان ليس من احدٍ ينكر ان كل العهد القديم كتب قبل الجديد وانه ليس هنا عزرا اخر يحمل اليهود على ان يخترعوا او يزوّروا كتبهم المقدسة لفائدة المسيحيين الذين يضطهدونهم ولسنا نحتاج الى حجة اخرى . ويتبين من تواصل العهدين ان كليهما من الوحي الالهي لان لهما مقصدًا واحدًا وتسلسلاً واحدًا فان احدهما يعد الطريق والكمال والاخر يظهرها ويوضحها واحدها يشيد الاساس والاخر يتم البناء وقصارى الامر ان احدهما يتنبأ عما يبديه الاخر كاملاً ومصنوعًا وبذلك نرى كل الازمنة مرتبطة ببعضها ويتبين لنا من هذا التسلسل مأرب الهيٌ وان تقليد اليهود والمسيحيين لا يتأتى منها الا دين واحد وان اسفار العهدين ليسا الا مجموعًا واحدًا وكتابًا واحدًا

الفصل التاسع والعشرون

في وسيلةٍ سهلة للترقي الى اصل الدين والوقوف على كنهه

ان هذا كله يتضح لدى كل من يعيرها جانباً من الانتباه ولكن بما ان كل العقول ليست بقادرة ان تقتري هذا القياس فلنقد العقول الواهنة قيادةً بدوية لنوصلها رويداً رويداً الى الاصل

فليعتبر الناس الشرائع المسيحية من جهة والشرائع اليهودية من اخرى ويتطلبوا اسمها ويباشروا ما آتفقوا عليه من الشرائع المسيحية وينظروا بالتدقيق الى القوانين التي تترتب عليها اخلاقنا ويلاحظوا كتبنا المقدسة اي الاناجيل الاربعة واعمال الرسل والرسائل الكاثوليكية ورموبا القديس يوحنا والاسرار والذبيحة والعبادة ومن الاسرار سر العماد حيث يرى تكريس الانسان باسم الثالوث الاقدس والافخارستيا اي السر الموضوع لحفظ تذكار موت المسيح ومغفرة الخطايا المتعلق بها وتدبير البيعة المسيحية عموماً والبيع خصوصاً والاساقفة والكهنة والشمامسة الذين دعي بهم للقيام باعباء سياستها . وكل هذه الامور الحديثة المفردة العامة لابدَّ لها من اصل ولكن ما هو اصلها وابتداؤها ايكون ذلك غير يسوع المسيح وتلاميذه لاننا اذا تدرجنا من جيل الى اخر رأينا ذلك فيه لا في جيلٍ قبله وتكون هذه الامور قد ابتدأت مشفوعة ببداءة الاسم المسيحي فاذا تقرر ان لنا معموديةً وافخارستيا وكل ما ذكر فالواضح لذاك لابدَّ من ان يكون المسيح وهو الذي منَّ على تلاميذه بارتقاء الدرجات وذكر اعماله وواسطة نعمته . وان كل الاسفار المقدسة كتبت برمتها من عهد الرسل لا قبل ولا بعد وتتفرع منها اصول السلطة الاسقفية وليس لها مصدر سوى ذلك. ولا غرو ان كان في اساقفتنا رأسٌ فذلك كان بين الرسل فمن هو الراس والاول بيننا فهو معروفٌ هكذا من بدء الدين المسيحي كخليفة من كان الاول والراس في عهد يسوع المسيح نفسه اي بطرس

اني اجترىء على ان اثبت هذه كلها واما الامر الاخير فهو كامر مقرر لا يمكن ان يلم به نزاعٌ او يخامره ريبٌ لدى سليم النية ويستحيل ان يرتاب في الاحوال الاخرى ويسهل بيانها من كلام الذين غالوا في اقامة الجدل فيها ولا فرق في ذلك ان كان بسبب

الجهل او بسبب محبة المناقضة

فتلك في مبادىء الشرائع المسيحية ونظام المذهب فلنتدرجنَّ الان في هذا الطريق عينهِ لنصل الى مبدأ الشرائع اليهودية واصلها وبما اننا وجدنا بتلك المسيح دون ان نتطالَّ الى ما وراء ذلك نلتجىء ان نتصل بموسى بالطريق نفسها والبراهين عينها اوان نتصل بالاصل الذي وضعهُ

ان اليهود ولنا شرائع وعوائد واسرارًا وكتبًا مقدَّسةً واحبارًا وكهنةً وعبادةً في الهيكل وان اكثر هذه لم تزل مرعيةً عندهم . وان الكهنوت كان قد ترتب في عائلة هرون اخي موسى وباقي الفرق بين الطغمة الكهنوتية من هرون واولادهِ اذ كلٌّ يتعلق بعصبتهِ وكلهم يصدرون من هرون دون امكان ان يعزوا الى من قبله . وان الفصح والاعياد الباقية ليست باقل قدمية وفي هذا الفصح كل شيء بذكر تلك الليلة حيث شعب الرب قد تملص من نير عبودية مصر . وان عدد الايام نفسه يفصل هذين العيدين ثم عيد المظال المقامة بغصونٍ خضراء التي كان الشعب يقطن فيها من زمنٍ مديد كل عامٍ سبعة ايام وسبع ليالٍ تذكارا لمكثهم في البرية اربعين سنة . وقصارى الامر انهُ لا يوجد عند اليهود عيد ولا سرٌّ ولا احتفالٌ الاَّ وضعهُ موسى او قرَّرهُ . اوان يكون موسومًا بنوعٍ ما بيد هذا الشارع العظيم

ولكن كل هذه الشرائع الدينية ليست من زمانٍ واحدٍ لان الختانة وحظر اكل الدم ورعاية السبت هي قبل موسى وقبل السنَّة المكتتبة كما يتضح ذلك من سفر الخروج. واما الشعب فكان حافظًا هذه التواريخ وموسى نفسه نقلها الى كتابه لان الختانة تاتي من ابراهيم ابي الامة ومن المعاهدة وحظر اكل الدم متصل بنوح والطوفان . وتواتر السبت يوصلنا الى تكوين العالم والى اليوم السابع الذي باركه الرب وحينئذٍ تم عمله العظيم . وبناء عليهِ فكل الحوادث الخطيرة التي تؤول الى تعليم المومنين وتثقيفهم كان ذكرها مرعيًا لدى اليهود وان هذه القواعد القديمة كانت تحرز في شعب الله بامتزاجها بالقواعد التي وضعها موسى قواعد دين الاجيال الماضية برمتها

وان قسمًا من هذه القوانين التي كان اليهود يؤدون رعايتها لم تبقَ مرعيةً بينهم في هذه الايام لان الهيكل قد دثر وبطلت بهِ الذبائح والقرابين والكهنوت القديم الشرعي لان اولاد هرون لم يبقوا معروفين بين اليهود اذ كل الاسباط اختلطت معًا ولكن

بما ان كل هذا كان لا يزال برمته لدن ما ني المسيح الذي كان دائمًا يعزو هذه كلها الى موسى لا نحتاج الى غيرها من البراهين ليتحقق لدينا ان كل هذه الامور تأتى من عهد قديم ومن اهل الامة نفسها

وان لم يكن ذلك كذلك فلننقرّ في الامور مدققين ونرنونَّ الى كل التواريخ اذ يمكن لنا الوقوف عليها ونقول قبل كل شيء لابدَّ من ان نصل الى عزرا . لان المسيح قد اتى قبل اقامة الهيكل الثاني . ومن المقرران هذا الهيكل شيد في ايام عزرا . وان المسيح لم يذكر في انجيلهِ الاَّ اسفار اليهود القانونية ولكن حسب تقليد الامة الدائم ان هذا القانون قد تم وانتهى في ايام عزرا دون ان يضيف اليه اليهود ادنى شيء فيما بعد . وكل هذا مما لا ريبة فيهِ بل مسلم من الجميع فبناء عليهِ يكون هذا العصر كتاريخ مضاعف اومحط عظيم له اهمية كبرى لتاريخ اليهود وخصوصًا لكتبهم المقدسة . الاَّ انهُ قد تقرَّر لدينا بكل صراحة انهُ لا يقتضي التوقف هنا اذ في هذا العصر يعزى كل شيء الى مبدا اخر . اذ اسم موسى يبدو دائمًا كاسم رجل يحترم الشعب اسفاره وكتبه وكل الانبياء الذين كانوا يعاصرونه او كانوا قبلهُ واسفارهُ هذه في اساس دين اليهود فلا نعتبر الان هولاء الانبياء موحيًا بهم من العلاء بل اناسًا بدوا ازمنة متباينة في عهد ملوك مختلفين . وان الشعب اصاخ لكلامهم معتبرًا انهم مفسرون للدين فينجم من ذلك ان خلافتهم وخلافة الملوك الذين يتصل تاريخهم بتاريخهم تقودنا بصراحة الى اصل موسى الذي تنتمي اليهِ . لان ملاخي وحجي وعزرا وذكريا الذين يعتبرون شريعة موسى انها موضوعة في كل آن يتصلون بزمان دانيال حيث يبدو صريحًا ان هذه الشريعة كانت معروفة لدى الجميع ويتصل دانيال نفسه بارميا وحزقيا اذ لا يبدو الاَّ موسى والعهد الذي عقده مع الرب والانذارات والعقابات المعدة لمن لا يدين لها . وان الجميع يتحدثون بهذه الشريعة كانهم يعرفونها منذ صباهم . ولا يذكرونها فقط كانها امرٌ مقبول في حيز الكيان بل تراهم لا يتهافتون على عمل ولا يفوهون بكلمة الاَّ يكون لذلك علاقة مكنونة بهذه السنة

ان ارميا يوصلنا الى يوشيا حيث اخذ يتنبأ وكانت شريعة موسى متعارفة وقتئذ ومشتهرةً لدى الجميع بانها من تآليف ذلك النبي الذي كان الشعب يتصفحها بمقلتيه ونبواتهِ التي كان يسمعها باذنيه . وقصارى الامر اي شيء جعل تقوى ذلك الملك

مشتهرةً في التاريخ اليس عكوفه من صغر سنهِ على هدم كل هياكل الاصنام التي اقامت عليها شريعة موسى نكيرًا ولقد احتفل باهتمام خاصٍ بالاعياد التي ابرمتها . منها عيد الفصح وكل العبادات التي لم تزل مكتوبةً في شريعة حزقيا وارتعد هو وشعبه اذ شعر انهم خالفوها غير عابئين بالرب الذي سنها ولكن لا يجب ان نتوقف هنا . فان حزقيا قد احتفل احد اجداده بعيد الفصح بكل اعتبارٍ لائق قاضيًا الارب بان يتبع شريعة موسى . ولم يفتأ اشعيا النبي يوعز اليها وقد اقتفاه بذلك غيره من الانبياء ولم يكن ذلك في عهد حزقيا فقط بل احقابًا طويلة في ايام سلفهِ . ولما اصيب احد اجداده يوشيا بالبرص طرده الشعب من الهيكل تطبيقًا لنص الشريعة وفصلوه عن الشعب بكل الاحتياطات التي قامت بها

فان هذا المثل المشهور في شخص ملكٍ عظيم ينبئنا ان الشريعة كانت دائمًا مشخصةً لدى ابصار الشعب ومعروفةً عندهم كي لا تاتي من جرثومة اقدم منه وليس يشق علينا لنرتقي من امازياس وبوشافاط وآزا وابيا ورحبعام الى سليمان ابيه الذي يغري برعاية شريعة ابائهِ بكلامه في سفر الامثال وهو : ارعَ يا بنيّ وصية ابيك ولا ترفض شريعة امك اعقدها في قلبك في كل حين واعصبها في عنقك وهي تهديك في سيرك وتحافظ عليك في رقادك واذا استيقظت فهي تحدثك لان الوصية مصباح والشريعة نور وتوبيخ التاديب طريق الحياة وفي قولهِ هذا لم يصنع شيئًا سوى انه كرّر ما كان قد قاله ابوهُ داود : شريعة الرب كاملة ترد النفوس وشهادة الرب صادقة تحكم الغبي . امر الرب مستقيم يفرح القلب ووصية الرب نقية تنير العيون وكل هذه ليست سوى تكرار ما تفوه بهِ هذه الشريعة نفسها واجراؤها وهاك ما نقوله . ولتكن هذه الكلمات التي انا آمرك بها اليوم في قلبك وكررها على بنيك وكلمهم بها اذا جلست في بيتك واذا مشيت في الطريق واذا نمت واذا قمت واعقدها علامةً على يدك . ولتكن عصائب بين عينيك واكتبها على عضايد ابواب بيتك وعلى ابوابك ومن ثم قد ارتأوا ان تاتى هذه الشريعة بوسائل خفية او ان في الامكان مزابلتها للفكر بعد ان كان من المحتم ان تكون مالوفةً ومتناقلةً بين ايدي الجميع . ومن مفاعيل الخديعة انهم طغوا كل الشعب والجثوهُ ان يذعن بان هذه الشريعة هي شريعة ابائهِ دون ان يرى في كل الازمنة آثارًا لا ريبة فيها فذاك رايٌ محاليٌّ

واما الان فبما ان كلامنا مقصور على داود وسليمان نقول ان صنيعهما العظيم الذي لم يمحَ ذكره من بين الشعب هو الهيكل . ولكن ماذا الذي صنعه هذان الملكان عندما اعدّا الهيكل وشيدا هذا البناء الذي لاضريب له فانهما لم يضعا شيئاً سوى ما نصته شريعة موسى التي كانت قد اوعزت ان يتخيروا مكاناً يحتفل فيه بعبادة كل الامة وتقدم فيه كل الذبائح التي انذر بها موسى . ويقام فيه تابوت العهد الذي اقامه في البرية وبنوعٍ لائق قبة العهد التي شادها موسى لتكون رسماً للهيكل الآتي وعلى ذلك لم تكن ساعة الأكان فيها موسى وشريعته حيين . وان تذكار هذا المشترع الشهير يتدرج من ملكٍ الى آخر ومن سنة الى اخرى حتى يتصل اليه

فلنذعنَّ اذاً ان تقليدات موسى في اجلى بيان وانها تبعث على ان تكون متبوعة وانها عرية من طائلة التزوير دون ريبة ومراء وان الزمان الذي تاتى منه هذه الخلافة يتصل بعضه بالبعض الاخر كي لايبقى فيه ادنى فاصل اوخللٍ يتكفلان بالتزوير فليت شعري علامَ نفوه باسم التزوير فانه لا يسوغ ان نخيل وجوده لو كنا نتهافت على شيء من الصواب . لان كل شيء ممتلىء من شريعة موسى ومنقادٌ بها ومستمد نوره منها ومن اسفاره ويستحيل ان تكون قد تناست في برهة وجيزة . وقد اقيمت حجج راهنة على ان النسخة التي اقامها في الهيكل حلقيا الكاهن العظيم في السنة الثامنة عشر للملك يوشيا وتقدمت له كانت وحدها باقية وقتئذٍ وذلك لان ماذا الذي يكون قد قضىٰ على باقي النسخ بالفناء . وما يكون قد طرأ على اسفار هوشع واشعياء وعاموس وميخا وغيرهم من الذين كتبوا فوراً قبل هذا الحين واسفار كل الذين اقتفوهم بالعمل والتقوى . فبناء عليه اين يكون ارميا قد تعلم الكتب المقدسة وهو الذي كان قد شرع يتنبا قبل هذا الاكتشاف ومنذ السنة الثالثة عشر للملك يوشيا لان الانبياء كانوا يشكون من ان الشعب كانوا يخالفون شريعة موسى . ولم يكن افضى بهم الامر الى ان فقدوها ولا نقرأ ايضاً في الكتب ان احاز ومنسى وعمون او احد الملوك الكفرة الذين كانوا قبل يوشيا حاولوا اتلاف هذه الاسفار لان شروعاً كهذا كان يبعث على الجنون والمحال لمقدار ما كان فيه من الكفر . وان ذكر هذا العمل لايمكن ان يكون قد زال مطلقاً ولوانهم راموا محو هذه الاسفار في مملكة يهوذا . بيدَ ان سلطتهم لم تكن تمتد الى اراضي مملكة اسرائيل حيث تكون قد رُعيت هذه الكتب . ويتضح من ذلك ان السفر الذي اتى به الكاهن

العظيم الملك يوشيا الاّ نسخة مدققة ومحققة اكثر من غيرها يكون قد نص على عهد سلفهِ ووضعه في الهيكل او بالاحرى ان هذه النسخة انما هي النسخة الاصلية التي امر بها هذا الشارع الحكيم ان تقام جانب تابوت عهد الحرب لتكون ثمَّ عليهم شاهداً: وهذا ما يشير اليهِ كلام الكتاب المقدم وهو: وجد حلقيا الكاهن سفر توراة الرب بخط موسى . ومهما كان المعنى الذي تؤول اليهِ هذه الكلمات فمن البين ان لم يكن شيء اقدر من هذا يتيقظ بهِ الشعب الغبي وتحيي غيرته بتلاوة الشريعة التي كانت كما ظنَّ مهملة ومن اكبر الوسائل التي تتلى بها النسخة الاصلية المهمة الموضوعة في الهيكل باهتمام موسى واوامرهِ كشاهدٍ على تمرد الشعب ومخالفة الوصايا دون ان نلجأ الى ان نتخيل الامر غير الممكن اي ان شريعة الرب اصبحت منسية او لم يوجد منها الاّ نسخة واحدة . لكنَّ ذلك بعكس الامر فقد يتضح ان اكتشاف هذه النسخة لم يفد الشعب شيئاً جديداً بل يحمله على ان يصيخ لصوتٍ معروفٍ لديه وهذا الامر حمل الملك على ان يقول: اذهبوا فاسئلوا الرب لي وللباقين في اسرائيل ويهوذا من جهة كلام السفر الذي وجد لانهُ عظيم غضب الرب الذي انصبَّ علينا لاجل ان آباءنا لم يحفظوا كلامهُ ليعملوا بكل ما كتب في هذا السفر

وبعد كل هذا لا يقتضي ان نُعنى بان نفحص بنوعٍ خاصٍ كل ما خاله عديمو الايمان والعلماء الدجالون والمنتقدون الزاهقون بشان تزوير اسفار موسى لان هذه الاشياء الخيالية يعثر عليها في كل مكان وكل زمان لاسيما في عهد عزرا فترى في الشعب نفوراً لا يمكن قمعه فيتخذ كثيء قديم ما لم يكن سمع بهِ البتة وكشيء اتى من موسى معروفاً مقرراً ما يكون قد وضع حديثاً بين اياديهم

ويلزم ايضاً ان لا يزايل الفكرة ما ينوط بالعشرة الاسباط وهو الامر الذي لا يكثر تعداده لان هذا التاريخ هو من اهم الحوادث المنوطة بتاريخ الامة فان مملكة اسرائيل الجديدة تكونت حينئذٍ وانقسمت شطرين وهما مملكة داود ومملكة سليمان . وعليهِ فاذا كانت اسفار موسى مكتشف في الامتين كارثٍ عامٍّ فلا ريبة انها اتت من اباء الفيئتين قبل الانشقاق وبناء عليهِ فانها اتت من سليمان وداود وصموئيل الذي كرسهُ ملكاً وعالي الذي تعلم صموئيل في ايامه وهو طفل عبادة الرب وحفظ الشريعة التي كان داود ينشدها في مزاميره التي كانت عرضة لغناء الجميع وسليمان في احكامهِ التي تداولتها

ابادي كل الشعب وقصارى الامر انك كلما تاخرت في الاجيال ترى دائمًا شريعة موسى مقرَّرة ومعروفة لدى الجميع ولا يمكن ان ترى مقرًّا الَّا في سفر موسى نفسه وفي الاسفار المسيحية . ولا مقرٌّ الا في زمان المسيح والرسل .

ولكن ماذا الذي نراه في هذا المقر او ماذا الذي نراه في هذين المقرين اللذين لا يحولان وهما زمان موسى والمسيح . فانَّا لا نرى اذ ذاك سوى الاعاجيب الساطعة والمعجزات الراهنة التي تبين كما سبق القول ارسالية هذا وذاك . فمن جهة ترى ضربات مصر وعبور البحر الاحمر والشريعة التي منَّ بها الرب على جبل سيناء وافتتاح الارض وكل المعجزات الاخرى التي كانوا يقولون عنها للشعب انه شاهدها باعينهِ . ومن اخرى ترى شفاء الامراض العديدة وانبعاث الموتى ويسوع المسيح نفسه الذي اثبت انبعاثه الذين شاهدوهُ وحققوه حتى الموت اي كل ما نتمناهُ لتقرير حقيقة حادثٍ لان الله نفسه (ولا اخشى ان اجترئَ على ان اقول ذلك) لا يمكنه ان يصنع شيئًا اكثر وضوحًا لتثبيت حقيقة حادثٍ الَّا بان يعرضه على شهادة الحواس ولان يبرز برهانًا لتصديق الشهود اقوى من برهان موتٍ في معمعة العذاب

ولكن بعد ان تصعَّدنا من الفئتين اليهود والمسيحيين وصلنا الى جرثومة متناهية في الالوهة والغرابة حتى لم يبق علينا شيءٌ لتكملة صنيعنا الَّا تبين ان رابط هاتين الشريعتين اثبات من لدن الباري تعالى ولاريب انهُ يقتضي ان يكون رابطٌ بين افعالهِ وان كل شيءٍ يكون صادرًا من مقصدٍ واحدٍ وان الشريعة المسيحية التي اتت اخر الامر يجب ان تكون متصلة بالاولى وذلك امرٌ لا يمكن لاحد نكرانه . ولا ينكر احدٌ ايضًا ان اليهود كانوا ينتظرون المسيح ولم يزالوا ينتظرونه وان النبوات التي عندهم لا تسوّغ ان نرتاب بان المسيح الذي وُعدَ بهِ اليهود هو نفسه الذي نعتقد بهِ

الفصل الثلاثون

في ان النبوات تنحصر في ثلاثة حوادث بيِّنةٍ
وان مثل ابن الله يقرب ارتباطها

بما ان البحث في النبوات الخاصة يناط بحوادث كثيرة لا يستسهل الجميع ادراكها

وان تكون ذات انوار باهرة قد اصطفى الرب بعضاً منها جعلها محسوسة لدى الذين توغلوا كثيراً في عباب الجهالة والهمجية فهذه الحوادث الساطعة التي شاهدها العالم كافةً هي التي قد بذلتُ غاية الجهد في ان اسلسلها لديك . وجلها دثار شعب اليهود وارتداد الامم وكلاهما حدثا معاً في الوقت الذي انتشر فيه الانجيل وبدا يسوع المسيح

فهذه الامور الثلاثة المتحدة في تسلسل الزمان كانت اكثر اتحاداً في تسلسل احكام الرب فقد شاهدتها جاريةً معاً في النبوات القديمة . واما يسوع المسيح المفسر للنبوات وارادة الرب ابيه فقد ابان لنا هذا الاتحاد باجلى بيان في انجيله لانه قد صرّح ذلك في مثل الكرمة ذات الاوان لدى الانبياء قائلاً ان سيد بيت غرس هذه الكرمة اي الدين الحق الموطد على عهده ووكل بها عملة يحرسونها اي اليهود ويجنون ثمرته وارسل عبيده مراراً وهم الانبياء . واما العملة الجاحدون فقد اغوتهم نفوسهم بان تعمدوا قتل عبيده . ولكثرة حوادثه بعث اليهم ابنه فامتهنوه اكثر من العبيد فلذلك التجأ الرب ان ينزع من ايديهم الكرم ويكل به عملةً غيرهم اي ينزع عنهم نعمة ميثاقه فيسلمها الى الامم فاقتضى اذ ذاك ان تحدث هذه الامور الثلاثة معاً وهي ماتى ابن الله ورذل اليهود ودعوة الامم ولم يحوجه مثل لزيادة الايضاح بل ان واقعي الامر يتكفل ببيانه .

قد وضح لديك ياسيدي ان اليهود يذعنون بان مملكتهم اخذت تندحر في ايام هيرودوس لدن ماتى المسيح الى العالم واما اذا كانت مخالفتهم لشريعة الرب تلقي بهم الى ورطة يبنه في السلطة فدثارهم الاخير الذي لم يبرح في حيز الكيان لابد ان يكون عقاباً على اعظم جريرة . فهذه الجريرة زائد بيانها وهي تجدهم المسيح الذي كان قد اتى ليعلمهم ويخلصهم من نير الاسترقاق فلذلك قد القى على عواتقهم نير عبودية باهظ لا يطيقون الرزوح تحته ولولا ان الرب يرعى وجودهم ليخدموا المسيح الذي اذاقوه مرارة الصلب لبادوا

وهاك حادثاً ثبتاً عاماً هو دثار مملكة شعب اليهود طراً في زمان يسوع المسيح وارتداد الامم فقد كان ذلك يقتضي له ان يتم في الوقت عينه ايام كانت العبادة القديمة تتلاشى في اورشليم واندثر الهيكل فاخذت اذ ذاك عبادة الاوثان تتناقص في كل الجهات وهبّ الشعوب الذين كانوا قد نسوا خالقهم منذ الوف سنين من ثبات رقادهم المستمر

ورجاء ان كل الاحوال تنطبق على بعضها طفقت المواعيد الروحية تنتشر بانتشار

الانجيل ايام كان شعب اليهود المنتهر والاسير في اقاصي البسيطة فقد المواعيد الزمنية وحبطت آماله بالحصول على العظمة الجسدية . ومن ثم انذر بالسماء كل الذين يتناسون بحمل الاجتهاد في سبيل العدل واخذوا يكشفون اسرار الحبوة الاتية موقنين ان السعادة الحقيقية قاصية في هذه الارض عن مثوى الموت حيث تتكاثر الخطايا والشرور والمشقات

ومن لا يرى ها هنا رأيًا سرمديًا متبعًا وتسلسل احكام الرب الذي اعدَّ منذ بدء العالم ما يتممهُ في اخر نهايته ويقرر امام اعين البشر العصابة المقدسة حيث يشاء ان يؤدوا له العبادة في الممالك المتباينة بخلافةٍ سرمديةٍ ثابتة فمن لا يرى هذا لا يستحق ان يرى شيئًا بل يتطوح الى عمه القلب كأن ذلك اعدل العقاب واصرمه

وامل ان يكون تسلسل شعب الله ساطعًا امام قليلي البصيرة انفسهم قبضة بان يكون محوسًا وبينًا بحوادث لا يمكن لاحدٍ ان يقيم عليها نكيرًا الا اذا غمض مقلتيهِ اختياريًا كي لا يرى الحق لان العبرانيين كانوا منتظرين المسيح فاتى ودعا الامم كما قد تنبىء عنه والشعب الذي وثق بمجيئهِ انحاز الى الذي كان يستنظره بدون ان تحسن الانفصالات ساعة واحدة واصبح هذا الشعب ممتدًا في كل البسيطة ولم تبرح الامم تنحاز اليهِ وهذه البيعة التي شادها المسيح على وجه الارض رغمًا عن الجحيم لم تتزعزع البتة

الفصل الحادي والثلاثون

تابعٌ لما انف بشأن البيعة الكاثوليكية وبانتصارها على كل البدع

يالها من تعزية عظمى لبني الرب ويالهُ من تأكيد عظيم بوطد الحقيقة وذلك اذ يرون انهم مستطيعون ان يرتقوا استمرارًا منذ انوشنسيوس التاسع المستوي وقتئذٍ بكل فخر على اول كرسي البيعة الى بطرس الذي اقامه السيد المسيح رئيسًا على الرسل ومن ثم اخذ الكهنة الذين كانوا في عهد الشريعة الموسوية يتصلون الى هرون وموسى وبعد ذلك الى الاباء وابتداء العالم . فيالهُ من استقراءٍ عظيم ويالهُ من تقليدٍ جميل ويالهُ من تسلسلٍ عجيب فان كانت عقولنا بالطبيعة في ريب واضحت بسبب ترددها العوبة حججها الخاصة نخنع ان نتقرر ونتثبت بسلطة محققة في المشاكل المختصة بالخلاص . افيوجد سلطان اعظم من سلطان البيعة الكاثوليكية التي تحرز في ذاتها كل سلطان الاجيال

الآنفة وكل تقليدات النوع الانساني الى ابتداء تكوينه

وبناء عليهِ ان الجمعية التي وطدها المسيح المنتظر في كل الاعصار الغابرة على الصخرة حيث القديس بطرس وخلفاؤه مزمعون ان يجلسوا بامرٍ تثبت بتسلسلها وهي حاملة بثباتها المستمر سمة يد الرب

وهذه الخلافة عينها ليس بامكان هرتقة او بدعة او الفة اجتماعية ان تستاثر بها بل ذلك منوط ببيعة الرب ولا ريب ان الاديان الافاكة امكن لها ان تقتفي آثار البيعة في امور شتى وار بابها يزعمون ان الله وحده شيدهم ولم يكن هذا الكلام الا فارغًا لان الله اذا كان فطر الجنس البشري وخلقه على مثالهِ فكيف يخدمهُ ويكرمه . وبناء عليهِ فكل شيعةٍ لا توضح خلافتها من ابتداء العالم ليست من الرب ولذلك تخرّ امام البيعة المقدسة كل الجمعيات وكل الشيع التي شيدها بنو الانسان في النصرانية وغيرها

والمبتدعون الذين قاموا باعباء شيع جديدة بين المسيحيين امكن لهم ان يسهلوا الايمان باقل رضوخٍ بجحدهم للاسرار التي تفوق الحس وامكن لهم ان يخلبوا البشر بظواهر التقوى وان يبدروهم بفصاحتهم واهوائهم ويجذبوهم بحداثة المذهب والفساد سواء كان عقليًا ام خلقيًا . وقصارى الامر امكن لهم ان يخلبوا نفوسهم او الغير اذ لا شيء ينطبق على الطبع البشري اكثر من هذا ولكن فضلاً من انهم لم يتمكنوا من ان يفتخروا بصنيع معجزاتٍ مشهورة او بحصر مذهبهم في حوادث مقررة يشهد لها اصحابهم بوجد ابدًا امر يشق عليهم ليس في وسعهم ان يستروه وهو امر حداثتهم . وهذا يبدي لدى كل بني الانسان ان قد انفصل مذهبهم وتابعوه والشيعة التي وطدوها عن هذا الجسم العظيم وعن البيعة القديمة التي اسسها يسوع المسيح حيث بطرس وخلفاؤه استولوا دائمًا على اول مركز وجدهم كل المشيعين جالسين فيهِ . ولم يفتأ وقت الانفصال مقررًا حتى ان المبتدعين انفسهم لا يمكن لهم ان ينكروه ولا يجترئون ان يحاولوا الخروج من الجرثومة عينها بتسلسل لم يكن قد انقطع البتة . وبهذا يقوم وهن كل البدع التي ارتكبها الانسان . وما من احدٍ يمكن له ان يغير الاجيال الغابرة او يقيم له سلفًا او يزعم انهُ وجدهم اقتناء

ان البيعة الكاثوليكية تستولي وحدها على كل الاعصار الفارطة باستقراء لا ينكر عليها لان الشريعة سبقت الانجيل ولم تكن خلافة موسى والاباء الا سلسلةً واحدةً متصلة بخلافة المسيح . ومن جل صفاته التي تثق بها غاية الوثوق في ان يكون ماتاهُ مترصدًا .

وتعترف بهِ ذرية تمكث الى انتهاء الاجيال لان يسوع المسيح هو امس واليوم والى مدى الدهر

وفضلاً عن ان البيعة المسيحية موطدة وحدها على اعاجيب الهية كتبت علانية غير مخشيٍّ عليهِ من ان تكذب في الوقت الذي حدثت فيهِ . فهناك اعجوبةٌ اخرى تستمرُّ في سبيل تعزيز اولئك الذين لم يكونوا في ذلك العصر . وهذه الاعجوبة تقرر ما سواها من الاعاجيب وهي قائمة بتتابع الدين الذي لم يفتأ يفوز بالضلال الذي حاول ازالته وزد عليهِ نتيجةً اخرى هي نتيجة عقاب اليهود البادي المستمر لانهم لم يقبلوا المسيح الذي وعد بهِ آباؤهم . ومع ذلك كله فلم يزالوا يترقبونه وانتظارهم الباطل جزء من عذابهم ويبدون بارتقابهم اياهُ انهُ كان دائمًا مستنظرًا ويقررون حقيقة الدين كانهم حاملون كل تسلسل الدين مرقوشةً على جباههم . وترى بلحظة كل من كان آنفًا فلماذا صاروا كما تراهم . والى اي شيء هم معدّون . وعليهِ فان اربع او خمس حوادث مقرّرة تفوق نور الشمس وضوحًا ابانت ان ديننا قديمٌ كالعالم ويبدي تالي الزمان ان لا نشأةً لما بغير خالق العالم القابض على كل شيء بيدهِ وهو وحده وامكن له ان يباشر هذا المارب ويقبضه الى الغاية في كل الاجيال

وبناء عليه لا يقتضي ان ياخذنا العجب كما يحدث اعتياديًا من ان الله يعرض على اعتقادنا مقدارًا كهذا من الاشياء اللائقة بشانه وهي تفوق قوة العقل البشري ويقضي علينا بان تاخذنا الدهشة من وجود اناس في العالم يعمون قلوبهم كي لا يامنوا بعد العلم ان الباري وطد الايمان على اسّ يتناهى في الوطود والراحة . فعلة هذا كله اهواؤنا المتمردة واستمساكنا بالحوادث وكبرياؤنا الشامخة ولهذا نؤثر ان نخاطر في كل شيء على ان نقسر نفوسنا على الرضوخ ونوثر ان نغالي في الجهل على اقرارنا بالحق ونوثر ان نرضي رغبتنا الفاحشة ونرعى في عقلنا المتمرد حرية الافكار في كل ما نشا على ان نرزح تحت اثقال السلطة الالهية

ومن ذلك ينجم ان قد يوجد عديد وافر من الذين لا يثقون والله يسمح بذلك لتعليم ياتيه لانه لولا عميو القلوب والغائصون في لجة التوحش وغير المومنين الذين في حجر البيعة لما كنا نعرف صريحًا فساد طبعنا العظيم ولا الوهدة التي نشلنا منها المسيح . فلو كانوا لم يعارضوا حقيقته المقدسة لما كانت ابصارنا وقعت على هذه الاعجوبة التي

رعاها قسراً عن كل المناقضات ولكننا نسينا اخيراً انا فزنا بالنعمة فالان عدم امانة البعض يحمل البعض الاخر على الضعة ويبدي المتمردون الذين يقاومون مارب الرب القدرة التي بها يتم مواعيده للبيعة غاضاً الطرف عن كل امر آخر

فما الذي نرتقب لنرضخ انترصد من الله معجزات جديدة يجعلها عديمة الافادة بتكرارها وان يحيط بها ابصارنا كما اعتادت على مسير الشمس وكل عجائب الطبيعة . فاننا ننتظر صمت الكفرة والعتاة . وان الصلاح والطلاح يعززان معاً الرضوخ للحق . ويوثق بنو الانسان قاطبةً على اهوائهم واوطارهم . وان العلوم الفاسدة التي تطغي البشر بقوة حداثتها لاتستمر تداهيهم . الا يكفينا ان نرى البشر غير قادرين ان يقاوموا الدين الا باظهارهم بضلالهم المبين بطلان احكامهم . وان دفاعهم لامسند لها الا الجهل والتكبر فالبيعة التي فازت بالاعصار والضلالة ليس في امكانها ان تظهر في عنوانها على الحجج الزاهقة التي نستظهر بها على مقاوميها . ولا يمكن للمواعيد الالهية التي نرى تتميمها كل يوم ان تُصعدنا فوق المشاعر

ولا ينتقد الناس علينا بقولهم ان هذه المواعيد يتوقف تتميمها ولا يمكن لنا ان نتحقق بتتميمها الا بانتهاء العالم اذ انها تمتد الى نهايته . وعكس ذلك ان ما قد تمَّ ينبئنا عما هو مزمع ان يتم وكل النبوات القديمة التي تمت بكل صراحةٍ تبين لنا ان كل شيء سوف يتم وان البيعة التي لايقوى عليها الجحيم حسب مواعيد ابن الله تمكث الى الابد والى انتهاء العالم لان المسيح الذي صدق بكل شيء لم يضع نهاية لكيانها

وهذه المواعيد عينها توكد لنا الحيوة المستقبلة لان الله الذي صدق بتتميم ما يناط في الزمان الحاضر لا يكون اقل صدقاً بتتميم كل ما يناط بالزمان المستقبل فكل ما نشاهده ليس سوى استعداد له وان البيعة سوف تكون على البسيطة غير مقموعة ومزعزعة حتى ان كل بنيها يجتمعون وتنتقل بهم برمتها الى السماء مثواها الحق

وقد اعد للذين هم خارج هذه المدينة السموية تبريح سرمديٌّ ولن يبقى لهم الا عذاب ابديٌّ اذ انهم فقدوا بجريرتهم سعادة ابدية وبناء عليه سوف تتم احكام الرب ومواعيده بحالٍ لايعتورها تغير وان وعوده صادقة وحقيقية وكل ما يتممه في الوقت يقرر ما بامرنا بامله او بالخشية منه في الابدية

فهاك باسيدي ما ينبئنا عنه تسلسل الحوادث الدينية كما رفع لديك بوجيز العبارة .

وبواسطة الزمان يقودنا الى الابدية فعثرت على نظام محكم في مآرب الرب وسعة سلطنتهِ البينة في استمرار شعبهِ وعلمت منه ان البيعة لها عضو دائم الوجود لا يمكن الانفصال عنهُ الا بهلاكنا وان الذين محتقلون بهذا العضو وقائمون باعمالٍ لائقة بامانتهم يقررون لنفوسهم حيوة ازلية

فتحرَّ تسلسل حوادث البيعة التي توطد لديك كل مواعيد الرب واحكم على ان كل ما ينفصل عن هذه السلسلة ويزايل هذا الاستقراء وكل ما يرتفع بذاتهِ ولا ياتي حسب المواعيد الممنوحة للبيعة منذ ابتداء العالم مكروه . وافرغ ما عندك من الجهد لتجرَّ الى هذه الوحدة كل من يكون قد زايلها أغرِ الجميع بان يرضخوا للبيعة التي بها ينطق الروح القدس بنبواتهِ

وان سؤدد اجدادك ليس قائم بعدم تركهم اياها فقط بل بانهم قاموا بناصرها ايضًا واستأهلوا بذلك ان يدعوا بنيها الابكار . فهذا من اعظم القابهم المجيدة . وليس لي حاجة ان احدثك عن كلوفيس وكارلوس العظيم والقديس لويس بل اعتبر العصر الذي انت فيهِ ومن هو الاب الذي اراد الله ان تولد منهُ . وقد امتاز هذا الملك العظيم في كل امر بامانتهِ اكثر من سائر صفاتهِ الحميدة فتراه يذود عن الدين داخل المملكة وخارجها وفي اطراف العالم . والشرائع التي سنها هي من اعظم مترسات البيعة ولاتبان سلطتهُ الموقرة بسبب صفاتهِ الشخصية وجلالة صولجان ملكهِ موطدةً باكثر احترامٍ الاّ لدن مدافعتها عن حقوق الرب فذلك حجز عن سماعنا صوت التجديف واخذ الكفر يفرق خوفًا ولا ريب انهُ الملك الذي اوعز اليه سليمان مبدّد الشر بنظرهِ وان كان نجم البدعة بكل هذه الوسائل اكثر مما صنع اسلافه . لا بما انهُ يخشى منها على عرشهِ لان السكينة احاطت الكل وطاطأ الجميع امام سلاحه غيرانه يحب شعبه ويعرف ان يد الرب اجلسته على عرشٍ ليس فوقه عرش . فيجيم من ذلك ان احسن وسيلةٍ يقوم بها هو ان يستخدم سلطته ليشفي قروحات البيعة

فاقتفِ ياسيدي هذا المثل الصالح واستبقهِ لذريتك وانذرهم بالبيعة اكثر من هذه المملكة العظيمة التي حكمها اجدادك منذ اجيالٍ عديدة وان سراتك التي هي اجل ما يكون في العالم تكون اول مدافعة عن حقوق صمديتهِ وتبسط في العالم اجمع ملك يسوع المسيح الذي يقيض لك ملكًا مجيدًا

الجزء الثالث

في الممالك

الفصل الاول

في ان تقلبات الممالك رتبها الباري عز وجل لتقمع تكبر الملوك

ان لم يكن شيء يضاهي تسلسل البيعة الحنيفية الذي اوقفتك عليه فمع ذلك ان تسلسل الممالك الذي قد عهد بي بسطها لديك لاتجدي منفعة لمن هو نظير جلالتكم من الملوك او للافراد الذين ينظرون في هذه المواضيع العظيمة اسرار العناية الصمدية

اولاً — ان هذه الممالك لها شديد الوثاق بتاريخ شعب الله لانهُ تعالى اتخذ الاشوريين والبابليين آلة للانتقام منه والفرس لنجاته وعوده الى اراضيه والاسكندر وخلفاءه الاولين للدفاع عنه وانتيوخوس ابيفان وخلفاءهُ لتعويده على احتمال الشدائد ثم الرومانيين ليدرأوا ملوك سوريا الذين لم يكونوا يفكرون الا باستئصالهِ لان بذلك رعاية حريتهم . ومكث اليهود حتى مجيء المسيح تحت شوكة الرومانيين . وبعد ان جحدوه وصلبوه اعانه الرومانيون على الانتقام الالهي دون ان يفكروا بذلك وجعلوا ذاك الشعب العقوق هباء منثوراً واذ ازمع الله ان يولف شعباً جديداً من كل الامم ضمّ ملك الارض والبحر الى هذه المملكة واتخذ كل تلك الانصالات المتباينة التي لم يكن لها رابط الى ذاك الحين وسيلة لنشر انجيلهِ . فاذا كانت الدولة الرومانية قاست في هذا الشعب الجديد مدة ثلاثمائة سنة اضطهادات عظيمة فوطد هذا الجور اركان البيعة المقدسة وادى مجدها وايمانها وصبرها . وهكذا اقرت المملكة الرومانية بالرضوخ اذ وجدت ما فاتها ظفراً وخضعت لهذه الكنيسة التي طالما كانت عرضةً للاضطهاد الشديد وكما ان القياصرة صرفوا اقصى جهدهم في اخضاع البيعة كذلك اصبحت رومية عاصمة المملكة الروحية التي اراد المسيح ان ينشرها في كل المسكونة

وبعد ان تزعزعت السلطة الرومانية واعتراها رغماً عن وعدها لنفسها بالخلود ما

اعتري الممالك السابقة من الدثار اذ اصبحت فريسة للبرابرة لم تزل رومية على عظمتها
لرعايتها للدين المسيحي لان الامم التي اغارت على المملكة الرومانية واستولت عليها
اقتبست منها رويداً رويداً الدين المسيحي الذي الان عرائك رجالها ولم يجد ملوكها
الذين خلفوا القياصرة ما يوليهم اكثر مجداً من ان يدعوا محامين للدين المسيحي

وعلينا ان نطلع على غوامض الاحكام الالهية بالنظر الى المملكة الرومانية ورومية
نفسها. وقد اوضح هذه الاسرار الروح القدس ليوحنا وهذا الرسول الملهم من روح النبوة
والانجيل فسرها في رؤياه فكان يعز على رومية ان تنبذ عبادة الاوثان جانباً اذ شاخت
وهي مستمسكة بها . وزيادة على ذلك فان مجلس الندوة كان يحسب محاماة آلهة رومالوس
التي كان ينسب اليها انتصارات المشيخة القديمة مجداً وفخراً وقد سئم القياصرة من طلب
هذا المجلس على ايدي مبعوثيه الغاء النصرانية وتشييد اصنامها لانه كان يخال ان درء
رومية عما كانت عليه من الخزعبلات عار يلحق بالاسم الروماني . ومن ثم لم يكن
انذار الانجيل وغيره من النبوات الصادقة وارتداد المملكة قاطبة الى النصرانية مع
ملوكها الذين مهدوا الطريق الى هذا الدين كفوا لردع هذه العصبة الشهيرة المنضوية
على اعظم رجال رومية واشهرها خاصة وعامة عن غربها . ولم يكتفوا من ان يلحقوا
بها عاراً وينوا اليها كل ما ألمّ بها من الخطوب والرزايا . ولو كانت القياصرة تعتمد
قممهم لكانوا جددوا الاضطهادات القديمة . وكانت الامور دائرة على محورها في الجيل
الرابع اي السنة المائة بعد قسطنطين اذ تذكر الله الاحكام الدموية التي طرأت على
المسيحيين . وفي الوقت نفسه هتف الشعب الروماني الرائع في مراسحهم عند مشاهدتهم
دم المسيحيين فسلم هذه المدينة الظمآى لدم المسيحيين حسب قول يوحنا الحبيب الى
البرابرة وانزل بها البلايا الذريعة التي اهبطها ببابل قصاصاً لها. ولذلك دعوا رومية
بهذا الاسم . وهكذا سقطت بابل الجديدة كالقديمة وكان سقوطها عظيماً لانها تسنمت
بالقديمة بازدهائها لدى الفوز وبافتخارها بالاموال والملاذ وتدنست مثلها بعبادة
الاوثان وضهدت مثلها شعب الله . وانبأ يوحنا الحبيب عن دمارها مترنماً فعريت
اذ ذاك من المجد الذي نالته بفتوحاتها المنتمية الى الهاتها وامست مضغة في وسكانها في
افواه البرابرة الذين تبوئوها اربع سنوات بعد ان نهبوها وذهبوا برسومها ولم يعف
البرارة الا عن المسيحيين ولم يتم انتصار المسيح الا بعد هجوم البرابرة فبرزت مدينة

مسيحية من دمار رومية القديمة وامست معابد الاوثان مضروبًا عليها سرادق النسيان بعد عفو رسومها

وعلى هذا فتسلسل الممالك عائد على الدين بالنفع وعلى شعب الله بالرعاية. وقد ابدى عز جلاله لانبيائهِ تسلسل هذه الممالك كما ابدى لهم حالة شعبه المختلفة. ورايت من هذه النبوات ما يشعر بقدوم بختنصر كانهُ رجل معد للانتقام من الشعوب المتناهية في الازدهاء ولاسيما الشعب اليهودي العاق وقبل ان ولد قوروش بمئتي سنة اشير اليهِ باسمهِ انهُ يكون ملكًا معدًا لارجاع شعب الله وقصاص كبرياء بابل . ومنها دثار نينوى المخبر عنه بنوع صريح ورؤيا النبي دانيال اذ يبسط لدينا بوجيز الكلام كل ما يحدث لمملكة بابل والماديين والفرس والاسكندر واليونان ويوعز الى عتو انتيوخس ايفان وقباحته والى ظهور شعب الله العجيب على هذا المضطهد اللئيم . ونتشوق فيها ايضًا الى هبوط هذه الممالك بالتتابع اما الملك الروحي الذي كان المسيح مزمعًا ان يشيده فاشار اليهِ بصفاتهِ الخاصة كي لا يستطيع احد ان يشد عليه نكيرًا وهو ملك قدسة الله يثبت وحده خالدًا وان طرأ الدثار على باقي الممالك لانهُ ملك ابنه

وقد عرفنا من قول يوحنا احكام الله التي لم تخفَ عنا على اعظم مملكة هي مملكة الرومانيين وامست رومية كغيرها من المدن الشهيرة انموذجًا للعدل الالهي اذا هبط عليها نوائب مدلهمة الا انها لم يلحق بها ما الحق بغيرها اذ لم تفنَ الى الابد لان البلايا التي المت بها نقتها من بقايا الاوثان وهي الان قائمة بالدين المسيحي الذي تبشر بهِ في العالم كلهِ وعلى هذا النمط ترى ان كل الممالك التي مر ذكرها قد آلت الى نفع الدين ومجد الله كما اعلن ذلك تعالى الى انبيائهِ

وعند ما ترى في تآليفهم ان الملوك يلجون الى حجر البيعة ويصيرون لها عضدًا يتبين لك من ذلك دليلٌ على انهُ تلمح الى القياصرة والملوك المسيحيين وبما ان اجدادك اشتهروا بالذب عن الكنيسة وبغيرتهم في نشر تعاليمها فلا يشق عليَّ بان اخصصهم صريحًا بهذه النبوات

ولما كان في قصد الله اتخاذ هذه الممالك ذريعة يتذرع بها الى قصاص شعبه او هدايته او انتشاره او حمايته اراد ان يوضح انه مبدا لهذه التدابير العجيبة اذ اعلن هذا السر لدى الانبياء. ولذلك مكنهم من ان يشيروا الى ما كان في عزمهِ ان يبرمه وقد

ثباتاً عن مسير هذه الممالك كما ثباتها عن تسلسل شعب الله الخاص اذ لها ارتباط شديد معهم لما هو في قصده

ولكن لديك يقيناً انه كلما اعتدت على استقراء هذه الحوادث العظيمة واعادتها الى مبدئها يأخذ بك العجب كل مأخذ لدى اطلاعك على هاته الاحكام من لدن العناية الالهية ويقتضي ان تقتبس منذ حداثتك هذه المعارف التي تنجلي رويداً في عقلك وتعلم أن تعيد الى نظام الحكمة الالهية الامور الدنيوية المتعلقة بها

ثم انه تعالى يرينا بهذه الامثال الشهيرة ما يصنع بغيرها رجاء ان يعلن لنا دائماً مشيئته على ايدي انبيائه في ما يناط بالملوك والممالك التي يوطدها او يدمرها كما صنع بالممالك التي تكلمنا عنها ويعلم الملوك حقيقتين جوهريتين وهما انه منشأ الممالك ومتيهها لمن يشاء وانه مستخدمها لمقاصده في ما يناط بشعبه في الزمان والنظام المعينين وهذا ما يلزم الملوك ان يعتبروا انفسهم تحت سلطان مطلق ويجعلهم متنبهين لاوامر الله لكي يكونوا في كل فرصة تسنح لهم مضافرين ما يؤول لمجده

اما تسلسل الممالك وان اعتبرناه بنوع عاليّ فيجدي نفعاً عظيماً للممالك خاصة لان الكبرياء الملازمة لهذه المقامات السامية تسقط لدى هذا المشهد واذ كان مشهد موت الملوك يبعث النوع الانساني على ردع اماليهم فكم بالاحرى يجب ان يؤثر فيهم سقوط الممالك عينها وهل في الامكان ان يبدي اباطيل العالم اكثر من هذه

وعندما ترى القياصرة والملوك والممالك التي مادت لها الارض تمر كلمح البصر وترى الاشوريين قديمين وحديثين والماديين والفرس واليونان والرومانيين يتساقطون بالتتابع ترى دوي سقوطهم يوضح ان لاشيء ثابت بين البشر وان التقلبات والاضطرابات هي من خصائص الامور الدنيوية

الفصل الثاني

ان تقلبات الممالك لها خصائص يجب على الملوك النظر فيها

ان تعقّل ما يناط بارتفاع الممالك وهبوطها واسباب نجاحها وانحطاطها يبين لك ان هذا المشهد ازيد جداً واكمل عظة. لان الذي هو مبرم ارتباط العالم ودائمٌ مع

عظم قدرته ان يشيد النظام بان تتعلق بعض اجزاء هذا المجموع ببعضها . اراد هو نفسه ان يكون لمجرى الامور العالمية تسلسلاً وتناسباً وذلك انه اقتضى ان يكون مناسبة بين صفات الشعوب والامم والمخابات السامية التي اعدّت لهم . وهكذا لا يحدث تغير عظيم دون علة انفت في الاجيال الغارطة عدا تلك الضربات الخارقة العادة والنظام الطبيعي اذ يريد الله ان يرينا عمل يده وحدها

وبما ان لكل الامور ما يقوم بابرازها ويبعث على اجرائها ويعود عليها بالنفع والجداء فمعرفة التاريخ قائمة بامعان النظر في النظامات المكنونة التي هيأت الانقلابات العظيمة وفي الحوادث الخطيرة التي كانت سبباً لحدوثها

ولا يكفينا ان نرنو الى الامام اي ان نتمعن في هذه العوارض التي تنهي بغتةً امر الممالك بل ينبغي للمرء ان يتوخى الامور ويتشوف الى الشؤون العالمية ان رام كمال معرفتها وعليه ان يتفحص الاميال والعوائد ولاسيما خصائص الشعوب المالكة عموماً والملوك خصوصاً وكل مشاهير الرجال الذين كانوا سبباً لانقلاب الممالك والهيئة الاجتماعية بارتفاع مقاماتهم في العالم الى ذرى المجد والسيادة

وقد افرغت من الجهد كثيراً رجاء ان استدرجك من هذه الافكار المهمة المدرجة في اول جزء من هذا الخطاب . وقد امكن لك ان تطلع على اخلاق الشعوب والرجال العظام الذين تولوا امورهم . وقد ابنت لك الحوادث التي كانت ذات مفعول في المستقبل اهملت ملاحظات خاصة ذات نتائج قليلة الاهمية وذلك لانبه افكارك الى النظر في تسلسل الامور العالمية العظيمة التي وددت لو افهمك اياها خاصةً

وبما انّا مررنا بسرعة على حوادث شتى لم نعرها من الفكر جانباً حسب مقتضاها لتعلقنا بتسلسل الامور فعليك الان بان تنتبه خصوصاً الى هذه الحوادث وتعوّد عقلك ان يبحث عن المفاعيل في عللها القاصية . وهكذا تقتبس ما هو ضروري المعرفة حتى انه اذا لم تنظر الا في هذه الاتفاقات الخاصة بان ان التقادير وحدها انهت تشييد الممالك وخرابها واما اذا توخينا الامور عموماً فنرى انه يحدث غالباً ما يحدث بلعب الميسر اذ يستظهر اللاعب الماهر على خصمه بطول المدة . وواقعيُّ الامر ان ذاك هو الذي استدرك الامور عن بعدٍ واهتم اكثر من غيره وادمن زماناً طويلاً على اشغاله العظيمة وقصارى الكلام انه القى بنفسه الى اشد الورطات والمخاطر . وان رعاية ذاته

في هذا اللعب الدموي الذي حدثت بو الشحناء بين الملوك على الملك والسلطة هي مربحة في النهاية حتى انه استقدم الاقدار لتتمم مقاصده

فلا يعلق بك فتورٌ ان تبحث عن علات الانقلابات العظيمة حيث لا شيء يؤول الى تثقيفك مثل ذلك ولكن ابحث عنها خاصة في تسلسل الممالك العظام التي توضحها كثيرًا الحوادث العظيمة

الفصل الثالث

في السيتيين والحبش والمصريين

اني لا اعدّ هنا بين الممالك العظيمة مملكتي باخوس وهرقل اللذين افتتحا الهند والشرق فليس بتاريخها شيءٌ يسيرٌ من الثقة ولا بافتتاحهما تتابع واننا نكل امر مدحهما الى الشعراء الذين جعلوهما موضوعًا حملوا عليه حكاياتهم . واني لا اتعرض لذكر مملكة ماد المذكورة في تاريخ هيرودوث وهي تضاهي بامور كثيرة مملكة هنداتيروس المذكورة في تاريخ ميغستان ومملكة تيناوس المومأ اليها في تاريخ يوستينوس وقد شادها هذا الملك زمانًا وجيزًا في اسيا الكبرى . فالسيتيون الذين تولى عليهم هذا الملك قيادة الحرب قد طووا من الارضين شيئًا كثيرًا ومع ذلك فلم يقوموا بفتوحات تستلفت اليها نظرًا ولم يكن ولوجهم مملكة الماديين وقمعهم اهلها واستيلاؤهم على هذا القسم الذي عليه توطدت احكامهم الأ بما قدرلهم الزمان من ملاقاة السياريين . ولم يمالك هولاء الفاتحون الأ ثماني وعشرين سنة . وقد قضى عليهم طمعهم وكفرهم وتوحشهم بفقدان اسيا فبعد ان نزعوها من ايدي سياكسار بن فاراهرات ظهر عليهم وطردهم . وكان ذلك مبنيًا على الخداع اكثر منه على القوة فانه لاذ باحد اطراف مملكته التي اهملها الظافرون او بالاحرى لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها وتربص هنالك صابرًا مرتقبًا الزمان الذي بو يثير هولاء الفاتحون قبعة البغضاء العامة ويلقون بايديهم الى التهلكة بسبب عدم نظام حكمهم . ويوجد في تاريخ استرابون اسم ملك الحبش المدعو تياركون فقد نقله هذا المؤلف عن ميغستان ويدعوه الكتاب المقدس طارق وهو الذي القى رعبة اسلحته في العالم كله في زمان سنشاريب ملك اثور ووصل بفتوحاته

الى عواميد هرقل التي على شواطئ افريقية واجتاز من ثمة الى اوربا ولكن ماذا الذي افوه به عن ملك لا يذكر عنه المؤرخون الا بعض الفاظ ولم يكن انساق لتسلطه. واما الحبشيون الذين تولوا زمان الامر وقتئذٍ فينبئنا عنهم هيرودوت انهم كانوا ذوي باس وهيا كل اجسادهم كبيرة وعقولهم ثاقبة لكنهم لم يعتنوا كثيرًا بتثقيفها بل كانوا يثقون كثيرًا بقوى اجسادهم وبشدة اذرعهم وكانوا يتخيرون ملوكًا بالاقتراع ويجلسون على العرش الملوكي من كان اكبر جسمًا واعظم قدرةً. ويتمكن كلٌّ من معرفة سجاياهم والحكم عليها بحادثٍ رواه لنا المؤرخ هيرودوت وهو انه لما بعث اليهم ملك الفرس كامبيز سفراء يتجسسون عندهم ويخدعونهم واصحبهم بهدايا يتهادى بها الفرس وهي امتعة من ارجوان واسورة من ذهب وروائح عطرية هزئوا كل الهزء اذ لم يجدوا فيها شيئًا يعود على الحبوة بالجداء والمنفعة وامتهنوا السفراء اذ اتخذوهم جواسيس كما كانوا حقًّا. غير ان ملكهم رام ان يسدي الى ملك الفرس هديةً حسب مرغوبه فاخذ بيده قوسًا كان احد الفرس يكاد لا يستطيع حملها ولا يتمكن من ان يوترها فاوترها هو نفسه بحضور السفراء وقال لهم: هذه هي النصيحة التي ينصح بها ملك الحبش لملك الفرس. فمتى استطاع الفرس ان يستعمل قوسي التي هي كبيرة وصلدة هكذا بسهولة قمت بها انا فليأتوا الى مناصبة الحبش ويجرُّون عساكر ازيد من عساكر الملك كامبيس ومتى نالوا هذه البغية فليؤدوا الشكر للالهة التي لم تخول الحبش الرغبة في امتداد شوكتهم خارج امصارهم

واذ قال ذلك حل القوس وطرح بها الى السفرا. ولا يمكن لنا ان نقف على نتيجة هذه الحرب الآن كمبيس غضب من ذلك وهرول الى بلاد الحبش كانه معتوه دون نظام او تروي في العواقب فهلك عسكره جوعًا في البادية قبل ان يدنو من العدو. ومع ذلك فلم تكن شعوب الحبش عادلةً كما كانوا يتباهون ولم يكونوا محصورين في بلادهم فان المصريين المجاورين لهم قد اختبروا مرارًا قوة اسلحتهم وعرفوها. ولم يكن انساق في امور هذه الامة الوعرية. وان تكن الطبيعة قد ابدت فيها بداءة بدء شعائر حسنة فمع ذلك لم تجز قطُّ ما بدأت به. وبناء عليه لا نرى بين اولئك الشعوب الا اشياء قليلة يمكن لنا ان نستقدمها ونجري على مثالها فلنقتصر عن التكلم عنها ولنعرج قليلاً عن الشعوب المتهذبة

فان المصريين هم اول من وجدت عندهم اصول الاحكام فان هذه الامة الرصينة قد عرفت غاية السياسة الراهنة التي من مبادئها ان تجعل المعيشة غضرة والشعوب سعيدة . وان حالة هواء البلاد غير المتغيرة قد جعلت العقول ثابتة لا يعتريها اضطراب وبما ان الفضيلة هي الركن لكل هيئة اجتماعية فقد اتقنوها بكل اعتناء وكان مصدر فضائلهم معرفة الجميل وان السوءدد الذي اناله الناس اياه لمغالاتهم في معرفة الجميل اكثر من جميع البشر يوخذ منه انهم يودون الالفة . فالجميل وثاق يرتبط به الاتفاق الخاص والعام . وان من يعرف الاحسان يود ان يوليه احداً فاذا ساد الفضل استمرت الملاذ بعمل الحسنى خالصة حتى اننا لا نرى ذريعة تصدنا عن الشعور بها . فشرائع المصريين كانت ساذجة مفعمة عدلاً وهي الوسيلة التي تجعل الاتحاد سائداً بين الوطنيين . فمن جل مبادئها ان رجلاً استطاع انقاذ غيره من مخالب الهجمات ولم يفعل ذلك عوقب موتاً بصرامة يجازى بها القاتل الجاني . واذا لم يستطع انقاذ الصعلوك من ورطة فعليه ان يبذل الجهد في البحث عن فاعل الجريرة معه وقد عينوا حدوداً لمن لا يتم هذه الفرائض فلذلك كان الوطنيون يتراعون . وكانت كل المملكة متالبة القلوب على الاشقياء وكل من بنيها مقسوراً عليه ان ياتي بامر يعود عليها بالمنفعة والشريعة تعين لكل مهنة التي تثبت له وراثة من الاب الى الابن ولم يكن في وسع احد ان يتقلد بمهنتين ولا ان يغير حرفته . وكانت الحرف كلها ذات حرمة وكرامة . وقد اقتضى الامر ان يوجد مصالح واشخاص متفاوتة كما انه اقتضي ان يكون في الجسمان عيون لا يكون ضياوءها علة لامتهان الارجل واعضاء الجسم الفعلي فهكذا كان للكهنة والعساكر بين المصريين سمات اكرام خاصة . وكانت الحرف كلها خطيرة وحقيرة منظوراً اليها بعين الاعتبار والناس يخالون انهم لا يستطيعون ان يحتقروا وطنياً ان لم يكن اقترف جريمة مهما كانت اعماله بشرط ان تؤول الى النفع العام . وبهذه الوسيلة كانت كل الفنون زاهرة حائزة كمال الاتقان وان الشرف الذي كانوا يتطوقون به كان ممتزجاً بكل شيء . وكانوا يصنعون احسن مما كانوا يترصدون صنيعة فعاودوا ذلك كثيراً وتمرنوا عليه منذ الصغر . ولكن كان لهم شغل عام وهو درس الشرائع والحكمة . وان من كان يجهل الديانة ونظام البلاد لم يكن معذوراً من العذل مهما كانت احواله . ومع ذلك فكانت كل مقاطعة لها مهنة منوطة بها . ولم يكن يحدث

ادنى انزعاج في بلد سعتها ليست كبيرة وكان المكسالى لا يمكن لهم ان يعثروا على قطعة من الارضين يتوارون بها اذ يرون هذا النظام الحسن . وكان كل شخص يعود على رعاية اعظم هذه الشرائع الحسنة وكلما بدت عادة جديدة كانت كانها اعجوبة في مصر لانهم كانوا دائمًا يصنعون الشيء نفسه وكانوا يحتفظون الاشياء الكبيرة بسبب الدقة التي يقومون باحتفاظهم الاشياء الحقيرة ولهذا ليس قطرٌ كمصر ثبت شعبه على رعاية عوائده وشرائعه زمانًا طويلاً . وان نظام الاحكام كان يضافر على تخليد هذا المبدا ووقع الاقتراع على ثلاثين قاضيًا من المدن الأصلية التاموا جمعية تسود على المملكة وتقضي عليها . واعتاد الشعب الأ يرى على هذا المنصب الأ اعدل اهل البلاد واكملهم وكان الملك يعين لهم دخلاً كافيًا حتى اذا عتقوا من ارتباكات امر المعيشة قضوا اوقاتهم كلها في ان يجعلوا الشرائع مرعية . ولم يكونوا يخصون انفسهم بشيء من الدعاوى اذ لم يخطر لهم ان يجعلوا العدل حرفةً لكسب المال . وحذرًا من الخديعة كانت الاعمال مسجلة ومدونة في هذه الجمعية وكانوا يقلعون عن الفصاحة الافكة التي تعمي القلوب وتثير الشهوات ولم يكن من الممكن ايضاح الحقيقة الأ بنوع خالٍ من الزخرفة . وكان رئيس المجلس يتزين بطوق من ذهب وحجارة كريمة يتدلى منه على صدره صورة تدعى الحق وكان تقلده بذلك دليلاً على ابتداء المجلس ومن كسب دعواه لدن المرافعة كان يضع عليه الرئيس الصورة علامة لاصدار الحكم ومن وسائل المصريين لحفظ قواعدهم القديمة انهم كانوا يصنعون لها بعض احتفالات بكل تروٍ ورضوخ . ولم تسمح لهم اخلاقهم الرضية ان تضحي كاحتفالات ساذجة ومن لم يكن له اعمالٌ وكان سلوكه حسنًا كان المجلس يغض الطرف عن فحصه عنه فحصه الصارم ولكن كان في مصر نوعٌ من الحكم غير اعتيادي لم ينجُ احدٌ منه . فمن قضي عليه بشرب كاس المنون واسمه معتبرٌ عند قومه كانت له بذلك تعزية كبيرة . فذلك امرٌ وحيدٌ من الامور الدنيوية لا يستطيع الموت سلبه ولم يكن مباحًا في مصر ان يرثى الموتى اسواه فيقتضي ابراز حكم عام ليتأتى الحصول على هذه المأثرة الخطيرة . وعند القضاء على رجلٍ بالموت كانوا يأتون به للمحاكمة فثمة كان المدّعي العمومي يصدّر الدعوى فاذا كان في امكانه ان يبرز ادلة بينة على ان مسراهُ كان سيئًا عوقب ذكرهُ وابى أولاة الامر ان يدفنوه وحظروا ان يقام له ضريح . وكان الشعب يتعجب من سلطة الشرائع التي لا تزايل المرء حيًا او ميتًا وكان

كلٌّ يفرَقُ من ذلك بروعه هتك ذكرى وعائلته واذا لم تثبت على الميت جريرة كانوا يدفنونه بكل تكرمةٍ واحترام وكانوا ينظمون له رثاءً لايذكرون فيه شيئاً من مولدهِ وكانت كلٌّ مصر شريفة ولم يكن فيها احدٌ ينال اطراءً من المدح ان لم يكن اهلاً لذلك

وكلٌّ يعلم كم كان المصريون يحنطون اجساد موتاهم فنرى الى الان اجسامهم المحنطة . وكانت معرفة الجميل نحو اقاربهم غير زائلة وكان الابناء اذا نظروا اجساد جدودهم يتذكرون فضائلهم التي اقربها الشعب العام ويستفزُّون لمحبة الشرائع التي يتركونها لهم . ولمنع العارية التي منها يتولد الكسل والخداع وانتزاع امر الملك اشبس بان لايتاح لاحدٍ ان يستعير حاجةً الابشرط ان يرهن المستعير جسد ابيه عند المستعار منهُ ومن لم يسترجع هذا الرهن الثمين سريعاً يقضى عليهِ بان يكون ارتكب عاراً وكفراً وكان كل من تزهق روحه قبل ان يقضي هذا الفرض المهم يحرم من الجنازة والدفن

وكانت المملكة تنتقل بالارث والملوك مقضياً عليهم ان يسيروا حسب الشرائع اكثر من غيرهم وكان بعض الشرائع خاصة سنها احد الملوك وهي قسمٌ من الكتب المكرسة ولم يكونوا يشاحنون الملوك ولهم الحقُّ بان يقسروهم و يضيقوا عليهم . بل كان الشعب يحترمهم ويكرمهم كالالهة فان العيشة القديمة نظّمت الامور كلها فلم يكن يخطر للرعية ان يعيشوا مخالفين اجدادهم وكانوا يحتملون بلا مشقة تعيين كمية اللحم ومقدار الاكل والشرب اذ كان من الامور الاعتيادية في مصران يكون الجميع متقشفين . والمناخ يحملهم على القناعة وكانت كل ساعاتهم معدّة لاشياء يصنعونها فاذا هبوا من النوم بكرةً قرأوا تحاريرهم اذ العقل يكون وتتنذ صافياً والافكار رائقة صريحة فيتأتى لهم اذ ذاك تصورٌ جليٌّ احق في اشغالهم التي ينهمكون فيها

ولدن ارتدائهم البستهم كانوا يذهبون الى الهيكل لتقدمة الضحية وهناك اذ كانوا يحاطون بخدمهم والذبائح على المذبح كانوا يحضرون الصلوة المتلوة حكمة فيطلب ثمة الكاهن من الالهة ان يهب الملك الفضائل الملوكية اعني ان يكون متعبداً للالهة لطيفاً نحو الصالحين خطير النفس صادقاً صافياً مبتعداً عن الكذب حراً ضابطاً ذاته معاقباً اقلّ من الذنب ومجازياً اكثر من الاستحقاق وبعد ذلك يتكلم الحبر عن الزلات التي يمكن ان يسقط بها الملك ولكنهُ كان يفترض ان الملوك لاتقع بها الابالخديعة اوالجهل ويلعن الوزراء الذين كانوا يقدمون لهم النصائح السيئة ويخفون عنهم الحق . وهكذا كانت طريقة تعليم الملوك وكان الاناس يخالون ان التثريب يغيظهم وان الوسيلة التي لها الفاعلية في

تلقينهم الفضيلة هي ابانة ما يتوجب عليهم بمدائح تنطبق على الشرائع يتلفظ بها بكل احترام امام الالهة فبعد الصلوة والتضحية كانوا يتلون امام الملك في الكتب المقدسة نصائح الرجال العظام وافعالم ليحكم مملكتهُ حسب قواعدهم ويحفظ الشرائع التي جعلت اسلافه ورعاياهم سعداء

والدليل على ان هذه النصائح كانت تصنع وتسمع بكل احترام هو لانها كانت ذات مفاعيل راهنة . فبين الثيابيين اي بين السلالة الملوكية الاصلية حيث الشرائع كانت مرعية بكل دقة وكانت متسلطة على الكل كان الملوك اذ ذاك اثبت الناس واعظمهم برعايتها والمركبريان اللذان اخترعا العلوم والترتيبات المصرية كانا من ملوك تيبا وكان احدها قريبًا من زمان الطوفان والاخر المدعو (ترسيماجيست او عظيمًا ثلاث مرار) كان معاصرًا لموسى وقد استفادت كلُّ مصر من تعاليمها وهما اللذان كانا بافادتهما سببًا لان تحصل تيبا على ملوك اتقيا قليلين وكان الناس يعدون عن الملوك الاردياء مدة حياتهم لابقاء الراحة العامة ولكنهم لم يكونوا يتقاعدون عن اصدار الحكم عليهم بعد موتهم وكان بعضهم يحظر دفنهُ غيران من كان يقتدي بهم قليلٌ . ومع ذلك فان اغلب الملوك كان الشعب يودهم كثيرًا حتى ان كلاًّ كان يذرف الدموع على فقدانهم كانه يبكي على ابيه او اولاده وكانت عادة الحكم عليهم تبدو كانها مقدسة لدى شعب الله بنوع انه قد استمرَّ على ممارستها . واننا نرى في الكتاب المقدس ان الملوك الاشقياء كانوا يمنعون من الدفن في لحود اجدادهم . وينبئنا يوسيفوس ان هذه العادة استمرت الى زمان المكابيين وكانت تعلم الملوك انه اذا كانت السلطة رفعتهم عن الحكم البشري مدة حياتهم فانهم يجازون به لدن مساواة الموت اياهم بسائر الناس

وكانت عقول المصريين جانحةً الى الاختراع غير انهم كانوا يستخدمونه للشؤون المفيدة وكان المركبريان اللذان حكماها قد ملاء مصر من الاختراعات العجيبة ولم يتركا الناس يجهلون شيئًا مما يجعل الحيوة سهلةً . اما انا فلا اترك للمصريين وحدهم المجد الذي اولوه اوزيريس بكونه اخترع الفلاحة لان هذا الفن قد وجد في كل الازمنة في البلاد الكنعانية من الارض التي انتشر الجنس البشري ويظن انه اخترع منذ انشاء العالم وان المصريين يجعلون زمن اوزيريس في الاجيال الحالية اذ يبدو جليًا انهم قد خلطوا زمانه بابتداء العالم وقد راموا ان ينموا الى ذاك الزمان امورًا كان اجلها قبل كل الازمنة المعروفة

بتاريخهم لكن ولو كان المصريون لم يخترعوا الفلاحة وسائر الفنون التي نراها قبل الطوفان فقد اتقنوها غاية الاتقان وافرغوا الجهد في سبيل تجديدها بين الشعوب الذين قد انساهم اياها توحشهم وليس مجدهم بذلك اقل مما لو كانوا اخترعوها . واخترعوا فنونا كثيرة الاهمية ليس في امكاننا ان ننكرها عليهم . وبما ان بلدهم لم تكن متشعبة وسماؤهم كانت صافية لا تتخللها غيوم كانوا اول من راقب سير الكواكب ونظم حساب السنين وهذه الملاحظات قد اوصلتهم الى علم الحساب . واذا كان ما يقوله افلاطون صحيحاً من ان الشمس والقمر علما البشر معرفة الاعداد اعني انه بدىء بالحسابات المرتبة بحساب الايام والاشهر والسنين . فان المصريين هم اول من صنع ذلك وقد عرفوا ايضاً السيارات وغيرها من النجوم ووجدوا هذه السنة التي جلبت السماء الى جدبها والجئوا الى معرفة علم مسح الارض رجاء ان يعرفوا اراضيهم التي كانت مياه النيل تغشيها واتصلوا بذلك الى الهندسة وكانوا يراقبون الطبيعة مراقبةً حسنةً وكانت قوية وغزيرة بينهم بسبب الهواء الجيد والشمس الحارّة وهذا ما جعلهم ان يخترعوا الطب ويتقنوه فبذلك كانت كل العلوم لديهم خطيرة جداً . وان مخترعي الاشياء المفيدة كانوا يحصلون قبل موتهم وبعده على جزاء تستحقه اعمالهم . وهذا الذي جعلهم ان يعتبروا كتب المركريين مقدسةً وجعلوها كانها كتب الهية . فاول شعبٍ حاز المكاتب هو الشعب المصري وان ما تقلدوه من الالقاب بعث الناس قاطبةً على المسارعة الى ولوج الامصار المصرية والبحث عن مكنوناتها وكانوا يدعونهم كنوز ادوية النفس فان النفس كانت تشفى بها الجهل الذي كان فيها مرضاً عياء وجرثومة كل الادواء . وان الامور التي كان لها المقام الاول في عقول المصريين هي اعتبار الوطن والجنوح اليه وكانوا يقولون ان الوطن هو مسكن الالهة التي حكمت فيه احقاباً كثيرة غير معينة وكان الوطن انشأ ارهاطاً كثيرة وحيواناتٍ متباينة ترويهنّ مياه النيل مع ان سائر الارضين كانت عقيمة . واما الكهنة الذين كانوا يكتبون تاريخ مصر مع توالي الاجيال غير المحدودة ويملئونها حكاياتٍ وانساباً الى الهتهم فكان قصدهم من ذلك ان يرسخوا في عقول الشعب قدمية بلادهم وشرفها ومع هذا فان تاريخهم الحق كان متضمناً حدوداً راهنة ولكنهم ارتأوا ان يغالوا في فسحات شاسعة من الزمان الذي بدينهم من الازلية ولذلك كانت محبتهم للوطن لها الاس الوطيد وكانت مصر اجمل بلاد العالم واخصبها

أرضاً وانقنها بلداً بفنونها واغناها شعباً واغضرها معيشةً واحسنها محلاً واعظمها ملوكاً
وكان كل امر من اعمالهم ومقاصدهم عظيماً ويعسر تصديق ما قاموا به في نهر النيل فان المطر لا يهطل في مصر كغيرها من البلدان ولكن هذا النهر الذي يسقيها بفيضانه المنظم يقوم مقام الامطار والثلوج التي تتساقط في غيرها من البلدان
وقد ادخلوه مصر باقنية لا تحصى طويلة عريضة جداً . وكان يغني قوى الارض بمياهه النافعة ويوصل المدن ببعضها ويقرن البحر الكبير بالبحر الاحمر ويرعى التجارة داخل المملكة وخارجها ويقويها على مكافحة العدو وكان مقيتاً للبلدان ومحامياً لها . وكان الناس يغادرونه يسفح في البوادي غير ان المدن كانت مترفعة عنه باعمالها الغريبة كأنها جزائر في وسط المياه ترى وهي رفيعة كل الحقول مغمورة بمياه منه تحييها . ولما كان يفيض بنوع خارق العادة كانت البحيرات العظيمة التي انشأها الملوك تمد افواهها الى ان تزدرد مياهه المنتشرة وكان قد هيء مصرفٌ لهذه البحيرات التي كانت تفتحها وتقفلها سدودٌ لدن اقتضاء الحاجة . ولم تكن المياه تستمر على الارض الا ريثما تجعلها مخصبة . وهكذا كان استعمال البحيرة العظيمة التي تدعى بحيرة ميريس او موريس وهو اسمٌ للملك الذي امر بانشائها . وتعتري الدهشة كلاً من الناس عند شعوره ان قد كان لهذه البحيرة ماية وثمانون فرسخاً امتدت من ناحية ليبية لئلا تلم بالارض الجيدة خسارة لدن حفرها . وكان الملك يكتسب من الصيد شيئاً كثيراً . ولما كانت الارض تنبت شيئاً كان الناس يتخذونه كنوزاً يغمرون عليها المياه وكان ثمة هرمان على كل منهما عرشٌ عليه شخص عظيم الجثة احدهما تمثال ميريس والاخر تمثال امرأته وكلاهما يرتفع ثلاثماية قدم فوق ماء البحيرة ولهما الطول نفسه تحت غمرات مياهها وذلك من الادلة على انهما انشئا قبل ان يمتلىء جوف البحيرة . وان الناس انشئوها رحيبة في عهد ملكٍ واحدٍ . ومن لا يعرف الى اي حدٍ يمكن تدبير الاراضي وتوفيرها يحسب ان ما يقال عن تعداد مدائن مصر اقاصيص وحكايات . ولا يمكن ان يصدق ما هي عليه من الغنى ولم يكن وقتئذٍ مدينة غير مفعمة من الهياكل العظيمة والقصور الشامخة . وكان فنّ البناء يبدو في كل اينٍ سمو شرفه البسيط والعظمة التي تملأ العقول وتدربها وكانوا يبسطون في سرادقات كبيرة التماثيل والنقوش التي كان اليونان يتخذونها قواعد وكانت تيبه تباهي اجمل مدن العالم . وان

ابوابها المئة التي انشدها اوميروس الشاعر كان الجميع يعرفونها وكانت كثيرة السكان مقدار ما كانت رحيبة . وقد قيل ان عشرة الاف محارب يخرجون اسواجاً من كل باب لها . وان يكن في هذا القول مغالاة فان شعبها كان عسر الاحصاء وامتدح اليونان عظمتها وكبرها لما رأوا دثارها لعظمة الاثار التي كانت فيها

ولا مراء ان سواح عصرنا لو وصلوا الى ذاك المكان حيث كانت تلك المدينة موطاة لكانوا عثروا على اثار لاضريب لها بين طلولها لان اعمال المصريين من شانها ان تقاوي الزمان والخطوب المدلهمة. فكانت تماثيلهم تضاهي الاجرام الجسيمة وعواميدهم شتى شاهقة .وكانت المملكة المصرية تدأب في البهاء والعظمة وترغب في ان تدهش عن بعد الابصار مع انها كانت تقرّ بروية هندامها وقياساتها المحكمة

واكتشف الناس في الصعيد هياكل وقصوراً لم تزل الى الان في حيز الوجود بها عواميد وتماثيل لاتحصى ومما يبعث على الحيرة والدهشة قصرٌ لم تستمر طلوله الى الان الآ لازالة مجد الاعمال العظيمة كافة

فاربعةٌ من الاروقة الشاهقة المزينة على كلا الحدين بابي الهول المؤلف من مادة نادرة بعظمة جرمها هي كمعابر لاربعة ابواب تحير الافكار بسموّها ، فيا ما ارحبها واعظمها . وان الذين وصفوا لنا هذا البناء العجيب لم يقيض لهم الزمان آناً يجولون فيه جولة وليبسوا على اثبات من روية جانب منه ولكن كل ما رأوا منه مذهلٌ وغريب. فاحدى القاعات المشيدة في وسط هذا القصر الباذخ كانت مركزة على ستة وعشرين عموداً يحيط بثخن الواحد منها اثنى عشر ذراعاً ومتنسبة الكبر الا انها ممتزجة بمسلات صادمت الدهر ولم يستطع اهباطها وما زالت الالوان قائمة بين اثار هذا البناء الغريب وحافظةً الى هذا الان حدتها وجمالها الاول طالما كانت مملكة مصر تطبع بافعالها سمة الخلود . وبما ان الان قد ذهب في العالم اسم الملك لويس الرابع عشر وذاع في كل الاقطار البسيطة ومو يمد بعيداً المباحث التي يتخذ منها اجمل اعمال الطبيعة والفن امسى من متبادر الامر ان يكون ذلك موضوعاً يليق بهذه الرغبة السامية اي ان تكتشف المحاسن المطمورة طي قفار بلاد الصعيد وان تزيد في هندسة ابنيتنا باختراعات المصريين . فما الشوكة اوما هو الفن الذي استطاع ان يصيرّ هذه البلاد اعجوبة العالم . واذا رأينا هذه الامور الغريبة في البلدان القاصية فماذا الذي عسانا ان نراه في العاصمة

وانما على مملكة مصر وحدها ان تقيم مآثر فاخرة مخلدة فلم تزل مسلاتها الى هذا اليوم اجمل زينة في مدينة رومية سواء كان بزهائها او بارتفاعها . وقد آيست السلطنة الرومانية من مضاهاة المصريين وحسبت انها تزيد فخرًا على فخرهم اذا تسننت بمآثر ملوكهم . ولم تكن مملكة مصر قد شاهدت من الابنية الشاهقة سوى برج بابل لما ابتدعت الاهرام التي نالت بهيئتها وعظمها راية الظفر بالاجيال والبرابرة . وان ذوق المصريين السليم حداهم منذ ذاك الزمان الى مجرّد ود المكانة والنظام في الفن . أليست الطبيعة توءوب من تلقاء نفسها الى هذه الهيئة البسيطة التي يشق على البشر جدًّا العود اليها اذا ما افسد الذوق حب الطرق الجديدة والاقدام الغريب ومهما كان من الامر فان المصريين لم يودوا سوى اقدام مرتب لأنهم لم يطالبوا اختراعًا ولا طريقًا الا في هيئة الطبيعة المتنوعة وتفننها غير المحدود وطالما افتخروا انهم وحدهم هم الذين ابدعوا كالالهة اعمالًا خالدة . ولم تكن الكتابات التي على الاهرام اقل اعتبارًا من هذا الصنيع نفسه . وكانت كانها تناجي الناظرين اليها واحدهنّ المبني من الآجر كان يحذر الجميع من مقايسته على غيره وانه يسمو علوًا على سائرهنّ كما ان المشتري يتعالى على جميع الالهة الا انه مهما اجهد البشر نفوسهم فلا يلبث ان يبان وهن قواهم وعدمهم في كل اين . وكانت هذه الاهرام رموسًا غير ان الملوك الذين شادوها لم يكن من سلطانهم ان يلحدوا فيها وهكذا لم يتمتعوا بالحصول على لحودهم

ولم يكن من دأبي ان اتكلم عن القصر البهي المدعو لابيرنت لو لم يثبت لنا هيرودوت انه يفوق الاهرام جدًّا . فانه شيد على ضفة بحيرة ميرس ومنح منظرًا موافقًا لعظمه وعدا ذلك لم يكن قصرًا واحدًا بل لفيفًا من القصور البهية تعدادها اثنا عشر قصرًا متصلة بعضها على غاية النظام . وكان يكتنف ذلك الف وخمساية قاعة ممتزجة بالسطوح منتظمة حول اثنتي عشرة حجرة لاتبقي مخرجًا لمن رام دخولها قصد الزيارة وكان بقدر ذلك ابنية تحت الارض مهيأة لان تكون رموسًا للملوك ومكانًا لعيالة التماسيح المقدسة التي قد سجدت لها هذه الامة الفائقة بنور الحكمة الطبيعية . ومن يمكن له ان يرى ذلك ولا يعتريه خجل بل يتوكأ على عمه العقل الانساني

فلربما تاخذك الدهشة ياسيدي عندما ترى كذا عظمة في رموس المصريين . ففضلًا على انهم شادوها بان تكون آثارًا مقدسة لتري الاجيال المستقبلة ذكر الملوك العظام

ومجدهم يحسبونها ايضاً كمثاوي سرمدية . فمن الحق ان الديار غدت فنادق يقطنها المسافرون ابداً يقضون بها حبوةً وجيزة لاتتيح لهم بنوال جميع مرغوباتهم وانما الديار الحقيقية هي الرموس التي ازمعنا نحن ان نقطنها منذ احقاب شتى

ومن المقرر ان كدح المملكة المصرية لم يكن منصوراً على الجامدات بل كان جل اهتمامها متوقفاً على تثقيف البشر . وقد ايقن اليونان كثيراً ان رجالهم الشهيرين كهوميروس وفيثاغوروس وافلاطون وليكوركوس نفسه وسولون المشترعان الشهيران وكثيرون غيرهم ليس هنا موضع بسط الكلام عنهم ذهبوا فاكبوا على تعلم الحكمة في مصر ورام الله ان يتروى ويتثقف على حكمة المصريين لانه شرع بذلك يكون قديراً قولاً وعملاً لان الحكمة الحقيقية تستخدم كل شيء والله لايرغب في ان الذين يوحي اليهم يهملون الوسائل الانسانية الناشئة عنه تعالى على وجهٍ آخر

وقد درس حكماء مصر السياسة التي تجعل العقول ثاقبةً مكينة والاجسام قوية البنية متينة والنساء كثيرات النسل والاولاد اقوياء اشداء وبهذا كان الشعب ينمو وتتزيد قوته وعدده

ولا ريب ان البلاد سليمة طبعاً الاّ ان الفلسفة علمت اهلها ان المرء لابدَّ له من ان يضافر الطبيعة ويكون مظهراً لها . ومن البين ان قد يوجد فن تثقيف الاجسام كما وجد تثقيف العقول وقد عرف الاقدمون جيداً هذا الفن الذي اسد لنا عليه جلباب التواني بعد ان اتصل اليه المصريون . ولقد طالما مارسوا القناعة ولاسيما الاشغال في سبيل هذه الغاية المأثورة . ففي احد مضامير المعارك العظيمة التي شاهدها هيرودوت عياناً تبين ان جماجم الفرس كانت سهلة الثقب وجماجم المصريين صلبة جداً تحاكي الصخور التي حولها فذلك يدل على رخاوة جيش الفرس وقوة المصريين وبطشهم اللذين يتأتيان عن القناعة والاشغال الشاقة . وقد أُجري في مصر مهارةٍ عجيبة السير على الارجل والخيول والعجلات ولم يكن في البسيطة كلها اناسٌ جديرون بامتطاء الخيول كالمصريين . واما إشعار ديودوروس ايانا بانهم ابوا الكفاح بان يكون تمريناً يجلب قوةً خطرةً سريعة الزوال فيوعزبه الى كفاح المصريين المتجاوز الحد الذي عابه اليونان وتخذوه غير لائق بالاحرار مع انهم توّجوا في ملاعبهم الفائزين مراراً . الاّ انه يليق باهل المكرمة اذا اجري بعداله . واشعرنا ايضاً ديودوروس نفسهُ ان مركور اله المصريين

ابتدع اصوله مع فن تثقيف الاجسام . فعلينا ان نصحح ايضاً لما يقوله هذا المؤلف نفسه فيما يناط بفن الموسيقى فقد امتهن المصريون كثيراً الموسيقى المؤدية الى الرخاوة واحتسبوها ذريعة لنزع الشجاعة من الابطال وقالوا ذلك يودي بهم الى التخنث والرخاوة وحقيقة الامر ان هذا الفن العظيم يرفع قوى العقل ويطرب الفؤاد بالحانه المتسقه وليس من الحق والصواب ان يانف منه المصريون. فقد روى العلامة ديودوروس نفسه ان قد اوجده الههم مركور وقد ابدع ايضاً رهم آلات الطرب . وفي احتفالاتهم وهم حاملون اسفار تريسماجيست كان يسير المرتل في مقدمتهم وبيده رمز الى الموسيقى (لا علم لي به) وكتاب التسابيح . وخلاصة الامر فان المصريين لم يجانح افكارهم شيئاً من شانه ان يهذب العقل ويرفع شان القوا ويقوي الجسم وكانوا يقومون برواتب اربعماية الف جندي رعاية لابناء وطنهم الذين طالما تعودوا التمرينات الحربية وقد كانوا يحفظون شرائع الجندية بكل سهولة او بالاحرى كانت الطبيعة تخولهم ذلك فان الاباء كانوا يلقنونها على بنيهم علماً بانهم مزمعون ان يخلفوهم بالمهن الحربية كما يخلف الابن اباه في سائر الوظائف وكان القوم المتشحون برداء الجندية منظوراً اليهم بعين الاحترام والكرامة بعد ذرية الاحبار وكانوا يسمون شرفاً على سائر المخلوقين كما في بلادنا . وليس من دابي الحكم على المصريين انهم كانوا في غابر الزمان امة حربية فجمعهم للجنود المنظمة كان امراً زهوقاً وكانت ممارستهم الاعمال الحربية ومعاودتهم صورة الحروب عبثاً. انما لا يبصر الناس جنوداً ممتحنين بالمواقع الا في المعارك الحقيقية وطالما ود المصريون السلام لانهم كانوا يودون الانصاف ولم يكن لهم حاجة للجنود الا للمدافعة عن انفسهم فلذلك لم يفكروا قط في ان يوءججوا نيران الوغى قصد الافتتاحات بل كانوا يكتفون بما هو لهم وبما يختص علائهم . وقد امتدت مملكة مصر من جهة أخرى وبعثت نحلات الى جميع الامصار انتشرت بهم الشرائع والاداب وتوافدت سكان المدائن الشهيرة على مصر ليتفقهوا فيها ويتعلموا عوائد اهلها القديمة ويجرعوا من ينابيع ادابهم الحميدة واستشاروهم كثيراً في اصول الحكمة وذلك لما عزم سكان اليديا على تشييد ملاعب الاولمبياك التي هي اشهر ملاعب اليونان بعثوا بارسالية حافلة يطلبون بها تصديق المصريين عليها معهم وتلقنوا منهم وسائط حديثة لالقاء البسالة في افئدة المحاربين . وقد استولى المصريون بحكمتهم زماناً وبانت الشوكة لديهم اعظم من مملكة توطدت اركانها بصليل الاسلحة

وقوى الجنود واما ملوك تاب وان كانوا اقوى من ملوك مصر كافة فانهم لم يحملوا قط على الممالك الدانية . ومن سواغية الامران يقال انهم سلبوها من ايدي الاجانب لانهم استولوا عليها قسرًا عن ارادة قاطنيها والحال انهم فاقوا سموًّا على جميع الفاتحين بما اخذوا يفتحون . ولست دائبًا في كلامي الى اوزيرس هازم الهنود فمن المقرر انه باخوس نفسه او احد الابطال المنوه بهم في الاقاصيص المروية فابوسزوستريس سواء كان عمله بميل غريزي او بحدة خلق او بسلطان هاتف كما يزعم المصريون قد ازمع على ان يصير ابنه من اشهر الفاتحين فشرع كعادة المصريين اي بالافكار السامية وامر ان ياتوه الى القصر الملوكي بجميع الصبية الذين ولدوا في اليوم الذي ولد فيه سزوستريس فاعتنى بتثقيفهم وتدريبهم كاولاده وكان يقينهم على مائة واحدة بجانب سزوستريس فاشربهم الصفات الحميدة ولهذا لم يكن له وزراء امينون ذوو حمية لدن اخطار القتال نظيرهم. ولما طعن في السن حنكهم بفن الحرب اذ اضرم على العرب نار الوغى فالجأ هذا الشاب حينئذٍ ان يكابد شدة الجوع والظماء وارزح تحت نير شوكته هذه الامة المتوغلة في العصيان الى ذاك الحين وبعد ان عاود الاشغال الحربية باقدامهِ على هذه الفتوحات وجه ابوه افكاره نحو غربي بلاد مصر فهجم على اقليم ليبية واخضع تحت نيره قسمًا عظيمًا من هذه البلاد الشاسعة . وفي ذلك الوقت عبثت به براثن الردى وتركه اهلاً لمباشرة كل ما يرغب فيه فصمم في فكره ان يفتح العالم باسرهِ الاَّ انه قبل ان يزايل مملكته استدرك الامان داخلها وملك افئدة شعوبه بسخائهِ وعدلهِ وجعل الاحكام في نظام تام بحصافتهِ العظيمة ومع ذلك فقد كان يتأهب لمصادمة الاعداء فجيش الجيوش واقام عليهم قادةً الشبان الذين رباهم والله معهُ على مائة واحدة وكان عددهم ينوف على الف وسبعماية كلهم جديرون بان يلقوا الحماسة والبسالة وروح النظام ومحبة الملك في قلوب الجيش كله . ولما اتمَّ ذلك على هذا الاسلوب دخل بلاد الحبش واغرى الحبشيين بان يؤدوا له الجزية وهكذا ادمن على الفوز في اسيا . واورشليم هي المدينة الاولى التي شعرت بداءة بدء بباس جنوده ولم يستطع رحبعام الجري الى مقاواته بل سلب منه سزوستريس خيرات ابيه سليمان وامواله فهكذا قضت العناية الالهية للملك الشرير عقابًا اليمًا ثم اقترى سزوستريس بلاد الهند اكثر من هرقل وباخوس ووصل الى اكثر ما وصل اليه فيما بعدُ الاسكندر العظيم لانه البلاد قمع التي وراء نهر الكنج ومن ذلك يمكن لك ان تستنتج

هل قاومت البلاد الدانية عزمه. فتغلب على السيتيين حتى نهر التنايس لان بلاد ارمينية وكبادوقيه رضخنا لاوامره ونواهيه فترك نخلة في مملكة كولكوس القديمة حيث عوائد المصريين لم تزل ثابتة ومستمرة الى هذا الحين. وقد راى هيرودوت في اسيا الصغرى اثار ظفره من بحر الى آخر مع كتابات فاخرة بشان سزوستريس ملك الملوك وسيد السادات

وقد وجد منها في اقليم تراسا ايضاً . وامتدت مملكة سزوستريس من نهر الكانج الى نهر الطونة وانما صعوبة المعيشة صدت عن افتراء بلاد اوربا فعاد بعد تسع سنوات من سفره يثقلة جميع الشعوب الذين ارهقهم بالغنائم والانعام فمنهم من دافع ببسالة عن استقلالهم وحريتهم واخرون سلموا دون ادنى مقاومة وقد صرف العناية سزوستريس بان يوعز في اثاره وتواريخه الى البون بين هولاء الشعوب باحرف رمزية تدعى (ايروغليف) حسب عادة المصريين وقد اخترع الرسوم الجغرافية يرسم عليها مملكته واقام مائة هيكل شهيرة توطدت في سبيل تسبيح الالهة الذائدة عن المدائن وجعل جل ذلك منصوراً على تذكار فوزه واعلمت بكتابات ان هذه الاعمال العظيمة قد نجزت دون ان تعني رعاياها وكان يعد من سودده ان يراعيهم وان لا يهمك في آثار فوزه سوى الاسرى. وقد اقتفى بذلك انموزج الملك سليمان فلم يستخدم هذا الملك الحكيم في الاعمال العظيمة التي خلدت اسمه وذكرى ملكه سوى الشعوب المستعبدين والموءدين الجزية لحكومته . على ان الرعية أعدت لاعمال اخرى اعظم واشرف فكانوا يتعلمون فن الحرب واصدار الاوامر الجندية ولم يستطع سزوستريس ان يقتني اثاراً اعظم من ذلك فتربع في دست احكام مصر ثلاثة وثلاثين حولاً وتنعم بانتصاره زمناً طويلاً . ولو لم تعنه الكبرياء على ان يجعل الملوك الذين فمهم يجرون مركبته لكان اهلاً لكل مجد وفخر. ومن البين انه انف من ان يموت كسائر الناس . ولما امسى لدن شيخوخته اعمى انتحر وغادر المملكة المصرية لثروة وفيرة ومع ذلك فلم تبلغ مملكته بعد موته النسل الرابع الا انه بقي منها الى عصر طباريوس قيصر اثار مفتخرة تدل على عظمها وسعة دائرتها

ان المملكة المصرية عادت فوراً الى ما كانت عليه من طبعها وهو الرغبة في السكينة حتى انه كتب ان سزوستريس كان اول من اوهن عزائم المصريين بعد فتوحاته خشية من وقوع العصيان وبناء عليه لم يتخذ هذه الوسيلة الا كاحتياط على خلفائه. فانه

لم يكن يخشى من شعوبه باسًا فانهم كانوا يودونه ويخرون امام عظمته سجدًا نظرًا لما انطوت عليه سجاياه الحميدة من الحكمة والحلم ولذلك لم يكن هذا الفكر لائقًا بملك اخذت منه العظمة والمهابة كل ماخذ ولو لم يكن كذلك لكانت مغادرته بسالة رعاياه في حيز الوهن ضربًا من عدم استدراك الوسائل الكبرى لتوطيد اركان فتوحاته . ومن المقرر ايضًا ان هذه المملكة العظيمة لم تثبت مطلقًا . ولامندوحة للانقراض في اي وجه كان لان روح الانقسام والتشعب اخذا يمتدان في بلاد مصر . وقد اغار ساباكون الحبشي على هذه المملكة في عهد الملك انيزيس الاعمى فعامل الشعب بالرفق والتودد وقام بشئون خطيرة لم يبلغ اليها احدٌ من الملوك الوطنيين فلم يرَ ابدًا اعتدالٌ كاعتداله لانه بعد ان مضى خمسون عامًا من حكمه السعيد عاد باليمن الى بلاد الحبش انقيادًا لاوامر بعض الناصحين له فذلك امرٌ خالهُ الهامًا من لدن الالهة . ومنذ ذاك الحين هبطت المملكة بايدي ساتون كاهن فولكان المعروف بالبر والتقى الا انه قليل المعرفة عديم الخبرة في الامور الحربية . وقد اهمل قوى الجندية اذ عامل الجيوش واهل الحرب معاملة سيئة ومنذ ذاك الحين لم يعضد المملكة المصرية سوى جنود اجانب ومن ثم امتدت في مصر بلايا عظيمة فان المصريين تخيروا لهم اثني عشر ملكًا يقتسمون بينهم الحكم وهم الذين بنوا الاثني عشر صرحًا التي تتألف منها اللابرنت وان تكن المملكة المصرية لم تسدل على عظمتها القديمة ذيل النسيان فقد امست واهنة القوى وتشعبت في عهد هؤلاء الملوك الاثني عشر واصبح احدهم المدعو بساماتيك ملكًا باعانة الاجانب له فقامت به المملكة واستمرت عزيزة قديرة مدة خمسة او ستة احكام ملوك . وقصارى الامر ان هذه المملكة القديمة بعد ان مكثت نحوًا من ستماية عام اضعف ملوك بابل وملوك الفرس قواها وامست فريسة لكامبيز الذي هو اغبى من الملوك طرًا

ان الذين عرفوا جيدًا اخلاق المصريين استدلوا انهم لم يكونوا امة حربية . وقد اوعزنا انفًا الى علة ذلك لانهم قد عاشوا في الطمانينة نحوًا من الف وثلاثماية سنة لدن بروز الملك الفاتح الشهير اعني به سزوستريس فهكذا قسرًا عن ارادة جنودهم المرعبين بعناية جزيلة راينا اخيرًا ان قوتهم كانت قائمة بالجيوش الاجانب وهذا من اعظم الاوهام والمعائب التي يمكن للممالك اقترافها . لكنما الامور البشرية ليست ابدًا على كمال

ومن الامور العسيرة الوصول الى ذروة الكمال في فنون السلام والفوائد الناجمة عن الحرب ولكن ليس من المجد الطفيف استمرار هذه المملكة ستة عشر جيلاً وقد حكم في مدينة تاب بهذه الفترة بعض الحبشيين ومنهم ساباكون وتاراكا حسب ظن الاكثرين الا ان المملكة المصرية تخذت هذه الافادة من تنويم حالتها المنظمة وقوانينها المرتبة غير ان الاجانب الذين افتتحوها غادروا عوائدهم جانبًا وتسننوا بعوائدهم . وعلى هذا لم يكن المصريون يفقدون حكومتهم بتغير ملوكهم وحكامهم . وقد شق على مصر احتمال الفرس وابوا الرضوخ لنيرهم الثقيل الا ان المملكة لم تكن ذات بطش وصولة كما انفتنا لمناواة هذه السلطة القديمة بقوة جيوشها . وقد التجأ اليونان ان يهاوها لانها كهم في امر آخر. وطالما امدوها بالاغاثة سابقا وفادوا عنها وكانت تسقط دائمًا في عهد ولاة ملوكها الاولين الا انها استمرت مستمسكة بعوائدها القديمة وامست غير جديرة بان تسلق احكام ملوكها الاقدمين وشرائعهم ومع انها تمسكت بامور كثيرة على عهد تبولماوس وخلفائه فان اختلاط عوائد اليونان والشرقيين كان عظيمًا جدًا حتى انه لم يبق امتياز بين عوائدها وعوائد المصريين القديمة

فلا نسلونَّ اذًا ان ازمنة ملوك مصر القدماء غير محققة حتى في تاريخ المصريين انفسهم لانه يشق علينا ان نجد محلاً للملك اوزيمندياس الذي نرى منه آثارًا عظيمة ينبئنا ديودوروس عنها وادلة ساطعة على حروبه وبلوح ان المصريين لم يكونوا يعرفون اباسزوستريس الذي لم يذكره هيرودوت وديودوروس وان شوكته تبان من الاثار التي في العالم اكثر من تواريخ وطنه وهذه الحجج وغيرها تبين لنا انه لا يقتضي ان نصدق كلما روته لنا المملكة المصرية بشان قدميتها كما كان يخال البعض مع انها في نفسها لا تعرف ازمنة ملوكها الذين ملكوا ناصية الشهرة اكثر من غيرهم

الفصل الرابع

في الاشوريين القدماء والحديثين والماديين وفورش

ان مملكة المصريين العظيمة تعتبر كانها منفرزة عن غيرها وليس لها استقراء متصل كما نرى وما بقي علينا ذكره هو اكثر تحقيقًا وتواريخه اشد يقينًا

ومع ذلك فلم يبقَ علينا الا اشياء وجيزة محققة تناط بمملكة الاشوريين الاولى وبوجيز الكلام نقول : في اي اين شاؤوا ان يعينوا مبدأها اتباعًا لآراء المؤرخين المتباينة جاء نينوس لما كان العالم مجتزئًا الى ممالك شتى حقيرة امراؤها يتهمكون في ان ينظروا الى ذواتهم اكثر من ان يزيدوا قوة واذ كان يفوق من يدانونه في القوة والجراءة اضنكهم قومًا بعد قوم واقصى انتصاراته جدًا في ناحية المشرق . ثم ان امرانه سامرابس التي احرزت في المطامع المنوطة بها غالبًا بجنسها مما لا يوجد اعتياديًا بهنّ ثبتت افكار بعلها الرحيبة واتمت توطيد هذه المملكة

فلا ريب انها كانت عظيمة . وكبر نينوا الذي يفوق كبر بابل كما يزعم البعض يوضح ذلك جليًا . ولكن بما ان المؤرخين المدققين لا يذهبون الى ان هذه المدينة قديمة كما يبديها لنا غيرهم لا يحكمون انها عظيمة بمقدار كهذا . فلو كانت قديمة ورحيبة تطبيقًا لقول المورخ الافاك كتازياس ومن له الثقة بكلامه يعلم ان الممالك الصغيرة التي يقتضي لنا ان نقايسها عليها تستمر زمنًا طويلاً . ومن المحقق ان افلاطون الراغب في البحث عن الاشياء القديمة والنظر اليها يضع مملكة تروادة على زمان بربام تحت ولاية سلطنة الاشوريين لكنه لا يرى شيئًا من هذا في مؤلفات اوميروس الذي كان عليه ان لا يهمل حادثة كهذه لما في قصده ان يسمي مجد بلاد اليونان . ويمكن الوثوق بان الاشوريين كانوا معروفين قليلاً في جهة المغرب لان شاعرًا كهذا عالمًا محبًا للبحث عن الشؤون ليزين اشعاره من كل ما من شانه ان يناط بموضوعه لم يذكرهم فيها ابدًا

ومع ذلك فحسب التعداد الذي رايناه اكثر موافقةً للصواب نقول ان زمان حصار تروادة كان اعظم عصر الاشوريين اذ تمت فيه فتوحات سميراميس التي لم تنتشر الا في جهة المشرق فان الذين يصانعونها كثيرًا جعلوها تحصر اسلحتها في هذه الارجاء فانها شاركت نينوس في مقاصده وانتصاراته ثمة لان جوستين الذي يغالي في مديحه يجعله ينهي فتوحاته من جهات الغرب على حدود ليبيه

ولا علم لي في اي آنٍ اتصلت نينوا بفتوحاتها الى تروادة اذ يُرى ان نينوس وسمارميس قاما بشيء مثل ذلك . وجميع خلفائهما عاشوا في وهنٍ عظيم منذ ولدهما نينياس ولم يقوموا الا باعمالٍ نادرة جدًا حتى ان اسماءهم كادت لا تصل الينا . ومن العجب ان مملكتهم امكن لها القرار مع اننا لا نثق بسعتها . ولا ريب ان فتوحات

سزوستريس انقصتها كثيرًا . ولما كانت هذه الفتوحات قصيرة وليس لها من خلفائه معتمدٌ آل بنا الامر الى ان البلدان التي ملّصوها من ايدي الاشوريين وهي معتادة على احتمال سلطتهم تكون قد آبت اليهم طبعًا حتى ان هذه المملكة استمرت ذات شوكة عظيمة مقتنعةً بالراحة والسكينة الى آن ابدى فيه ارباس رخاوة ملوكها المدمنين على التواري في زوايا قصورهم ولم يفضِ الامر بسردانابال الى ان يكون محتقرًا فقط لدى الرعية بل قضى عليه الامران يكون غير مطاق

ولقد شاهدت الممالك التي خرجت من دثار مملكة الاشوريين وهي التي منها مملكتا نينوا وبابل . فملوك نينوا استمسكوا بلقب ملوك اشور وكانوا يزيدون غيرهم قوة وباسًا لكنّ كبرياءهم كانت متجاوزة كل حدٍّ لانهم افتتحوا مملكة اسرائيل او السامرة ولم يدرأهم عن ان يقمعوا مملكة يهوذا في ايام حزقيا الملك الّا يد الرب ومعجزاته ولم يعد يعلم في اي حيّز يمكن ان نحصر شوكتهم اذ فازوا عما قليل بمدينة بابل التي تدانيهم وهي التي كلت فيها قوى السلالة الملوكية

واما بابل فكان بدوانها لم تبرز الا لتستولي على اقطار البسيطة طرًا والدليل على ذلك ان شعوبها كانوا على جانب عظيم من سداد الراي والبسالة وكانت الفلسفة والعلوم بينهم رياضًا دانية القطوف ولم يكن في الشرق كله جنود تحاكي جنود الكلدانيين

وكان الناس يتعجبون في الاعصار القديمة من نضارة هذه البلاد التي جذبت باهال قاطنيها حراثتها . وحداها خصبها الى ان تكون في ايام ملوك فارس القدماء قسمًا ثالثًا للمملكة وبناء عليه فملوك اشور افتخروا وتعظموا من زيادة مملكتهم بانضمام هذه المدينة المثرية اليها فباشروا اذ ذاك مقاصد جديدة . وفكر بختنصر الاول ان مملكتهُ لاتكون جديرة بهِ ان لم يمل اليهِ العالم قاطبةً . ورام بختنصر الثاني الذي فاق سلفهُ سموًّا بعد ان فاز فوزًا غريبًا وفتح فتوحاتٍ مدهشة ان الرعية تؤدي لهُ عبادة الهِ احرى من ان يحكم كملك . فاية صنعةٍ لم يقم باعبائها في بابل واي اسوار واي ابراج واي ابواب واي صيانة لم يباشرها . وقد لاح ان برج بابل القديم اوشك ان يتجدد بعلو هيكل باعال وان بختنصر اراد ان يتهدد ثانيةً السماء وان تكن يد الرب اهبطت كبرياءه فمع ذلك خامرت رؤوس خلفائهِ فانهم لم يتأسوا على احتمال سلطة من يدانونهم فعوّلوا على ان يرضخوا العديد الاوفر تحت نير عبوديتهم ولذلك انف

منهم المجاورون واصبحوا يضيقون عن احتمالهم ذرعاً فألّب عليهم الحسد ملوك ماد والفرس وقسماً عظيماً من شعوب المشرق لكنما الكبرياء تحولت بسهولة الى القسوة . وبما ان ملوك بابل كانوا لا يحسنون معاملة الرعية غادرهم السواد الاعظم منها وسادات عظام وانحازوا الى قورش والماديين لكنما بابل المعتادة على التسلط وقمع الاعداء لم تبالِ بتألب هؤلاء الاعداء المكاشحين لها . بيدَ انها بعد ان كانت تخال ان لا تعمل بها ايدي القهر والغلبة امست اسيرة بايدي الماديين الذين كانت تزعم انها تنكلهم اي تنكيل ثم القت بها كبرياؤها الى وهدة الهلاك

واما نصيب هذه المدينة فكان غريباً فقد دثرت بعملها فان نهر الفرات كان يبدي في سهولها الشاسعة ما كان يبديه نهر النيل في سهول مصر . ولكي يجعله الناس سهل الاستخدام اقتضى الامران يفرغ في شأنه شغل وعناء اكثر مما استعملته مصر في سبيل النيل فانه كان يجري على خط مستقيم ولم يكن له كالنيل فيضان فلذلك اقتضى ان يصنعوا في البلاد كلها اقنية جمة ليتمكنوا من ان يسقوا منه الارضين التي زادت في نشأتها هذه الوسيلة فاصبحت غضرة نضرة . ورجاء ان يخففوا زئير مياهه الهائجة لجأوا ان يقيدوا مجراه باقنية متفاوتة وينشئوا له بحيرات كبيرة زانتها ملكة حكيمة ببهاء غريب فان نيتوكريس والدة لابنيت الملقب بنابونيد او بلشصر ملك بابل الاخير هي التي قامت باعباء هذه الشؤون الخطيرة . غير انها همت بان تبدي اموراً اعظم من ذلك فانها رفعت على نهر الفرات جسراً حجرياً لتضم طرفي المدينة اللذين كان يفصلها عرض النهر المتزايد فاقتضى الامر ان تنضب مياه نهر كبير كهذا بتحويلها الى البحيرة العظيمة التي كانت تلك الملكة قد حفرتها ولدن ذلك اقامت الجسر المهيأة مواده المتينة وكست ضفتي النهر خزفاً من اسفل الى حدٍّ متناهٍ من العلو وغادرت له درجات مكتسية خزفاً ايضاً ومزينة بشغل حسن يضاهي شغل اسوار المدينة . فالجهد في هذا الصنيع كان يضارع عظمته عجباً الا ان هذه الملكة الحكيمة لم يطرق ذهنها انها كانت بهذه الوساطة تعلم اعداءها كيف يمكنهم الاستيلاء على المدينة فان البحيرة التي حفرتها تخذها قورش وسيلة لان يحول اليها ماء النهر لما يئس من ان يخرب بابل بقوته او بالاجاعة ففتح من جهتي المدينة سبيلاً اشارت اليه الانبياء

فلم تعتقد قط بابل انها زائلة كسائر الاشياء العالمية ولو لم تستأثر بذاتها استيثاراً

تبعث على الضلال لما رماها الله في حيز التعالي ولما عسر عليها استدراك ما فعله قورش.
لان عملاً كهذا كان على وشك الحدوث وكادت توقع بالفرس برعايتها جميع المخدرات
غير انهم لم ينهمكوا بسوى الولائم والملاذ ولم يكن فيهم نظام او رئاسة صُدّق عليها وبذلك
تدثر الاستحكامات والقلاع والمالك القوية فامتدّ الخوف في كل اين وزهقت روح
الملك الشرير واراد كزينوفون الملقب بملك بابل الاخير ان بوعز بنوله الى بلشصر الذي
ارانا اياهُ دانيال معاقبًا بسقطة تبعث الرائين على العجب العجاب

واما الماديون الذين قوّضوا مملكة الاشوريين الاولى فقوّضوا الثانية ايضًا كأنّ
هذه الامة اقتضى لها ان تكون دائمًا مناقضة لعظمتهم الاان قبيلة الفرس الراضخة لاحكامهم
نالت ببسالة قورش الكبير فوزًا عظيمًا في هذه المرة الاخيرة

وحقيقة الامران الفصل في ذلك لهذا البطل الذي قد ربي بالصرامة والنظام
حسب عادة الفرس وهم الشعوب الذين اخذوا وقتئذٍ يكبّون على التنعم والفساد وقد
اعتاد قورش منذ لدونة الحداثة على معيشة قشفة وحربية . ولقد كان الماديون ينهمكون
بداءة بدء في الاشغال والعكوف على اصلاء نيران القتال فاعتراهم الوهن لكثرة تنعمهم
واصبحوا مفتقرين جدًا للحصول على قائد كهذا فتخذ قورش غنائمهم وتهيّب اسمهم في المشرق
مظهرًا له وعنادًا الاانه كان يبني امل نجاحه على الجنود الذين قادهم من بلاد فارس
فقتل في اول موقعةٍ ملك بابل وكسر الاشوريين فطلب الظافر مبارزة الملك الجديد
واذ ابان شدة باسو ابدى انهُ ملك حكيم شديد الحرص على دماء رعيته واقرن السياسة
بالشجاعة . لانهُ خشيةً من ان تدثر تلك البلاد الخصيبة التي كان يعدها غنيمةً باردة
بعث الفريقين على ان يعفوا عن الحراثة ثم انه اثار حسد الشعوب الدانية على دولة
بابل المتكبرة التي اوشكت ان تفترس الممالك طرًا وقصارى الامر انه احرز تحت اعلامهِ
الفخر الذي اقتبسهُ بحلمهِ وعدلهِ وقوة اسلحتهِ وبهذه الامور الخطيرة اخضع لسلطتهِ هذه
الامصار الشاسعة من الارض التي فرّع منها مملكتهُ

وبذلك ارتفعت هذه المملكة فصيرها قورش قوية جدًا حتى اصبح من الامور
الواجبة ان تزيد في ايام خلفائهِ ولكن اذا شئت ان تفهم علة دثارها وجب عليك ان
تقابل الفرس وخلفاء قورش باليونان ولاسيما الاسكندر

الفصل الخامس

في الكلام عن الفرس واليونان والاسكندر

ان الذي افسد عوائد الفرس كامبيز بن قورش فابوه الذي نشأ وقت اصطلاء الفتن والحروب لم يهتم في تهذيب خليفته الذي كان مزمعاً ان يخلفه على ولاء مملكة عظيمة كما هذب هو نفسه . ومن المقدر على الامور البشرية ان ارتفاعاً عظيماً يضر بالفضيلة اما داريوس بن استاب الذي تدرج الى العرش الملوكي من الحالة العامة فابدى خصالاً حميدة في ممارسة السلطة واهتم في اصلاح البلابل الا ان الفساد كان قد صار عاماً وان النظارة كانت قد افسدت في العوائد كثيراً ولم يرع داريوس لذاته كفوءاً من القوة ليتمكن من اصلاح غيره فاخذ الفساد ينمو في عهد خلفائه وتخلل الفرس فات كل الحدود

ولم يبرح الفرس على بعض انواع العظمة والشرف وان يكونوا قد فقدوا كثيراً من فضائلهم القديمة بتهمكهم في الملاذ بل حافظوا على شيء عظيم ذي بال . وهل يمكن ان يرى اشرف من الالفة التي كانوا يصوبونها على النفاق الذي كان لديهم تثريباً وعيباً مشيناً . ومن الامور الممتهنة عندهم بعد الكذب ان يكون الانسان ذا دين فعيشة ذباك المرء كانت تبدو لديهم باعثة على الوصمات والمعائب ممتهنة بمقدار ما كانت تبعث على الكذب ثم انهم كانوا يعاملون الملوك المدحورة بالتودة والوقار وذلك كرم مغروس في سجايا سراتهم ولقد كانوا يغادرون بني هولاء الملوك يقضون في بلادهم بكل خصائص عظمتهم اذا كانوا قادرين ان يواطئوا الفائزين

وكانوا على جانب عظيم من الرزانة كراماً على الغريبين لم الخبرة في استخدامهم يعتبرون اهل الاستحقاق ولا يتقاعدون عن استخدام الوسائل في سبيل امالتهم اياهم اليهم . لكن من الثابت انهم لم يصلوا الى غاية معرفة الحكمة التي تعلم كيف يحكمون فان دولتهم العظيمة لم تنفأ مضطربة طول ايام حكمهم ولذلك لم يستطيعوا ان يجدوا ذلك الفن العظيم الذي قد استخدمه منذ ذاك الوقت الرومانيون وهو ان يحرزوا جميع اجزاء المملكة ويصيروها مجموعاً كاملاً

ولهذا لم يمكثوا زمنًا مديدًا دون خصام وان كان فيهم شيءٌ كثيرٌ من النظام فانهم كانوا يعرفون قواعد الانصاف والعدالة . ومن ملوكهم من اجتهد في رعاية الشرائع بكل دقة فكانوا شديدي العقاب على الوصمات والجرائم ولفرط عدالتهم تراهم اذا غفروا لاحدٍ ذنبًا ثم آب اليه بعد المغفرة ارهقوه عذابًا اليمًا فكان لهم قوانين شتى حسنة اكثرها نص فورش وداريوس بن استاسب وقواعد يتوكئون عليها في الحكم ومشورات مرتبة يستظهرونها وترتيب عظيمٌ في الوظائف جمةً . ولما كانوا يقولون انّ العظام الذين بالفنون المشورة هم اعين الملك واذ انه كانوا يوعزون بذلك اليهم اي ان وزراء الملك تضاهي اعضاء الجسد فكما ان الاعضاء لاتبدي امرًا لذاتها بل اعمالها مصروفة في سبيل خدمة الجسد هكذا الوزراء فانها لاتقوم بامرٍ غير مقصور على خدمة الملك الذي هو راسها وخدمة كل المملكة فهؤلاء الوزراء يقتضي ان تكون لهم الخبرة بجميع قوانين الحكومة القديمة . والسجل الذي كانوا يحفظون به الحوادث الخالية كان دستورًا لذريتهم يقيدون فيه كل الخدامات التي قام بها كل فردٍ خيفة ان يبقى دون مجازاة لان ذلك تثريب على الملك وعار على الدولة وكان من عوائدهم المأثورة انهم يبعثون الافراد على صنع الخير العام اذ يعلمونهم ان من فرائضهم ان لايضحوا نفوسهم لنفوسهم بل للملك والمملكة فكان الملك يصرف عنايته في سبيل نجاح الحراثة ولذلك فان من كان في عهدته ذلك الفن وكانت ولايته متقونة به اكثر من غيرها كان الملك يوثره على غيره بالمنة والانعام الباهظة . وكما كان لسياسة الجنود وظائف معينة كذلك كان مثلها للحراثة فكان الملك مقيمًا لهذا الفن وظيفتين احداها لحفظ البلاد والاخرى لحراثتها وكان يذود عنها سيفين بنشاط ورغبة حبًا بالخير العام . وان الذين كانت تقلدهم الكرامة والحسنى بعد الذين فازوا في مضمار الوغى هم الذين انتجوا اولادًا كثارًا وكانوا يغالون في اتجاه الفرس الى الرضوخ للسلطة الملوكية فان ذلك كان يفضي بهم الى العبادة الوثنية وكانوا يبدون انهم عبدٌ ليسوا كرعايا راضخين بالعقول لسلطة شرعية فذلك كان من مآرب الشرقيين وربما كانت طبيعة هؤلاء الشعوب الحادة يقضي عليها ان تكون مطلقةً وشديدة القوى

وقد اخذ العجب افلاطون من كيفية ترتيبهم لاولاد الملوك ولا سيما اعطاءهم اياها لليونان دستورًا للتربية الكاملة . فلقد كانوا ياخذونهم من ايدي الخصية لدن بلوغهم السنة السابعة من اجالهم ليعلموهم ركوب الخيل وممارسة الصيد ولدن ارهاقهم اي وصولهم

الى السنة الرابعة عشرة كانوا يعينون لتعليمهم اربعة رجال من افضل اهل المملكة واحكمهم فقال افلاطون ان اولهم كان يعلمهم السحر في لغتهم اي عبادة الآلهة حسب القوانين القديمة وشرائع زوروآست بن اوروماز والثاني كان يحملهم على ان يعتادوا على النطق بالحقيقة والحكم بالعدل والثالث كان يعلمهم ان لايغادروا الشهوات تفوز بهم ليكونوا دائماً احراراً وملوكاً بالحقيقة ويملكوا ذواتهم وارادتهم والرابع كان يعزز شجاعتهم على الرهب الذي يجعلهم ارقاء ويسلب منهم الثقة اللازمة جداً للحكم. وان السادات الحديثين كانوا يتربون في دار الملك مع اولاده وكان اولئك المهذبون يصرفون في خدمتهم كامل العناية لايدعونهم يسمعون او ينظرون اموراً غير لائقة وكانوا يؤدون للملك حساباً عن سلوكهم وكان اذ ذاك يعاقب كلاً او يجازيه حسبما يستحق فالشبان الذين كانوا يشاهدونهم كانوا يتعلمون بهم الفضيلة ومعرفة الطاعة والامر

فما كان يرجى من ملوك الفرس وكبرائهم بسبب هذا النظام لو اجتهدوا ان يرشدوهم في كبرهم كما اجتهدوا في تعليمهم وقت صغرهم لكن عوائد الامة المفسودة كانت تقود بهم الملاذ التي في وسع حسن التهذيب مقاومتها ومع ذلك فقصراً عن رخاوة الفرس واعتنائهم في المحاسن والزينة يقتضي ان نقرانهم لم يكونوا خالين من البسالة لانهم لم يبرحوا يتباهون بالبسالة ويبدون بها ادلة عظيمة لان فن الحرب كان مقدماً عندهم كما يحق له لانه فنٌّ يمارس في ظلاله سائر الفنون ولكنهم لم يتوصلوا ابداً الى حقيقة هذا الفن ولم يعلموا اي مفعول في الجندية الصرامة والنظام وترتيب الجيوش وقوانين المدبر والمعسكر والوسائل التي تتخذ لتسيير هذه الجيوش العظيمة دون اختلاط في وقت مناسب وكانوا يخالون انهم انما المقصد لدن احرازهم شعباً كبيراً كان يذهب الى الحرب بعزم كافٍ لكن بلا نظام وكانوا يرتكبون بعديد وافر من الاشخاص الذين لاقائمة بهم فان الملك كان ياتي بهم غير متثقلٍ عليهم وكانوا على جانبٍ عظيم من الرخاوة والوهن . ولكم ارادوا ان يعكفوا بين الجنود في المعسكر على الترفه والملاذ كما يعكف عليهم عادة الملوك حتى ان هؤلاء الملوك كانوا ياتون الى ساحة القتال ومعهم نساؤهم وسراريهم وخصيهم وسائر ما يستخدمونه في سبيل ملذاتهم وكانوا ياتون معهم بالاواني الذهبية والفضية وكل الامتعة الثمينة وكل مايلزم للقوت وقصارى الامر كل ما تحتاج اليه النفوس المترفهة . فالجندية التي كانت مؤلفة على هذا النمط

ومرتبكة بعديد وافر من العساكر كانت مثقلة بكثرة عدد الذين لايحاربون فبهذه المخاوف لم يكن من امكانهم ان يتحدوا باتفاق ولم تكن الامور تصدر في وقتها بل كانت تجري في المواقع حسب المقادير دون ان يتمكن احد من اصلاح هذه الانقلابات وفضلاً عن ذلك فقد اقتضى لهم ان يتمموا ذلك حالاً ويتزعوا الى مقاطعة اخرى لان هذا الجمع الفقير المطاع لم يكن له من القوت الضروري شيء يسير ولا ما يبعث على الملذة ولذلك قضي عليه ان يباد في وقت وجيز اذ لم يكن له من ذريعة تمكنه من الحصول على الذخائر

ومع كل هذا الموكب العظيم كان الفرس يدهشون الشعوب الذين لم يكونوا اشدّ منهم في الحرب واما الذين يحسنون معرفتها فكانوا يعدون ضعفاء لسبب انقسامهم او مدحورين بكثرة اعدائهم. ولهذا اصبحت مصر واضحة لشوكة الفرس وان تكن عظيمة قديمة ذات نظام وطيد وفتح ملكها سزوستريس مدائن كثيرة . ولم يكن خارجاً عن استطاعتهم ان يفوزوا باسيا الصغرى والامارات اليونانية التي افسدها الوهن لكنهم لما بلغوا الى بلاد اليونان راوا ثمة مقاومة لم يكونوا من قبلُ يفكرون بها وهي جندية مرتبة وقادة ماهرون وعساكر قد اعتادت على قشافة المعيشة واجسادٌ الفها العناء فدانت لدى ذويها المخاصات والممارسات العادية . ولا ريب انهم راوا جنوداً قليلين لكنهم يشبهون هولاء الاجسام القوية اذ يبان انها منضوية على اعصاب قوية وعقولٍ ثاقبة وفضلاً على ذلك فان هولاء الجنود القليلون كانوا على جانبٍ كبير من النظام يرضخون لاوامر قادتهم ونواهيهم حتى انهم كانوا يظنّ بهم انهم روحٌ واحدة اذ كانت حركاتهم واحدة

اما اليونان فكان عندهم امرٌ اعظم من هذا وهو سياسة ثابتة تستدرك الامور ويمكن لهم ان يسلموا بها او يخاطروا ويدافعوا لدن الاقتضاء . ومما يزيد على ذلك كانوا قد كان فيهم شجاعة جعلها حبُّ الحرية والوطن غير مقموعة . ولقد كانت الالمعية والبسالة سجيتين مغروستين فيهم ودمثت اخلاقهم من قبلُ ملوكٌ ونحلٌ اتوا من مصر ونشروا بسبب توطنهم منذ زمانٍ قديم في ارجاء هذه البلاد المتباينة نظام المصريين الحسن في كل اينٍ ومن ذلك تعلموا الممارسات الجسدية والقتال والتسيار وامتطاء الخيل وركوب العجلات وسائر الممارسات التي ملكوا ناصيتها بسبب تيجان الاولمبياك الفاخرة . وعلمهم المصريون

امراً هو الرضوخ والتسليم للشريعة حباً بالخير العام لانهم لم يكونوا كمن لا يفتكرون بسوى اشغالهم الخاصة ولا يشعرون بخطوب المملكة الاَّ متى لحقهم منها شيء او متى قلقت بها راحة عيالهم . بل اليونان كانوا قد تعلموا ان يتخذوا ذواتهم انهم هم وعيالهم عضوٌ لجسد واحد اي المملكة فكان الاباء يرسخون في عقول بنيهم هذا المبدأ وكان الاولاد يتعلمون وهم موثوقون بقماط المهد انهم مترصدون الوطن ان يكون لهم امّاً تحرص عليهم في حجرها اكثر من الامهات . فان كلمة التمدن لم يكن مغزاها محصوراً لدى اليونانيين في الانسانية واللطف والامتثال المتبادل الذي يرسّخ الناس للالفة الاجتماعية بل كان الرجل المتمدن من يود الوطن ويعتبر نفسه كاحد اعضاء المملكة يسلك بحسب الشرائع ويتحد معها حباً بالخير العام غير معتدٍ على احد . واما الملوك القديمون الذين نالتهم بلاد اليونان في بلدانٍ متباينة فهم مينوس وسيكروبس وتامان وكرسفونت واريستين وباتروكل ومضارعون لهم غيرهم اذاعوا هذا المبدا في الطائفة قاطبةً وكان الشعب يودهم طرّاً لانهم صنعوا له خيراً وملكوا السنة لا لانهم كانوا يصانعونه .

فماذا الذي اقوله عن صرامة احكامهم واي مجلس كان احفل من مجلس الارواباج الذي كانت البلاد اليونانية تؤدي له الكرامة برمتها حتى افضى الامر بالناس ثمة الى ان يقولوا ان الالهة قد بدت فيه فكان مشتهراً منذ الايام القديمة وقداسةُ سيكروبس على نمط مجالس مصر . فلم يكن من جمعية حفظت زماناً مديداً كهذا شهرة صرامتها القديمة وقد كانت الفصاحة الخدّاعة قاصيةً عنها

فلما تثقف اليونان خالوا ان في امكانهم ان يسوسوا نفوسهم فاصبحت حكومة اكثر المدائن جمهورياتٍ الاَّ ان الشارعين الحكماء الذين برزوا في بلدان متباينة وهم ثالس وفيثاغوروس وليكيركوس وسولون وفيلولاس وكثيرون غيرهم من الذين يذكرهم التاريخ ثبّطوا قدم الحرية عن ان تحول الى الفساد لان السنن المسنونة بكل سذاجة حرضت الشعوب على تتميم الواجبات وحدتهم الى صنع خير البلاد العام . واما تصور الحرية الذي اولته هذه الشعوب فكان غريباً لان الحرية التي كان اليونان يتمتعون بها هي حرية راضخة للشرائع اي الحق نفسه الذي يعرفه الشعب طرّاً لانهم لم يكونوا يشاؤون ان الاشخاص يتسلطون بينهم فان القضاة الراهبين مدة تتميم واجباتهم

كانوا يصبحون كالافراد الذين ليس لهم سلطة الا بمقدار ما يتخذونه من الخبرة والعلم وكانوا يتخذون الشريعة كسلطان فهي التي كانت ترتب القضاة وتحدد سلطتهم وتعاقبهم على تصرفاتهم السيئة

وليس من دابنا ان نبحث هنا عن هذه الافكار هل هي راهنة او زاهقة بل نقول ان بلاد اليونان كانت راضية عن ذلك وكانت تؤثر بواعث الحرية على بواعث الرضوخ الشرعي وان تكن هذه بحقيقة الامر اخف من تلك . فبما ان كل الفة اجتماعية لها فوائد منوطة بها فالفائدة التي كانت بلاد اليونان تنالها بهيئة حكومتها هي ان الرعية كانت تود كثيرًا الوطن حتى ان كل فردٍ من ابنائها كان في استطاعته ان يتدرّج الى اسمى المراتب

ان ما ابدته الفلسفة لرعاية بلاد اليونان غير قابل للتصديق . وطالما كانت هذه البلاد حرّة اقتضى ان يترتب عليها بحقائق راهنة قوانين العوائد الحسنة وقواعد الالفة الاجتماعية فان فيثاغوروس وتاليس وانا كزاغوراس وسقراط وارشيتاس وافلاطون وكزينوفون واريسطو وغيرهم ملئوا بلاد اليونان كثيرًا من هذه المبادىء الحسنة . ولاريب ان قد وجد عديدٌ وافر من المجانين تلقبوا باسماء فلاسفة لكنما الذين كانوا يقتفون آثارهم هم الذي كانوا يعلمون الناس ان يضحُّوا صوالحهم الخاصة وحياتهم ايضًا للصالح العام وانقاذ المملكة . ومن احكامهم المتداولة ان يقتضي ان يتجرد الانسان عن الوظائف العامة او لا يلاحظ الاَّ الخير العام

فليت شعري علامَ نقصر كلامنا على الفلاسفة مغادرين الشعراء جانبًا فانهم هم الذين كانت ايادي الشعب تسابق لمداولة اشعارهم وكانوا يتعلمونها فترسخ في ادمغتهم وان اسكندر اشهر الفاتحين كان يعتبر اوميروس انه معلم يثق به وان من دابهِ ان يغري بالرضوخ وحب الوطن فهو وكثيرون غيره الذين كانت تاليفهم جزيلة الجداء والقبول لم يضمّنوا منظوماتهم سوى الفنون النافعة للحيوة البشرية ولم يقصدوا سوى الخير العام والوطن والالفة الاجتماعية وذاك التمدن والتهذيب العجيب اللذين تكلمنا عنهما انفًا

ولما وصلت بلاد اليونان الى هذه الحالة كانت ترنو الى اهل اسيا ذوي الاجسام النحيفة والمتوشحين بالحِبَر الباطلة والزينات المخنثة بعيون الامتهان

واما كيفية حكومتهم التي لم يكن لها حدٌّ سوى ارادة الملك السائدة على جميع الشرائع

حتى على الشرائع المقدسة كانت تبعث اليونان على ان ينكصوا منها فانهم كانوا يانفون من البربر كل الانفة

ووجدت هذه البغضاء قلوبهم منذ ايام قديمة وصارت فيهم سجية . وما كان يشوق الناس الى استظهار شعر اوميروس هو انشاده ظهور اليونان على اسيا . فكانت الزهرة تجنح الى اسيا ويعني بالزهرة الملاذ والعشق والرخاوة . وتجنح الى اليونان جنون اي الرزانة والود الاقتراني والمريخ اي الفصاحة والمشتري اي الحكمة السياسية . وكان في عهدة اسيا ايضاً مارس المتوحش ذو الاخلاق الوعرية اي الحربه المحتدمة بكل شراسة . وفي عهدة اليونان باللاص اي الحرب المضطرمة بنظام وباس يقيدها العقل ومنذ ذاك الحين ابتدوا ان الفهم والشجاعة قسماها الطبيعيان

وقد كانت البلاد اليونانية تضيق ذرعاً عن ان ترى اسيا تفوز بها ولو حملت على عاتقها هذا النير مرة لكانت اعتقدت انها اخضعت الفضيلة للذة والعقل للجسد والشجاعة الحقيقية لقوة وحشية قائمة بكثرة الجموع وقد كانت مفعمة من هذه الاعتقادات لما حمل عليها داريوس بن هيستاب وكسرسيس بجيوش لايصدق العقل عديدها الوافر . فتاهب لدن ذلك كلٌّ من الفيتين ليذود عن حريته . وقد كانت اذ ذاك اكثر المدن اليونانية جمهورية . ومع ذلك فقد تألبت برمتها تحت لواء الصالح العام . فغادر اهل اثينا مدينتهم بكل طيبة خاطر معرّضينها للنهب والحريق بعد ان انقذوا الاولاد والشيوخ والنساء وجعلوا كل الذين كانوا اهلاً للقتال يركبون البحر . ثم ان شرذمة قليلة العدد من اللاسيديمونيين قصدت توقيف عسكر الفرس عن التسيار قرب مضبق صعب المسلك . ولكي يتبين للفرس ما هم اليونانيون حملوا هم وملكهم دفعة واحدة راغبين في ان يموتوا موتاً لامندوحة لهم عنه ليضحّوا لوطنهم من هولاء البرابرة جمعاً لايحصى عديدهُ ويغادروا لوطنييهم مثال جراءة لم يسمع بها من قبلُ . وقد راى الفرس وهنهم لدى مقاومتهم هذه العساكر وذاك النظام وشعرت مراراً جمة لدى خسرانها بفضل النظام على العدد وعدم الترتيب بفضل الشجاعة التي تخامرها الفنون على شراسة ليس فيها تروٍّ

ولم يبقَ حيلة للفرس المتموعين مراراً سوى ان يلقوا الشقاق بين اليونانيين . وكانت الحالة التي وُجدوا بها بسبب انتصاراتهم تسهل لهم هذا المشروع . فكما ان الخوف

كان قد جمعهم كذلك النصر والامان قطعا حبال الاتحاد . وبما انهم اعتادوا على الحرب والفوز اججوا بينهم نيران القتال بعد ان زال خوفهم من الفرس . لكن ينبغي ان نبين هنا باسهاب العبارة حالة اليونان واسرار السياسية فنقول

ان اتينا ولاسيدءونيا كانتا جمهوريتين لهما الاهمية الكبرى بين الجمهوريات التي كانت بلاد اليونان متألفة منها ولم يكن ذكاؤها اكثر مما كان في اتينا ولا قدرة اكثر مما كان في لاسيدءونيا . فاتينا كانت جانحة الى الملاهي ولاسيدءونيا الى قشافة المعيشة والاشغال وكلتاهما كانت تحب الحرية والمجد . اما في اتينا فكانت الحرية متجهة نحو الفساد واما في لاسيدءونيا فكانت الشرائع الصارمة تشدد عليها . ومهما كانوا يضيقون عليها في الداخل كانت تحاول ان تمد بملكها خارجًا وكانت اتينا ترغب في ان تملك ولكن على غير مبدأ لان صالحها كان مختلطًا بالمجد وكان قاطنوها يمهرون في فن سلك البحار واصبحت مثرية بسبب المجر الذي كانت عليه سائدة وكانت تود ان يكون كل شيء لها راضخًا لكي تستمر وحدها مالكة التجارة وقدمت لها الوسائط للحصول عليها اموالها التي القت بها هذه الرغبة

اما لاسيدءون فكان فيها خلاف ذلك فان الاموال كانت ممتهنة لديها وكما ان شرائعها كانت ايلة لصنعها مشيخة حربية كذلك كانت اللذة الوحيدة الآخذة بالباب اهاليها منصورة على السلاح . ولاجل ذلك كانت منهمكة في الطمع وثابتة على حكمها ومواءدها بسبب عيشتها المرتبة . وكانت اثينا تفوقها بحدة الطبع وكان الشعب متوغلاً في زمام الحكم . ولا ريب ان قد كان للفلسفة والشرائع في هذه العقول الذكية مفاعيل حسنة الآن الرشد وحده لم يكن كفوًا ليهديهم . وقد افادنا احد عقلائهم المختبر اخلاق بلاده ان الخوف كان واجبًا لهذه العقول الحادة المتوغلة في عباب الحرية ولم يعد وسيلة لسياستهم عند ما ظهور سالامين ازال خوفهم من الفرس وحينئذٍ افسدهم شيئان وهما مجد اعمالهم البهية وظنهم انهم في طمانينة ولم يعودوا يصغون لكلام الحكام . واذ كان الفرس تحت سلطة شديدة جدًا كانت اتينا (حسب قول افلاطون) مصابة بحرية خارقة الحدود وهاتان الجمهوريتان المختلفتان بعوائدها وسلوكها كان البعض منها معرقلاً بالبعض الاخر قصد ان تخضعا كل اليونان وكانت كلتاهما عدوتين بسبب اختلاف مصالحهما لا بعدم مؤالفة طبائعهما

ولم تكن مدن اليونان تتبل سلطة احداها لانه فضلاً عن ان كل مدينة كانت تود ان تحافظ على حريتها كنّ جميعهنّ يجدنَ سلطة هاتين الجمهوريتين شديدةً عليهنّ فان سلطة لاسيديمون كانت شاقة وصارمة وكانت عوائد شعبها تتراءى لدى العيان انها قريبةً من التوحش ثم ان حكمًا معنفًا كان يجعل العقول مكبرةً ومتجبرةً جداً عدا ان الناس كانوا عازمين دائمًا على مواصلة الحرب بلاانقطاع

فكان اللاسيديمونيون يودون لو يحكمون والناس يرهبون لهم احكامًا . اما اهل اثينا فكانوا يفوقونهم لطفًا وحسنًا ولم تكن لذة تقارن لذة النظر الى مدينتهم اذ كانت فيها الاعياد والملاعب مستمرة . وان يكن الذكاء والحرية والشهوات تحدث بينهم مشاهد جديدة فان سلوكهم المتقلب لم يكن يرضي مواخيهم وكانت الرعية تجشم المشاق فاذا قضي عليهم ان يحتملوا غرابة سلوك شعب مصانع فاي شيء اكثر خطرًا من غرائب ملك مفسود بالمصانعة

ولم تكن هاتان المدينتان تبيحان لليونان ان تستمر متمتعةً بالسكينة . وقد شاهدت ياسيدي ان حرب البلابونيز وغيرها كانت من اسبابها حسد اثينا ولاسيديمونيا وهذا الحسد نفسه الذي كان يعكر راحة اليونان كان عنادًا لها يضافرها على السقوط تحت سلطة احدى هاتين المشيختين

ونظر الفرس الى حالة اليونان فكان سر سياستهم قائمًا برعاية هذا الحسد بين اعدائهم واثارة الشقاق بينهم . وبما ان لاسيديمونيا كانت مطاعًا فانها كانت اول من جرهم الى خصام اليونان وكان قصدهم بهذه المداخلة ان يستولوا على كل الامة ولهذا بذلوا ما عندهم من الجهد ليوهنوا اليونان ببعضهم مرتقبين زمانًا يجعلونهم يرتبكون وابتدأت حينئذٍ مدن اليونان ان تلقي نظرها على ملك الفرس الذي كانت تدعوه الملك الكبير او الملك بالذات كانها اخذت تعد نفسها من رعاياه . ولم يكن في امكان روح اليونان القديم ان يهبوا من غفلتهم اذ اشرفوا على السقوط تحت نير العبودية وبين ايدي البرابرة . واخذ ملوك صغار من اليونان يقاوون هذا الملك الكبير ويخربون مملكته . فلذلك ارهب اجزيلاس ملك لاسيديمونيا هو وفيلق قليل يعرف نظامًا وجيزًا قلوب الفرس وابان انهم يستطيعون ان يغلبوا ولم يضع لافتتاحاته حدًا الا انشقاق اليونان. وفي هذا الوقت حدثت ثورة قورش الصغير على اخيه ارتحشتا وكان معه عشرة

الاف من اليونان لم يمكن تفريقهم بهزيمة عسكر العامة وقيل انه قتل بيد اخيه واصبح اليونان لانصير لهم بين الفرس في نواحي بابل ولم يقدر ارتحشستا على ان يغريهم بالتسليم اختياريًا او ارغامًا فازمعوا طرًّا بقلوب صلدة على ان يخرقوا بلاده مثنين الى بلادهم فنالوا بذلك اوطارهم . فكتب هذا التاريخ كسينوفون في كتابه المدعو بعودة عشرة الآلاف او بغزوة قورش الشاب . وقد شعرت اكثر من قبلُ ان اليونان يربون جنودًا لا يقهرون ولا يُدحرون ولا يرضخهم لعدوٍ ضعيفٍ يقاومهم لدن الاتحاد سوى انشقاق يطرا بينهم

وقد احتفظ فيلبس المكدوني الباسل الحصيف على ما تأتّى له من مملكته الصغيرة المخصة من التقدم على المدائن والجمهوريات وذلك لان السلطة الملوكية لم تكن وقتئذٍ مقيدة . وقد اصبحت حصافته وبسالته مظهرًا لانه اقدر ملك في بلاد اليونان . وأسر اليونانيين على ان يسيروا تحت لوائهِ لمحاربة العدو العام الّا انه قتل في اثناء هذه الحوادث وخلفه ابنه الاسكندر بملكه واوطاره فراى المكدونيين اقوامًا حكتهم الايام وعلمتهم خوض المعامع يسودون على سائر اليونانيين بالشهامة والنظام ويشهد لذلك فوزهم مرارًا فصارعوا اليونانيين بفوزهم بالفرس ونظرائهم وكان داريوس القابض على زمام الملك عادلاً في زمانهِ شجاعًا كريمًا توده الرعية ولم يكن خائفًا عليه لتتميم ما رامه عقلٌ ولا عزمٌ لكنما اذا اردت ان تقابله بالاسكندر فترى في هذا عقلاً ثاقبًا ساميًا وشجاعة غير معهودة من قبل ورغبةً شديدة في اذاعة الاسم التي صيرته يفضل التهافت على المخاطر والاتعاب والموت على اضاعة ادنى درجة من المجد . ولقد كانت له ثقةٌ بان كل شيءٍ يرضخ له كانه رجلٌ مفردٌ اصطنعته المقادير ان يكون رجلاً في سائر الناس وكان يلقي هذه الثقة في قلوب قادته حتى في قلب ادنى جنديٍّ من جنوده الذين كانوا يظفرون بهذه الذريعة . وان قاست مشاق فبذلك يمكن لك الحكم لايٍ من الفئتين يكون الفوز معدًا واذا زدت على ما ذكرناه فضل اليونان والمكدونيين على اعدائهم لأيقنت ان الفرس لابد لهم من تغير ملك اذا حمل عليهم بطل كهذا بهذه الجنود فلدن ذلك ترى الاسباب التي آلت الى دثار الفرس ونجاح الاسكندر . ومما سهل فوزه موت ممنون الرودي القائد الوحيد الذي كان الفرس قادرين ان يقاوموه به . ولقد كان يحق للاسكندر ان يجر ثوب الفخار لفوزه بهذا القائد الشهير لدن مبارزتهِ وذلك لان ممنون كان يؤثر على

المخاطرة بمعركة عامة ضد اليونان ان ينازعهم كل المسالك ويمنع عنهم الزاد ويحاربهم في بلادهم ويقسرهم بشدة عزمهِ على الاياب اليها ليدافعوا عنها فاستدرك الاسكندر ذلك وغادر في مدينة انتيباطرا جنوداً كافية لرعاية اليونان ومَلَّصه بخته من هذه الحبالة فان ممنون مات لدن اغارته التي تسر الاسكندر على الرجوع وتخيف اليونانيين فارضخ اذ ذاك الاسكندر كل شيء

ودخل هذا الملك العظيم بابل بسطوة وفخر لم ير العالم لها من مثيل . وبعد ان ثأر اليونان واخضع بسرعة عجيبة كل المال التي تحت سلطة الفرس اغار على الهند . وذلك اما ليوطد مملكته من كل ناحيةٍ او ليجعل اسمهُ اشهر من اسم باخوس وتقدَّم بافتتاحاتهِ اكثر من هذا المفتتح العظيم الآن. ذلك الذي لم تكن الانهار والجبال قادرةً على ان تثبط قدميهِ اضطرَّ ان يخضع لعساكرهِ العانية الطالبة للراحة ويكتفي بالآثار الفاخرة التي غادرها على ضفة نهر اراسب عندما ارجع عساكرهُ على غير الطريق التي داسها وقمع كل البلاد التي وجدها في طريقهِ

وعاد الى بابل مهاباً محترماً لا كمفتتح بل كاله الأ ان هذا الملك العظيم لم يبقَ الذي شادهُ اكثر من حياتهِ التي كانت قصيرة فمات في اجل الثلاث والثلاثين سنةً وقت ان كان عازماً على تتميم مآرب تحدَّاها انسانٌ واعداً نفسه بآمال الفوز والنجاح . ولم يكن في استطاعتهِ ان يرتب اشغالهُ تاركاً من بعدهِ اخاً ابله واولاداً صغاراً ليسوا اهلاً لان يقوموا بهذا العبء العظيم الآن انعس شيء على مملكته ان قد غادر لها قادةً عليهم ان لا يجنحوا الاَّ الى المطامع والحرب وعليهم ان يقدموا على التعدبات عندما يغادر الدنيا ورجاء ان يدرأهم عنها وخشية من ان يناقضوه لم يجسر ان يتيم له خليفةً اووصياً لاولادهِ بل تنبأ ان اخدانهُ يحتفلون جنازته بمعارك دموية وهكذا مات في لدونة الحداثة متنغصاً بالرزايا الويلة . ودليل ذلك انك قد شعرت بشطر ملكهِ وخراب بيتهِ الرائع فاغاروا على مكدونية التي حكمها اجداده منذ ازمنةٍ مديدة كانها ارث ليس له من وريث . وبعد ان اصبحت فريسة اقوامٍ استولت عليها عائلة اخرى فبذلك ترى ان هذا الفاتح الذي كان اول من اقلقهُ البسيطة اصبح آخرُ ملك من نسلهِ . ولو كان لم يغبط بلادهُ لما دبت المطامع في قلوب قادتهِ . ولقد كان في امكانهِ ان يغادر لاولاده ملك ابيه . بيدَ انهُ لما كان مقتدراً جدّاً اصبح علةً لدثار اهلهِ وهذه هي ثمرة هذه الفتوحات

وكان موته السبب الوحيد لهذا الانقلاب العظيم لكنما يجب ان نذعن بما يعود على مجده وهو انه لو وجد على كامل الارض انسانٌ اهلٌ للقيام بهذا الملك الفسيح والمفتتح حديثاً لما كان سوى الاسكندر لان عقلة لم يكن في ادنى درجةٍ من بسالته ولا ينبغي ان نعزو ذلك كله الى الخطإ منهُ ولو كانت عائلتهُ قد سقطت به مراراً جمةً لكننا نعزو ذلك الى الموت . الّا اذا شاء الناس ان يقولوا ان رجلاً حمله طمعه على ان يقدم على الشؤون كلها ليس في امكانهِ ان يقوم بامر تدبيرها

ومهما يكُ من الامر فاننا نرى في نموذجه ان يوجد عدا الغلط الذي يقترفهُ الانسان بغباوتهِ ويمكن لهُ اصلاحه جهةٌ واهنة لا تصطلح تمكث ملاصقة للمقاصد البشرية وهي الموت لان كل شيءٍ يتأتى لهُ الهبوط فورا من هذه الجهة وهذا ما يلجئنا ان نقول : كما ان الاشياء المشينة الملاصقة للامور البشرية علةٌ للهبوط كذلك من يقدر على ان يوطد مملكة ويرعاها نوئه با لجد على من يفتح مملكةً ويفوز فوزاً في المطامع

وليس حاجة ان انبئك مسهباً عن فناء المالك المتفرعة من مملكة الاسكندر اي ملك سوريا ومكدونيا ومصر والعلة العامة هي ان الاهلين الجئوا ان يرضخوا لسلطة اقوى من سلطتهم وهي شوكة الرومانيين ومع ذلك فاذا اردنا ان نبحث عن حالة هذه المالك الاخيرة نرى حالاً علل هبوطها المتواترة وان اقواها وهي مملكة سوريا نزلت بها الضربة الاخيرة بسبب انشقاق ملوكها بعد ان تزعزعت بسبب رخاوة الامة

الفصل السادس

في الكلام عن دولة الرومانيين واستطراد الدولة قرطجنة واحكامها السيئة

قد وصلنا الى هذه المملكة العظيمة التي طوت تحت جناحيها سائر ممالك العالم فمنها خرجت المالك العظيمة في البسيطة التي نحن قاطنوها ولم نزل الى الآن نرعى شرائعها التي يجب علينا ان نعرفها اكثر من غيرها . فلقد قرأْت تاريخها المسهب الشهير بكل استقراءاته . تأمل بعوائد الرومانيين والازمنة التي بها يناط تقلب هذه المملكة الفسيحة تفهم اسباب ارتقاء رومية وعلل الانقلابات العظيمة التي طرأَت في

مملكتها . فكان الشعب الروماني اشدّ كبرياء من كل قبائل الارض . اجرأ من الكل لدن الشدائد اكثر نظاماً في مشوراته واثبت في تعاليمه وازيد كدحاً واجتهاداً ليس مجزاعاً في وقت الرزايا بل اجلد من الشعوب طراً واذكى عقلاً من كل من داس اديم الارض . فمن اناسٍ كمن ذكر تألفت الجندية التي كانت مبنية على السداد والنظام بسياسةٍ ممتلئة من الحكمة . ولانخشى لومة لائم اذا قلنا ان كل رومانيٍّ كان حبّ حريته ووطنه معجناً في فؤادهِ فهذان الامران كانا يغريانهِ بمحبة غيرهِ لانهُ ان كان يحبُّ حريته قضي عليهِ ان يحب وطنه بمثابة ام تشبع قلبه من الاحساسات المؤثرة وكان الرومانيون واليونانيون يتصورون تحت اسم الحرية مملكةً لايكون فيها احدٌ عبداً للشريعة والشريعة فيها اقوى من كل شيء . ومع ذلك وان كانت رومية منذ بروزها تحت لواء ملوكي فكانت لها ايام تحكم فيها ملوكها بحرية لا تليق بمملكةٍ ذات نظام .

وقد كان الشعب يتخير فيها الملوك ويقرّر هو نفسه الشرائع وبيده احتدام نار الوغى او نشر الوية السلام ويشهد بذلك تملوس هو ستيليس الذي لم تكن له الجراة ان يقضي على اوراس او يبرره . فان اوراس ارتدى برداء المجد لاستظهاره على كورباس واخوته لكنما لحقه العار العظيم بقتلهِ اخته . فلذلك غادر الملك امر القضاء للشعب . ولم يكن اذ ذاك للملوك الاّ الولاء على الجيوش والسلطة في الجمعيات الشرعية قاطبةً وعرض الاشغال عليها ورعاية الشرائع واجراء الاوامر العامة . ولما فكر سرفيوس تملوس ان يجعل لرومية مشيخة زاد في افئدة الشعب الذي كان قد امسى حرًّا محبة الحرية بكاملها في ايام القناصل . ونفرق خوفاً اذ نقرأ في التاريخ ثبات برتوس الكئيب لما امات امام عينيه اولاده الذين واطئوا التركينيين على الدسائس التي قاموا بها في رومية رجاء ان تتوطد بذلك سلطتهم . وزاد الشعب بالحرية ثباتاً بعد ان راى قنصله يضحي في سبيل الحرية عائلته الخاصة . ولا يقتضي ان تتعجب من ان كل الشعب يتهن في رومية اجتهادات الشعوب الدانية الذين حاربوا امل ان يرجعوا التركينين الذين كانوا قد نفوا من رومية وجعلهم الملك بورسينا تحت كنف حمايته عبثاً . وقد تاتى ان الرومانيين يودون بثباتهم لو يموتون احراراً وكان الشعب اشد ثباتاً من المجلس وتوافد الشعب على الملك رافعين اليه ان يتقاعد عن الاخذ بناصر التركينيين لان رومية ازمعت ان تخاطر بكل شيء لرعاية حريتها . وانها توثر قبول اعدائها داخلاً

على قبول ظالميها فلما اعتجب بورسينا من صلف هذا الشعب وجرأة بعض اهلهِ غير العادية عزم ان يترك الرومانيين يتمتعون بالحرية التي كانوا يعرفون ان يدافعوا عنها حسنًا وقد كانت مفضلةً لديهم على كل كنوز ثروات الارض

قد شعرت ان الفقر لم يكن شينًا لدى هذا الشعب منذ ابتدائهِ وبعد ان نجح في اموره بل انهم كانوا يعتقدون ان الفقر وسيلةً للاستمساك بحريتهم الكاملة . فما من رجلٍ اشدَّ حرية من الرجل الذي يكتفي بيسيرٍ من العيش ولا يتوكأ على احدٍ ياخذ بيدهِ . وليس لهُ من عناد او نصبر على كسب معاشهِ سوى تعبه وعملهِ . فهذا الامر كان الرومانيون يتخذونه ديدنًا فانهم كانوا يغتذون من المواشي يحرثون الارض ويتمنعون عن كل ما كانوا يستطيعونه يعيشون بالاقتصاد والعمل . فهذه كانت حياتهم فلذلك كانوا يقومون باود عائلاتهم ويعودونهم على اعمالٍ كهذه

وقد حقق تيت ليف المؤرخ بقولهِ . انهُ لم يرَ قط شعبًا استمرت فيه القناعة والامساك والفقر بشرفٍ وافتخار . وان اعظم ارباب المجلس وان كنَّا لم نلاحظ سوى ظواهرهم كانوا يختلفون قليلاً عن الفلاَّحين ولم يكن لهم سلطة او بهجة الاَّ بين العموم والمجلس ومع ذلك فكانوا ينهمكون في امور الفلاحة وسائر متعلقاتها اذ كانوا يتداعون الى قيادة الجيوش .وهذه الامثال كثيرة في التاريخ الروماني فان كيريوس وفابريسيوس القائدين العظيمين اللذين ظهرا على الملك بيروس الغني لم يكونا يملكان سوى آنية من فخار واذ قدم السمنيتيون النضار والجين لكيريوس اجابهم ان لذتهم ليست قائمة بالحصول على النضار انما بالاستيلاء على من عنده ذلك . وبعد ان ظفرا واغنيا الجمهورية من غنيمة الاعداء لم يكن عندهما ما يصرف في سبيل دفنهما . فاستمرت هذه القناعة في غضون حرب القرطجنيين ايضًا ففي اثناء الحرب الاولى طلب ريغولوس قائد الجيوش الرومانية الاذن من المجلس للنزوع الى دسكرتهِ ليحرث ارضها لانها هجرت اثناء غيبتهِ . ونرى بعد دثار قرطجنة امثالاً عظيمه تدل على السذاجة الاولى فان اميليوس بولوس الذي زاد الخزينة العامة بكنوز ملوك مكدونيا القديمة كان يعيش بالقناعة القديمة ومات فقيرًا . واذ خرب موميوس قورنتية ضحَّى خيراتها الوفيرة لمنفعة الناس طرًّا . ومن ذلك ينجم ان الاموال كانت محتقرةً وان قناعة القادة الرومانيين وعفتهم كانتا تلقيان العجب في قلوب الشعوب المدحورة . ومع كل هذه المحبة المفرطة للفقر لم يوفر

الرومانيون شيئاً لعظمة مدينتهم وجمالها . وكانت الاعمال العامة هكذا منذ ابتدائها . ولم تخجل رومية منها ولولاها اصبحت ملكة البسيطة . والكابيتول الذي اقامه تركوين المتكبر والهيكل الذي اقامه للمشتري في هذه القلعة كانا اذ ذاك جديرين بعظمة اكبر الالهة وبمجد الشعب الروماني وكل ما هو عدا ذلك ينطبق على هذه العظمة . وان الهياكل المعتبرة والاسواق والحمّامات والاماكن العامة والشوارع العظيمة والاقنية ومجاري الماء واخاديد المدينة كان لها عظمة كبيرة جداً لا يمكن الوثوق بها لولا ان يثبتها المورخون كلهم وتحققها الآثار التي نراها الان . وماذا الذي اقوله لك عن احتفال الانتصارات وطقوس الديانة والالعاب والمناظر التي كانوا يقومون بها في سبيل اللعب فمن المقرر انهم كانوا يبذلون كل ما يسمح لهم الزمان باسرافه في سبيل افراح القوم عموماً وحملهم على التصوُّر العظيم بوطنهم العام . ولم يكن التقتير الاَّ في العائلات الخاصة فكل من كان يزيد في دخلهِ ويجعل اراضيهُ اكثر خصباً بصنعتهِ وشغلهِ ولا يسرف ماله بل يعيش بقناعة كان يعدُّ نفسه يفوق الجميع بالحرية والقوة وحسن الحظ ولا شيء اقصى من الرخاوة في هذه الحيوة . ولقد كانوا يجنحون الى الصرامة او القشافة وكل ما يتاتى عنه التوحش والهمجية لكنهم لم يتغافلوا عن ان يقيدوا انفسهم بشرائع حسنة . وهذا الشعب الذي كانت فيه الحرية فاضلةً على مثلها في الشعوب كلها كان اذ ذاك ارضخ شعب لاوليائه والسلطة الشرعية . فلا غرو ان ترتيب جنود شعب كهذا يقتضي ان يكون عجيباً لان الطاعة المليية والمنظمة كانت في اجسام جنوده الاقوياء البنية والذائعي الصيت بالبسالة وكانت شرائع الجندية قاسيةً جداً لكنها كانت لازمةً لان النصرة كانت خطرة وغالباً مميتة الذين كانوا يقبضون عليها وهم خارقون سبيل النظام . وكان كل من يولي الادبار او يلقي اسلحته او يتجاوز صفه يلقى قتيلاً بايدي قومهِ حتى كل من يتحرك او يستل سيفه دون امر قائده كانوا يجدّلونه على الارض مقتولاً وكانوا يقضون ايضاً ان كل من يضع سلاحه امام عدوهِ او يسلم نفسه اليه اسيراً بدلاً من ان يموت لاجل وطنهِ شريفاً لا يوخذ بيدهِ ولا تصرف في سبيل انقاذه مضافرة . فكانوا يغادرونهم للاعداء حاكمين انهم اعضاء قطعت من الجمهورية . ولقد تصفحت في تاريخي فلوروس وشيشرون قصة ريغلوس الذي اوعز للمجلس ان يترك الاسرى لاهل قرطجنة مخاطراً في حياتهِ . وفي الحرب التي اضرمت ضد انيبال وبعد غلبة الرومانيين اي في الزمان

الذي فيه رومية كانت قد وهنت لكثرة الخسائر ولم يكن لها عساكر كافية رغب المجلس في ان يدجج ثمانية الاف عبدٍ بالسلاح مخالفًا عادته احرى من ان يشري من الرومانيين المأسورين مقدارًا من الرجال يقابل ذلك مع ان ذلك يكلفه لا بقدر ما كلفته اقامة هذه الجندية الجديدة وقد سنوا ان لابدَّ من ان كل جنديٍ رومانيٍ يكون قائدًا وتخذوا ذلك سنة لا يباح لهم ان يخالفوها وبذلك كنت ترى الجيوش الرومانية ولو لعبت بها ايادي التفريق كانت تحارب بكل بسالةٍ منضمةً اطرافها تظلُّ تستميت في المعمعة مادام فيها رمقٌ من الحيوة . وقد المع المؤرخ سالست ان قد كان بين الرومانيين جنودٌ كثيرون يعاقبون اذا حاربوا دون نظام اشدَّ معاقبة من الذين يغادرون مواضعهم ويهربون وذلك لان القادة كانوا يشددون في تهذيب شجاعتهم اكثر من اثارة رخاوتهم . وكانوا يزيدون على البسالة جودة العقل وفن الاختراع وعدا انهم كانوا نبهاء كانوا يقتبسون من كل ما كانوا ينظرونه في سائر الشعوب من الترتيب والنظام في الحروب . وقصارى الامر من كل ما يسهل المحاربة والمدافعة . وقد قرأت في مؤرخات سالست وغيره كل ما تعلمه الرومانيون من جيرانهم واعدائهم . ومن ذا الذي لا يشعر انهم تعلموا من اهل قرطاجنة اختراع القوارب التي ظهروا عليهم بها . وغاية الامر انهم اقتبسوا من كل الشعوب الذين عرفوهم كل ما يحتاجون اليهِ للانتصار عليهم . ومن الامور المقررة لديهم ان الغوليين كانوا يفوقونهم بقوى الجسم ولم يكونوا اقل بسالة منهم . وانبأنا المؤرخ بوليب بان الغوليين الذين كانوا اكثر عددًا من الرومانيين اظهروا في معمعة اخيرة جراءة عظيمة . بيد انهم وان كانت عزائمهم قوية قد ظفر بهم الرومانيون لانهم كانوا يعرفون ان يتخيروا لهم اسلحة اقوى من اسلحتهم ويراعوا النظام ويترصدوا فرصة الهجوم في المعمعة وفرصة ملاقاة الصفوف ويؤيد ذلك المؤرخ بوليب وقد شعرت ياسيدي بوقوفك على تاريخ قيصر ان الرومانيين الذين كانوا تحت قيادة هذا القرم العظيم فتحوا غاليا بسبب مهارتهم في فن الحرب لا بشجاعتهم وكان اذ ذاك المكدونيون الذين لهم الاهتمام الكبير في رعاية نظام الجندية الذي قام بهِ فيلبوس والاسكندر يظنون ان جنديتهم لم تكن تغلب ولم يكونوا يخالون ان العقل البشري يمكن له ان يرى شيئًا اثبت من ذلك ومع هذا كله فان بوليب نفسه وتيت ليف قررا بانه اذا لاحظنا فقط كيفية الجيوش الرومانية والجيوش المكدونية فلا بد لنا من ان نحكم بالانتصار للجيوش

المكدونية الذين لم يكونوا الافرقة واحدة مربعة مكشوفة من الانحاء كلها غير متحركة كانها قطعة واحدة وبما ان الجيوش الرومانيين كانوا منقسمين الى فرق متباينة وكثيرة كانوا اسرع كثيرًا ومتأهبين لكل نوعٍ من انواع الحركات الجندية فلا يخلوان يكون الرومانيون قد تعلموا سريعًا تقسيم العساكر الى فرق كثيرة او عرفوا ذلك من تلقاء انفسهم. وان يبقوا كتائب من العسكر متربصة في بحبوحة الاستنظار رجاء ان تدافع او تاخذ بايدي المتفرقين والمتزعزعين من اية جهة كانت من الجيش. وقرران هذا الجرم الثقيل الضخم يكون بالحقيقة هائلاً جدًا اذا سقط على جيش غيره دفعةً واحدة. لكنما قال عنه بوليب انه لم يمكن له ان يستمر على حاله زمانًا طويلاً بخاصية الطبيعة اي بالمتانة والثبات اذ يلزمه محال خاصة اقيمت لشأن ذلك فان لم يكن له من ذلك شيء لاتعرقل او بالاحرى تشعث بحركتهِ الخاصة فحينئذٍ يتعسر عليهِ الالتئام مرة اخرى. اما الجيوش الرومانية المجتزئة الى كتائب صغيرة فترى جداء ومنفعةً في كل المحال وتنظم بها فانهم يجدونها ويفترقون اليها حسب ارادتهم دون صعوبة ويجتمعون بلا مشقة. تراهم اهلاً لكل نوع من الانقلاب او الحركات العسكرية. وغاية الامر ان لهم حركات متباينة ولها عمل وقوة اكثر من القوة المتجمعة وينجم من ذلك حسب قول المؤرخ بوليب ان الجيوش المتجمعة يلزم لها ان تخضع لهم وان مكدونيا لابدَّ لها من الاندحار. فاننا نرى لذة عظيمة لدن تكلمنا عن هذه الامور التي رفعها اليك امهر المعلمين وتراها مستعملةً بامر لويس الكبير بكل عجب حتى اني لا اعرف هل الجندية الرومانية تأتي لها نظام احسن من ذلك. لكن من قطع النظر عن تشبيه الجندية الرومانية بالجندية الافرنسية اكتفي بالقول انك رايت الجنود الرومانية سواءٌ كان بالنظر الى معرفتها باستيلائها على المحال الموافقة او الى حفظها الصارم كل اوامر الحرب فاقت كل الذين بدوا في الاعصار الخالية

ولا حاجة الى التكلم عن اليونان بعد مكدونيا فانك شعرت بان المكدونيين كانوا يفوقون اليونانيين بامور كثيرة ومن ذلك يمكنك ان تحكم على الامور كلها فلم تبدِ اثينا منذ زمان الاسكندر شيئًا فان التوليين الذين فازوا بحروب كثيرة كانوا يؤثرون الطاعة على الحرية متوغلين في الهمجية يؤثرونها على الباس والبسالة وقد بذلت لاسيديمونيا جهدها في اضرام الحرب بعد نشأة كليومين ونشأ فيلوبمين بتحزب الاكايين فان رومية

لم تثر الحرب على هذين القائدين العظيمين غير ان فيليبومين الذي كان في زمان انيبال وسيبيون حكم بعد نظره الى صنع الرومانيين ان حرية اليونانيين ستنتهي وان الرومانيين انتصروا على شجاعة الغوليين واليونان فان الشعوب الذين كانوا يتهافتون الى اضرام الحرب كانوا يطاطئون الرؤوس امام الرومانيين فضافرتهم على الفوز الادارة المنظمة وقيادة انيبال الذي استظهروا عليه فلم يرَ شيئاً يساوي فخر جنديتهم ولم يكن لهم شيء في حكمهم يفتخرون به نظير افتخارهم بنظام الجندية فاعتقدوا ان ذلك لابد ان يكون اساً لملكهم وانه اول شيء بدا فيها واخر شيء فقدوه لانه كان منوطاً بتاسيس جمهوريتهم احسن امر في الجندية الرومانية ان لايثنوا على البسالة الزاهقة ولم تكن مبادىء الفخر الباطل التي اودت بكثير من بنيا معروفة بين شعب ممتلىء من الجد وان نرى سيبيون وقيصر اللذين كانا اعظم رجال الحرب واشجع الرومانيين انهما لم يتعرضا للخطر الا وقت الحاجة بل كانا دائماً في الحذر المبين ولم يكونا ينتظران شيئاً من قائد لم يتمكن من امتلاك نفسه . وكانوا يبقون للخدامة الحقيقية افعال الجراءة غير العادية ولم يكن الرومانيون يرغبون في اقتحام المعارك التي تؤدي بهم الى ارتكاب المخاطر ولا في الانتصارات التي يتاتى منها اهراق دماء كثيرة حتى انه لم يكن اجرأ من الجيوش الرومانية ولا اكثر تحفظاً منها وبما انه لايسوغ اضرام حرب اذا لم تكن قوة كافية لذلك يقتضي ان نلاحظ سياسة المجلس الروماني القاصية فاذا بحثنا عن هذا المجلس في ايام الجمهورية نرى انه لم يكن وقتئذ جمعيات توخت الاعمال حق التوخي فاحصةً اياها بتروٍ سراً وعلناً ناظرةً في عواقب الامور راغبةً في الخير العام

ولم يانف الروح القدس من ان يثبت ذلك في سفر المكابيين ويمدح كثيراً سمو حصافة هذه الجمعية المختذية من لبان الحكمة وما من احد يتخذ لنفسه السلطة الا بنور العقل . وكان جميع اعضائها الملتئمين تحت راس واحد ينهمكون في ما من شانهم خير العموم غير متغرضين او حاسدين

واما بالنظر الى رعاية السر فيذكر لنا تيت ليف . بشان ذلك مثلاً سامياً وهو انه بينما كان الناس هنالك يفكرون في ان يوجهوا على الملك برسي حرباً واتى الى رومية عدوه ملك برغام المدعو اوماناس وانحاز الحزب الذي يكاشح له بالبغضاء اشهر

الفعلة الذين آبوا الى اعمالهم وقد اصبح من المستحيل الدنو من ذلك المحل فنبذوا العمل

واما مؤرخوا الكنيسة فيوردون النبأ عن ذلك الحادث بدقة كبرى ويذكرون ان نار السماء خامرت وقتئذٍ نار الارض . وقصارى القول ان كلام المسيح اصبح ثابتًا وذلك ما حمل يوحنا الذهبي الفم على ان يقول ان الرب اقام على الصخرة بيعةً لا تتزعزع ودثار الهيكل ليس بوسع احدٍ انهاضه اي لااحد يمكن لهُ ان يقوض ما اقامه الرب ولااحد يمكن لهُ ان يقيم ما قوَّضه

ولندعنَّ الان اورشليم والهيكل ونرنونَّ الى الشعب نفسه الذي كان آنفًا هيكل الرب الحي واصبح الآن عرضة لغضبة ومن المقرران اليهود اصبحوا اكثر سقوطًا من هيكلهم ومدينتهم لان روح الحق لم يبق بينهم وبطلت النبوءة وبرحت المواعيد التي كانوا يسندون عليها آمالهم ولم يبق شيءٌ قائم في ذلك الشعب ولم يترك من البناء حجرٌ على حجر

وانظر الان كيف سلموا نفوسهم الى الضلال والى اية درجة اتصلوا فكان المسيح قد قال لهم : انا اتيت باسم ابي فلم تقبلوني وان اتى اخر باسم نفسه قبلتموه) فمنذ ذاك الحين استولى عليهم الفشل حتى انهم صاروا متأهبين ان يسلموا انفسهم لانه لم يكنهم ان الانبياء الكاذبة سلموا المدينة الى تيخوس فان اليهود واصل اباهم من اليهودية طردُهم منها لان حبهم لاورشليم حمل كثيرين منهم على ان يتخذوا مثاوىء في رسومها العافية . وهاك مسيحًا اخر دجالاً يأتي ويتم خرابهم لانه بعد ان مضى على افتتاح اورشليم خمسون سنة شرع برخوخيباس المرذول اللص المجرم يقول في الجيل نفسه الذي مات فيه مخلصنا انه كوكب يعقوب المذكور في سفر العدد لان معنى اسمهِ ابن كوكب وتقدم لليهود كانه المسيح فقفا اثره اكيباس اشهر الربانيين وكل الذين يدعوهم اليهود حكماءهم ودخلوا في حزب هذا الرجل دون ان يبث لديهم علامةً تدلُّ على بعثهِ . غير ان اكيباس كان يقول لهم ان المسيح لا يلبث الان يبدو وقام اليهود من كل الدولة الرومانية وانحازوا الى برخوخيباس الذي كان يعدهم بملك العالم فقتل ادريانوس منهم نحوًا من سماية الف ووضع على عواتقهم نير العبودية ونفاهم من اليهودية نفيًا مؤبدًا ومن ذا الذي لايدري ان روح الكذب قد استولى على قلوبهم فانهم لم يقبلوا محبة الحق

والخلاص ولذلك يبعث اليهم الله بعمل الضلال حتى يصدقوا الكذب فمهما كان الغش فانه كان كافيا لخداعهم فقال في هذه الايام احد منافقي الشرق عن نفسه انه المسيح فاخذ اليهود يجتمعون حوله وشهدناهم في ايطاليا وهولاندا والمانيا وماس يتأهبون ليبيعوا امتعتهم ويتركوا كل شيء ويتبعوه وفكروا حالاً انهم مزمعون ان يستولوا على العالم لما بلغهم ان مسيحهم أسلم وترك دين موسى

الفصل الثالث والعشرون

في ضلال اليهود التابع لما انف وكيفية تعبيرهم عن الانبياء

لاتعجب من سقوط اليهود في هذه الغرق ولامن تشعيثهم في هذه العاصفه بعد ان جنفوا عن طريقهم فهذهِ الطريق كانت قد رسمت لهم في النبوءات ولاسيما في النبوءات التي كانت توعز الى وقت ماتى المسيح فنبذوا هذا الان يمرُّ دون نتيجة ولهذا تراهم وقتئذ جانحين الى الافك مزورين عن الطريق

ايذن لي هنيهة كي ارفع لديك تسلسل غيهم وكل كدحهم في ولوج العمق وان الطريق التي يضلُّ بها تتصل بالطريق العظمى واذا اعتبرنا ذلك من حيث ابتداء الضلال امكن لنا السعي في الطريق المستقيمة بكل تاكيد

فقد رابنا ياسيدي ان قد يوجد نبوءتان تبينان لليهود وقت ماتى المسيح وهما نبوءة يعقوب ونبوءة دانيال وكلتاهما تشير الى آثار مملكة يهوذا في وقت جيئة المسيح الآ ان دانيال يبين ان دثار هذه المملكة التام سوف يكون ناتجا عن موت المسيح وقال يعقوب بنوع صريح ان المسيح الذي يكون رجاء للام اي مخلصاً لهم ياتي وقت سقوط ملك يهوذا ويقيم له مملكة جديدة لاتكون موءلفة من شعب واحد بل من كل شعوب الارض وان كلام هذه النبوءة لايمكن ان يخرج لغير معنىً وينتج تعبيره من تقليد اليهود الثابت بهذا الخصوص

ومن ذلك ينجم الاعتقاد الذائع بين الربانيين الاقدمين والمذكور ايضاً في التلمود وهو انه في الوقت الذي ياتي فيه المسيح يبطل وجود القضاة اي انه لاشيء اهم عندهم لمعرفة مجيء المسيح من ملاحظة وقت سقوطهم في هذه الحالة التعبسة التي ذكرناها

وحقيقة الامران بداءتهم كانت حسنة. ولو لم تكن افكارهم منهمكة بالعظمة الدنوية لما كان امكن لهم ان يجهلوا المسيح الذي كانوا يخالونه بسلطة كهذه حتى يشتركوا بملكه فالركن الذي وضعوه كان مقررًا حالاً عندما جار هيرودس الاول وحدوث التغيير في حالة مملكة اليهود ابان لهم وقت سقوطهم المرسوم في النبوءات فلم يكن عندهم من ريب في مجيء المسيح وفي ظهور هذه المملكة الجديدة لانه كان مزمعًا ان تجد فيها كل الامم وما تقرر لديهم صريحًا ان قد نزع منهم كل سلطان بالموت والحيوة وهذا كان لديهم تغيرًا عظيمًا لانه قد كان محفوظًا لهم دائمًا الى غاية ذاك الحين مهما كان السلطان الذي رضخوا له حتى انهم في بابل في اثناء سبائهم لم يبرحوا مستولين عليه وما يبين ذلك تاريخ سوسان. وهذا كان تقليدًا ثابتًا عندهم وقد نبذ ملوك فارس الذين اتوهم الى اوطانهم هذا السلطان بموجب اوامر خاصة قد لاحظناها في محلها وقد ذكرنا ايضًا ان الملوك السلوسيديين قد ضاعفوا هذا التمييز وما انقصوه ولا حاجة هنا لنذكر ثانيةً ملك المكابيين لان اليهود قد عتقوا واصبحوا اشداء ورهبة في قلوب اعدائهم وقد اكتفى بومبايوس الذي اوهنهم كما ذكرنا آنفًا ان يفرض عليهم جزيةً ويجعلهم بحالةٍ تمكن الشعب الروماني ان يتصرف فيهم لدى الاقتضاء كما يشاء. ولذلك قد ترك لهم ملكهم وابقى له كل سلطته ومن البين ايضًا لدى الجميع ان الرومانيين كانوا يتصرفون هكذا وكانوا لا يمسون الحكومة الداخلية في البلاد التي كانوا يتركون فيها ملوكها الوطنية

وغاية الامران اليهود انفسهم يذعنون انهم فقدوا هذا السلطان بالموت والحيوة اربعين عامًا فقط قبل دثار الهيكل الاخير ولا ريب ان هيرودس هو اول من اضرَّ بحريتهم رجاء ان ينقم من مجلس السندار ان لانه اضطرَّ هو نفسه ان يتحاكم فيه قبل ان يصير ملكًا. ثم لكي يجمع اليه كل سلطة اخذ يقوض هذه الجمعية التي كانت كجمعية المشايخ المنشئة من موسى وكمجلس مشورة الشعب الدائم اذ كان يجري السلطان العالي. فمن ثمَّ فقد هذا المجلس رويدًا سلطانه حتى انه اضاعه تقريبًا عند مجيء المسيح الى العالم فصارت الاحوال سيئة جدًا في عهد اولاد هيرودوس لما صارت مملكة اركيلاوس التي كانت حاضرتها اورشليم تحت ولاية معتمدين من قبل ملوك رومية. وفي هذه الحال السيئة لم يبق لليهود ادنى سلطان في الموت والحيوة حتى انهم اضطروا الى ان يلتجئوا الى بيلاطوس ليميتوا يسوع المسيح الذي كانوا يرغبون في موته في اية حالة كانت ولما

اوعز اليهم هذا الوالي الواهن ان يقتلوهُ هم انفسهم اجابوهُ بصوتٍ واحدٍ لا يسوغ ان نميت احداً

ولهذا قتلوا يعقوب اخا يوحنا بوساطة هيرودوس والقوا ايضاً القديس بطرس في السجن . ولما ازمعوا على موت القديس بولس اسلموهُ للرومانيين كما صنعوا بيسوع المسيح . واما نذر ذوي الغيرة الكاذبة (اي الذين آلوا على نفوسهم ان لا ياكلوا ولا يشربوا حتى يقتلوا الرسول) فيدلُّ على انهم كانوا موقنين بهبوط سلطانهم ليقتلوهُ شرعاً وان يكونوا قد رجموا القديس اسطفانوس بالحجارة فذلك كان ناجماً عن ثورةٍ لم يمكن للرومانيين التمكن من ردعها لان الموججين تلك الثورات كانوا من المدعوين بذوي الغيرة

وبناءً عليهِ اصبح من الشؤون المثبتة من المؤرخين ومن اقرار اليهود واحوالهم ان نحو وقت ماتى المسيح ولاسيما لما شرع يبشر بانجيلهِ كان اليهود قد فقدوا السلطة الزمنية وما امكن لهم ان يشاهدوا فقد هذا السلطان الا يتذكرون نبوءة يعقوب التي كانت تنذرهم ان في زمان المسيح لا يبقى بينهم سلطةٌ ولا قضاة ولا سلطان . وقد لاحظ احد مؤرخيهم الاقدمين هذا الامر واقرَّ ان الصولجان قد خرج من يهوذا ولم تبقَ السلطة بايدي مشائخ الشعب لان السلطان العام نزع منهم وهبط مجلس السندارين ولم يستمر اعضاؤه يعتبرون كقضاة بل كمعلمين وهكذا قد حان الان حسب اعتقادهم لمجيء المسيح . وبما انهم كانوا يشاهدون هذه العلامات المقررة لماتى المسيح الملك الجديد الذي يمتدُّ لواءُ ملكه فوق سائر الامم فكروا بالحقيقة انه مزمعٌ ان ياتي فشاع النبأ عنه في البلدان الدانية واكدوا في الشرق كله ان سوف يخرج من اليهودية من يملك الارض عن قريب . وذكرنا سيت وسياتون هذه الاشاعة المستندة على آراء مقررة ونبوءة قديمة في كتب اليهود المقدسة وذكر يوسيفوس هذه النبوءة بالحرف الواحد وقال ايضاً مثلهم انها في الكتب المقدسة ولا ريب ان اعتبار هذه الكتب كان عظيماً جداً في الشرق لان قد شوهد مراراً عديدة ان ما تنبأوا بهِ كان قد تم بانواعٍ مختلفة وظروف متباينة وان اليهود كانوا متيقظين اكثر من غيرهم ليراعوا هذه الحوادث التي كتبت لتعليمهم ولهذا قد عرفوا زمان ماتى المسيح الذي اوعز اليهِ يعقوب وحدده بسقوطهم وهكذا ملاحظاتهم بشان حالتهم كانت موقعة ولم يزهقوا بزمان ماتى المسيح بل

عرفوا انه مزمع ان ياتي في الوقت الذي اتى به بالحقيقة . ولكن يا للعجب من ضعف البشر وتكبرهم اللذين سببا جهلهم الفظيع . فاخفى تواضع المخلص عن هؤلاء المتكبرين العظمة الحقة التي كان يلزمهم ان يجدوها في المسيح بل انهم كانوا يرغبون في ان يكون ملكاً كملوك الارض ولهذا قال مداهنوا هيرودس الاول انه هو نفسه الملك الموعود به لليهود لانهم كانوا في دهشة من عظمة هذا الملك وفخره لانه اغنى اليهودية ولو كان جائراً وهذا ايضاً ما سبب بدعة الهيرودين المذكورة في الانجيل مراراً وعند الوثنيين انفسهم لان الشاعر برسس وشارح اشعاره يخبراننا ان الاناس كانوا يحتفلون في اليهودية ميلاد هيرودس الملك كما كانوا يحتفلون نهار السبت وذلك كان في زمان نيرون ايضاً

وقد سقط في هذا الخطاء عينه ايضاً يوسيفوس المؤرخ فان هذا الرجل العالم بالنبوءات كما يقول عن نفسه اذ كان كاهناً ومن اخلاف الكهنة انه درى بمجيء هذا الملك الموعود به يعقوب وان ذاك المجي كان يقارن لوقت هيرودس لانه يبين لنا بكل اعتناء دثار اليهود البين ولكن بما انه لم يرَ في امته شيئاً يوافق افكارهُ ذات المطامع كما ظنَّ في المسيح اخروقت النبوة ونماها لويسبازيانوس موكداً ان هذه النبوءة تدل على هذا الملك الذي صار امبراطوراً في اليهودية .

وعلى ذلك كان يعاكس معنى الكتاب الاقدس ليوطد دهانة فيالهُ من اعمه البصيرة فقد ودَّ ان ينقل امل يعقوب ويهوذا الى الامم ويطلب يوسبازيانوس ابن ابراهيم وداود وبني لملك وثني من هو مزمع ان ينير العالم وينقذهم من الاصنام

وكانت ظروف الزمان تقوم بناصره ولكن بينما كان يبني يوسبازيانوس ما قاله يعقوب عن المسيح كان ذوو الغيرة الذائبون عن اورشليم ينسبون ذلك اليهم وبالتوكوء على هذا المبدأ وحده كانوا يعدون نفوسهم بملك العالم ويؤيد ذلك يوسيفوس وبهذا كانوا ارحم منهُ لانهم كانوا لم يحالوا امتهم قصد ان يطلبوا تتميم المواعيد التي اعطي آباءهم اياها

فلماذا لم يفتحوا عيونهم عند سماعهم هذه الاشاعة العظمى التي كانت تقرع اذانهم لما شرع الرسل ينذرون الامم بالانجيل ويشيدون ملك المسيح في كل الارض

واية مملكةٍ اعزُّ من هذه المملكة فانها تقبض على زمام التقوى وينتصر بها الحق

على الاصنام وبشر بها بالحيوة الازلية للامم الضليلة وان مملكة القياصرة لم تكن سوى زهاءة باطل بالنسبة لهذه المملكة الحقيقية . بيد انه لم يكن لهذا الملك الزهو الكافي لدى اعين العالم .

فيجب على المرء ان يقصي عنه الافتخار البشري ليعرف المسيح . ومن الثابت ان اليهود كانوا يعرفون الزمن ويرون الشعوب المدعوين لاله ابراهيم بيسوع المسيح وتلاميذه حسب نبوة يعقوب ومع ذلك لم يعرفوا هذا المسيح المعلن لهم بجميع الادلة ولوانه ثبت ارساليته في مدة حياته وبعد موته بكل انواع العجائب فجحده هولاء العميان لانه لم يبدُ به الاّ العظمة العارية عن كل الظواهر التي توثر في الحواس ولانه كان آتيًا اقمع مطامعهم لاللقيام بناصرها .

ومع ذلك كانت الظروف والحوادث تقسرهم على ان يحالوا احيانًا اوهامهم قسرًا عن عمه قلوبهم . وكانت الاشياء تعد بظهور المسيح في وقت السيد له العزة حتى انهم فكروا ان يوحنا المعمدان يكون هو المسيح لانه ادهشهم بعيشته القشفة والخارقة العادة والعجيبة وبدا انهم اكتفوا بزهو هذه الحيوة العجيبة لانهم لم يجدوا عظمة العالم كلما كانوا يطلبون واما حيوة المسيح البسيطة والاعتيادية فكانت تجعل هذه العقول الساذجة والمتزاهية تانف منه لانهم لم يكونوا يتاثرون الاّ مما يوثر في حواسهم . وخلا ذلك فبما انهم كانوا قاصين عن كل ما يوول الى ارتدادهم الحقيقي لم يشاءوا ان يعتجبوا الاّ ما يعتبرونه امرًا لايقتدى به . وبناء عليه لم يثقوا بيوحنا المعمدان الذي فكروا ان يكون مستاهلاً ان يكون المسيح لما هداهم الى المسيح الحقيقي . واما المسيح الحق الذي كان يقسرهم على اقتفاء اثره عند وثوقهم به بدا لديهم دنيئًا جدًّا لدن تسننهم به

وبناء على ذاك التصور الذي قام باعبائه اليهود لدى بدو المسيح في تلك الاثناء كان عزيزًا جدًّا حتى ان ذلك استمر فيما بينهم اكثر من عصر فخالوا ان ثمة النبوءات لابدّ لها من سعة . ولا يقتضي ان تكون محصورة في معنىً مقرر ولذلك لم يكن يفوه بينهم مدة نحو من مائة سنة الاّ عن المسيحيين الافاكين الذين كان القوم يقفونهم او عن الانبياء الافاكة الذين كانوا ينذرونهم . ولم يرَ شيءٌ يضاهي ذلك في الاجيال الماضية ولم يغالي اليهود باستعمال اسم المسيح الى وقت أن كان يهوذا المكابي يفوز بالظالم بظفرٍ عظيم او وقت كان اخوه سمعان يعتقهم من نير عبودية الامم او وقت أن كان

من الاتحاد لانها كانت في الحين الذي ينشدها فيه الروح القدس في سفر المكابيين .
واما مجلس ندوة قرطجنة فكان بسبب تحزبات قديمة منقسماً الى شطرين لا يمكن اتفاقهما وكان هلاك انبال برداً وسلاماً على قلوب الاعيان والعظماء فيها . بيد ان رومية كانت فقيرة جداً تطبُ على الحراثة التي هي علة لاغاثة جندية باسلة لم تكن تفتخر الاّ بالمجد والاسم الروماني مع ان قرطجنة كانت مثرية بتجارتها وكان اهلوها منهمكون في الثروة والمال غير متمرنين على فن الحرب . وبينا ان رومية كان جنودها الكثيرون من قاطنيها كانت قرطجنة لاتبع لها سياستها ان تجند الاّ الاجنبيين وكانت الخشية تقع منهم احياناً على الذين اتخذوهم لمهنتهم اكثر منها من الذين تثير الحرب عليهم . فكانت هذه الورطة متأتية من تاسيس قرطجنة الاول ومن تواتر الايام فانها لم تتقاعد عن محبتها للمال والغنى حتى ان اريسطو كان يونبها كثيراً على ذلك قائلاً ان هذا الامر ذريعةلان يفضل سكانها النقود على الفضيلة. وقد قال هذا الفيلسوف ان هذه الجمهورية التي توطدت لاثارة الحرب قد اهملت قواعدها وممارستها لكنها لا يلوح انه يونبها اذ ليس عندها الاّ جنود اجنبية لكنما يوُخذ من هذه القرائن انها لم تسقط في هذه الورطة الاّ بعد ذلك. الاّ ان كثرة الغنى تسوق بالطبع الحكومة الجمهورية الى ارتكاب مثل ذلك لان كلاً يودُّ ان يتمتع بخيراته وانعامه متنكراً انه يعثر على كلّ امرءٍ بفيضان ماله وعلى هذا كانت قرطجنة تعدّ نفسها قوية لانها كانت مالكةً عديداً وافراً من الجنود . ولم تتعلم من الاختبار ومن عتو جنودها المتكاثر في الازمنة الاخيرة ان لا شيء يتكفل بهلاك دولة نظير استنادها على اجنبيٍّ ليذود عنها مع انه يكون عارياً من كل غيرة ورضوخ وامنية

ولا ينكران سمو عقل انبال الثاقب اصلح ما في سياسة دولته من الخلل . ومن الامور التي تبعث على العجب ان لم يحدث في جيش انبال الموءلف بجموعٍ مختلفة لم يكن البعض منهم يسمع للبعض الآخر بل انهم كانوا متحدي الكلمة راضخين لاوامر قائدهم مدة ست عشرة سنة في بلادٍ اجنبية الاّ ان مهارته لم تكن بقادرة ان تعضد قرطجنة وقت ان هجم على اسوارها القائد سيبون الحاذق واصبحت حينئذٍ دون قوة فاقضى الامر باهلها ان يستغيثوا بانبال الذي لم يخدمه الاّ بجنودٍ اضحكتهم انتصاراتهم اكثر مما اضحكهم فوز الرومانيين . وزاد على ضعفهم ضعفاً طول السفر في البرّ والبحر

ولهذا انكسر انيبال وتقهقرت قرطجنة التي استولت انفًا على افريقية والبحر المتوسط وكل تجارة العالم فالتزمت اذ ذاك ان ترضخ للنير الذي القاهُ الظافر سيبون على عاتقها . فهاك ما جناه من ثمر المجد والفخر جلد الرومانيين وصبرهم . لان الشعوب الذين يبسلون ويتجلدون في اثناء النوائب لا ييأسون من انهم يتملصون من حبائل المشاق المبرحة بشرط ان لا يفقدوا املاً . وقد عرف بوليب المورخ ان قرطجنة سوف ترضخ لرومية واستنتج ذلك من نظام الجمهوريتين

فاذا كان الرومانيون لم يتخذوا كل هذه الوسائل السياسية والجندية الا لكي يرعوا دولتهم في بحبوحة الراحة و يصدوا المعتدين على الذين يواخونهم وجب علينا ان نطري بالثناء على عدلهم كما اطرينا على بسالتهم وحكمتهم . الآ انهم لما ذاقوا حلواء الظفر ارادوا ان يجعلوا كل شيء راضخًا لشوكتهم . وجل مقاصدهم كانت ان يستولوا على مجاريهم ثم على العالم باسره . واملاً بنوال مرغوبهم كانوا يعرفون ان يراعوا المتحابين معهم ويظبوا على الاتفاق بينهم ويلقوا الفتنة والحسد بين اعدائهم و يتداخلوا في افكارهم فيكتشفوا على نواياهم ليستدركوا اعمالهم ولم يكونوا يسهرون فقط على تصرف اعدائهم بل كذلك على نجاح مجاوريهم لانهم كانوا يرغبون جدًّا في ان يشعبوا الدول القوية والمانعة فوزهم فيستقدمون الوسائل لمقاواتهن من جهة اخرى حفظًا للموازنة وبذلك اخطأ اليونان في عصر بوليب المورخ عندما كانوا ينمون توسيع رومية الى التقادير لا لحكمة مقصودة وذلك لانهم كانوا يودون مجد امتهم . وكانت تدب فيهم الغيرة اذ كانوا يرون اناسًا يتعالون عليهم مجدًا ولما كانوا يرون عن بعد المملكة الرومانية تتقدم وتنمو كانوا يعزون الى الصدفة حسب عوائد بني الانسان مفاعيل لم يكونوا يعرفون عللها . ولم يكونوا قد دخلوا في الاحكام التي كانت تحرك هذا الملك العظيم اما بوليب المورخ فبسبب عشرته للرومانيين كان واقفًا على سياستهم المكنونة وبسبب ملاحظته سلوكهم في الحروب مع قرطجنة حكم بعدل على الرومانيين اكثر من غيره من اليونان ونسب فتوحاتهم لا للتقادير بل لمقاصد متواصلة مبنية على الحكمة لانه كان يشاهد الرومانيين من البحر المتوسط يسرحون ابصارهم الى كل الانحاء حتى اسيا واسبانيا و يراقبون كل ما كان يجري و يتدرجون خطوةً خطوةً و يوطدون شوكتهم قبل ان يتندوا ولا يحملون نفوسهم احمالاً كثيرة و يكتمون برهةً مقاصدهم ثم يعلنونها لدن الاقتضاء فترصدوا غلبة انيبال ليقهروا فيلبس المكدوني

مضافرهُ . ومتى شرعوا في امر لايتوانون ولا يفرحون الالدن اتمامه ولا يتركون للمكدونيين فرصة يكون لهم فيها فرج وبعد ان ظهروا عليهم اعادوا الى اليونان من ازمنة مديدة تحت اثقال العبودية الحرية التي لم يكونوا فيها بمفتكرين وبذلك بغوا في الامصار الشاسعة هيبتهم وحرمة اسمهم وهذا ما يبين صريحًا ان الرومانيين لم يسارعوا لفتح العالم بالمقادير بل بحكمة مقصودة

هذا ما شاهدهُ بوليب في اثناء نجاح رومية . واما دنيس اليكارناس الذي كتب بعد تشييد الدولة الرومانية اي في عهد اوغسطس يستنتج من النتيجة عينها بعد ان تكلم بداءةً عن ترتيب الجمهورية القديمة الذي هو قادرٌ ان يربي بذاته شعبًا اهلاً للتسلط ولا تعمل به ايدي الغلبة . وذلك كافٍ ليجعلك تنفي راي هولاء المورخين وتدحض راي بلوتارك المتحرش لليونان النامي الى التقادير عظمة رومية . واما عظمة الاسكندر فنسبها الى قوة حكمته وفضيلتهِ

ولكن طالما يبين هولاء المورخون مقاصد رومية المعتمد عليها الافتتاح يوضحون ظلمهم لان هذا النص لايتعزز عن المطامع بالتسلط ولهذا رذلهُ الانجيل المقدس انما الفلسفة وحدها تكفي لان توضح ان القوة نالها بنو الانسان ليحافظوا على مالهم لاليختلسوا ما لغيرهم . وقد اقرَّ بذلك شبشرون والقوانين التي سنها لتنيم الحروب ترذل الرومانيين جهارًا . ولا ريب انهم اخذوا يعدلون في بداءة الحكم الجمهوري لانهم كانوا يتظاهرون انهم شديدوا الرغبة في اضرام الحرب التي حصروها في حيز العدالة والانصاف ولا شيء اودُّ من جمعية الفاسيوكس اي السفراء سواءٌ كان عقدها نوما تطبيقًا لما بنوه في دنيس اليكارناس اوانكوس مارسيوس تطبيقًا لما يقوله تيف فيف فهذه الجمعية قد عقدت لتبرز احكامًا سواءٌ كانت الحرب عادلة ام لا . وقبل ان كان مجلس الندوة ينهمك في تاجيج الحرب او ان الشعب يتهافت عليها كان الفحص العادل مصروفًا في اسبابها ولما كان القيام بشان ذلك يعدُّ عدلاً كان مجلس الندوة يسارع الى تتميمهِ . انما كان المحاربون يطلبون قبلُ شرعًا كل شيء من المختلس ولم يكونوا يستخدمون الوسائل الجبرية الابعد ان يفرغوا كل انواع المساهلات

ولاريب ان هذا النظام كان امرًا مقدسًا . ومما يشين المسيحيين و يرذلهم ان قد هبط من السماء الهٌ ليلقي بينهم سلامًا فلم يكن لهُ ان يثبت في قلوبهم محبة . فما الفائدة

اذاً من القوانين الحسنة اذا اصبحت بحصر القول صورة كاذبة . فان لذة الفوز والتحكم افسدت في الرومانيين ما كان عندهم طبعاً من الانصاف والاستقامة لان مداولة جمعية الفاسيوكس لم تبقِ عندهم الا صورة زاهقة وان يكن الرومانيون يعاملون آونة اعداءهم بالرفق والمودة فان الطمع لم يستمر مبيحاً للعدل ان يفوز في ارائهم والتآماتهم وفضلاً عن ذلك فان ظلمهم كان يبعث على الخطر المبين لانهم لم يكونوا يستطيعين ان يواروه تحت ستار العدل . وكانوا يرزحون تحت اثقال رقهم الملوك والامم بحجة انهم يدافعون عنهم مع انهم كانوا ذوي قسوة بربرية نحو الذين كانوا يتيهون عليهم تكبراً . وذلك من دأب الفاتحين الذين يعلمون ان الرغبة قائمة باكثر الفتوحات . افيسوغ التحكم بامرٍ كهذا سوء . ألذةٌ فارطة في الاستيلاء فيتعداه بنو الانسان باعمال كهذه بربرية

وامل ان يلقي الرومانيون الهول في كل اينٍ كانوا يغادرون في المدن المفتتحة مشاهد مرعبة تدل على قسوتهم وكانت سمات الارهاق والتذليل تبدو عليهم نحو الذين كان ينظر اليهم بعين التلى والشحناء . ولم يكونوا يعفون عن الملوك بل كانوا يبتونهم بقساوة غريبة عدا انهم كانوا يكبلونهم بالسلاسل لدن الفوز بهم ويجرُّونهم بالعجلات كالعبيد

غير انهم كانوا مع كل هذه القسوة الفاحشة التي كانوا يستقدمونها في سبيل الافتتاح كانوا يحكمون بعدالة الامم الراضخة لشوكتهم لانهم كانوا يبذلون غاية جهدهم ليذيقوا الشعوب المقهورين لذة احكامهم ظانين ان ذلك من احسن الوسائل التي تكفل بفوزهم . فكان مجلس الندوة يقيد الولاة ويحكم بالعدل للامم لان هذه اللجنة كانت ملاذاً للمظلومين ولهذا لم يطرأ سلبٌ او نهبٌ في الدولة الرومانية الا في اواخر الحكم الجمهوري والى ذاك الان كانت شهامة الولاة وقناعتهم ممدوحتين في كل البسيطة

وبناء عليه فلا تعدنّ الرومانيين من زمرة هؤلاء الفاتحين المطامع الذين لا ترتاح نفوسهم الا الى النهب او لا يتوطد استيلاؤهم الا على دثار البلاد المفتوحة . فلا ريب انهم كانوا يحسنون احوال المدحورين ويزيدونهم ارتياحاً اكثر ما كانوا يسوّدون بينهم العدل والحراثة والتجارة والفنون والعلوم بعد ما كانوا يعلمونهم ذوق الملك

وذلك مما اولاهم هذه المملكة التي تفوق كل ممالك العالم بزهائها ونظامها وعظم اتساعها فان حدودها كانت تمتد من نهر الفرات والتنايس الى عواميد هرقل وبحر الاتلانتيك وكانت كل الامصار والبحار راضخةً لشوكتها . يجول ملاحوها في لجج البحر

المتوسط فيجوبون كل ساحاته مستشرفين على كل الممالك التي حوله طولاً وعرضاً محافظين عليه من طرفيه لمغرروا الاتصالات في مملكتهم . اما الان فياخذنا العجب عند رويتنا الشعب الذين هم ممالك عظيمة اي غاليا برمتها واسبانيا كلها وغالب بريطانيا الكبرى والبريا حتى شواطىء الدانوب وجرمانيا حتى نهر الالب وافريقيا حتى قفارها المرعبة التي لايدخلها احدٌ وبلاد اليونان وتراسيا وسوريا ومصر وكل ممالك اسيا الصغرى والممالك التي بين البحر الاسود وبحر كاسبيان والممالك التي اوعزت عليها ولم اشاء ان اذكرها لم تكن مدة اجيال متوالية الاّ مقاطعات من المملكة الرومانية التي كانت كل شعوب العالم حتى البربر تحترم شوكتها وقد بسطت في كل الانحاء سلطتها وشرائعها وتمدنها

ومن الغرايب ان في مملكة كهذه رحبة مكتنفة اماً شتى وممالك عظيمة شعوباً عظيمة كانت راضخة لما لايدب فيها تمردٌ الا قليلاً لان سياستها كانت قد جعلت بوسائل عديدة ارفع لديك محصّلها بوجيز العبارة ان النحل الرومانية التي نشأت في كل ارجاء المملكة يكون لها مفعولان عظيمان اولها انهم كانوا لايثقلون على المدن التي كان فيها عديدٌ كبير من ذوي المعسرة . والثاني انهم كانوا يحافظون على المحال المهمة ويعودون الشعوب الغريبة على اخلاق الرومانيين وعوائدهم فهذه النحل التي كانت ترحل ومعها كل الامتيازات الخاصة كانت تمكث متعلقة بالحكم الجمهوري مفعمة المملكة من السكان الرومانية

وعدا ذلك كان قسمٌ كبيرٌ من المدائن كانت تنيل سكانها حقوق سكان رومية متحدة بها بصوالحها ساهرةً على المدن المجاورة لتغريها برعاية واجباتها

فحدث في اخر الايام ان كل رعايا المملكة اعتبروا نفوسهم انهم رومانيون وان الشرط المنوط بالظافرين انحق فيما بعدُ بالمقهورين ففتح لهم مجلس الندوة ابوابهُ وبنوا امالهم على ان يركبوا مستقبلاً تخت الملك وعلى هذا اصبحت الامم بسبب حلم الشعب الروماني شعباً واحداً وامست رومية وطناً للجميع

فكم من ملاينةٍ جرّت هذا الاتحاد العجيب الى كل الشعوب العائشين في ظل سلطة واحدة للتجارة وسفر البحر فان الشوكة الرومانية كانت قد اكتنفت كل شيءٍ . وعدا بعض مقاطعات على التخوم كان المجاورون يثيرون فيها قبسة القلاقل وكان العالم

برمته في السكينة والامن . ولا مراء ان بلاد اليونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر واكثر مقاطعات غيرها لم تلبث دون حرب الا على عهد الرومانيين ومن هنا يؤخذ ان هذا الاتصال بين الامم كان آيلاً الى حفظ الرضوخ والاتفاق في كل جهات المملكة

واما الجنود الذين كانت بهم رعاية التخوم فكانوا يثبتونها داخلاً بينما كانوا يدافعون عنها خارجاً ولم يكن من عوائد الرومانيين ان يشيدوا قلاعاً في امصارهم ولان يحصنوا تخومهم ولم يقوموا بهذا الشروع الاّ على عهد ڤالانتينيانوس الاول لانهم كانوا آنفاً يحصرون قوة المملكة ورعايتها في الجنود الذين كانوا يبعثونهم الى ارجائها حيث يكونون قادرين ان ياخذوا بايادي بعضهم المعتبين . وبما ان النظام كان يلزمهم ان يستمروا دائماً في المعسكر لم تكن المدائن تتأذى بحضورهم . ولم يكن القانون العسكري يبيح للعساكر ان يتجوّلوا في الحقول وعلى هذا لم تكن الجنود الرومانية تبلبل التجارة او الحراثة . بل انهم كانوا يقيمون في معسكرهم اسواقاً لاتختلف عن سواها بالاشغال . بل كان النظام مرعياً بكل صرامة والامر بكل شدة . وكان هؤلاء الجنود مستعدين للعمل عندما تدعوهم الى ذلك ادنى حركة . وهذا امرٌ كافٍ ان يجعل الشعوب راضخين لتتميم واجباتهم لدن شعورهم ان جنودهم موهبون دائماً للقيام باعمالهم

ولم يكن شيء يسيد الراحة والامن في المملكة اكثر من نظام العدل والمجالس الذي سنه الحكم الجمهوري وفسره الامبراطورون والفقهاء فكان الشعوب كلهم حتى البرابرة ينظرون اليه بعيون التعجب والدهشة . وبهذه الشرائع وحدها كان الرومانيون جديرين بان يستولوا على العالم . وفضلاً على ذلك فاذا كانت الشرائع الرومانية بدت مقدسة وان عظمتها لم تزل الى الان رغماً عن دثار المملكة فلا يكون الاّ لأنَّ العقل يستقرُّ في كل اين وأن لا شريعة تنطبق على مباديء العدل الطبيعي نظيرها

غير انه قسرًا عن عظمة الاسم الروماني وهذه السياسة المكنونة وكل النظام السامي الذي نشأ في هذه الجمهورية المشهورة كانت رومية تتضمن في جوفها علة دثارها وهي ديمومة حسد الشعب لمجلس الندوة او بالاحرى حسدهم للشرفاء . فروميلوس كان قد وضع لذلك امتيازاً اذ اقتضى ان يكون للملوك اناس ممتازون يناطون بشخصهم الملوكي بروابط خاصة ليحكموا في الشعب بواسطتهم . ولهذا اصطفى الشعب الشيوخ والَّف منهم مجلس الندوة وكانوا يدعون شيوخاً نظرًا الى سنهم ومناصبهم ومنهم نشأت

عائلات الشرفاء . ومع هذا فمهما كانت السلطة التي ابقاها رومبلوس للشعب فانهُ اخضعهم تحت ولاء الشرفاء بوسائل استخدمها في سبيل ذلك . وهذا الرضوخ اللازم للحكم الملوكي حفظوه في ايام الملوك وحكم الجمهورية فانهم استمروا متخيرين من الشرفاء اعضاء مجلس الندوة وكانت الوظائف والولاء والرتب حتى الكهنوت منوطة بهم . غير ان الشيوخ الذين عتقوا رومية لم يضربوا صفحًا عن امتيازاتهم فدبت اذ ذاك عقارب الحسد ولا حاجة لذكر الكافاليه اي الخيالة الرومانية الذين كانوا مرتبةً ثالثة ياخذون آونةً بايدي احد المتشاحنين وآونةً بايدي الآخر الا ان السبب الحقيقي الذي كانت بهِ رومية منتعشةً هو حبُّ الحرية

لان مبدأ الجمهورية الاساسي كان قائمًا بان تعتبر الحرية انهُ غير منفصل عن الاسم الروماني وان الشعب الذي يكون قد الف هذا المبدا او بالاحرى خلق ليستولي على الشعوب كلها (ودعاه ڤرجيليوس الشعب الملك) لا بودَّ ان يرضخ لشريعة لم يكن سنها هو نفسه . وكانت سلطة مجلس الندوة امرًا واجبًا يعدل سلطة غيرهِ من المجالس ولو ذلك لكانت المجالس كلها ضجاجة الا انهُ كان بالشعب يناط تقليد الولاة الرياسة وبهِ تسنُّ الشرائع وتخدم الحرب ويبرم الصلح وكان له حقوق الملك الاساسي ويتخذ اهابة الملوك ولهذا كان يرغب في ان يوعز اليهِ ولكن لا يشاء ان مجلس الندوة يقسرهُ على امرٍ . وعليهِ فكلُّ ما كان يبدو بهيئة التعظم والامر او يرتفع عن غيره او كل ما كان يشين او يمسّ روح المساواة السائد في دولة حرة يانف منهُ هذا الشعب الحر كل الانفة . ولهذا حب الحرية والمجد والفتوحات كان يقضي عليه بعدم الانقياد . والجراءة التي كانت تبعثهم على ان يباشروا كل الاعمال الخارجية كانت تسبب لهم انقساماتٍ داخلية . وعلى هذا فان رومية الحريصة على حريتها شاهدت الشقاق ثائرًا بين كل مراتب الامر . ولدن ذلك سرى الحسد الرائع بين الشعب ومجلس الندوة والشرفاء لان منهم من كان يزعم ان الحرية المفرطة تبيد نفسها ومنهم من كان يخشى ان السلطة التي من دابها ان تكون دائمًا ممتدة ستصير جورًا وعدوانًا

فلم يرَ الشعب ما بين هذين الطرفين حدًا اوسط . والصوالح الذاتية لم تبح لهم بان يستمروا في حدود الآراء العادلة . وان ذوي المطامع والهيجان كانوا يثيرون روح الحسد ليتعينوا زمانًا ينالون بهِ اغراضهم . وهذا الحسد الذي كان تارةً متواريًا

وطورًا باديًا حسب مقتضيات الاحوال لم يبرح حيًا في القلوب حتى سبب الانقلاب العظيم الذي طرأ في ايام قيصر ومن خلفه

الفصل السابع

ايضاحٌ للانقلابات التي حدثت في رومية

يسهل عليك ياسيدي جدًا ان تقف على بواعثها اذا كنت تبذل جهدك بعد شعورك بسجايا الرومانيين وتاليف جمهوريتهم بالاطلاع على بعض التي لها ارتباطٌ وثيق . وان كانت طرأت في ازمنة قديمة جدًا فجمعتها زيادةً للايضاح وهي : ان روميلوس الذي حنكته الحروب وهو المدعو بابن مارس (اله الحرب) شاد رومية التي اسكنها من اناس مؤلفين من رعاة وعبيد ولصوص توافدوا عليها يتخذونها ملاذًا لان بابها مفتوح للواردين واتى اليها اناس غيرهم لهم سمعة بالفضل والنسب الخطير . فلذن ذلك اشعرت هذا الشعب الهمجي روح الاقدام على كل شيء بالقوة القسرية حتى انهم اتخذوا نساءهم بغير الواسطة . وبعد ان مضى على ذلك مدة اسس الانتظام وألان عرائكهم بشرائع مقدسة . فباشر ابتداء الدين الذي كان يعتبرهُ اسًّا للمالك وجعلهُ ذا وقار وحظر دخول المذاهب الاجنبية والذبائح التي لم يعاودها الرومانيون ثم خولفت هذه الشريعة التي كان صارفًا جل العناية في حفظها الَّا انهم ابقوا منها شيئًا وتخيروا من الشعب اعظمهُ ليؤلف مجلسًا عامًا دعاهُ مجلس الندوة والفهُ من ثلثماية من الاعيان الذين زادوا فيما بعدُ عددًا . ومنهم خرجت العائلات الشريفة وما بقي كان سوقةً اوشعبًا وكان على مجلس الندوة ان يبحث عن الاشغال ويعرضها لدى الشعب . وكان يبت بعضها مع الملوك الَّا ان اعمها كان يبرزه لدى الشعب فيصدّق عليه . وبينما كان روميلوس في محفل طرأت ثورةٌ على عجل فتسابق اليهِ الشعب وقطعوهُ اربًا لانهم وجدوهُ ناهيًا باوامرهِ . ومن ذاك بدأَ الاستقلال في تلك العصابة وشاع النبأ وقتئذٍ ان الآلهة اختطفت روميلوس الى السماء قصد ان تخمد نيران غضب الشعب الذي كان يحب ملكه وان يكون لذكرهِ في المدينة مقامًا ساميًا . فشاد الرومانيون له مذابح . ثم ان نوما بومبيلوس اكمل تثقيف عوائدهم وسجاياهم وتنظيم الدين غير مغيرٍ شيئًا من

الاساس الذي اقامه روميلوس وذلك بعد ان خمدت نار الفتنة واستتبّ السلام . وسنّ تولوس هوستيليوس شرائع ثقيلة للنظامات العسكرية والحربية واضاف اليه خلفه انكوس مارتيس احتفالات مقدسة املاً بان تصير العسكرية مباركةً ومقدسةً واوصل بعده تركوين القديم عدد الاعيان في مجلس الندوة الى ثلثماية . وما ذاك الاّ ليكون له بهِ خصيصة وبقوا على هذا العدد اجيالاً عديدة ثم باشر الاشغال الشاقة التي كانت آيلة الى الراحة العامة

ونوى سرفيوس توليوس على تاسيس جمهورية يترأسها حاكمان يخيرهما الشعب جازماً ان رياستهما لاتتجاوز اكثر من عام . ونُسخت الملوكية بغضة بتاركيوس الجبار وفوج اللذين حاولوا ان يقيموها مرةً اخرى مقذوفين باللعنات الوخيمة وآلى الشعب على نفسه انه لابدّ من ان يستمر على حربته واشار الى ذكره بروتوس المؤرخ وتبع بهذا التغيير كتابات سرفيوس توليوس . فكان القنصلان اللذان تخيرهما الشعب ان يكونا من زمرة الشرفاء يساويان الملوك بالسلطة الاّ انهما كانا يتداولانها ملياً ويتغيّران كل عام .

فاصطفي لهذا المنصب السنيع كلوتينوس وبروتوس لانهما كانا مشتركين في الحربية وان يكن الاول منهما قريباً للكراس التي سبب موتها هذا التغيير وانه كان يتصدّى اكثر من غيره للانتقام من الاهانة التي تأذّت بها فلدن ذلك وقعت عليه الشبهة انه كان من العائلة الملوكية فطرد واقيم بمثابته فاليريوس بعد اياوه من غزوة انفذ بها وطنه من الفيانتين والاتروسيين الاانه اتهم بانه يرغب في الحكم الجوري لانه بدأ ان يشيد صرحاً شامخاً على قمة اكمة باذخة واذ ذاك لم يكتف بالعدل عن تتميم البناء بل انه بعد ان عاد والشعب بنظرة بعين الرضي والمودة سنّ شريعةً ان الدعاوي لابد من رفعها لدن الاقتضاء الى الشعب الذي يناط بهِ آونة الجزم بالحكم فضعفت هذه السنة بدأة بدء سلطة القناصل واتسعت حقوق الشعب . وبسبب الاقتسارات التي كان الاغنياء يعتسون بها الفقراء لتحصيل الديون ثار الشعب على القناصل والمجلس ولاذ بجبل افنتين . وكان مدار هذه المجاهرات نوال الحرية الاّ ان الشعب الروماني لم يعتبرانه حرٌّ طالما لم يكن له وسائل شرعية يقاوم بها المجلس فالجأهم الامران يقيموا وكلاء مدعين يذودون عن حقوقهم فيساجلون القناصل بالمناواة او الاستئناف فاما هؤلاء القضاة فرغبةً في ان تكون لهم السلطة كانوا دائماً يضرمون نيران الشقاق بين القناصل والشعب الذي

كانوا يصانعون القوم بقولهم لهم ان اراضي البلدان المفتوحة والثمن الذي أُدي عنها لابدَّ من تجزئتهِ بين السكان ولم ينفأ المجلس يقاوم هذه الآراء الآيلة الى دثار المملكة لانه كان مزمعًا ان يضع ثمن الارض في الخزينة الوطنية . وكثيرًا ما كان الشعب ينقاد بمشورة وكلائهِ الباثّين روح الشقاق الاَّ انه كان ذا انصاف متعجبًا من فضل الرجال الذين كانوا يناقضونه . والعلة التي كانت تقوم بتخميد هذه الثورات حروب متواصلة خارج بلادهم فهذه الحروب كانت تمنع سير الشقاق الى حدٍّ يسيء العاقبة وفي اثناء ما كان الرومانيون فائزين بحروبهم وموسعين خطوات فتوحاتهم دب الحسد والضغينة فيهم وبعد ان سئم الحزبان مرّ هذا الشقاق الذي كان يوعد المملكة بالخراب اتفقا على ان يسنا شرائع ايلة الى راحتها والى تابيد المساواة اللازمة في كل مدينة حرة وكان كل منهما يدَّعي ان هذه الشرائع منوطةٌ به فزاد اذ ذاك الحسد بهذا الادعاء وصمموا براي عام النية على ان يبعثوا سفراء الى اليونان للاطلاع على شرائعهم ولا سيما شرائع سولون المتعارفة لدى الشعب كثيرًا ووضعوا اذ ذاك شرائع الاثني عشر لوحًا الا ان الدسمفيراي القضاة العشرة الذي نصوا هذه الشرائع نزعوا من وظائفهم لانهم تجاوزوا الحد باستعمالهم السلطة . وبينما كانت الراحة ممتنبة وكانت القرائن تدل على ان تلك السنة العادلة توطد الى الابد الراحة العامة احتدمت نار الشقاق بسبب ادعاء الشعب بمنصب القنصلية المنوطة الى ذاك الحين بالعزوة الاولى فاباحت الشريعة للسوقة ان يتقلدوا مناصب كهذه الا ان اعضاء مجلس الندوة اثروا على ان يقيموا ثلاثة حكام حديثين يعطون سلطة القناصل ويدعون تربيان على ان يقلدوهم شرف القنصلية . فقبل الشعب بهذه الرتبة الجديدة واذ اكتفى بنوال حقوقه استعمل فوزه بقناعة واستمر على ان يسلم الامرية الى الشرفاء وبعد منازعات طويلة ابوا الى القنصلية واشترك الحزبان مع تواتر الايام بهذه المناصب وان يكن الشرفاء لهم الامتيازات الكبرى بالانتخابات واستمرت الحروب متواصلة اياماً مديدة . واما الرومانيون الظافرون القاطنون في سفح جبال الب ففازوا بعد تاجيج الحرب مدة خمسماية سنة باعدائهم الالداء وكل ايطاليا

ولدن ذلك ابتدأت الحروب القرطجنية وتعاظمت الاحوال حتى ان كلاًّ من الشعبين ظن ان لاوجود له الاَّ بهلاك خصمه واوشكت رومية ان تنقهر الا انها لم تجزع بل لبثت في ساحة العزم وحكمة مجلسها فتكلل خيرًا صبر الرومانيين باكليل الفوز وتكلل

انيبال وقهر قرطجنة سيبيون الافريقي وانبسطت احكام رومية الظافرة مدة مابقي سنة برًا وبحرًا ورضخ العالم كله لسطوتها . وفي تلك الايام اي منذ خراب قرطجنة اخذ الطامع من الناس يطلبون الوظائف التي زادت عددًا وقيمةً غير فاكرين الا بامالة الشعب مصانعينهم وبذلك تعكس الاتفاق الذي قد ابرم بين الفريقين مدة خراب قرطجنة فان الكراكيين كانوا علة ذلك الاضطراب ومطاليبهم باكورة كل الحروب الداخلية . ومنذ ذاك الوقت اخذ الناس يحملون سلاحًا ويستخدمون القوة الجبرية وكان كلٌ يجهد في ان ينال فوزًا بخصمه بطريقة شرعية وحرية الاراء الا ان حكمة مجلس الندوة والحروب العظيمة التي طرأت اخمدت نيران الخصومة . فماريوس الباسل الذي كان من السوقة اثار الشعب بفصاحة جندية وهيجهم بخطبهِ التي كان يقاوي بها الشرفاء وبذلك ارتقى الى اسمى المراتب واماسولا الذي كان من الشرفاء فقد تراس على الحزب المنافض واصبح ماريوس يرنو اليه بعين القلى والحسد . واخذت حينئذٍ المكايد والرشوة تستولي على رومية . وان حب الوطن واحترام الشرائع لم يعادلها امرٌ . وفضلاً على ذلك فان حروب اسيا علمت الرومانيين التبرج والطمع في الحصول على المال . ولدن ذلك اخذ قادة الجيوش يستميلون اليهم مودة الجنود الذين لم يكونوا من قبل ذلك يودون لهم تكرمة الا لكونهم متقلدين السلطة العامة

واما سيلا فقد غادر عساكرهُ يتمولون في الحرب التي شبت بينهُ وبين متريدات ملك البونت وما ذلك الا ليسترضيهم . واما ماريوس فقد كان يعد معاضديهِ انهُ يقسم بينهم الدراهم والارض فبذلك اصبحا كلاهما مالكين زمام جنودهما . فادَّعى الاول انهُ يريد ان ياخذ بيد مجلس الندوة والاخر ان يقوم بناصر الشعب فاضطرمت بينهما حرب هائلة داخل المدينة فحل في اعوان ماريوس واعوانه الويل والثبار واكتسب سيلا السلطة المطلقة ملقبًا باسم ديكتاتور . فقتل من الشعب عددًا عظيمًا وعاملهم قولاً وفعلاً معاملةً شديدة حتى في الاجتماعات الرسمية . ولما نال معظم السلطة وثبت اعظم ثباتًا استعزل وآب بارادتهِ الى درجة السوقة بعد ان ابان ان الشعب الروماني يكن لهُ ان يحتمل سيدًا

اما بومبيوس الذي كان سيلا قد اسمى مقامهُ فقد استخدم قسمًا عظيمًا من سلطته لكنهُ كان يداهن تارة الشعب وطورًا مجلس الندوة أملًا ان يبقى ثابتًا في منصبهِ . انما

ميله وغرضه الذاتي رنطاه بالحزب الاخير. واذ ظهر على القرصان والاسبانيوليين والمشرق باسره اصبح عظيم السلطة في الجمهورية ولاسيما في مجلس الندوة لكنما قيصر الذي اراد ان يكون له مساويًا انحاز الى الشعب. واذ كان يتعدي بتقليده الوظيفة القنصلية بمحامي الشعب العاصي عرض لدى المجلس شرعية تقسيم الاراضي وشرائع اخرى تقرّ بها عيون السوقة. وافتتاح غاليا اسماه الى درجات شاهقة من السؤدد والسلطة فاجتمع هو وبومبوس لمقاصد ذاتية ثم افترقا بحسد دب بينهما

ولدن ذلك تأججت نيران الحرب الداخلية فظنّ بومبوس ان اسمه يمكن له وحده ان يذبّ عن حزبه فتهوّر الى وهدات الخمول. واما قيصر البصير بصبه التدمير فقد نال لواء النصر واستولى على الدولة الرومانية. ثم اخذ يختبر الامور ليرى هل يستطيع الرومانيون ان يعاودوا الحكم الملوكي فحداهُ هذا الاختبار الى ان يكون ممقوتًا لدى الامة. واخذ المجلس يمنحهُ انعامًا لم يؤتها احدٌ من قبلهِ. وما ذلك الاّ ليزيد بغضة الشعب له ولم يلبث ان اماتوه داخل المجلس متخذينهُ ملكًا جائرًا وقد كان لقيصر اذ ذاك من الاجل تسعة عشر عامًا فتحيّن الوقت ليثأر اباه ويجلس على عرشهِ خليفةً له وما برح يكدُّ حتى اتخذ آل بيته اعداءه ومنازعيه حبًّا بتتميم مقاصده الخاصة. فاصطفّت جنود ابيه تحت لوائهِ رغبةً في الانعام والهبات التي منّ بها عليهم. ولدن ذلك قدمت السلطة عن مجلس الندوة فاخذ كلٌّ يستحصل حقهُ بالقوة وبالعسكر والجنود الذين كانوا يخدمون من يزيد في انعامهم فبهذه الحال السيئة بادت سلطة هؤلاء الرجال الثلاثة طالما كان في رومية اقوياء يقاومون العتوّ والجور. ثم ظهر قيصر وانطونيوس على بروتوس وكاسيوس فبادت معها الحرية فهذان الظافران اهلكا بيدبوس الواهن وابرما بينهما اتحادًا واجتزءا المملكة بينهما مرارًا. وبما ان قيصر كان متناهيًا في المهارة عثر على وسيلة تمكنه من الحصول على القسم الاوفر واحاز اليه رومية ففاق بذلك خصمه. اما انطونيوس فقد جهد في ان يعزز سلطته لكنما ذلك كان عبثًا لان فوز قيصر باكسياك حرّك كل المملكة لتكون تحت سلطته. ولما اخذ العياء من رومية كل ماخذ بسبب كثرة الحروب المدنية التزمت ان تنبذ الحرية جانبًا املاً بالراحة

ولما نالت سراة القياصرة مامورية الجنود تحت اسم امبراطور قبضت على زمام

السلطة المطلقة . واما رومية فكانت في عهد القياصرة مجتهدة بان تحرس ذاتها غير مبالية بتوسيع تخومها . ولم تقم بغزوة الآ لتدرأ عنها البرابرة الذين ارادوا الدخول الى المملكة

ولكن موت غاليلاً اوشك مجلس الندوة ان يرجع الحرية والسلطة القنصلية لولم يصح رجال الحرب الذين ارادوا ان يكون عليهم رئيساً مستمراً يقلدونه عليهم السيادة . واذ عنابرون وعثا في الارض جائراً ثار المرثوسون وتخير كلٌ من المحاربين وازعاً وعلمت رجال الحرب ان تقليد الولاء منوطاً بهم فباعوا السلطة جهاراً من يؤدي لهم عنها ثمناً باهظاً وتعودوا ان يخلعوا عنهم رداء الطاعة فباد بذلك النظام معها واصبح جهد الملوك الفاضلون في رعايته عبثاً فان رغبتهم في ابقاء نظام الجندي الروماني القديم حملتهم على ان يحدق بهم الجنود يعيبون الشحناء والقلى . ولكن تغيير الملوك كان كل جيش يجهد في ان يعطي له ملكاً فيجم حينئذٍ حروب مدنية ومذابح هائلة ولهذا ارتخت اعصاب المملكة ونظام الجنود . فبهذه الانقلابات قلت هيبة الجيش الروماني وعظمته فنهض البرث من ناحية المشرق باسم الفرس الذين تنكلوا في ما سلف مراراً جمة ومن ناحية الشمال امم كثيرة كانت قاطنة اراضي باردة جدباء حملتها غلظة اراضي الدولة الرومانية على ان تكرّ عليها وعزم الجميع على الدخول اليها مراراً . وعلى هذا لم يكن رجلٌ واحدٌ كافياً لان يحمل على عاتقه مملكة كهذه شاسعة مهجوماً عليها من الجهات كلها . فالحروب المتواصلة ورغبة العساكر في ان يترأس عليهم قياصرة وملوك كانت بواعث تنكيلهم . وبما ان المملكة كانت احكامها ارثية تكاثرت الملوك طبعاً بتكاثر اولادهم . فماركوس اورليوس شارك اخاه بالولاء ونصّب سفاريوس ابنيه ملوكاً والجأت الضرورة ديوقليسيانوس ان يقسم الغرب والشرق بينه وبين مكسيميانوس . ولما رأى كلٌ منهما ان الاشغال اضنكته تخير له قيصراً . وبسبب تكاثر عدد الملوك والقياصرة اصبحت الدولة مضنوكة بنفقات باهظة فاجتزأت اذ ذاك المملكة وكثرت الحروب المدنية ثم قسم قسطنطين بن كلوروس المملكة ميراثاً بين اولادهِ واقتفت ذريته آثاره من بعدهِ ولم يبقَ بعد ذلك ملك ستاثر وحدهُ بالولاء

ان رخاوة اونوريوس وفالانتينيانوس الثالث كانت باعثاً كبيراً على ابادة مملكة الغرب فنهب البرابرة مراراً جمة ايطاليا ورومية واصبحت المدائن فيها فريسة لهم . فوقع

الغرب حينئذٍ في وهدة الاهمال فاستولى الفندال على افريقية والوزيقوط على اسبانيا والفرنسيس على غاليا والساكسون على بريطانيا الكبرى والهارول على رومية برمتها ثم فتحها الوستروغوط فتوارى الملوك الرومانيون في الشرق وغادروا ايطاليا ورومية فريسة البرابرة . بيد ان المملكة الرومانية آبت الى ما كانت عليه من الباس والشدة في ايام يوستنيانوس بسبب شجاعة بالبزارونارسيس . فرومية بعد ما اخذت مراتٍ عديدة مكثت منوطة بالمملكة الرومانية . الآان الشراقصة لما رأوا ما فيها من الشقاق وما في ملوكها من التواني ظفروا بها وسلبوها اعظم جزءٍ في الشرق واذاقوها في هذه الناحية عذابًا مبرّحًا حتى انهم لم يعودوا يفتكرون بايطاليا ولهذا استولى اللومبارديون على المحال الاكثر بهاء ونضارةً في ايطاليا . فلما اصبحت رومية في ضيقةٍ عظيمة لكثرة تعدياتهم المتواصلة ولم يدافع عنها ملوكها التجأت الى الافرنسيس طالبة الاستغاثة منهم فاجتاز بابان ملك فرنسا جبال الالب وقهر اللومبارديين وبعد ما درس كارلوس الكبير رسوم سلطتهم تبوأ عرش ايطاليا اذ قناعته ابتت بقايا يسيرة لخلفاء القياصرة . وفي السنة الثماني والمئة بعد المسيح انتخبه الرومانيون ملكًا واسس ثانيةً المملكة الرومانية . فاصبحت بعد هذا معرفة علل سمو رومية وسقوطها امرًا سهل الادراك فترى هذه المملكة الناشئة لاحتدام الحروب والموهبة للاعتداء على جيرانها دوخت جميع انطار العالم لانها اتصلت بالسياسة وفن الحرب الى اسمى درجة ثم انك ترى علل انشقاق الجمهورية ثم علل هبوطها التي جلها حسد اهالي الوطن ومحبة الحرية التي اخترقت الحدود . فلم يعد يشق عليك ان تميز جميع ازمنة رومية ان كنت تشاء ان تلاحظها بذاتها او بالنظر الى سائر الشعوب فترى حينئذٍ التقلبات التي هي مزمعة ان تصدر عن ادارة الاشغال في كل زمان . فاذا لاحظتها بالنظر الى ذاتها تراها اولاً في حالة ملوكية مرتبة حسب الشرائع الاولى خاضعة للحكم الجمهوري عنوةً فيسهل عليك معرفة نظام الحالة الجمهورية ثم معرفة البداءة التي كانت لها في زمان سلطة الملوك ولا ترى باقل وضوح كيف كان ركن السلطة الملوكية الجديدة يتثبت في زمان الحرية لانه كما انك فهمت ان ابتداء المشيئة ومقاصدها نشأا في ملك سرفيوس توليوس الذي هو اول من اذاق الرومانيين طعم الحرية كذلك شعرت ان حكم سيلا الجوري وان يكن موقوتًا وقصيرًا يوضح ان رومية وان كانت شديدة الحنق وانة قادرة ان ترضخ تحت نير العبودية كالشعوب الذين استولت

عليهم

ورجاء ان تتفهم الباعث على هذا الحد القطيع عليك ان تنظر في الزمنين اللذين عونتهما لك بنوع خاص. وذلك ان احدهما وقت ان كان الشعب مفيداً في حدود بسبب المخاطر التي كانت تكتنفه من كل الانحاء والاخر اذ لم يكن يخشى من امر خارجي فارخى العنان لشهواته. فالمميز الجوهري بين هذين الزمنين هو ان في الاول محبة الوطن والشرائع كانت تقيد الافكار وفي الثاني كل شيء كان يتم بالغرض النفسي والقوة الجبرية. فمن ذلك ينجم ان في الزمان الاول منهما رجال الامر الذين يتسلقون اعالي المناصب بوسائل شرعية كانوا يقيدون الجنود في رعاية النظام ويبقونهم متعلقين بالجمهورية واما في الزمان الاخير يوم كان الاغتصاب يسود على كل شي فما كانوا يفتكرون الاّ بمداراة الجنود لكي يشركوهم في مقاصدهم رغماً عن سلطة مجلس الندوة . فبسبب هذه الحالة الاخيرة التظت نيران الحرب ضرورةً في رومية وبواسطة المهارة بشان ذلك اصبحت السلطة بيد رئيس واحد. انما متى تتم الاشياء بالقوة تصبح الشرائع خالية من القوة. والجور وحده يتكفل بصنع كل امر واصبح اشد الناس سائداً عليهم وقصارى الامر ان السلطة اصبحت في يد رجل واحد

وهكذا كانت الاشياء في رومية تترتب بذاتها حتى ان بوليب المورخ الذي عمر في زمان الجمهورية المتناهية في الزهو علم من مجرد نظره في الامور ان الدولة الرومانية لاتلبث برهة الاّ تعود الى الحالة الملوكية وبسبب هذا الانقلاب لاتخمد جذوة الشقاق بين مناصب الجمهورية الاّ بسلطة مطلقة ومن جهة اخرى ان الحربية كانت مموقة جداً في رومية حتى لم يستخدموا الاغتصاب والاكراه حباً بها فاقتضى الامر ان يوهنوها رويداً رويداً بحيل متنوعة الى ان ياتي زمن يبيدونها فيه بالقوة جهاراً فالخداع يبدا حسب قول ارسطو بمداهنة الشعب ثم بالظلم والجور لكنهما هبطوا في ورطة اخرى لابد منها بسبب رجال الحرب ولا محيص من هذا الشر الناجم من هذه الحالة

فلا ريب ان هذه المملكة التي شادها القياصرة كثر فيها السلاح ولهذا اقتضى ان تكون كلها حربية فتنظمت ولقبت بالامبراطورية وهي من الالقاب التي يتقلدها قادة الجيوش وامراء العساكر. وبهذا يتبين لديك انه كما كان الحسد يدب في الجمهورية بين الشعب والشرفاء كذلك كان في مملكة القياصرة داء يسري في اعضائها وهو قباحة

جنودها الذين كانوا بواعث على اجلاس كل قيصر على السدة الملوكية اذ كان من المستحيل ان رجال الحرب الذين غيروا الملك واقاموا بدلاً منه ملوكاً يستمرون زمناً مديداً غير فاكرين انهم هم القابضون على زمام الولاة ولذلك يتصرفون به كيف يرومون . ويمكن لك ان تلحق بالازمنة التي شعرت بها ما تدل على حالة الجندية وانقلابها وتبصر في الزمان الذي كانت فيه راضخةً لمجلس الندوة والشعب الروماني والى الزمان الذي تعلقت بقادتها والابن الذي فيه استدرجتهم الى مدارج السلطة المطلقة تحت القاب امبراطورين ثم الى الحين الذي فيه كان الملوك بايديها ترفع مكاناتهم وتحطها كما تشاء . فينجم من ذلك لديك الارتخاء والتمرد والحروب التي أُنبثت عنها وابادة الجنود والدولة الرومانية باسرها . فمن هي الازمنة الاخيرة الشهيرة التي تدلنا على تغير الدولة الرومانية بذاتها واما الازمنة التي تنبئها عن حالتها بالنظر الى سائر الشعوب فلا يصعب علينا امتيازها انما يقضي علينا ان ننظر في الزمان الذي كانت فيه تجاهد نظيراتها وهي معرضة للاخطار . وقد استمر ذلك اكثر من خمسماية سنة وانتهى بدثار الغوليين في ايطاليا ودمار دولة قرطجنة . وفي الزمان الذي اضرمت فيه حروباً هائلة فانها كانت وقتئذٍ اشد وغير معرضةٍ للاخطار واستمر ذلك مابين سنة الى ان تشيدت دولة القياصرة . وفي الزمان الذي فيه كانت حريصةً على شوكتها وعظمتها . واستمر اربعماية سنة وانتهى في عهد ثيودوسيوس الكبير . ثم في الزمان الذي فيه دثرت من كل ناحية وهبطت روبداً وهذه الحالة استمرت اربعماية سنة فكان ابتداؤها في عهد اولاد ثيودوسيوس الكبير وانتهاؤها في حكم كارلوس العظيم

ولست بجاهلٍ ياسيدي ان قد يمكن اضافة حوادث خاصة الى علل دثار رومية كجور الدائن على المديون فان بذلك ثوراتٍ عظيمة . وان كثرة السائبين والعبيد الذين افعموا رومية وايطاليا سبب هيجاناً عظيماً وحروباً دموية . فاذا اوهنت هذه الحروب الداخلية والخارجية قوى رومية شرعت تدخل الغرباء بين اهليها سواءٌ كان بالاكراه او بطيبة الخاطر ومن كثرتهم تعسر عليها ان تعرف نفسها . وغص مجلس الندوة بالبرابرة ولهذا اخذ دم الرومانيين يمتزج بغيرهِ . وان حب الوطن الذي بواسطته ارتفعت رومية فوق كل الشعوب لم يكن طبيعياً باولئك الذين توافدوا اليها من الخارج ودب الفساد في اولادها بسبب هذا الاختلاط وكثرة المحبة بتكاثر الوطنيين الحديثين وعكف ذوي

الفتنة على وسائل ليباشروا اعمالاً تبلبل الافكار

وفي الوقت نفسه تعاظم عدد ذوي المسكنة والحاجة لكثرة البذخ والرذائل والكمل الذي نظموه في سلك العادات . واما الذين كانوا في اسوإ حال لم يكونوا يجدون وسائل تمكنهم من امر معاشهم الا القيام بالثورات غير عائبين بخراب يناتي على الكون بعدهم وذلك ماحمل كتيسلينا على الاثارة قصد دثار رومية . فمن داب المطاميع الصعاليك الذين لايخشون من فقدان شيء اثناء الرزايا ان يودوا الانقلاب واستظهر هذان النوعان من السكان في رومية واصبح اصحاب الحالة الوسطى الذين كانوا يعدلون الامور اضعف قسم فيها ولهذا اقتضى ان يسقط الحكم الجمهوري

ويمكن لنا ان نضيف على ذلك مهارةً خاصة في الاشخاص فانهم سببوا حوادث عظيمة وهم الكراك وماريوس وسيلا وبمبوس وجوليوس قيصر وانطونيوس واغسطوس ولقد نوهت ببعضها انما كان جل اعتنائي ان ابين لك علل الشرور العامة اي الحسد بين المرتبتين وهو وحده كانت معرفته تهمك ونتائجه خطيرة لديك

الفصل الثامن

خلاصة الخطاب الآنف وبها يضح ان كل شيء معاده الى فعل العناية الالهية

تذكر ياسيدي ان وثاق العلل الخاصة التي تقيم المالك وتبيدها مناط بامر العناية الالهية السرية فان الله قابض من اسمى السماء على ازمّة المالك وبيده قلوب البشر قاطبةً فاونةً يكبح الشهوات وطورًا يطلق لها الاعنة وبهذا يحرك كل الجنس البشري . ايود ان يقيم فاتحين . فانه يبعث بالخوف امامهم ويلقي في قلوبهم وقلوب جنودهم جرأة تنوّلهم ذلك . ايودّ ان يقيم قضاةً . فانه يبعث اليهم بحكمة خارقة وبصيرة وقّادة ويجعلهم يستدركون الشرور التي تتوعد المملكة ويوطدون اركان الراحة العامة فانه يعلم ان الحكمة البشرية قاصرةٌ من وجهٍ فينيرها ويمد بافكارها ثم يغادرها وجهلها فيعميها ويطرحها ويرذلها بذاتها فتتلبك بتصوراتها الخاصة ويصبح احتراسها احبولة لها ويتقدم بهذه الوسيلة احكامه الهائلة حسب قواعد عدله الصائبة وهو نفسه يعدّ المعلولات

بالعلل البعيدة وهو سبب هذه الضربات العظيمة التي عن بعدٍ تبدو مفاعيلها ومتى شاء
ان يضرب الضربة الاخيرة ويبيد الممالك تنهوش الآراء وتهن القوة . فان مصر التي
كانت في آنف الزمان حكيمةً كانت تسير متشامخة خيلاء ومتجبرة بكل امورها فان
الله اذاع روح الدُوار في ارائها فلم تدرك ما تصنع فهلكت . فلا تدخلنّ الخديعة قلب
بشريٍّ . فان الله يهدي من ضلّ ومن يفتخر بضلال غيره يهوي الى وهدة مدلهمة .
وليس يلزم لخداع عقلهِ الاسعادته الفسيحة وبذلك يحكم الله على كل الشعوب فلا نفوهنّ
عن البخت والنصيب . بل اذا تكلمنا عنهما فليكن ذلك ذريعةً الى ستر جهلنا . وان
ما نعدّه فعل الصدفة بالنظر الى آرائنا غير الوثيقة ثمرهُ حكمة سامية وهي العناية
الازلية التي تتضمن كل العلل والمعلولات بنظام واحد ورتبة واحدة . وعلى هذا فكل
شيء آيلٌ الى غاية واحدة واننا لعدم فهمنا كل شيء نجد الصدفة او عدم الترتيب
في الحوادث الخاصة

وبهذا يتحقق ما قاله الرسول وهو ان الله سعيد وهو وحده مستطيعٌ كل شيء
وهو ملك الملوك وربُّ الارباب . فطوبى له فان راحته غير قلقة ولن تقلق يرى كل
شيء متغيرًا وهو ثابت يغير الاشياء بعناية لا تتغير وهو وحده يهب السلطة وينزعها
وينقلها من رجلٍ الى آخر ومن بيتٍ الى بيت ومن شعبٍ الى شعبٍ وما ذلك الاّ
ليبين انها لم تكن لمن تسلط الاّ على سبيل العارية وبه وحده تقوم الطبائع وبذلك يشعر
الملوك انهم راضخون لسلطة اسمى من سلطتهم فانهم يصنعون الاشياء بزيادة ترو او باقل
فتتمكن ارادتهم من مفاعيل لم يستدركوها من قبل ولا يمكن لهم ان يتمكنوا من النظام
الذي قامت به الاجيال الفارطة في الاعمال ولا يمكنهم ان يستدركوا مجرى الاحوال
مستقبلاً ولا من قسر الامور لتتم حسب معرفتهم فهو وحده قابضٌ على كل شيء
بيده ويعرف اسماء ما وجد وما لم يوجد وهو الحاكم وحده في كل الازمنة ويسبق فيعرف
كل المآرب والآراء

فان اسكندر لم يخالج فكره ان كل اعماله ستاول الى جداء قادته وان افتتاحاته
تسبب دثار بيته ولم يكن بريتوس بعالم ان كان يلقي في قلوب الشعب الروماني محبة
الحرية الفائقة بانه يلقي في الافكار مبدأ هذه الجرأة العظيمة الذي به يضحي الظلم الراغب
الله في ان يبيده اشد مما كان في عهد التاركينيين. ولم يكن من داب القياصرة بمداهنة

جنودهم ان يصيروا مستولين على المملكة وخلفائهم وقصارى الامر ان ليست سلطة بشرية الا تخدم كرهًا لمقاصد غير مقاصدها والله وحده يصنع مايشاء ولهذا اذا تعمدنا الاشياء الخاصة يتبين لنا ان كل شيء عجيب. ومع ذلك فان الامور تتواتر بتسلسل ويبين لك ذلك خطابنا هذا. ويكفيك غير مكررين ما فهنا به عن غير ممالك. ان تنظر في تسلسل الحوادث التي طرأت في الدولة الرومانية وحدها من عهد روميلوس الى عهد كارلوس الكبير . ولربما تخال اني اود اطالة الكلام عن شعب فرنسا وكارلوس الكبير الذي شاد المملكة الرومانية الجديدة . ففضلاً على ان تاريخ كارلوس الكبير قسم من تاريخ فرنسا الذي باشرت تاليفه انت نفسك وقد تقدمت فيه كثيرًا فاني ابقي ذلك الى تاريخ آخر اقوم بتاليفه اذ به اكون مقسورًا على ان اتكلم عن فرنسا وعن هذا المظفر الذي ضارع بيسالتو كل الذين اشتهروا في الاجيال الدابره بل قد فاقهم بتقواه وحكمته وعدلهِ ويظهر لك ذلك على فاتحين آخرين وان هذه المملكة التي نشات قبل كارلوس بمايتي سنة نرى لها في خطابي محلاً ابسط فيه كلامًا عنها وقد ظننت ان من الخليق ان ابدي لك بتسلسل واحد ابتداءهُ وانحطاطهُ . وعليه فلم يبق شيء اتكلم عنه في القسم الاول من التاريخ العام فوقفت الان على اسراره واصبحت ملاحظات تسلسل الديانه والممالك العظيم حتى كارلوس العظيم منوطة بعهدتك فانك تراها منحطة بذاتها والديانة قائمة بقوتها الخاصة وتعلم حينئذٍ ما هي العظمة الثابتة وعلى اي اس بنى الرجل الحكيم آماله

تمّ



اصلاح غلط

ان تغيب مترجم هذا الكتاب ومعربه وسائر اعضاء الدائرة العلمية عن بيروت وقت طباعته لعطلة مدرسة الحكمة اوقع اغلاطًا كثيرة فيه اوجبت عمل فهرستها هذا والحاقه بهذه الترجمة

وجه	سطر	خطا	صواب
٠١١	١٩	تسالية	ترحالة
٠٠٠	٣٣	كادموس	قدموس
٠١٤	١٣	انشاه	النشاءة
٠١٨	٠١	ايام	ايها
٠٠٠	٠٧	احاب	اخاب
٠١٩	١٩	لسيدءون	لسيدءون اي سبرتا
٠٢٠	٢٣	هرقل	هرقواوس وهو ابن المشترى
٠٢١	٠٥	لانهم كانوا يزدادون بها قوة وتهذيبًا	وكانت بلاد اليونان تزداد قوة وتهذيبًا
٠٠٠	١١	يوناس	يونان
٠٢٣	١٦	سيراكيز في جزيرة سيسيليا	سيراكوزا في جزيرة صقلية
٠٠٠	١٨	يونان	اليونان
٠٢٧	٠٦	فاقام قورش ابن اخته مندان قائدًا على جيشه ابن كمبيس ملك الفرس	فاقام قائدًا على جيشه قورش ابن اخته مندان امراة كمبيس ملك الفرس
٠٢٩	٠٣	اعقلها	اعقلهم
٠٣٠	٢١	بل	بابل
٠٣٤	١٦	يهرذا	يهوذا
٠٠٠	٢٦	حافظها	حافظوا

وجه	سطر	خطا	صواب
٠٣٥	١٣	امانوها	امانوها
٠٤٧	١٧	سليكوس . . . السلوسيديين	سلوقوس . . . السلوقيين
٠٦٣	٠٩	فرصت	فرصة
٠٦٣	١٣	خوض ٨٦ المعامع	خوض المعامع سنة ٨٦
٠٦٣	٠٣	العدد	العدو
...	١٣	كانيلا	كاتلينا
٠٦٩	٣٠	لولا ان اغتباق الخمرة وصبابة حملاه	لان اغتباق الخمرة وصبابته لم يحملاه
٠٧٣	١٨	فكاشحه لداسيوس الذي اهرق دمه	فكاشحه داشيوس واهرق دمه
...	٣٠	يدراعنها الملك داس النوائب الدامسة	اما الملك داشيوس الذي كان يقيم بناصر المملكة
...	٣٢	فلم يلهها عن الايقاع بالبيعة سوى موالاتهم للملك	فكانت مدة ملكها يسيرة
٠٧٤	٠٤	سباليوس	سايلبوس
...	٣٣	زنوبا	زينب
٠٧٥	٠٣	السموذاتي	السميساطي
...	٣٣	القديم	القديمة
٠٨٣	٣٣	ارغم ان يكون حاجدًا	ارغم ان بلاين الاراطنة
٠٨٥	٠٦	٣٨٠٦	٣٨٦
...	٠٧	لاتينانوس	والتقنيانوس
...	١١	لنسها	لنفسها
٠٨٦	٠٧	العيب	الغضب والحدة
...	١٤	الفولفاث	الفولفات اي السائرة او العامة
٠٩١	٠٩	البوان توكسان	البون اوكسين اي البحر الاسود

وجه	سطر	خطا	صواب
...	١٢	الانثيوخيين	الاوطاخيين
٠٩٢	٠٧	القدس	القديس
...	١٥	يقال حوستينوس	يقال له يوستينوس
٠٩٨	١٢	الى مصب الفولغا	حيث مصب نهر الفولغا
١٠١	١٠	النابباب	النابيات
١٠٢	٠٧	مارلوس	مرتال
...	١٢	كبروتيم	كبرونيم اي الزبلى
١٠٣	٠٨	مارتاس	مرتال
١١١	١٤	وانه المحرك الاول الذي كان يعرفه	وا لمحرك الاول اللذين كان يعرفها
...	٢٢	الاننا	الان
١١٧	٢٢	الثعباب	الثعبان
١٣١	٠٢	لغتهم السجاف الاولى	لغتهم الاولى السجاف
١٤١	١٢	موسى (الثانية)	سليمن
...	٢٥	الصندل	الارز
١٤٥	٠٢	الشعبوب	الشعوب
١٤٩	٠٢	سلفه	وسلفه
...	١٢	اليهم	اليه
١٥٠	٠٩	لضغب	لغضب
١٥١	٠٥	اسكلون	عسقلون
١٥٩	٠٢	ومغرغا	ومفرغا
١٦٢	١٨	اللاغيديون...والسلاسيديون	اللاغيون...والسلوقيين
١٦٦	٢٦	يونا	يكونا
١٦٧	٣٠	واليونانية	اليونانية
١٦٩	٢٥	يعني وجودها	يعسر وجودها

وجه	سطر	خطا	صواب
١٧١	٢٦	لدن تناضل على الكهنوت التي : . . وتراذوبل	اذ تناضل على الكهنوت الذي . . . هيركان واريستوبل
١٧٤	٠٢	نمريض	ابرآه
. . .	٢٦	لاوزن لماله وينطق به بوزن	لا مقياس لما هو حاصل عليه وينه بمقياس
١٧٦	١٠	والى	الوالي
١٧٩	١٧	غير متناهٍ	غير متساوٍ
١٨١	١٠	بعضه	بغضه
١٨٤	١٥	لا	الا
١٨٩	٢٠	الدين	للدين
١٩٣	١٤	بطرس	بولس
. . .	١٧	الشعيآء	اشعيآء
١٩٥	٢٠	الرسل خلفائهم	الرسل وخلفائهم
١٩٩	١٧	تزوجوا (الثانية)	تزوجن
٢٠١	١٣	تيخوس	طيطوس وكذا بعده
٢٠٥	١٣	التي ترضع	التي لاترضع
٢٠٨	٠٨	الماجيسياني	الساحر
٢٢٥	٠٧	كلمة المالكين	كلمة الصليب عند المالكين
. . .	٠٩	العلاء	العقلاء
٢٢٧	١٥	لباخوس	ليخوس وكذا بعده
٢٣٣	٢٦	ان	انه
٢٣٦	٠٨	سالس	شلسوس
. . .	١٨	انبه الانبياء	اناه الانباء
. . .	٢١	وان رغبت	ومن يرغب
٢٣٧	٠٨	مما	من

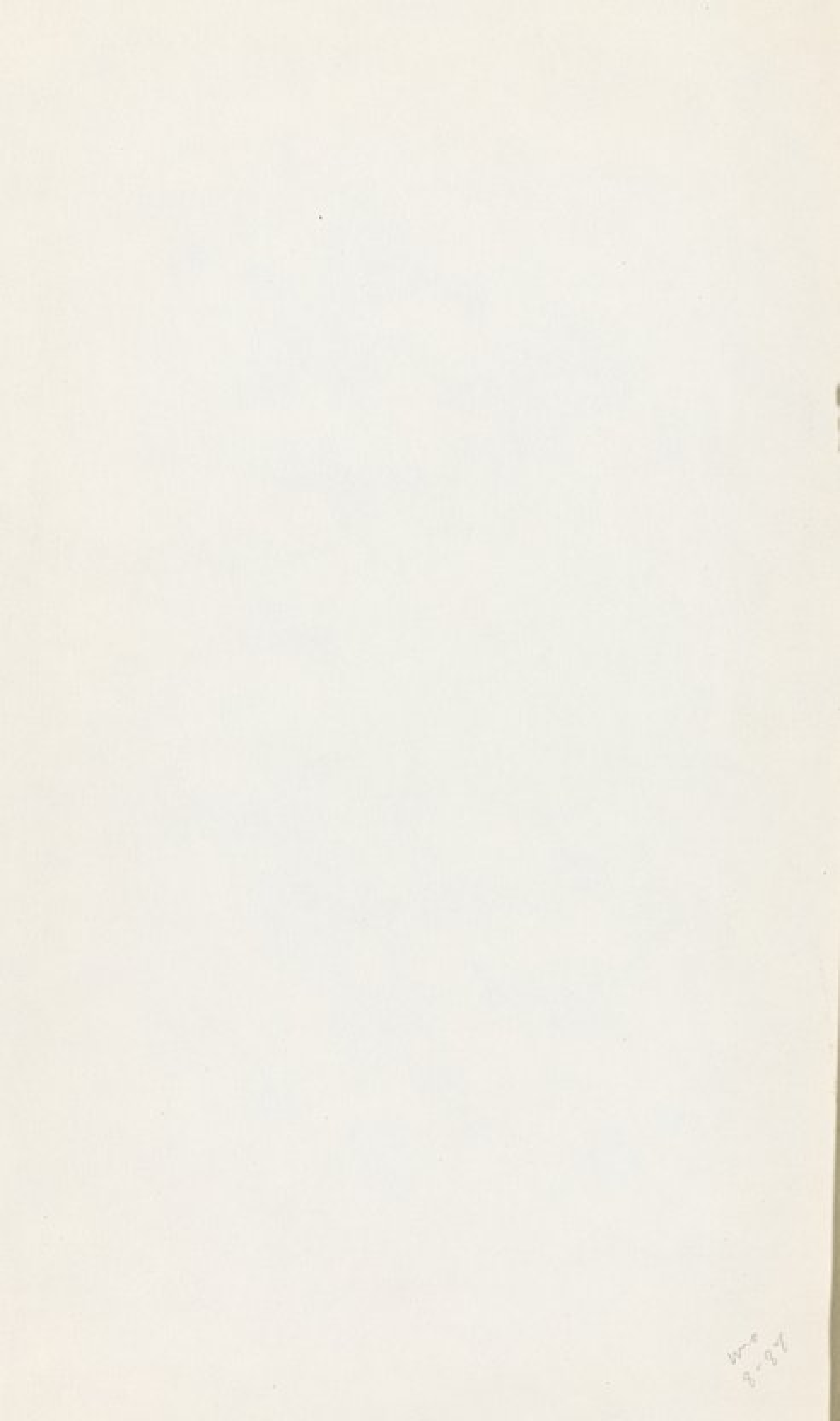
وجه	سطر	خطا	صواب
...	٢٥	موضوع	موضع
٢٣٨	٢١	فقط من	فقط بل من
٢٤٠	٠٣	بها	به
٢٤١	٠٧	المارسيونيت	تباع مرشيون او مرقيون وكذا في محل اخر
...	٠٩	السموذاتي	السميساطي
...	١٤	السبالبون والبوليانيست	السابليون والبولسيون
٢٤٣	٠٣	الاوقاف	الاوقات
٢٤٤	٠٩	السبيل يهمل	كتب السبولات تباد
...	٣٣	لان	وعن
٢٤٥	١٥	الانبياء	الاباء
٢٤٥	٣٣	المحرق	السمرق
٢٤٦	٢٤	مارسيوس ومانس	ماركيون وماني
٢٤٩	١١	صورة المشيد	صورة المذبح المشيد
..	١٣	في الشريعة حبا رب اسرائيل به	في الشريعة التي حبا الرب اسرائيل بها
٣٥٠	٢٠	انها داخلة ضمن الاسفار هكذا معتبرين ان يقتضي ان لايكونوا قد تصفحوها اذ لا يسهل عليهم ان ياتوا بما يضاهيها بان يضمنوها امورا لا يود الملحدون ان يروها فيها ولو منحوا كل ما يطلبونه	انها تقيم جرم الاسفار ولا يلزم الا تصفح هذه الاسفار حتى يسهل لا التكذيب بها بل ايجاد كل ما يكره الملحدون وجوده فيها واذا اسلمنا بكل ما يقولون فيستمر بلا مناص اصل هذه الاسفار الهيا
٣٥٥	٠١	وهل ... كتاب كان	فهل ... كتاب أيا كان

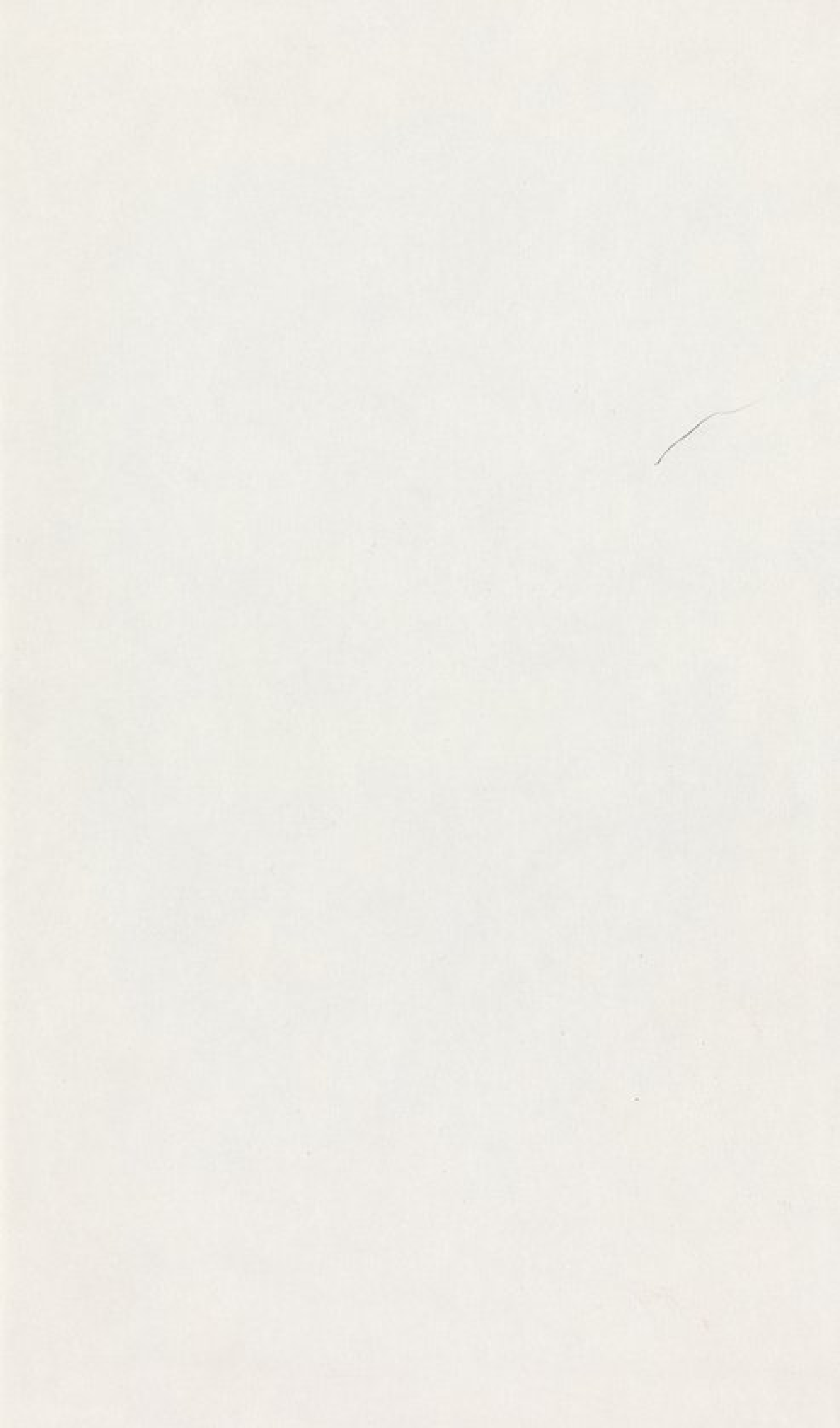
وجه	سطر	خطا	صواب
٢٥٦	٠٣	يعيرها	يعيره
٢٥٨	٠٦	قبل	بعد
٢٦٠	١٥	الكامل	الكاهن
٠٠٠	١٧	ميخا	ميخا
٢٦١	٠١	يوشيا الا	يوشيا ان هو الاَّ
٢٦١	٠٣	الحرب	الرب
٢٦٢	١٢	الا بان يعرضه على شهادة الحواس	من ان يجعله عرضة لشهادة الحواس
٢٦٤	٠٢	انذر بالسماء . . . الاجتهاد	وعد بالسماء . . . الاضطهاد
٢٦٥	٠٨	فكيف يخدمه ويكرمه	فكيف يانف ان يعلمه طريقة خدمته وعبادته
٢٦٦	٤	عليه	عليها
٠٠٠	١٣	لها	له
٠٠٠	٢٤	يانيه	بنيه
٢٦٩	٠٦	لا تجدي	يجدي
٢٧٠	٠٧	روباهم	روباوه
٢٧٣	١٥	اهاليهم	اهوائهم
٢٧٣	١٧	اهملت	واهملت
٠٠٠	٢٤	ان ذاك هو الذي استدرك	ان الغالب هو من استدرك
٢٧٤	٠١	هي مربحة في النهاية	هي ما جعله رابحًا في النهاية
٠٠٠	٠٨	باخوس وهرقل	بكخوس وهرقلس ابن المشترى
٢٧٥	٠٣	زمان	زمام
٠٠٠	١٦	الرعبة	الرغبة
٢٨٤	٠٨	ان يتدوى	ان موسى يتدوى
٢٨٥	٠٦	زهم	لهم

وجه	سطر	خطا	صواب
٢٨٦	٢٦	لانه البلاد قمع	لانه قمع البلاد
٢٨٧	١٣	واعلنت بكتبات	واعلن بكتابات
...	١٧	اعدت لالاعال	اعدت لاعال
٢٩٠	٠٦	احرزت في المطامع المنوطه بها غالبًا بجنسها ما لا بوجد	احرزت المطامع المنوطه غالبًا بجنسها مع الشجاعة التي لا توجد
٢٩٢	١٧	اللتين	اللذين
٢٩٣	٠١	التعالي	التعامي
...	٠٢	المحذرات	المخدرات
٢٩٥	٢٤	ترنيبهم	تربيتهم
٢٩٦	٢٠	يرتكبون	يرتبكون
٢٩٧	٢٥	الجسديد	الجسدية
٣٠٠	٠٧	الحرية	الحربية
...	٢٢	شعرت . . . خسرانها	شعروا . . . خسرانهم
٣٠١	٠٣	اسرار الساسية	اسرار سياستهم
٣٠٢	٠٦	اللاسير يونيون	اللاسيد يونيون اي السبرتيون
...	١٣	تستمر متمنعت	يستمروا متمنعين
٣٠٧	١١	تزنليف	تيطوس ليفيوس
٣٠٨	٠٤	بجد	بمجد
٣١٠	٠٣	الحركال	الحركات
٣١١	٠٩	بنيا	بينما
...	١٨	في الخبر العام	في الخبر العام اكثر منه
٣١٢	٠٢	معلومًا	محنوظًا
...	٣٠	الذين فازوا بالنصر فان رومية لم يتأس ولم تكن مجزاعًا من ان تاخذ بثارها	الذين انتصر الرومانيون عليهم لكنهم كانوا يأملون الاخذ بثارهم اذ كان

وجه	سطر	خطا	صواب
٣١٤	٠٤	مدينة	مدينة اربسي
٣١٥	٢١	عواصف	عواطف
٣١٨	٠٥	منهمكون	منهمكين
...	٢١	بجوع	بمجموع
٣٢٠	٠٩	تيفيف	تيطوس ليفيوس
٣٢٤	٠٩	انه غير منفصل	انها غير منفصلة
٣٢٥	٠٦	بعض التي	بعض الحوادث التي
٣٢٦	١٩	ينظرة	ينظره
٣٢٧	٠١	اذى	اذّى
٣٢٩	١٣	وقد كان لقيصر اذ	وقد كان لقيصر ابنة اذ ذاك
...	١٤	ذاك حتى اتخذ آل بيته اعداه ومنازعيه حبا بتميم	حتى اتخذ اعداء بيته ومنازعيه مساعد بن على تميم
٣٣١	٠١	القندال ... والوازيقوط	البندالة والوازيقوط اي الغطط الغربيين وبعدها الاسطرغوث اب الغطـط الشرقيون
...	١٣	الثماني والماية	الثمانماية
٣٣٣	٠٣	الباعث	الباعث
٣٣٣	٠٧	تحظها	تحطها
٣٣٤	٠٥	كتسلينا	كاتالينا








VETVS & NOVVM TESTAMENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY



